مفاهيم إسلامية

القومية والغزو الفكري

محمد جلال كشك

الاهداء

الى وليم مكرم عبيد .. القائل :

انا مسلم وطناً .. نصراني ديناً ..

خطبة الكتاب

الحمد لله ..

رضي لنا الاسلام دينا .. وجعلنا به امة وسطا ، شهداء على الناس بالحق .

واختار أرض العرب مهداً لدينه ، ولغتهم حروفاً لقرآنه .. ولساناً لدعوته .. واختار العرب حملة رسالته مبشرين ومنذرين .. ناشرين الحق وحماة للحق .. والله اعلم حيث يجعل رسالاته .

والصلاة والسلام على النبي العربي .. جاء بدين الحق للناس كافة ، وأرسى من مبادىء الحق ما تزال البشرية عطشى إلى تحقيقه .. وجعل من الحفاة العراة رعاة الشاة .. سادة الدنيا وشمس حضارتها طوال قرون عديدة .. حتى إذا نسوا لسانهم وضيعوا دينهم .. مالت شمسهم للغروب .

ورضي الله عن الصحابة الخالدين .. بعزة العرب وبسيوفهم قاتلوا الأسود والأحمر .. ليعلنوا انه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لابن البيضاء على ابن السوداء .. فكل الناس لآدم وآدم من تراب .

فليس من ديننا من يبغض العرب .. ويكيد لهم .. فعزة الاسلام بعزة العرب .. هم « مادة الاسلام » كما قال عمر بن الخطاب .. وما ذل المسلمون إلا يوم ذل العرب .

وليس من العروبة من يتنكر للاسلام ، أو من يفتش عن بعث عربي بغير دين العرب .. فالاسلام هو عزهم .. وهو قوتهم وهو مبرر وجودهم .. قبله لم يكونوا شيئاً وبغيره لا وزن لهم ولا يؤبه بهم .. هو تاريخ وثقافة ومجد وعزة كل عربي مهما يكن دينه .

فمن تنكر للاسلام .. هو في الحقيقة يبغض العروبة .. مهما ادعى ومهما تخفى .
وهذا الحديث الذي نشرته اليوم .. يدور حول هذه القضية : ارتباط العروبة بالاسلام ..

وقد شرحنا خطوط البحث في المقدمة .. ولكن أريد أن اعلق في « خطبة الكتاب » على هذه الملاحظة التي سمعتها من الأصدقاء حول هذه السلسلة عن « الغزو الفكري » فقد لاحظ الأصدقاء أن بكل حلقة منها العديد من الأفكار ، بعضها يغطي دراسة بأكملها .. لو أتيح لها وقفة للشرح والتفصيل .

وأنا أوافق الأصدقاء .. وعذري انني أحس وأرجو أن أكون مخطئاً في احساسي ، أحس بما يشبه ذلك الاحساس الذي أظنه قد ساد المسلمين في الأندلس خلال الأعوام الثمانية التي انقضت بين رفع الصليب على قلعة الحمراء وبين الابادة الشاملة التي طوت أروع صفحة في تاريخ أوروبا .

أحس كما قال ناقد ذكي مرة أنني كمن يكتب في « آخر زاده » أريد أن أقول كل ما عندي .. فإن طال الأجل ، واتسع الأمل عدت اليه بالشرح والتعليل والبرهنة .. وإن كانت الأخرى لقينا الله بقلب مطمئن طامعين في رحمته مستعيذين بعفوه أن نكون من الذين يعذبون بقراءة كتبهم .

ولا يسعني هنا إلا أن أشيد بثلاثة كتب كانت لي خير مرجع خلال دراستي هذه : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، ونقد الفكر القومي لالياس مرقص ، والعرب والترك لتوفيق برو .

وبالله التوفيق ..

محمد جلال كشك

٣ ـ ب بهجت علي ـ بالزمالك
القاهرة

١٤ ـ ذو الحجه ١٣٨٦
٢٥ ـ مارس (آذار) ١٩٦٧

مقدمة

هل تنهار حضارة الغرب .. ؟ ومن الذي يرثها .. ؟ .. ذلك هو السؤال الذي يشغل بال كل الذين ينشغل بالهم بمصير أمتهم .. ويقلق بالهم ، احتمالات هـــذا المصير .. وامكانياته .

أما الذين رضوا من الدنيا بأن يغتبطوا بفوز الولايات المتحدة الامريكيـة في سباق الفضاء .. أو الذين يشغل بالهم تحديد جنسية موظفي الجمارك الذين سيستقبلون رائد الفضاء الامريكي لحظة وصوله إلى القمر .. مؤكدين أنـــه سيكون من السوفييت !!

الذين رضوا بمقاعد المتفرجين في سباق الفضاء واكتفوا بأن تلتهب حناجرهم لهذا الفريق أو ذاك .. وتملأ الغبطة قلوبهم لفوز السوفييت أو الامريكان .. قد مات في قلوبهم .. لا أقول الطموح .. بل حتى الغيرة والحسد . الذين رضوا أن يأكلوا خبزهم من خلال تحرير المقالات وتأليف الكتب في التسبيح بعظمة الحضـــارة الامريكية أو مظاهر التفوق السوفييتي .

الذين لا يعتصر الألم قلوبهم ولا تلتهب أحشاؤهم بالنار ، ولا يتجمـــد الدم في عروقهم وهم يرون الولايات المتحدة تحرمهم لقمة العيش فيتصدق بها عليهم الاتحـاد السوفييتي .. وبـدلاً من أن تقف « أوساخ الناس » في حلوقهم .. نراهم يسارعون مغتبطين إلى كتابة المقالات في المقارنة بين الموقفين ، لاعنين من يحرمهم ، حامدين مسبحين بفضل من يطعمهم قد رضوا بأن يكونوا هم اليد السفلى ، وقد منحهم الله كل ما تحتاجه أمة لتكون اليد الكرمى .. اليد العليا .

واهمين .. ظانين .. أنه من الممكن أن تستمر الدول الكبرى في اطعامهم مقابل شكرهم .. أو تجنباً لذمهم !

أما الذين يؤمنون بأوطانهم .. ويؤمنون بأمتهم .. فيدركون خطورة اللحظة المصيرية التي تواجه شعوب العالم الثالث .. الشعوب التي فرض عليها التخلف .. فمهما تكن الادلة على أنهيار حضارة الغرب .. فلا جدال في مصيرية اللحظة التي نمر بها .. فالحضارة الغربية على أبواب انتقال حاسم سيفصلها تماماً عن بقية العالم المتخلف .. إذ توشك أن تكمل الثورة الصناعية الثانية مع الانتقال الى سكنى واستغلال الكواكب الأخرى وسيطرتها على أعالي الفضاء كما سيطرت خلال الثورة الصناعية الأولى على أعالي البحار .. وبذلك تنقطع كل صلة تشابه بينها وبين عالم ما زال يتعثر في الزراعة ويخدش وجه الأرض بمحراث خشبي تجره أبقار عجاف من ايام سيدنا يوسف .. وتهدد مستقبله دودة . أو تفتك بحاصلاته قردة مقدسة .. ويتقاتل ابناؤه حول قدسية البقرة .. بينما يفتك الجوع بالملايين المتنازعة !

إن الفارق بين الحضارة الغربية [1] وبقية العالم يوشك أن يصبح كهذا الفارق الذي فصل بين الانسان والقردة العليا .. أي ثغرة لا يمكن تخطيها .

غير أن بعض الأدلة تشير إلى وجود عوامل فناء وانهيار حتى داخل التقدم العلمي الفائق في الحضارة الغربية .. وليست هذه هي المرة الأولى التي تنهار فيها الحضارة الأرقى والأكثر تقدماً .

(١) لا حاجة بنا الى القول بأن روسيا قد أصبحت جزءاً لا ينفصل من الحضارة الغربية بعد أن استكملت بناءها الاقتصادي .. والأدلة المتاحة الآن قد خرجت بهذا القول من مرحلة الافتراض .. بل يمكن القول بأن ما يربط روسيا وامريكا من وحدة المصالح والتقارب الفكري أكثر من أي التقاء اخر بين بلدين غيرهما.. ولا احسبني ابالغ أن قلت أن نقط الصدام بينهما أقل من مثيلاتها بين سائر الدول حتى في داخل الكتلة الواحدة .. وهذا يؤكد مرة اخرى براعة التفسير الماركسي للقوانين الاجتماعية .. وايضاً كذب وتهافت النظرية الماركسية في نفس الوقت .. فأن قيام الانتاج الصناعي المتقدم في روسيا قد عكس فكراً راسمالياً استعمارياً .. بينما لم يعكس هذا الانتاج في امريكا .. فكراً اشتراكياً أممياً كما توهم ماركس .

ومن ثم يصبح السؤال الذي يواجهنا هو : إلى اين تنتقل جذوة الحضارة .. ومن الذي سيرث الأرض ومن عليها ؟ .

والحضارة هي الصلب .. فكم طناً تنتج من الصلب ؟ .. هي جواز المرور في عالم يقوم على القوة .. لأنه بقدر ما تملك من أطنان الصلب .. تستطيع أن تصنع المدافع والدبابات والطائرات والذي يملك مدفعاً من عيار اكبر تصبح حجته أقوى وصوته أعلى .. ويدور الحق معه حيث دار .

وفي هذه الأيام فأن الصين هي أكثر شعوب العالم الثالث وعيــاً بهذه الحقيقة « ماو » يقول : « إن التاريخ ينطلق من فوهة البندقية » والحق ما يقول .. وما أشد ما تثيره هذه الجملة في نفوس ابناء آسيا وافريقيا .. الذين خضبت البندقيــة تاريخهم بالدم والظلم والعار .

والصين .. تدرك احتمالات انهيار الحضارة الغربية وتعــد نفسها لميراثها .. والصين تدرك أيضاً المخاطر الرهيبة التي يحملها تفوق هـذه الحضارة .. وأن التفوق الكلي الذي امتازت به هذه الحضارة على شعوب العالم الثالث .. خــلال القرون الأربعة الماضية قد مكن الشعوب البيضاء من أن تذيق الشعوب الملونة كؤوساً من المذلة لم يعرفها التاريخ الوحشي لأي حضارة سابقة .. فماذا يمكن أن تفعل بنا هذه الحضارة لو حققت تفوقها الكيفي .. وتملك الشيطان الأبيض الأسلحة النووية .. وأطل علينا من السموات وحرك ازراره الاليكترونية .. فاباد حيث شاء وأهلك من يشاء ! سنلقى منهم نفس المعاملة التي منحها الانسان بتفوقه للخيــل والبغال والحمير وأفيال السيرك وقردته .

وويل للمغلوب !

تغرر الهند بنفسها .. إن ظلت محتفظة بجاعاتها وتخلفهــا وسخافاتها المسماة بالديموقراطية وهي تحسب انها بعد أن يسكن الروس والامريكان القمر والمريخ .. سيأبهون بالتعرف على الجانب الذي ستنحاز اليه .. ملايين الجياع والعراة .. تنسى الهند أن ملايينها وأبقارها وقرودها وبراغيثها تختلط جميعاً حتى يصعب التفرقة بينها

لمن يطل عليهم من القمر ولو بجهر الكتروني أنهم جميعاً يشكلون لطخة سوداء تشغل حيزاً من قارة ما على كوكب ما .. في مجموعة شمسية خضعت أو توشك أن تخضع لالات السادة البيض ! يومها لن يدفع أحد للهند ثمن حيادها — بل ستترك الاوبئة والقردة والثعابين تستأصل الكائنات الغبية التي نامت في انتظار أن يطعمها الأقوياء وفضلت الاستجداء بعاهتها عن أن تصارع سادتها البيض .. عندئـذ لن يبقي هؤلاء السادة على مثل هذه الكائنات المشوهة العاجزة إلا بقدر ما تحتاج المعامل .. أو حاجة السوبر انسان إلى الاستغلال .. أو بقدر ما تمتع جمعيات « الرفق بالانسان » نفسها باستصدار تشريعات لمنع انقراض هذا المخلوق العجيب المسمى بشعوب العالم الثالث ..

الصين .. تدرك هـذا الخطر .. كما تدرك احتمالات الفوز للعاملين .. وبهـذا الخوف وذاك الطمع ، تلهب بكل ذرة في كيانها وتعبىء كل طاقاتها وتنطلق في سباق المصير ..

ومع تحطيم تماثيل فينوس .. وتحريم موسيقى بيتهوفن. تجري الصين عملية نقل مسطرة لكل الانتاج الصناعي الغربي ، وتدرس كل حرف من حروف هـــذه التكنولوجيا الغربية ، ولا تسمح لرقيـع بأن يفسد عليها مسيرتها ، بأن يحذرها من التخلف لانها ترفض موسيقى الغرب وفنون الغرب ويغرر بها زاعماً ان هذا التشنج كان خطيئته ستالينية لا داعي لتكرارها..لأن الذين يقولون ذلك جهراً هم أنفسهم الذين يهمسون في آذان شعوب العالم الثالث .. والتصنيـع الثقيل أيضاً كان دروشة ستالينية فلا داعي للاصرار عليه ولتعكف كل بلد على انتاج ما سخرها الله له .. فتعكف الصين على انتاج الافيون وشعر الخنزير الممتاز لفرش الأسنان لغانيـات اوروبا .. وننتج نحن القطن والبلهارسيا .. وتتفرغ الهند لانتاج « روح الهنـــد العظيمة » ونستورد كلنا من روسيا وامريكا كل شيء من الابرة إلى الصاروخ .

ان الطريق الستاليني [1] .. ومن قبله الطريق الياباني ، وبعده الطريق الصيني هو الطريق الوحيد لكل الشعوب التي فاتتها وليمة الاستعمار .. لكي تصبح دولاً صناعية والدول الصناعية هي وحدها الجديرة بالحياة .. هي وحدها التي تملك فلسفة وحضارة وعلماً وفناً .. تملك أن تقول فيسمع لها ..

أما الذين يعجزون عن انتاج حبر الكتابة .. ويملأون اقلامهم المستوردة بحبر مستورد ليسودوا به صفحات من ورق مستورد يدفعون بها إلى مطابع مستوردة .. ثم يتساءلون لماذا لا يصبح ادبهم أدباً عالمياً ؟ فانهم حقاً يغررون بأنفسهم وبشعوبهم البائسة التي تدفع لهم ثمن العبث الذي يسودون به الصفحات .

لا بد أن يكون لهم ما يصدرونه من الحديد والصلب .. لا بـــد أن يدخلوا السوق العالمية للصناعة قبل أن يصبح فنهم فناً عالمياً .. أو فليتركوا للمترفين مهمة اختيار بعض اعاجيبهم .. ليفرجوا شعوبهم المتمدنة على نماذج من تفكير المتخلفين وليغتبطوا هم بذلك ويصيحوا في انبهار كلما ترجم عمل من اعمالهم .. ظانين انهم بذلك يدخلون المنتدى العالمي .. مع أنه ما من عاقل يحصي سكان حديقة الحيوانات .. مهما يكن اعجابه بحركاتها .. ضمن تعداد محافظة الجيزة !

ومن هنا فإن الأمم الجادة هي التي تتفرغ للانتاج .. للتصنيع وحده .. وتترك العبث الذي يبدد أموالها ويضيع سنوات عمر شعوبها .

اذن فالقضية الاولى والحاسمة والمصيرية هي : كيف نصبح دولة صناعية ؟.

والجواب بسيط لدرجة مذهلة .. وهو : أن تصبح لدينا أموال كثيرة نستثمرها في التصنيع .. والأموال لا يحصل عليها الناس إلا باحد سبيلين : بعرقهم وجهادهم .. أو بسرقة عرق وجهد الاخرين .

ولسوء حظنا أو لحسنه .. اننا نظهر بعد زوال مرحلة الاستعمار واننا بفلسفتنا

---

(١) أرجو الايتسرع القاريء فيظن اننا ندعو الى شيوعية روسية أو صينية.. اوالى رأسمالية يابانية فان ما ندعو اليه هو ثورة اسلامية عربية . ووجه الشبه بين الثورة التي ندعو لها .. وبين التجربة اليابانية او الروسية او الصينية ، هو الاعتماد على النفس ، والتمسك بالعقيدة القومية وقطع الصلة الروحية بالحضارات المعادية .

وبتفكيرنا وتكويننا كمسلمين لا نستطيع ممارسة الاستعمار .

ومن هنا فلا سبيل أمامنا لكى نصل الى الصناعة الا بقروشنا وذلك يفرض علينا عبئاً مضاعفاً ، فقروشنا قليلة ، والصناعة تزداد كل يوم تعقيداً وترتفع تكاليفها والسباق يتحول الى سباق موت أو حياة .. كل هذا يفرض علينا أن نستثمر كل مليم نحصل عليه من انتاجنا المتواضع .. يعني بكل صراحة .. جوع وحرمان وعمل شاق مرهق يعتصر عدة اجيال وكل حديث آخر هو مخادعة وتغرير بالنفس .

فكيف تساق الشعوب الى عبور هذا الصراط ؟

الجواب : بان نقطع صلاتنا الفكرية والروحيـة بالمتفوقين .. بان نرضع كراهيتهم ونتغذى بغضهم ونشبْ على احتقارهم والترصد لهم وتوقع غدرهم .

أن يوقن كل طفل بأنه يعمل وخلف اذنه مدفع الحضارة المتفوقة وأن عليه أن يستغل كل ثانية في اعداد مدفعه،وأنه اذا تهاون لحظة واحدة مات وفنيت امته .. عندئذ يصبح الانتاج هو قضية الوجود القومي ويصبح التهاون فيه ، خيانة وطنية وعمالة . . الخ .

ونحن لا نستطيع أن نكره دون أن نحب .. ولا يمكن اجراء السباق إلا بين متسابقين متمايزين ، منفصلين كل منهم حريص على قهر منافسيه والفوز وحده .

ومن هنا كان من الضروري أن يكون للشعوب في مرحلة التضحيـة والكدح هذه فلسفة قومية وعقيدة خاصة متميزة .

أما القول بان الاصرار على الشخصية القومية والعقيدة الخاصة يقيم حاجزاً بين هذه الشعوب وبين علوم العالم المتقدم فهو قول مردود .. أن هذه التكنولوجيا هي التي قهرت هذه الشعوب واذلتها ومكنت كل لئيم حقود لكي يبدي شماتته فيها . أن هذا التفوق الآلي هو الذي سمح في حالتنا نحن مثلاً .. لقيم اكثر تخلفاً وأقل سمواً .. بان تسود قيمنا اعلى وأسمي .

أن الذين يؤمنون بالحرب الابدية ضد الحضارة الغربية ويؤمنون ان هـذه الحضارة الغربية لا يرضيها فيهم أقل من الافناء أو الاذلال .. هؤلاء يعرفون ان عليهم استيعاب كل صغيرة وكبيرة في حضارة العدو .

أما الذين يحسون بانتمائهم لهذه الحضارة الغربية وانتسابهم اليها.. فهم لا يحرصون في الحقيقة إلا على استيراد بعض منتجاتها .. وأما الذين يعدون انفسهم لحرب مصير ضدها ويؤمنون انهم ورثتها فهم مجبرون على الغوص في اعماقها لتلمس اسرار قوتها ونقط ضعفها .

واعداء تقدمنا هم الذين يحرصون على تجريدنا من الفكر القومي المتميز .. من العقيدة الخاصة بنا .. ويروجون لفكرة « وحدة الحضارة » بمعنى اننا لا نستطيع ان ننتقي .. بل يجب ان نأخذ الحضارة الغربية جملة : التكنولوجيا.. مع الدين .. الصناعة مع الفلسفة مع الفن مع الأدب .

« وتوينبي » يسخر من محاولات العثمانيين نقل التكتيك العسكري والاسلحة الغربية وحدها . ويضرب المثل على الاقتباس الناجح بمحمد علي واتاتورك .. لانهما نقلا التقدم جملة .

ولكن « توينبي » نفسه يفند هذه النظرية ويعترف بوجهة نظرنا عند ما يتحدث عن التجربة الشيوعية ..

يقول توينبي :

« ان دعوى لينين باصالة فكرته .. تستند إلى انه ابتكر من جديد هذه الاداة السياسية الرهيبة لمنفعته .. والى انه كان أول من طبقها لخدمة هدف خاص وهو : تمكين المجتمع الروسي – وهو مجتمع غير غربي – من الاحتفاظ بذاتيته في مواجهة الغرب الحديث .. ويتم ذلك باتقان آخر ما ابتكرته التكنولوجيا الغربية مع اجتناب – في نفس الوقت – ايدلوجية الغرب التقليدية الشائعة .

ان هذا هو بالضبط ما يجب ان تتبعه كل امة راغبة في تحقيق التفوق المادي والاحتفاظ بذاتها وكيانها وحضارتها وشخصيتها

واننا نرى أنه بغير « الشيوعية الروسية » [1] أي فلسفة رفض الايدلوجية الغربية ، لم تكن روسيا مهددة – فقط – بفقد ذاتيتها في الحضارة الغربية ، بل

---

(١) الشيوعية الروسية وليست الماركسية .

ومن المؤكد انها كانت ستعجز تماماً عن تحقيق التفوق التكنولوجي.. كانت ستعجز عن اتقان آخر ما ابتكرته التكنولوجية الغربية .

انه عين ما تفعله الصين الآن .. فهي ترفض الايدلوجية الغربية باعتناق الشيوعية وفي نفس الوقت ترفض الايدلوجية الروسية برفض شيوعية موسكو واعتناق شيوعية ماوتسي تونغ الخاصة حيث « رياح الشرق تغلب رياح الغرب » وحيث ينقسم العالم الى بيض وملونين .. والى فلاحين طيبين يسكنون العالم الثالث.. وأهل مدن شريرين .. هم الحضارة البيضاء وعلى رأسهم في الشر : روسيا وامريكا .

وتنفصل الصين بروحها من خلال اثارة الحرب الفكرية ضد الغرب وضد الشرق الروسي ..ولذا تمضي الصين بخطوات رائعة في اتقان آخر ما ابتكرته التكنولوجيا الغربية والروسية ، محتفظة بتميزها في مواجهة محاولات الامتصاص وبغير ذلك ما كان بوسع الصين أن تحتفظ بذاتها ولا ان تحقق التقدم التكنولوجي .

ان حملة تدمير فينوس والموسيقى الكلاسيك الغربية والروسية ايضاً .. لا يقوم بها مجانين أو بلهاء ،لا يفهمون القيم الجمالية في هذه الروائع .. فالذين يصنعون القنبلة الذرية والهيدروجينية لا ينقصهم العلم بحقائق الأمور ولكن لا بد من قطع كل صلة استخذاء وضعف أمام الحضارات المعادية .. فلو لقنوا الشباب الصيني ان الموسيقى الكلاسيك هي قمة الفن الموسيقي وذروة التمدين .. وان فينوس التي نحتت قبل ميلاد المسيح هي ذروة الجمال ومقاييسه حتى اليوم .. مثل هذه التربية لا يمكن ان تشحذ همة الشباب الصيني لصنع صاروخ يضرب امريكا .

ولو علموا الشباب الصيني .. ان الاشتراكية العلمية واحدة .. وان الاتحاد السوفييتي هو قائد معسكر الشعوب .. وحزبه الشيوعي بالحتمية هو رائد الشيوعية والاخ الاكبر بين الشيوعيين لما أمكن ان يصنع الصينيون الصاروخ الذي يصل إلى الاتحاد السوفييتي .. ولا أمكنهم أن يجعلوا انجاز المستحيل واجباً يومياً .. فلماذا يسهرون الليل والنهار لصنع القنبلة الهيدروجينية ما دام الأخ الأكبر شقيقهم في العقيدة يمتلكها في موسكو ! .

لا ..

كان لا بد من قطع كل صلة روحية بالعالم الخارجي حتى يمكن للصين ان تصل خلال سنوات التحدي الحاسمة الى كل ما وصل اليه خصومها في العلم والصناعة .. تماماً كما فعلت روسيا. تستطيع البرافدا ان تسخر كما تشاء من حماقة الصينيين وتشنجهم ، ناسية قوائم الحرمان التي كان يصدرها ستالين .. والتي شملت كل شوامخ الفكر الغربي : ارسطو .. افلاطون .. شكسبير .. برناردشو .. ودعنا من نيتشه وكافكا وسارتر وبيكاسو .. فقد كان ذكر اسم أحدهم يكلف الذاكر عنقه .. بل هناك نص معروف ومشهور للينين « حذر فيه من استماع الشباب للموسيقى الكلاسيك .. لأنها تؤدي – حسب قوله – الى ضعف الثورية ..

يقول الروس – اليوم – تغريراً بالشعوب النامية انها كانت تشنجات ستالينية .. وأنهم تخلصوا منها .. والآن يرقصون التشاتشا في روسيا .. ويمثلون شكسبير ويطبعون كافكا ، ويتذوقون بيتهوفن .. بل حتى الخنافس .. ونحن نطمئنهم ان كل ذلك ستفعله الصين ، فقط عند ما تزول أسباب التشنج .. عند ما تأمن على وجودها واستقلالها .. عند ما تمتلك صواريخ ذات رؤوس ذرية .. عند ما تسترد الأرض التي اغتصبتها روسيا والدول الغربية . عندئذ سيصبح من حقها أن « تتعقل » وترقص على موسيقى الخنافس وتتذوق اطعمة وفكر وانحلال المترفين الأغنياء .. أما قبل ذلك فلا .

ونفس الشيء فعلته اليابان .. فترة عبادة الامبراطور والانتحار بالهارا كيري وعبادة الاسلاف والاحتفاظ بسيف العائلة ومقعد خاص لا يجلس عليه أحد لاحتمال مرور الامبراطور يوماً فيجلس عليه .. فترة الكومونو والقبقاب الخشبي وانحناء الزوجة على حذاء الزوج وتشغيل الأولاد الى حد الموت واعتصار كل قطرة عرق ودم لبناء الصناعة .. في ظل الايمان ببلاد الشمس المشرقة والتقزز من بشرة الرجل الأبيض .. وقتها كان ابناء العائلات اليابانية العريقة يستخدمون نفوذ عائلاتهم لكي يقع عليهم الاختيار في فرق الطوربيد البشري ، حيث الموت محقق ولكن في سبيل مجد اليابان .

فلما وصلت اليابان وروسيا إلى مستوى الكبار، سمحت روسيا كما قلنا بشكسبير

وكافكا ولبست اليابان البنطلون .. وظهر فيها جيمس دين .. صحيح انه باعتناق اليابان وروسيا للروح الامريكية انتهى خطرهما على هذه الحضارة واصبحا جزءاً من الحضارة الغربية .. لكن ما كان لهما ان يستمتعا بترف هذه الحضارة قبل ان يؤهلا مجتمعها له .. قبل أن ينتجا انتاج الكبار .. أما الظن بأنه بوسعنا ان نعيش عيشة الاغنياء من خلال استيراد بضائعهم .. فهو وهم كبير .

من أراد ان يدخل السباق الرهيب .. فلا بد ان يعزل نفسه ايدلوجياً .. وأن ينفتح بكل ما يستطيع من قوة على التكنولوجيا ، وينغلق بكل ما يطيق عن التأثيرات الفكرية والروحية. ان أكبر جريمة ترتكبها الطبقة الحاكمة في امة ناهضة هو ارتباطها فكرياً وروحياً بالحضارة المتقدمة .. لأنها بالعيش في مستوى هذه الحضارة ترتبط بها وتتحول إلى اداة استغلال لمجتمعها .. همها هو اعتصار الجماهير لتدفع ثمن الترف .. ثمن الهجرة إلى عصر غير عصرها.. والى حضارة لم تساهم فيها .. وبذلك تنفصل تماماً عن مجتمعها .. ولا يصبح هذا المستوى المرتفع الذي تعيش فيه تقدماً .. فإن ركوب السيارة المستوردة ليس تقدماً للمجتمع الذي يستوردها .. انما التقدم هو صنع دراجة !

واوضح مثال على ذلك هو تركيا .. الكمالية .. فقد اعتنقت تركيا اتاتورك ، الايدلوجية الغربية ولبس الاتراك القبعة وكتبوا من الشمال لليمين بل وبالحروف اللاتينية .. وتزوجوا على طريقة الاوروبيين .. وحتى القرآن قرأوه باللاتينية .. وقالوا نحن جزء من اوروبا كما قالها قبلهم اسماعيل باشا بستين عاماً .. فماذا حقق الاتراك ؟ لم يحققوا ولا واحداً في المليون مما حققه الروس الذين جاوروهم لا في الأرض وحدها بل وفي تاريخ الثورة ، ولا حققوا واحداً في المليون من التقدم التكنولوجي الذي حققته الصين، ولم يقتبسوا واحداً في المليون مما اقتبسته روسيا أو تقتبسه الصين من التكتولوجيا الغربية .. والسبب هو أن روسيا والصين رفضتا ايدلوجية الغرب ومن ثم حققتا تقدم الغرب المادي كله ..

والماركسيون الجدد في بلادنا وغيرها.. الذين يصرون على علمية الاشتراكية ، وان العلمية هي السوفيتية، لم يحققوا ولن يحققوا واحداً في المليون مما حققته الصين في ميدان

الاقتباس من التكنولوجيا السوفيتية .. ذلك لأن الصين ترفض الذوبان في الحضارة السوفيتية ، ترفض الاندماج في الايدلوجية السوفيتية .

ان رفض ايدلوجية العدو هو أول الطريق لاتقان تكنولوجيته .. لأن هـذا الرفض يضعك على قدم المساواة النفسية معه .. على الأقل فالواقع انه يخلق اعتزازاً وسمواً ، ومن خلال هذه النظرة المتعالية يمكن أن يلهب حماسة الجماهير واقناعها بالقدرة على أن تنجز ما انجزه خصمها بالاصرار على التفوق عليه ..

ما نريد أن نصل اليه هو أن نقطة البدء لأية أمة جادة في تحقيق ثورتها الصناعية هو البدء بتحرير روحها .. وفي حالتنا ، نحن الأمة العربية ، نستطيع القول أنه لا يمكن أن تتحقق ثورة صناعية في ظل نظام يرتبط روحياً بالغرب أو بالشيوعية سواء السوفيتية أو الصينية .. لأن مثل هذه التبعية تشل قدرة الأمة على انجاز المستحيل[1] والثورة الصناعية في ظروفنا الحالية ليست أقل من المستحيل .

وإذا تأملنا موقفنا نجد اننا نواجه لحظة مصيرية قاسية هي مـا تواجهه شعوب العالم الثالث بصفة عامة ولكنها في حالتنا نحن الشعوب الاسلامية تتضاعف قسوتها .. فإن حضارتنا الاسلامية بما فيها من قوميات وأمم تتعرض لهجوم . أو إن شئت لحملة صليبية يرى البعض انها الاخيرة .. يعود بها الاسلام غريباً كما بدأ .. وأما نصر لا خوف بعده حتى تتخذ الأرض زينتها .

ان التفوق المادي الساحق الذي اشرنا اليه قد وضع في يد الحضارة المسيحية من السلاح ما يمكنها من محاولة تحقيق حلمها الذي لازمها طوال وجودها .. إلا وهو اخضاع العالم الإسلامي وإبادة الاسلام .

ان الأهداف التي حركت الحرب الصليبية .. ثم حركت الغزو الاستعماري في القرن السادس عشر ، والتي كان هدفها العالم الاسلامي والعربي منه بالذات .. هذه العوامل قد تضاعفت .

(١) وقديماً قيل لعنتره العبسي : كر يا عنتر " قال : العبد لا يحسن الكر والفر وانما يحسن الحلب والصر " فقال ابوه الحكيم : كر وانت حر .

ان العالم الاسلامي الذي رزح طوال القرون الماضية تحت نير القهر الاستعماري واحاط به القيد أو الطوق الاستعماري بفكيه : الكنيسة الغربية بانشقاقاتها ممثلة في الاستعمار الغربي .. والكنيسة الشرقية متمثلة في زحف روسيا القيصرية . . قد عاد اليوم يواجه تطويقاً جديداً بين المعسكر الغربي . . والمعسكر الشيوعي .. والتحرر الشكلي الذي احرزته معظم الدول الاسلامية [1] بات مهدداً بخطر أكيد.. خطر يحمل هذه المرة عوامل الافناء الشامل .

يلخص توينبي هذا الوضع بقوله :

« ان طالع العالم الاسلامي في المستقبل القريب . . متوقف – على أي حال – على نتيجة اختبار القوة بين العالمين الغربي والروسي ، اللذين يطوقان العالم الاسلامي فيما بينهما .

« ولقد تعاظمت أهمية العالم الاسلامي [2] في نظر هذين المتحاربين منذ اختراع محرك الوقود الداخلي .. فللعالم الاسلامي أهميته القصوى ، كمصدر للسلع الأساسية وكمعبر للمواصلات الرئيسية . ويضم العالم الاسلامي ثلاثة مواطن من الحضارات الاربع الرئيسية في العالم القديم .. والثروة الزراعية التي انتزعتها فيما مضى هذه المجتمعات – التي بادت اليوم – من وديان النيل الأدنى، ودجلة والفرات، والسند. تلك الوديان التي استعصت في ماضي أيامها على الاستغلال .. هذه الثروة قد زادت في مصر والبنجاب .

واستعيدت جزئياً في العراق.. وتم ذلك بفضل تطبيق الطرائق الغربية الحديثة في ضبط المياه . على ان أهم اضافة لموارد العالم الاسلامي ، الاقتصادية ، جاء نتيجة اكتشاف والانتفاع بمستودعات الزيت الكامنة في بطن أرض، لم تكن لها

---

(١) ولو ان بقايا الاستعمار ما زالت فوق ارض المسلمين اساسا

(٢) ولكنها للاسف لم تتعاظم في نظر المسلمين ذاتهم .. فما زلنا نفتش عن اي وحدة الا وحدة المسلمين

يوم من الأيام ، قيمة زراعية ذات شأن .. وقد أسفرت النتائج التي تلت التدافع نحو الزيت .. عن وضع سياسي متوتر طالما كان نصيب روسيا من تلك الغنيمة في القوقاز وأنصبة الدول الغربية الكبرى في ايران والبلاد العربية [1] في نطاق سلسلة متصلة الحلقات .

ولقد زاد من حدة هذا التوتر تجدد اهمية العالم الاسلامي ، كنقطة التقـاء للمواصلات العالمية .. فإن أقصر الطرق بين روسيا والعـالم الغربي على طرفي المحيط الاطلسي – من ناحية – والهند وجنوب شرق آسيا واليابان من الناحية الاخرى .. ان أقصر هذه الطرق يخترق ارضا ومياها واجواء اسلامية .. وما برح الاتحـاد السوفييتي والغرب على خارطة المواصـلات ، وخارطة الزيت يقفان موقف الخطر متجاورين وجهاً لوجه ٢ .

وهذه العوامل ذاتها يذكرها « وليم بولك » في كتابـه « الولايات المتحدة والعالم العربي » في فصل مصالح الولايات المتحدة في الوطن العربي (٣) .

ويقول انطوني ناتنج في كتاب العرب (٤) : « منذ ان جمع » محمد (صلى الله عليه وسلم) أنصاره الاولين في مطلع القرن السابع وبـدأ أول خطوات الانتشار العربي ، أصبح على العالم الغربي أن يحسب حساب الاسلام كقوة دائمـة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض .. أن قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ١٣٠٠ سنة في نهضته وانهياره . »

ويقول كتاب « .. Whither Islam » (٥) : وحدة الحضارة الاسلامية جعلت العالم الاسلامي كتلة سياسية خطيرة يحيط باوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم ويقول : « إن الحركات الاسلامية تتطور بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة .. فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من إماراتها مـا يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها .. فالحركات الاسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامـة .. لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين » .

---

(١) تأمل ان المنابع الرئيسية للبترول في العالم القديم كلها تقع في بلاد المسلمين .

وجاك بولان يفسر فهم مواطنيه للقومية العربية فيقول : « منذ الحرب العالمية الثانية تمدن البولشفيكي ، فلم نعد نرمز اليه بصورة الرجل الذي يمسك سكيناً بين أسنانه » وبالنسبة لكثير من الاوروبيين تستخدم هـــذه الصورة في الوقت الحاضر للاشارة إلى القومية العربية والجميع يهتمون بهذا الحديث الذي يعتبرونه جديداً .. والكثير يتساءل عـن محتواه ، يفسره البعض بالتعصب الاسلامي فحسب .. وإذا صدقنا ذلك فإن دراستنا للتضاد التقليدي بين الاسلام والمسيحية وحده .. يمكن أن تنير لنا المشكلة .. (٦) »

إن عدم إدراكنا لاهميتنا ، لا يعني اننا نفقد هذه الاهمية عنـد اللص المتربص ورفضنا الاعتراف بوحدتنا الاسلامية .. وحـدة مصيرية على الأقل ، لا يقلل من إدراك العدو لهذه الوحدة .. وتربصه بكل محاولة للوعي بهذه الوحـــدة ومحاولة الانتفاع بها في مواجهة اطماع المتربصين ..

إن هذه الاهمية الاقتصادية والمواصلاتية بقدر ما تشكل مطمعاً فينا فهي أيضاً تتيح للقادرين فرصة الاجابة على السؤال .. من الذي يرث حضـارة الغرب .. أو هي على الأقل تتيح لنا فرصة الافلات من قبضة الغرب لأنها تجعلنا قلب العـــالم . فيمكن أن نستفيد من هذه المواجهة بين التكتلات العالمية ولو إلى حين .. وبشرط أن يكون ذلك لبناء حضارتنا وتدعيم قوتنا لنكون جديرين بتلك البقعة التي اختصنا الله بها على هذا الكوكب .

ولكننا نخسر كل شيء ونتحول إلى جسر وممر لنفاثات السادة الأقوياء وضرعاً يحلب لهم البترول ، لو حاولنا الاندماج في أحد المعسكرين اقتصادياً أو سياسياً .. وقبل ذلك كله ، بل وأخطر من ذلك كله : الاندماج الفكري والروحي .

وبالنسبة للعالم الإسلامي .. فنحن مسئولون هنا عن الوطن العربي . وطريق الخلاص أمام الوطن العربي هو بناء الصناعة .. الأمر الذي يحتاج كما قلنا إلى الانفصال الروحي عن الحضارات المتنافسة : الغربيـة .. والروسية .. والصينية .. والتسلح بايدلوجية خاصة بعقيدة تلهب حماسة الجماهير وتقودهم عبر طريق العرق والدمع والدم . هـذه العقيدة يجب أن تكون قومية بقدر ما هي عالمية يجب أن تتميز بخاصة

لقد ناقشنا في كتاب : « الماركسية والغزو الفكري » امكانية أن تكون عقيدتنا هي الاشتراكية ورأينا سخافة هذا التفكير .. فالاشتراكية نظام اقتصادي يتعدل ويتبدل من واقع الاحتياجات والامكانيات .. واعظم المتفائلين واسوأ المتشائمين لا يتوقع للنظام الاشتراكي عمراً اكثر من خمسين عاماً .

وما من أمة قد بنت نفسها بايدلوجية نظام اقتصادي..حتى روسيا – كما قلنا – كان الأمر قد تخطى بكثير قضية الملكية العامة أو الخاصة .. تحولت الاشتراكية إلى دين روسي .. هو البلشفية ويصعب جداً أن نطابقها على الاشتراكية التي تخيلها ماركس .

اثبتنا في « الماركسية والغزو الفكري » إن الاشتراكية جزئية في حضارتنا وقلنا إن اسلامنا أكبر من الاشتراكية .. واننا إذ نجعل الاشتراكية هي كل رسالتنا .. نفقد دورنا في شعوب العالم الثالث .. فالاشتراكية ليست بضاعتنا ، فإما التزام بنظرية وحدة الاشتراكية العلمية وهنا يصبح الأصل اما روسيا أو الصين .. أو الأخذ بنظرية الطريق الخاص ومن ثم يصبح من حق كل بلد في العالم الثالث ان يكتشف طريقه الخاص .. فهل نحن « توكيل » اشتراكية ؟!

نحن بحاجة إلى عقيدة أكبر من الاشتراكية . . ان كنا جادين في بناء الاشتراكية .. ونحن إذ ندعو إلى الاسلام . . نرى انه العقيدة الوحيدة القادرة على تحقيق الثورة العربية وتحرير شعوب العالم الثالث حيث يشكل المسلمون اكبر قوة متجانسة .

وفي هذه الدراسة نناقش « القومية » كعقيدة بعد ان ناقشنا الماركسية في كتابنا « الماركسية والغزو الفكري » .. لنرى هل تقدر القومية على تخليصنا من المحنة المصيرية التي تواجهها .

والقومية التي نناقشها هنا هي هذه القومية اللااسلامية التي طرحتها بعض الحركات واستطاعت ان تخلق – لفترة من الوقت – املا مفتعلا ووهماً بامكانية أن تلعب هذه « القومية » دور الدافع الروحي الذي يحقق وحدة وقوة العرب . . بل شاع في السنوات الأخيرة تعبير العقيدة والعقائدي عن القومية هذه .. والقومي المنتسب

لها .. حتى رفعوها لمرتبة الدين !.

فنحن لا نعارض « القومية » بل هذا اللون من القومية ..

ولا شك ان ما نحتاجه اليوم هو الدراسة .. فقد اعترف رسميا بفشل الدعـوة القومية اللادينية في تحقيق الوحدة باعلان الامين العام لاكبر تنظيم سياسي في الوطن العربي « ان الوحدة لن يراها هذا الجيل » . . وأيضا بتـآمر آخر تنظيمات القوميين على دولة الوحدة الكبرى .

بذلك يكون شعار الوحدة على يد الحركات القومية اللادينية على الطراز الغربي قد سقط ، وأصبح لزاما على أنصار العروبة ان يعيدوا فحص ترسانة الوحـــدة ، ليستبعدوا ما فسد من اسلحتها وما ثلم . . وليفتشوا عـــن الحل الثوري السليم [1] ونقطة التركيز في هذا البحث هي اثبات .

كذلك كان التأكيد على القومية العربية في الجزائر وتونس ومراكش ضرورياً لمقاومة المشروعات الفرنسية ..

ولكن طريقة عرض الشعار يجب أن تتغير بعد زوال القهر القومي الموجه ضد القومية الكبرى .. فما المصلحة الآن في إثارة النعرة القومية اللادينية التي لم تثمر إلا الشقاق ؟

---

(١) ولعلي اضيف الى ادلة فشل هذه القومية المصير الذي آلت اليه حركة القوميين العرب بتحولها الى جهاز علني للماركسيين يردد افكارهم ويقتبس منطقهم بل ترديه في هاوية الاقليمية. فجريدتهم في لبنان تزعم ان مواطنا في « صور » تحسر على ايام الفينيقيين وهو افتراء لا وجود له الا في مخيلة المحرر الفينيقي .. وهذه الصحيفة تفتح صفحاتها لمراسل مجلة « حوار » التي اعلنت المصادر الامريكية تبعيتها للمخابرات الامريكية، هذا المراسل المعروف بنزعته الاقليمية والعنصرية المعادية للعروبة والاسلام . ولا يمكن ان يسلك في عداد القوميين وفقا لشعارات الحركيين الذين تنكروا هم لها . . ان هذا المصير الذي انحدرت اليه جماعة كانت تضم خيرة الشباب . . وبدأت على اساس قومي بحت . . بل كانت تستبعد الاشتراكية من شعاراتها حرصا [illegible] الهدف القومي . . استطاعت حفنة من المارقين ان تنزلق بها الى مستنقع الماركسية [illegible] . . لدليل على افلاس الفكر القومي اللااسلامي وعجزه عن الاستمرار . . تماما كما افلس الفكر الديني غير الثوري . . وقاد خيرة الشباب الى مستنقع الرجعية والضياع .

وإذا كان الإسلام هو الرباط الوثيق الذي يربط بين العرب والبربر والأكراد والشركس والتركمان والنوبيين والزنج .. فلماذا نستبعده ونرفع علم القوميات ، إلا إذا كان الهدف هو إثارة الحرب القومية ؟!

وإذا كان الاسلام هو شفيعنا إلى شعوب آسيا وافريقيـــا .. وهو الخطر الذي ترتعد منه اسرائيل والاستعمار في افريقيا .. لأنهم يعرفون جيداً إن مصير المعركة في افريقيا يتحدد في أحد الاحتمالين :

- اسلام القارة ومن ثم ارتباطها بالعرب .
- أو مسيحيتها فترتبط بالغرب الاستعماري خالق اسرائيل وحاميها ، ومن ثم تتحول اسفيناً في ظهر العرب .. لأن عملية التنصير تقوم بها كنائس الغرب الاستعماري الموالية لاسرائيل .

ومن العجيب إن كل هذا الهجوم الشرس على الاسلام في افريقيا وكل هـــذه المؤامرات التي تحاك ضد الدول الاسلامية في افريقيا وكل هذه الصيحات الهستيرية تنطلق من كل اجهزة الاعلام الغربيه بـــلا تمييز .. تخوف كلها من خطر انتشار الاسلام في افريقيا .. من العجيب إن كل هذا النذر لا توقظنا ولا تنبهنا .

انأتي نحن ونتخلى عن الاسلام بكل بساطة ؟ .. ما الذي عندنا لنقدمـــه لافريقيا ؟ القومية العربية اللااسلامية ؟ .. ومـاذا تساوي هذه للافريقي السنغالي أو الغيني ؟ !

الاسلام هو « هوية » العرب في افريقيا .. هو رسالة امتنا العربية .. هوالعروة الوثقى التي تربط بـــين العرب والافريقيين .. هو التحرر الحقيقي لافريقيا .. هو تخلصها الابدي من الاستعمار ونفوذه .. هو الضمانة بانها لن تخرج من عزلتهـا عن العرب خلف سور الاستعمار الغربي ، إلى عزلة جديدة خلف السور الشيوعي .. إن لنا مصلحة مباشرة في خروج افريقيا من دوائر النفوذ الغربي والشيوعي .. ولا سبيل لذلك إلا خلال إسلامها .

الاسلام هو الروح الدافعة التي ستقود الافريقيين الى عـــالم الحرية والمساوا والاخاء .. لانه الدين الذي اعلن وثيقة حقوق الانسان منذ ١٤ قرنا « كلكم لآد

وآدم من تراب .. لا فضل لعربي على عجمي .. ولا لابن البيضاء على ابن السوداء »
أو كما قال رسول سعد بن ابي وقاص لرستم قائد الفرس : « ان الله قد أرسلنا
لاخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله تعالى .. فالناس بنو آدم وحواء ..
اخوة لأب وأم » .

كذلك يرى هذا البحث ان الحركات القومية العلمانية .. اي التي استبعدت الدين انما قامت في البدء على عناصر مريبة دربت واعدت في مدارس التبشير .. وبيوت القناصل .. واقلام المخابرات الاستعمارية ورسمت اهدافها ومبادئها على اساس تحطيم الرابطة الاسلامية تمهيداً للاستيلاء على الدول العربية .. ثم ورث هذه المفاهيم بعض ذوي النوايا الطيبة الذين ظنوا ان عليهم كسب رضاء العالم المتمدن ، أي أوروبا الصليبية التي تبغض الاسلام وكل ما يمت للاسلام بصلة .. وصدقوا ان الاستعمار في بلادهم لحماية الأقليات .. فاصيبوا بحساسية مرضية، (من المرض لا الرضا) ازاء قضية الأقليات هذه .. فسقطوا في اللاطائفية السوقية التي يتحدث عنها عمار اوزيجان[1] لكسب رضاء الغرب والظهور بمظهر حسن .. وللقضاء على حجته في حماية الاقليات .. وهكذا خلعوا الاسلام لكسب ود ٥٪ فلم يحققوا هدفاً ولا أحرزوا نصراً .. كما سنرى .

أصبحت دعوة القومية العربية اللادينية .. يحمل لواءها فريقان : فريق لا هدف له إلا عداوة الإسلام .. وهو في وجه الإسلام يرفع شعار العروبة .. فإن أمن خطر الإسلام كشف عن حقيقته وأعلن في مواجهة العروبة شتى ضروب الاقليمية من اشورية الى فرعونية إلى فينيقية .. الخ .

وفريق حسن النية .. يريد أن يلحق بالغرب المتقدم بنقل كل ما قاله .. منهم من أعتنق نظريات الألمان ، ومنهم من أختار الماركسية بعد هزيمة النازية .. ومن ثم فإن البحث لم يركز في هذا الجزء على تاريخ الأحزاب والحركات القومية المعاصرة .. ولم ينقب في الصفحات المشبوهة والرئاسات المريبة والاتصالات الخفية

---

(١) ثائر وكاتب ووزير جزائري سابق .. مؤلف كتاب « الجهاد الافضل » .

والمعروفة . وكم فيها من ايللي كوهين[1] .. كوهين الأسم وكوهين الفعل .
لم أتناول هذه الجوانب .. فاني أرى هذه الحركات في حد ذاتها أهون من أن نشغل بالنا بها ، فهي اما تآكلت فعلاً .. أو في طريقها للتآكل .. حسبها عاراً . انها لا تجرؤ على إعلان زعامتها .. وكفى بها ذلاً ان تكون أول حركة في التاريخ بعد الماسونية ، تخفي أسم قائدها أو تعزله وتتنكر له وهو حي ! .

إن خطورة هذه الحركات ستتضح لنا من خلال مناقشة جذورها التاريخية .. أي مناقشة تطور فكرة القومية اللادينية والتعرف على منبتها حتى نصل إلى هذه الحركات المعاصرة .

ونرجو أن نثبت للقارىء في هذه الدراسة ما تبيناه نحن .. أن هذه الحركات ليست إلا وجهاً جديداً يتخفى خلفه عدونا الأبدي .. أما هي في حد ذاتها فلا شيء .. أنها تتقمم أفكارها من النازية والماركسية .. لم تضف مفهوماً واحداً إلى المفاهيم العربية أو العالمية .. يكاد ينحصر نشاطها في الهلال الخصيب .. لم تستطع قط أن تعبر صحراء سيناء . نحن لن نشغل بالنا طويلاً بها .. حسبنا أن نكشف الأصل ، فتتضح حقيقة الظل .

وسنثبت هنا إنه إذا ما حذف الإسلام من القومية العربية فلا بد أن يقع الفاعل في تفسير ماركسي للقومية .. أو نازي .

وعبثاً يحاولون تعريف القومية العربية استناداً لنظريات اوروبا .. فقوميتنا نسيج وحده لحمته الاسلام وسداه العروبة وأي محاولة لفصلها لن تعطيك ثوباً .. بل خيوطاً قد تنجح في شنق نفسك بها .

ثم أية حركة بعث تلك التي يجعلون بدايتها زحفاً يقوده ضابط المخابرات البريطاني لورنس .. وثورة قامت على أثر خطابات متبادلة بين أمير والسلطات البريطانية ، حاملها بهائي ايراني جاسوس بريطاني ! .

---

(١) جاسوس صهيوني تسلل الى حزب البعث في سوريا مدعياً العقائدية واستطاع ان يصل الى منصب قيادي وكان مرشحاً – كما قيل – للوزارة .

أي رواد « عظـــام » على الطريق : مكماهون .. كتشنر .. لورنس .. عازوري .. حتى نصـــل إلى انطون .. وميشيل .. واخيراً جورج ! .. تعست البداية وبئست النهاية !

وحتى نحدد العلاقة السليمة بين العروبة والإسلام .. كان لابد للبحث أن يتناول بالتحليل تاريخ الدولة العثمانية .. حيث كنا نحن العرب خلال القرون الأربعة الأخيرة .. وحيث وصل التناقض إلى أقصاه لأول مرة في تاريخنـــا الإسلامي والعربي .

والدولة العثمانية كانت العدو الأول لأوروبا الصليبية في نهضتها ، اصطدمت بها عند بداية توسعها .. وهددت الدولة العثمانية هذا التوسع واوقفته بل وغزت اوروبا في عقر دارها وحملت راية الإسلام إلى أسوار فينا .. وارتبطت بعداوة ابدية مع مع روسيا القيصرية .. إذ كان التوسع القيصري الروسي يصطدم بهـــا ويتم على حسابها .. ثم كانت هي الفريسة التي تقاسمتها الدول الأوروبية وتنازعتها ..

من هنا كان يجب على المفكرين المسلمين والعرب أن ينظروا بعين الشك لكل ما وصلهم من تفسير أو تحليل لتاريخ الدولة العثمانية .. لأن مصادره هي العدو .. العدو الذي نجح في رسم صورة مزرية لآخر ممثلي حضارة المسلمين . صورة كانت تهدف إلى تذكية حماسة شعوبه لمواجهتها ولتبرير سلوكه الاجرامي ضدها وتآمره بل تجاهره في تفتيتها وتمزيقها والتهامها عضواً عضواً وهي حية .

تناولت في هذا البحث نشوء الدولة العثمانية ثم سقوطها .. وكيف تطور موقف الوطنيين العرب من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وإصرارهم على الجامعة العثمانية ، حتى دفعهم الأتراك ، أو بعبارة أدق ، العملاء الأتراك ، دفعاً إلى الانفصال .. ثم كيف تلقفت المخابرات البريطانية والفرنسية هذا التطور وزيفت طريقه ، إلى حـد تزييف ثورة .. ونسبة تاريخ الأمة العربيـــة إلى ثورة المباحثي لورنس والعميل « عوده أبو تايه » .

ولقد ركز البحث على اثبات ارتباط الدعوة للتخلي عن الاسلام بالمصـــالح الاستعمارية ونشاط مخابراتها ..

وينظر هذا البحث إلى القومية كعلاقة نضالية أو صراع .. فهي لا تظهر إلا في مواجهة ومن خلال الاصطدام بالوجود القومي للآخرين .. فلو فرض إن قوميـة واحدة قد عاشت بمعزل عن القوميات الاخرى ، لما أحست بقوميتها ولا احتاجت للتعرف على خصائصها .. والمنهج السائد عند القوميين اللاإسلاميين هو التأريخ للحركة القومية خلال صراعها ضد الاسلام .. فالوحدة الإسلامية عندهم هي الرابطة الاقطاعية التي ـ ادت مثيلتها المسيحية في اوروبا خـــلال القرون الوسطى .. والاسلام في حديثهم يعني الرجعية .. والعدو الذي كان على الحركة القومية إن تصرعه هو فكرة الترابط الاسلامي .

اما هذا البحث فيرى ان العدو هو الاستعمار الغربي ، وان الحركة القومية قد وعت نفسها خلال الصراع ضد هذا الاستعمار ، ومن ثم فكل ما نبت في أحضانه .. فهو عدو للحركة القومية ، منفصل عنها .

لذا يدين هذا البحث . الحركات المعادية للرابطة العثمانية التي قامت في أحضان الغرب وبمساعدته .. كما يدين الشوفينية التركية التي اضطهدت العرب ، وساومت الاستعمار الغربي ، وفتحت له البلاد العربية كما يدين ثورة الهاشميين التي سلمت آسيا العربية للاحتلال الغربي

وقد ركزت هذه الدراسة على الحركات القومية في آسيا العربية . . لأنه هناك قد تم تعريب هذه القومية العربية وما زالت تعشش هناك . اما مصر وشمال افريقيا فلهما تطورهما الخاص .. اذ استحال ــ وما زال ــ قيـــام حركة تدعي العروبة وتعادي او تتجافى للاسلام وان استخدمت الحركات الاقليمية في تخريب العمـــل العربي .. الا ان الجماهير لا تفصل بين العروبة والاسلام .. ومن ثم قد ركزنا على الجزء الأسيوي ، وسنفرد الجزء الثاني من هذه الدراسة لتطور الحركة القومية في مصر .

ان ما تريد أن تؤكد عليه هذه الدراسة .. هو الترابط بين العروبة والاسلام وان المحاولات الفاشلة التي تدعي انها تعمل للاسلام .. ومن ثم تعادي العروبة ، هي محاولات تعادي العروبة والاسلام معاً .. وهي سرعان ما تندثر قبل ان يسمع بها أحد .

أما المحاولات المضادة في الأسلوب .. والمتفقة في الهدف وهي محاولات ضرب الاسلام برفع شعار العروبة .. فهي ما تتناوله هذه الدراسة ..

وبالله التوفيق ..

الفصل الأول

مناقشة في القوميّة

الحقيقة الأولى في تاريخ الجنس البشري . . هي انقسام الناس إلى جماعات إلى أمم متمايزة ، تفصل بينها حواجز الدين واللغة والتكوين النفسي والثقافي . . والمصالح ومن ثم التاريخ . .

في التوراة ان ذلك قد حدث في برج بابل عندما تبلبلت الألسن ، لأن رب التوراة خاف من وحدة الجنس البشري ، فعمل على تفريق صفوف الناس وبلبلة ألسنتهم . .

وفي ديننا ان هذا التمايز كان من أهداف الخلق . .

يقول تعالى : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . » فالهدف من التمايز هنا هو التعارف بعكس الهدف هناك ، وهو التفرقة والتشتت . . !

وبقليل من التأمل نجد أن الجنس البشري قد حقق من التقدم بفضل تمايزه إلى امم تتبادل التجارب ، من خلال تعارفها — أكثر بكثير مما حققته امة واحدة بتطورها الذاتي وأكبر ما كان يحدث لو أن سكان الكرة الأرضية كانوا يشكلون أمة واحدة . .

وهذا التمايز مرتبط بالمشيئة الإلهية ، مستمر بارادتها ، إذ : « لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » . .

ولأنه سبحانه وتعالى لا يشاء ذلك . . فقد كان علينا نحن المسلمين ان نتقبل هذه الحقيقة ، وأن لا نفكر أبداً في : « رب واحد . . وكنيسة واحدة » . .

فالرب واحد وهو الذي شاء أن تتعدد الأمم ، وتتعدد الأديان . . ومن ثم فعلينا أن نتقبل اختلاف الناس في المعتقدات والنظم واسلوب الحياة . . وأن نسعى إلى التعايش بين هذه الأمم المتمايزة . .

ولا نستجيب لاغراء اخضاع الجنس البشري ، وادخاله عنوة في دين الله أو ملكوت السماء .. فلا إكراه في الدين ، وأنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ..

كذلك يتحتم علينا ان نرفض باصرار أي محاولة لدمجنا في متحد عالمي يحاول أن يغرر بنا بزعم وحدة الجنس البشري .. لأننا نعلم ان هذا ضد مشيئة الله . . وهو أيضاً بالتجربة تغرير بالأمم ، يهدف الى إخضاعها لمصلحة الأمة الكبرى التي تتستر خلف دعوة الأممية والعالمية ..

وبالتجربة فان تطبيق النظريات الداعية لوحدة الكادحين لم تفض الا لزيادة حدة المواجهة بين الأمم وبالذات المعتنقة لنفس الشعار !

هذه هي الحقيقة الأولى : تمايز الجنس البشري الى أمم تعكس وجودها في حضارات متواجهة .. واستمرار هذا التمايز ..

فالقوميات أو الأمم سابقة على أي تاريخ معروف لأن التاريخ هو تاريخ الأمم وصراعها حتى لو قلنا بالنظرية التي ترى في التاريخ .. صراع الطبقات لأن الطبقات لم تكن تتصارع داخلياً فحسب ..

وحتى لو قلنا ان التاريخ هو تاريخ الملوك .. فان أبرز وأشهر أفعال الملوك.. هو ما فعلوه او ارتكبوه مع الأمم الأخرى .. أو ما أنزلته بهم الأمم الأخرى .. فلكي يكون التاريخ هو تاريخ الأمم.. يجب أن تسبق الأمم التاريخ لأن الفاعل يجب أن يسبق في الوجود الفعل .

والأمم باقية إلى ما بعد أي تاريخ يمكن أن نحدده ولا علاقة لوجودها بالنظم الاجتماعية .

فسخف هذا الزعم القائل بأنها تظهر في المرحلة الرأسمالية وتختفي في المرحلة الاشتراكية ..

ان حدودها تتسع وتضيق .. وأشكال تعبيرها عن ذاتها تتعدد وتتغير بتطوير الثقافات وتغير النظم ، وتطور وسائل التعبير المادية .

ولكن القوميات هى الحقيقة الباقية .. تماماً كما نقول ان الحياة واحدة ..

ولكنها تعبر عن نفسها في ملايين الأشكال ..

ان هذه الحقيقة رغم بديهيتها .. ورغم الأدلة العنيفة والدموية التي تؤكد صحتها .. رغم ذلك فهي لا تسهل مهمة من يحاول تعريف الأمة أو القومية ..

ولست أزعم انني سأطرح تعريفاً جديداً للقومية فأنا أكره الخوض في التعريفات

وقد أخرج الأستاذ الحصري وحده عشرة مؤلفات عن القومية .. وسودت الحركات القومية من عازوري إلى جورج .. من الورق ما يكفي لتطويق اسرائيل بسور في حجم سور الصين العظيم ..

فماذا جنبنا من تعريفاتهم .. ؟

أظن إن القضية أصبحت أكثر غموضاً .. والطريق أقل وضوحاً ..

ولا أظن إن أحداً قد سبقني إلى تعريف القومية .. على الرغم مما يبدو في هذه العبارة من إدعاء يثير الدهشة ..

والسبب .. ليس نقص المجتهدين والمعرفين .. فما أكثرهم للأسف ولكن السبب في اعتقادي هو إن القومية، كالحياة أو بلغة العلم الدارجة كالكهرباء يستحيل تعريفها في ذاتها ولكن يمكن الحديث وبتوسع عن خصائصها ..

نحن نحسها وندركها ونميز خصائصها ونعرف احتمالاتها .. وأهم من ذلك كله نمارسها نعيش .. ونقتل .. ونموت .. وننتحر .. ولكنها تبقى في حد ذاتها لغز الالغاز يستحيل على التعريف [1] .

ما الذي يضاف إلى الخلية فيحيل الكربون والفسفور والهيدروجين .. إلى كائن حي .. يحب ويكره .. ويتكاثر ويثرثر وينافق .. ذلك هو ما نسميه سر الحياة ..

نحن نعرف الخصائص .. نعرف إن الكائن الحي هو الذي يتغذى ويتكاثر .. وأيضاً يموت .. ولكن ما هو الذي يتغذى ويتكاثر .. ؟!

ما من إجابة واضحة ..

---

(١) حتى الآن على الأقل .

كذلك يستطيع ستالين أن يحدد خمس خصائص تتميز بها الأمة .. أو خمسة شروط يتحتم توافرها لكي « يرخص » للأمة بالوجود وممارسة أعمالها ! ..

ولكن لماذا تظهر الأمة في هذا الحيز أو ذاك .. لماذا تنصهر جماعات عديدة عبر مساحات شاسعة في قومية واحدة ، بينما يبقى بداخلها نتوء قومي يستعصي على الذوبان ..

ولماذا تنهار بعض الحدود أمام زحف قومية من القوميات ، فتكتسح العروبة شمال افريقيا كله حتى تصل بموجها إلى شاطىء الأطلس ، بينما تعجز عن عبور الخليج العربي إلى فارس .

وقبل ظهور القوميين [1] كانت القضية سهلة واضحة وبسيطة .. وكان الناس يمارسون قوميتهم كما يمارسون الحياة ، ليسوا بحاجة إلى من يعرفها لهم كي يعيشوا ويحيوا . .

أمة واحدة ، يضم غالبيتها العظمى دين واحد .. وتنطق بلسان واحد ويربطها تاريخ مشترك ، وواقع مشترك وتواجه عدواً مشتركاً .. وترنو إلى مستقبل واحد . .

ففيم التعدد والتجزئة ؟ ! .

بل إن هذه التجزئة التي فرضها الاستعمار لم تصل قط إلى حدود القطيعة الكاملة إلا في ظل القوميين وكفاحهم .. وعلى أيديهم عرفنا معنى التدخل في الشئون الداخلية والسيادة [2] . . وحق العمل لأبناء الدول العربية .. ثم التبسط والترخيص

---

(١) نعني بهذا الاصطلاح الفكر القومي اللااسلامي من نجيب عازوري الى انطون سعادة الى ميشيل عفلق فجورج حبش .. وفيلسوف القوميين المعاصر الذي جعل نفسه فوق الاحزاب ساطع الحصري ..

(٢) حتى خالد بكداش الشيوعي الامي يطالب في حديثه « لاخبار اليوم » بعدم تدخل الدول العربية في شئون بعضها الداخلية .. لكي تتحقق الوحدة العربية ..

بدخول الدول العربية بدون تأشيرة [١] ..

مع أنه في ظل الاستعمار والاقطاع .. كان الشائع هو تولي ابنـــاء بلد عربي الحكم في بلد عربي آخر .. كان من الطبيعي والعـادي في نفس الوقت قبل ظهور القوميين .. وظهور دعوة الأمة الواحدة ذات الرسالة الخالدة .. وحتى في الفترة التي كان « جهلنا » يدفعنا فيها إلى القول بـ « الشعوب العربية » وليس الشعب العربي في كذا .. أقول حتى في فترة « الجاهلية » هذه أو بالذات فيها ، كان من العادي جداً أن يهاجر المصري إلى السعودية أو الكويت، ويهاجر العراقي إلى اليمن أو السعودية، فيصبح وزيراً أو سفيراً أو مستشاراً للحاكم .. كذلك الشامي في مصر والسودان أو الجزيرة [٢] كان من الطبيعي وغـــير المستغرب أن يولد « الحصري » في الشام

---

(١) من المضحك المبكي انه كلما اجتمع ممثلو الدول العربية وخطر لهم ان يتخذوا اجراء وحدوياً .. حفظاً لماء الوجه .. فانهم يقترحون ، واحياناً يقررون الغاء تأشيرات الدخول بين الدول العربية ، او كما يصاغ القرار عادة : « الدخول بالبطاقة الشخصية » مـــع ان المشكلة الحقيقية التي تمنع التزاور واختلاط رعايا الدول العربية انمــــا هي في تأشيرات الخروج .. لا الدخول .

(٢) خذ مثلا بعض الاسماء التي احصاها فيلبي في حكومة عبد العزيز آل سعود : عبد الله الدملوجي (عراقي) فؤاد حمزة (فلسطيني) حافظ وهبي (مصري) يوسف ياسين (سوري) رشدي ملحس (فلسطيني) خالد الكركني (ليبي) ..

وعدد انيس صايغ مظاهر هذه اللااقليمية في فترة ما قبل كفاح الوحدويين ..

« كان ثلثا الوزراء في السنوات العشر الاولى في شرق الاردن من خارج الامارة أما رؤساء وزاراتها فكانوا كلهم من خارجها ، من سوريا وفلسطين ، أما موظفو الحكومة فقد ظل ثلثهم من خارج الامارة الى اكثر من عشرين سنة ..

« توفيق ابو الهدى ومظهر رسلان وسمير الرفاعي ورضا الركابي وعبد الله السراج وفؤاد سليم ورشيد طليع وابراهيم هاشم في شرق الاردن ..

فؤاد حمزة وعبد الله الدملوجي وخير الدين الزركلي وكامل قصاب ورشدي ملحس وحافظ وهبه ويوسف ياسين في السعودية ..

جورج انطونيوس واحمد حلمي ونبيه العظمة وعز الدين القسام وعلي منصور وابرهيم سليم النجار ونجيب نصار وعجاج نويهض في فلسطين .. —

ويقضي طفولته في تركيا ثم يعمل في معظم الدول العربيـة . . في التربية والتعليم والتخطيط لتربية الأجيال الجديدة .. وأن يكون أحمـد زكي الباشا المصري الملقب بشيخ العروبة « مغربي الأصل ، فلسطيني المنبت ، مصري الحياة والعمـــل والجهاد .. »

« بـــل حتى الملوك في الدول العربية لم يكن كلهم من جنسية الكيان الذي حكموه ..

ولم نسمع عن الطرد الجماعي لرعايا الدول العربية من دولة عربية إلا بعد انتشار كفاح القوميين ..

وإذا ما لجأنا إلى الأدبيات .. فكأني بالأمة العربية كانت انساناً سويا يسعى على قدميه رغم ما يثقله من قيود ، وما يعترض طريقه من عقبات . . غير ان نقطة البدء انه كان يمشي حتى جاءه المناطقة ، فناقشوه في المشي . . سألوه عن المشي . . ما هو ؟ وكيف يمشي ؟ ولماذا يمشي ؟ ومن أين تصدر الحركة ؟ أمن القـــدمين ابتداء ؟ أم من الإرادة .. فهل هو يمشي لأنه إنسان ؟ أم هو انسان لأنه يمشي.. وكيف تأتي الارادة دون اكتمال الوعي بالحركة ؟ أم كيف يتم المشي دون مشائين .. ومشائين حقيقيين [1] ولماذا يسير بالقدم اليمنى قبل اليسرى .. وهل يعبر بذلك عن اتجاه ؟ او ليس ذلك اخلالاً بالتحالف الأبدي بين القدمين ؟!

لا أظن ان صاحبنا هذا سيمشي خطوة واحدة ، وليس هذا الحديث طعنا منا في أهمية الوعي والفهم ولكنه رفض للتعقيد . . ذ ان مهمـــة الفكر هي توضيح الغامض . لا تعقيد البديهيات ..

والأمم التي يكتب لها الخلود هي تلك التي ترفع مصالحها وقضاياها الحيوية إلى

عفيف البزري وبهيج الخطيب وفارس الخوري في سورية .. وحسين افتان وجبرائيل حداد ورستم حيدر وصلاح الدين الصباغ وصبحي العمري وتحسين قدري ومحمود الهندي في العراق ..

(١) التعبير الشائع الآن عند الشيوعيين هو قولهم « الاشتراكية لا يبنيها الا الاشتراكيون الحقيقيون .. والاشتراكي الحقيقي عندهم هو الشيوعي .. وبالذات الذي سجن في ١٩٥٩ اي كان له سبق كفاح ضد الوحدة العربية .

مرتبة البديهيات التي لا تحتمل النقاش .

اما الأمم التي كتب عليها الفناء فهي تلك التي تبتلى بمن يفسد عليها أمرها باسم الجدل والبحث عن أدلة لاثبات ما تؤمن به الجماهير قبل أن يولد هو !!

كانت العروبة والاسلام والشرق مترادفات لمفهوم واحد عند الأجيـــال التي سبقتنا لأنهم يتكلمون العربية.. ودين الغالبية العظمى هو الاسلام..وثقافة وتاريخ الأقلية .. هما الإسلام .. ولاننا كنا نسمى في قاموس السياسة الدولية الشرق وتسمى قضايانا المسألة الشرقية ..

وكان الاستعمار المتطلع إلى غزونا اسمه الغرب و« كبلنغ » يقول : « الشرق» شرق والغرب غرب .. ولن يلتقيا » وكان أمين الريحاني يقول « أنا الشرق ».

ورفض العامة الجزائريون في الثلاثينات التصـــديق بامكانية وجود عربي غير مسلم [1]وقال مكرم عبيد « انا مسلم وطناً ونصراني ديناً »..وقال امين نخلة المسيحي الماروني « أما أن يكون فينا عربي من لحمنا ودمنـــا ، ثم يغدو ولا يمت إلى محمد بعصبية ولا إلى محمد وقومية محمد فهو ضعيف ثقيل علينا ، غريب الوجه بيننا » ..

بهذه البساطة كانت القضية عند ذوي النوايا البريئة .. حتى جاء القوميون فجعلوها أعقد من ذنب الضب ..

وإذا كان سقراط فيما يروي افلاطون ، كان يلجأ لشرح آرائه من خلال مناقشة الاخرين أو تفنيد آرائهم .. فلعلنا نلجأ إلى هذا الاسلوب ..

والمشكلة الحالية التي نواجهها .. هي محاولة إدخـــال واقعنا العربي في القالب الغربي للقومية العربية .. محاولة الحركات السياسية أن تثبت شرعيتها بالحصول على مطابقة لاهدافها بموجب التعريفات والنظريات الاوربية . .

فقد استوردت القومية العربية ، أو بمعنى أصح مواصفاتها ، مـن الخارج .. وفشلت محاولات « تركيبها » محلياً . .

---

(١) الحادثة .. انه زارهم صحفي من مصر فاحتفوا به .. ثم دعوه للصلاة بهم فاعتذر لانه مسيحي .. فشكوا في جنسيته .. فما كان البسطاء الاعزاء يتصورون امكانية وجود عربي غير مسلم .. وقادم من القاهرة ..

ويعترف توينبي بانتقال « القومية الغربية » الينا . . ويصف ذلك بأنــه « من المؤسف حقاً أن تنقله الشعوب الناطقة بالضاد كما هو » ..

وفي معرض تفنيد التاريخ الوحدوي للأمة العربية يعترف انيس صايغ « باستيراد القوميين لفكرة القومية »..

« غفل رواد الحركة العربية هذه الحقيقة ، فربطوا بين المطلب الوحدوي الذي نادوا به وبين الفكرة التي اذاعوها عن التاريخ العربي .. وزعموا إن جذور مطلبهم تكمن في صفحات التاريخ ..

وربما فعلوا ذلك عن بساطة : هم أنفسهم ، لما أخذوا الفكرة القومية عن الغرب واعتنقوها بدون تساؤل كثير ، وأخذوا مبادئها ومن ضمنها مبدأ الوحدة ..

« سواء كان الدافع وراء هذا الموقف هو هذا أو ذاك ، فإن موقف الرواد تأثر بنوعية الفكرة القومية في اوربا .. [1] »

لقد استوردنا نظرية القومية من اوربا .. لأنه في خلال سيطرة الغرب علينـــا استطاع أن يحول تجاربه إلى قوانين عامة للجنس البشري ..

الحضارة في الفكر الغربي .. ظاهرة غربية . نشأت مع الاغريـق وتطورت إلى أوروبا الحديثة (الغربية) وامتداداتها في العالم الجديد ..

أما « العالم » كما يسميه « توينبي » فليس الا الخلفية التاريخية ، ومادة الحضارة للجنس الأبيض المختار ..

فنحن لا مكان لنا في صياغة قوانين عامة للجنس البشري .. بل حتم علينـــا ان نصب في قوالبه وان ننكر واقعنا إذا ما تعارضت النظريات العربية مع هـــذا

---

(١) يساعد دائما فهم تعبير العصر الذهبي .. ونحن كدعاة بعث حضاري نؤمن ان عصرنا الذهبي هو دائما في الغد .. مع المستقبل .. ولكن عندما نقوم التقويم الحضاري بما مر فيه من عهود تقدم واضمحلال يجوز ان نطلق على فترة التـــألق تعبير العصر الذهبي وليس سوى المخرفين والدجالين من يفسرون ذلك بأنه حنين اعمى للماضي او دعوة واهمة للعودة اليه .. فعمر بن الخطاب رضي الله عنه قد اكتشف منذ اربعة عشر قرناً ان اولادنا قد خلقوا لجيل غير جيلنا .. ومن ثم يجب الا نفرض عليهم قيمنا الاخلاقية ..

الواقع ! .

والعجيب .. والمذل .. ان يأتي مفكرونا فيلتزموا بهذا المنهاج في التفكير، ويسقطون التجربة العربية من حسابهم من أجـــل اثبات صحة وشمول التجربة الاوروبية !.. بل حتى في ترتيب الزمن . . نرى بعض مفكرينا يتقمصون الشخصية الأوربية، فيسمون العصر الذهبي « للحضارة الاسلامية » ، يسمونه القرون الوسطى » ، مع الشحنة السوداء التي تحملها هذه الكلمة (القروسطية) بفعل الثقافة الغربية .. لأن أوربا تؤرخ لنفسها مبتدئة بالاغريق ثم الرومان ثم تنهار حضارتها، فتأتي العصور الوسطى ، عندما تنتقل الحضارة الى الشرق .. ثم تعود الحضارة من جديد باكتشاف رأس الرجاء الصالح وتطويق العالم الاسلامي . . وتبدأ العصور الحديثة ..

فكيف نسمي نحن فجر حضارتنا ، وأزهى عصورنا بالقرون الوسطى ؟! .. وتاريخنا يبدأ به .. وسط بين ماذا ؟! .

والذين استوردوا لنا نظريات القومية ، استوردوها في شكلها الاوربي ، الذي يستبعد الدين من تحديد خصائص القومية .. أو هكذا زعموا لنا أو زعم لهم .. ناسين أنه ما من قومية مرتبطة بالدين مثل قوميتنا .. وانه ما من قضية تخطيء فيها مقاييس الفهم الأوروبي . مثل قضية القومية عندنا ..

وإذا بدأنا بالنظرية الماركسية . . فلانهـــا أكثر النظريات شيوعا بين شباب القوميين .. مهما انكروا ، ومهما أدخل قادتهم عليها من تعديلات بمـــا يتلاءم وضرورات العمل الحزبي في المنطقة .. ،

فقد استورد البعض نظريات الفرنسيين واختار اخرون نظريات الألمـــان .. وجاء الجيل الثاني فاستعار تعريف ستالين ..

وإذا كان ماركس لم يطرح تعريفاً كاملاً جامعاً مانعاً كذلك الذي طرحـــه ستالين فالماركسية واضحة - كما نرى في - ربط الأمـــة بالرأسمالية . .وفي التبشير بزوال هذه القوميـــة ووحدة الجنس البشري في ظل الاشتراكية أو الشيوعية العالمية ..

غير إن الخط الذي يربط الماركسيين بالقوميين السوفيتين هو اتفاقهم جميعاً على استبعاد الاسلام من مكونات الوجود العربي .. إصرارهم على أن تكون دعوتهم حرباً على الاسلام .. ثم استعارة القوميين أسلوب الحسم الميكانيكي الذي لجأت اليه الاستالينية في تحديدها المواصفات التي تقوم بها القومية أو تنتفي ..

فالماركسية عندما تقول إن شروط قيام القومية تتضمن اللغة والحياة الاقتصادية فانها تعرفها كما لو كانت مركباً كيمائياً .. فملح الطعام يتكون من الكلور والصوديوم ، فاذا اختفى احدهما استحال تصور وجود الملح .. وكل منهما جوهر فرد ثابت لا بداية ولا نهاية له ..

استعار القوميون هذا التحديد .. وان تكن الضرورات الواقعية قد اجبرتهم على حذف بعض العوامل التي طرحها ستالين .. إلا انهم عوضوا ما فقدوه – شأن الأم الثكلى – فافرغوا كل حنانهم فيما بقي لهم من عوامل الأمة ..

النظريّة الماركسيّة

الماركسية كما عرفها لينين : هي الفلسفة الالمانية ، والاقتصاد السياسي الانجليزي والاشتراكية الفرنسية . . فهي – كما ترى – نتاج الحضارة الاوربية . . بل وغرب اوربا بالذات وقوانينها قد استنبطهما ماركس وانجلز من دراسة تطور المجتمع في غرب اوربا .. رغم ذلك فإن البعض يظن انه يمكن تفسير تاريخ الجنس البشري ، بل واصدار قوانين تحكم ماضينا وتخطط لمستقبلنا .. من دراسة تطور « ماكوك » النسيج في غرب اوربا ! ..

على أية حال ليس هذا موضوعنا .. إننا سنناقش هذا التعريف الماركسي للقومية ..

« الأمة جماعة من البشر ، ليست جماعة رس أو عرق أو عشيرة أو قبيلة أو عائلة ليست جماعة بيولوجية متولدة من أب وأم ، من أصل واحد . لقد نشأت تاريخياً من تمازج رسوس مختلفة ..

الأمة جماعة من البشر تكونت تاريخياً ..

الأمة جماعة من البشر ثابتة أو مستقرة .. الاشتراك في اللغة هو احدى الخصائص المميزة للأمة ..

الأرض المشتركة هي إحدى الخصائص المميزة للأمة ..

ولكن لا وحدة اللغة وحدها ولا وحدد الأرض تكفي لتكوين أمة ..

إن وحدة الحياة الاقتصادية ، أو التماسك الاقتصادي ، هي إحـدى الخصائص المميزة للأمة « إن وحدة التكوين النفسي التي يتجلى في وحـدة الثقافة هي إحدى الخصائص المميزة للأمة » إذن فالأمة جماعة مستقرة من البشر ، تكونت تاريخياً من جراء وحدة اللغة والأرض – والحياة الاقتصادية ووحـدة التكوين النفسي التي تتجلى في وحدة الثقافة [1]

وفقاً لهذا التعريف نكون قد بدأنا نفقد مكوناتنا كأمة في القرن التـــاسع عشر .. وتم ذلك نهائيا في القرن العشرين .

فأجزاء منا لم تعد جماعة مستقرة . بل بدأت ابادتنا وتشتيتنا وتحولت جماعات منا إلى لاجئين .. كما جرت مطاردة اللغة العربية في شمال افريقيا..ومزقت وحدة الارض – تحت أشكال عديدة من النظم والانتدابات والوصايات..وتمزقت الوحدة الثقافية بين مدارس التبشير والتأثيرات اللاتينية والسكسونية واختفت الوحـــدة الاقتصادية بانضمام اجزاءمنا إلى وحدة الاسترليني واخرى إلى كتلة الفرنك الفرنسي وأجزاء إلى الليرة الايطالية ..

يقول ستالين : « اذن فان وحدة الحياة الاقتصادية – أو التماسك الاقتصادي – تكون احدى الخصائص المميزة للأمة .. »

كانت النظرية الماركسية سليمةتماماً ومنطقية للغاية قبل زحف الشارع بشعارات الوحدة العربية ، وما ترتب على ذلك من اعتراف بالقومية العربية ..

هنا ظهر التناقض..وتكشف تخلخل التفسير الماركسي..فوفقا لهذا التفسير، كنا دولة اقطاعية ، لم تصل بعد إلى مرحلة القوميات . . ثم بدات قومياتنا تتشكل مع النمو الرأسمالي .. فظهرت القوميات : المصرية ، والسورية ، والعراقية .. الخ.

---

(١) هذا هو التعريف الستاليني للامة في أفضل صيغة ممكنة، وهو ما عرضه الياس مرقص في كتابه نقد الفكر القومي -- اخترناه بالذات لانه كما قلنا افضل صيغة ممكنة للتعريف الستاليني ولان الياس مرقص هو زعيم شيوعي سابق -- له مواقف مشرفة في الدفاع عن الوحدة العربية وفضح تآمر الشيوعيين عليها -- ولانه يكاد يكون قد وضع يـــده على كل رؤوس المواضيـع -- يمتاز بمعرفة موسوعية وصدق نادر --

فلما زحف الشارع رافعاً شعارات القومية العربيـــة ، واضطر الماركسيون في بعض البلدان الى تفادي السجن باعلان الموافقة على وجود قومية عربية من المحيط إلى الخليج .. عندئذ بدا المنطق الماركسي مضحكاً للغاية ..»

فالقومية العربية ظهرت في لحظة تمزق الوحدة الاقتصادية في لحظة تمزق وحدة الارض.. ! وهذه القومية لم تكن موجودة يوم كانت وحدة الارض ووحدة الحياة الاقتصادية ووحدة الثقافة ووحدة التكوين النفسي .. قائمة ! ثم جاءت القوميـة يوم فقدنا كل هذا ؟ !

يقول وليام بولك : في سنة ١٨٢٤ اشترت دمشق من الشرق عن طريق بغداد ضعف ما اشترت سوريا كلها من أوربا .. وبعد ان فتحت مصر ساحل الشام للتجارة الغربية (بحروب محمد علي) تغير هذا الوضع جذرياً ففي سنة ١٨٣٨ كان سكان المدن يرتدون طرابيش مستوردة من فرنسا ، ويشربون في كؤوس مصنوعة في بوهيميا . وفي ١٨٥٧ انقطع سير القافلة القديمة بين بغداد ودمشق . . واندثرت أو نسيت طرق التجارة « ومدينة حلب التي اعتادت استيراد البن من اليمن . . بدأت تستورده من « سانتودومينجو » عبر فرنسا .. والفلفل الذي الذي كان يصل الى بيروت عبر بغداد أصبح بعد ظهور البواخر ، أصبح يصل إلى بغداد عبر بيروت »[٢] .

بل ويتحدث وليم بولك عن اختلاف الفولت في بغداد عنه في دمشق مما يجعل استخدام السلع الكهربائية الانجليزية متعذراً في سوريا كذلك الفرنسية في بغداد.. ونفس الظاهرة كانت توجد في المدينة الواحدة حيث كان الفولت الفرنسي هو المستخدم في « مصر الجديدة » والفولت الانجليزي في بقية القاهرة !..

من هنا نرى مأساة الاستاذ الماركسي في المعاهد العربية عند ما يضطر - بقوة الشرطة - إلى الاعتراف بالقومية العربية .. ثم يطرح على تلاميذه تعريف ستالين قائلا : « لعل خير تعريف للأمة هو أن الامة جماعة ثابتة من الناس مؤلفة (كذا) تاريخيا ، لها لغة مشتركة ، وأرض - واحدة ، وحياة اقتصادية مشتركة ، وتكوين

نفس مشترك يجد له تعبيراً في الثقافة المشتركة .

وينص على انه « لا بد من توافر هذه المقومات جملة وكاملة لتكوين الامة » .. الصدق العلمي يحتم ان تكون النتيجة المنطقية لهذا التعريف والاصرار عليه هو الاعتراف بوجود قوميات في مصر والسودان والعراق . . الخ ونفى وجود أمة عربية من المحيط إلى الخليج فهذه الشروط ليست « جملة ولا كاملة » ومن ثم فأمتنا لم تتكون .. وهذه هي النتيجة التي يقضي إليها تدربس المنهاج الماركسي في معاهد الدول التي تدعو إلى القومية العربية ، وتنادي بالوحدة العربية على أساس الامة الواحدة ..

النتيجة الوحيدة الممكنة هي تدمير هذا المنطق لقناعة دارسيه بوحدة امتهم .. وعندما احتمى الشيوعيون من غضب الجماهير بشرطة قاسم اعلنوا صراحة رفضهم لقومية واحدة من المحيط إلى الخليج . . ويقرر « الياس مرقص » ان الدكتور جورج حنا » اكتشف ١٤ أمة عربية في كتابه « تصويب مفهوم القومية العربية » أي بعدد الاسواق العربية .. وان الرفاق العراقين تحدثوا عن قومية آشورية واخري كلدانية ..

وما كاد الشيوعيون المصريون يحسون بالدفء حتى عاد الحديث عن تطور القوميه المصرية [1] .

والاستاذ الماركسي يستعير نظرية الربط بين ظهور الحركات القوميــة وظهور الرأسمالية فيؤكدلنا :

« الحركة القومية العربية ــ مثل الحركات القومية في اوربا ــ ترتبط في ظهورها ارتباطاً جذرياً بعاملين :

أولا ــ بداية انهيار الاقطاع كنظام منفرد سائد في العلاقات الاجتماعيــة الاقتصادية ..

ثانياً ــ بداية ظهور العلاقات الرسمالية في الانتاج الاقتصادي ، وما يربط بهـذا

---

(١) انظر الطللعة القاهرية عدد يناير سنة ١٩٦٧ ..

العامل من ظهور الطبقة المتوسطة المشتغلة بالتجارة والساعية إلى السيطرة على الاقتصاد الوطني ..

ويزيدنا فهماً فيقول : « وليس معنى ذلك إن النظام الرأسمالي قد خلق القومية من العدم واصطنعها اصطناعاً ، وإنما كانت القومية امكانيات ومقومات ضيقة وغير مترابطة بسبب الاقطاع .. فجاء النظام الرأسمالي فأتاح الفرصة لهذه الامكانيات وطورها ، لا رغبة في خلق قومية ، ولكن سعياً وراء تحقيق مصالحه الخاصة .. »

لهذا كله يرتبط ظهور القومية كظاهرة تاريخية بانهيار الاقطاع وظهور الرأسمالية »[1] .

ويتلطف بنا استاذ آخر فيعلن : « حقا إن الماركسية ترى إن القوميات ظاهرة مؤقتة في تاريخ البشرية ستزول تدريجياً بزوال النظام الرأسمالي العالمي ، وتلاشي الطبقات واجهزة الدولة ، على إن هذه مرحلة تاريخية بعيدة (٣) ..

وبكداش (٤) يقول : « قبل نشوء الأمم ، أي قبل نشوء الرسمالية واندثار الاقطاعية ، لم يكن هناك اضطهاد قومي . إذ لم يكن هناك أمم ولا قوميات[2]..

هذا المنطق قد يخدم النظرية القائلة بقومية مصرية واخرى سودانية وثالثة عراقية .. الخ أما على القومية العربية .. فكذب ومغالطة ..

لأننا رأينا إن النمو الرأسمالي — ولأنه كان وافداً من الخارج بفعل الاستعمار — لم يحقق وحدة السوق العربية ، بل مزق هذه الوحدة ..

لقد كان عندنا ما وصفه لينين بأنه « وحدة اللغة وانكشافها الحر ، يكونان أهم الشروط الضرورية لقيام تبادل تجاري حر تماماً، وشامل حقيقة ، وملائم لمقتضيات

---

(١) دكتور محمد انيس .

(٢) بماذا يسمي بكداش قوفل الاسرى الليبيين والحثيين والنوبيين الركعين أمام فرعون المصري على الاهرامات والمسلات .. وبماذا يسمي اضطهاد الهكسوس للمصريين .. وثورة المصريين عليهم ؟! ..

الرأسمالية العصرية تمام الملاءمة. كما إنه شرط لاتصال السوق اتصالا وثيقاً بكل منتج وكل بائع وكل مشترٍ .

هكذا كنا منذ القرن الثاني الهجري – على أقل تقدير – ثم بدأنا نفقده .. فهل كنا أمة وتحولنا إلى أمم .. ونعود لنصبح أمة من جديد ؟

كان عندنا مجتمع تجاري ناهض .. ثم هوينا إلى المجتمع الاقطاعي .. فتطورنا هو عكس تطور اوربا .. فهل يجب أن تنطبق علينا نفس مقاييسها ؟.. إن اوربا دخلت المجتمع الاقطاعي قبل ان يتم تكوّن اممها فظلت على تمزقها .. فلما نشأت الرأسمالية التجارية وتطلعت للسوق نشأت الحركة القومية .. هناك أكثر من تحفظ على هذا التفسير .. ومع ذلك فإن تطورنا نحن يختلف فقد صاحب نشوء المجتمع التجاري اكتمال مقومات الأمة العربية في حجمها الحالي .. فلما فرضت علينا التجزئة والتخلف ظلت الأمة .. لأن الكائن الحي لا يرتد ولا يشوه [1] بعدما تكون .. قد يفنى أو يموت .. ولكنه لا يرتد ..

والأمة التي وجدت مرة في التاريخ .. وحققت وجودها إما ان تفنى .. وما اكثر الأمم التي فنيت .. وإما إن تبقى ولو تحت سيطرة خصمها .. ولكنها لا تفقد مكونات الأمة ابداً أي لا ترتد لمرحلة ما قبل الأمة ..

هذا .. مخالف لقوانين الحياة .. ضد شواهد التاريخ .. فالأمة العربية قد اكتمل نموها بالفتح الاسلامي وانتصار اللغة العربية .. تلك قضية قد فصل فيها قبل ظهور ماركس بألف سنة . وهكذا يتبين لنا إن الأخذ بالتعريف الماركسي ينهي الحديث عن امة واحدة من المحيط إلى الخليج .. فهذه الأمة لا تربطها وحدة الارض .. لأن الحواجز السياسية قد مزقت هذه الوحدة [2] .

والامة العربية لا تعيش حياة اقتصادية مشتركة ، فاقتصادياتها متباينة مختلفة ، بها

---

(١) نقصد بالنشوه ما يصيب الكائن الحي اثناء تشكله لا التشويهات الخارجية ..

(٢) بداهة ان وحدة الارض يقصد بها حرية الانتقال الجماعي .. والا فان الاخذ بالمفهوم الجغرافي يفقد هذا الشرط جديته .

كافة أشكال النظم الاقتصادية المعروفة في العالم من الرعي الى الاشتراكيــــة .. وكانت معظمها إلى سنوات قريبة عبارة عن شرائح في اقتصاديات عالمية متنافسة[1].

اما التكوين الثقافي والنفسي..فلم يبق منه إلا الرابطة المتمثلة في الفكر العربي الاسلامي .. هذا أيضاً كان يتعرض لمحاولات تدمير وتشويه وتمزيق عنيفة خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين .. وترتفع اليـــوم أصوات مخلصة في محاولة انقاذه .. في مواجهة أصوات صاخبة مسعورة تستند إلى كل مـا فرض علينا من تخلف للطعن في لغتنا وفي امكانياتنا الثقافية..

فهذا هو التعريف الستاليني الذي لاحظ الحصري بحق انه « خطة سياسية » اكثر ما يشبه « نظرية علمية » . (٢)

فهذه الخطة السياسية التي وضعت لضمان احتفاظ روسيا الشيوعية بتركة روسيا القيصرية والتي هدفت الى تفتيت الولايات الاسلامية في الامبراطورية الروسية الى مجموعات وتعريفات لا حصر لها : شعب .. قومية لم تصل بعد الى مرحلة الأمة .. امة ليس لها حق الانفصال .. امة لها حق الحكم الذاتي .. أمة لها حق الانفصال ولكنها تختار الانضمام .. جماعات قومية .. الخ بحيث تحولت المنطقة الاسلاميـة التي عاشت فيها امة واحدة اكثر من ألف سنة .. تحولت إلى شظايا سياسية تدور كلها في فلك الامة الكبرى .. روسيا المقدسة التي أصبحت دولة العمال والفلاحين ..

هذه « الخطة السياسية » كفيلة بأن تحدث نفس التمزق في امتنا لو اقتبسناها على انها نظرية علمية ..

ولكن ! لحساب من سيكون هدا التمزق ؟!

للاسف سيكون ذلك لغير صالح العرب .. بل للمتربصين بالعرب . . الساعين لمد نفوذهم في الوطن العربي .. اعداء العروبة والاسلام التقليديين ! . . ونحن اذ

---

(١) واذا اكتب هذه السطور قرر مجلس الجامعة العربية ارسال وفد للدعاية للسوق العربية المشتركة ، في البلاد العربية :

كنا نقبل التفسير الذي يقدمه « الياس مرقص » .. اذ يقول : « إن خطأ ستالين الحقيقي الكبير ليس في كونه أدخل الحياة الاقتصادية المشتركة في الأمة ، بل في كونه اضفى صفة الاطلاق على هذه العلامة وعلى سائر العلائم الثلاث الاخرى بما فيها علامة اللغة .. وبذلك نقل القضية من صعيد التاريخ والمادية التاريخية والجدلية إلى صعيد المنطق الصوري» ..غير اننا لا نوافق على الاعتذار الذي يرفقه بهذه الفقرة عندما يقول« وتناقض ستالين لا يدين الماركسية بل يدين السكولاستيك الستاليني » ..

فصحيح إن ستالين « العظيم » قد أصبح ابليس الماركسية أو كبش الفداء الذي يحمل كل خطاياها .. غير إن الاستاذ « الياس مرقص » يعرف بغير شك إن ستالين وضع تعريفه هذا ولينين حي .. بل وقبل وفاة لينين باكثر من عشر سنوات. ولا نظن إن لينين كان يخشى ديكتاتورية ستالين كما اعتذر الشجاع خرشوف عن مواقفه في عهد ستالين ..

فإذا لم يكن لينين ولا ستالين بقادرين على فهم المادية الجدلية والتاريخية .. فليعذرنا كل مجتهد بعدهم إن رفضنا إجتهاداته ..

إن التعريف الستاليني اللينيني (ما دام قد صدر وأقر في حياة لينين) ، مستمد من الفهم الماركسي ، ومعد لتحويل الامبراطورية الروسية بكامل حجمها إلى الاتحاد السوفيتي .. أي انه كما هي العادة عبر التاريخ .. كانت المباديء في خدمة المصالح القومية ..

وعندما بدأ خروشوف نبش قبر ستالين ، وفضح ما خفي من تاريخ « معلم البشرية » نشرت تفاصيل المجزرة التي تمت بواسطتها اختيار « جورجيا » الحر الانضمام للاتحاد السوفيتي .. ضاربة عرض الحائط بحق تقرير المصير الذي قدمه لها البلاشفة على طبق من الاوهام تحيط به سيوف ومدافع تعصف بكل من يحاول أن يتذوقه .. صدقت « جورجيا » ان من حقها ان تمارس تقرير المصير .. فتوجه اليها بلاشفة القوقاس بقيادة الرفيق « اورد جونيكدزه » ولقنوها درسا قاسيا ..

والرواية التاريخية المروجة حالياً تتحدث عن غضب لينين على هذا الموقف .. وتتهم ستالين بضرب القوميات ..

يقول خطاب لينين : « يبدو لي إني مذنب تجاه عمال روسيا ، لأني لم اتدخل بما يكفي من الحزم والشدة في مسألة الاستقلال الذاتي الشهيرة التي تسمى رسمياً ،على ما يظهر مسألة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية . .

باختصار كنت مريضاً ، عندما اثيرت هذه المسألة ، ثم في الخريف كنت اتوقع تماثلي للشفاء ، وانتظر دورتي تشرين الأول ، كي اتدخل في هذه القضية . .

وما رواه لي الرفيق « دزرجنسكي » الذي كان على رأس اللجنة الموفدة من قبل اللجنة المركزية للتحقيق في الحادث الجيورجي ، كان لا بد لي أن استخلص اكبر المخاوف . فإذا كانت القضية قد بلغت حداً وصل معه « اورد جونيكدزه » إلى استخدام العنف المادي ، كما اخبرني « دزرجنسكي » فيمكننا أن نتصور في أي ورطة وضعنا أنفسنا . .

من الواضح إن عمل « تحقيق الاستقلال الذاتي » بمجموعه كان خاطئاً بصورة جذرية وسيء الأحكام . . يقال إن الجهاز كان بحاجة إلى الوحدة . . ما هو مصدر هذا التأكيد ؟ هل هو نفس الجهاز الروسي الذي اخذناه عن القيصرية ،وصبغناه قليلاً بالصبغة السوفيتية كما سبق ولاحظت في قسم سابق من مذكراتي (فيما يتعلق بالقوميات هذه ملاحظة صحيحة إلى بعد حد . ج .) . .

من الطبيعي تماما في مثل هذه الظروف إن مبدأ « حرية الخروج من الاتحاد » الذي نبرر انفسنا به سيكون حبراً على ورق (وهو ما كان فعلا . ج) وعاجزاً عن الدفاع عن غير الروس تجاه انقضاض ذلك الروسي الشوفيني، ذلك البيروقراطي الروسي النموذجي ، الذي هو في جوهره وغد مكار يعشق العنف والتعسف . ولا شك إن تلك النسبة الضئيلة جداً من العمال السوفيتيين ستغرق في هذا البحر من الحثالة السوفيتية الروسية كما ستغرق الذبابة في اللبن (تأمل التشبيه !) . .

« هل كنا على ما يلزم من العناية والانتباه في اتخاذ الاجراءات التي تكفل لابناء القوميات الاخرى دفاعاً حقيقياً ضد الطغاة الروس الحقيقيين ؟ لا أعتقد اننا اتخذنا مثل هذه الاجراءات رغم انها كانت بامكاننا . ومن واجبنا » .

« اعتقد ان تسرع ستالين وتحمسه للطرق الادارية الصرفة، وكذلك حقده على

الاشتراكية الوطنية ، الشهيرة لعبت دوراً مشئوماً في هذا المجال ..

« ان اتخاذ الحقد قاعدة للعمل السياسي أمر في غاية السوء ، كذلك أخشى ان يكون « دزرجنسكي » الذي ذهب الى القوقاس للتحقيق في جرائـــم « اولئك الاشتراكيين الوطنيين » قد تميز بنمط تفكيره الروسي الحقيقي – من المعروف عامة ان أفراد القوميات الاخرى الذين تروسوا يغالون في نمط التفكير الروسي – وأن أبرز سمة لحياد وعدم تحيز لجنته بأسرها كان تنكيل « اوردجونيكدز ». اعتقد انه ما من استفزاز او اهانة يمكنها أن تبرر هذا التنكيل الروسي . . وان « دزرجنسكي » مذنب ولا عذر له بتبنيه موقفاً لا مبالياً من هذا التنكيل ..

– لينين –

٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ [١]

« ان المسئولية السياسية عن هذه الحملة القومية الروسية الشوفينية (أي المتعصبة لصالح الروس) تقع بالطبع على ستالين ودزرجنسكي » .

– لينين –

٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٢

مفهوم الخطاب الذي نقلناه بحروفه

ان الاشتراكيين الوطنيين – هم الذين أرادوا ممارسة فعلية لشعار حق تقرير المصير الذي اعلنته الثورة الشيوعية .

« والاشتراكية الوطنية » لقب يساوي الخيانة عند الشيوعين ..

ومن ثم نكل بهم « ذلك الذي اعتنق النمط الروسي في التفكير ..

في ظروف انعدام وسيلة الدفاع لدى شعوب روسيا القيصرية غير الروسية ، ضد التفوق الساحق لجهاز الكبت القومي الذي تكون في ظل القيصرية ، وورثته واستخدمته الدولة السوفيتية الجديدة كما يعترف لينين ..

(١) حركة التحرر الوطني في الشرق .

وستالين هو بالضبط كما وصف لينين ، دزرجنسكي ، من القوميات الصغرى التي اعتنقت نمط التفكير الروسي فأصبحت ملكية أكثر من الملك .. فستالين من جورجيا ، ولكنه تاريخياً رجل القومية الروسية ، ويمثل مصالحها ، ويحقق أهدافها التي وضع أسسها بطرس الأكبر .

وإذا كانت عبقرية لينين ومثاليته قد جعلته يكتشف هذه الحقائق ويكشفها ، مفضلا الوصول بأسلوب آخر غير اسلوب « الانجازات الادارية » فالحقيقة المعروفة إن لينين مات سنة ١٩٢٤ بعد سنوات مرض ومحاولة اغتيال .. وإن الذي بنى الاتحاد السوفيتي هو ستالين .. ومن ثم فلنا إن نفترض إن هذه الوحدة لم تتم اختيارياً بل بأسلوب ستالين المتسم « بالتسرع والتحمس للطرق الإدارية الصرفة والمتسم بالحقد على الاشتراكية الوطنية » كما قال لينين ..

على إن غضبة لينين ضد اسلوب ستالين المتسرع والحاقد لا يجوز تفسيرها على إنها سخاء من لينين ، أو استعداد من جانبه للتفريط طواعية في شبر واحد من التركة التي أورثتها له سيوف الاجداد .. فإن هذا التفريط لا يفعله إلا العملاء ..

كتب لينين في نفس اليوم أي ٣١ / ١٢ / ١٩٢٢ ..

« ما هي الاجراءات التي يجب اتخاذها في الحالة الحاضرة . . »

اولا – علينا أن نصون ونعزز اتحاد الجمهوريات الاشتراكية ، هذا أمر لا يجوز ان يرقى اليه أي شك وهو ضروري بالنسبة لنا وبالنسبة للبروليتاريا الشيوعيه العالمية في النضال ضد البورجوازية العالمية ومواجهة دسائسها .. »

لم يكن لينين على استعداد للتفريط في الامبراطورية الروسية لا لمصلحة البروليتاريا العالمية كما يقول .. بل لسبب بسيط تكشفه هذه البرقية :

« برقية إلى مكتب تركستان .. للجنة المركزية : موسكو بحاجة مطلقة وماسة للخبز لذلك طبقوا السياسة الاقتصادية الجديدة » وسلسلة من التنازلات والمساعدات إزاء التجار وفي الوقت نفسه ، ابدوا أقصى ما يمكن من الاهتمام تجاه الفقراء المسلمين وتنظيمهم وتنويرهم هذه السياسة يمكن ويجب صياغتها وتثبيتها في

سلسلة من التوجيهات الواضحة ..

ويجب أن تكون قدوة للشرق اجمع . »

لينين

٧ اغسطس ١٩٢١

الفرق في الاسلوب .. انما يجب ان يزرع فقراء المسلمين القمح في تركستان ليأكله الروس في موسكو .. وهذه هي العلاقة الوحيدة الممكنة منذ ان فتح القياصرة بلاد المسلمين في تركستان .. كان لينين يريد ضمان استمرار تدفق القمح المسلم إلى مطاعم موسكو وموائد الروس ، بأسلوب الاهتمام وتنظيمهم وتنويرهم ..

ولكن ستالين كان أكثر تحمساً ، وأيضاً أكثر واقعية .. وأكثر إدراكاً لحقائق العصر .. فما من شعب « ينظم ويتنور » يقبل ان يكون قمحه مسخرا لسد حاجة موسكو « المطلقة » للخبز ..

القوة وحدها تبقي هذه العلاقة ، وقد أبقاها ستالين بالوسيلة الوحيدة الممكنة الشوفينية الروسية .. التي أصبح اسمها « السوفيتية » .

لقد حقق ستالين « ما كان يرمي إليه لينين .. فقد رفض لينين حتى القول بوجود مستعمرات روسية .. وأيد بتحفظ شعار خروج الدول الغربية من المستعمرات ، ورفض ذلك الشعار إطلاقا بالنسبة لروسيا : « فمن الواضح ان كيفسكي يردد شعار: « اخرجوا من المستعمرات » نقلا عن بعض الماركسيين بل وبدون النظر الى السمات الخاصة بروسيا (!?!) قد نغفر الى حد ما لماركسي هولندي أو ألماني اقتصاره على شعار « الخروج من المستعمرات » ذلك اولاً لأن الشكل العام النموذجي للاضطهاد القومي ، في حال معظم أقطار اوربا الغربيه هو اضطهاد المستعمرات ، وثانيا لأن كلمة « مستعمرة » بالذات لها مدلول واضح وبارز وحي بالنسبة لاقطار أوربا الغربية . أما روسيا ، فسمتها المميزة تكمن بالضبط في ان الفرق بين مستعمراتنا وأممنا المظلومة ليس واضحاً وملموسا ومحسوسا بشكل حي..

قد يغفر للماركسي الذي يكتب باللغة الألمانية مثلا ان ينسى هذه السمة

الخاصة بروسيا . ولكن ذلك لا يمكن ان يغفر لكيفسكي . بالنسبة للاشتراكي الروسي الذي لا يكتفي بتكرار الكلام بل يريد التفكير ، يجب أن يكون واضحا بشكل خاص أن كل محاولة لاكتشاف بعض الفوارق الجـذرية بين الأمم المظلومة والمستعمرات في حالة روسيا لهي في منتهى الحماقة » ..

ولأن لينين ليس أحمق .. فهو يعلن شعار الخروج من المستعمرات على هـذا النحو :

« واذا وضعنا هذا المطلب في صيغة سياسية واضحة ،بدلا من هتافات التحريض، نطلب من حكوماتنا أن تمنح المستعمرات حرية الانفصال التامة ، أي حق تقرير المسير الفعلي ونحن انفسنا واثقون من تطبيق هذا الحق ومنح هـذه الحرية ، فور إستيلائنا على الحكم. ونطلب ذلك من الحكومات القائمة وسنطبقه عندما سنكون في الحكم ، ليس في سبيل تحبيذ الانفصال بل على العكس في سبيل تسهيل وتعجيل التألف والاندماج الديمقراطيين بين الأمم ..

سنبذل كل جهد في سبيل إدامة التآلف والإندماج مع المنغوليين والفرس والهنود والمصريين ، ونحن نؤمن إن الواجب والمصلحة يفرضان علينا هذا السلوك ، إذ بدونه لن تكون الاشتراكية الأوربية في امان [1] .. وسنجهد لمنح هـذه الأمم التي هي اكثر تأخراً وأشد مقاساة للظلم منا « العون الثقافي النزيه » سنساعدها في المضي إلى استخدام الالات الحديثة وتخفيف عبء العمل وإلى الديمقراطية والاشتراكية ..

وإذ نطالب بحرية الأنفصال للمنغوليين والفرس والمصريين وسائر الأمم المظلومة والمغلوبة بدون استثناء ، فإننا لا نفعل ذلك لاننا نحبذ الانفصال ، ولكن فقط لأننا نؤيد التآلف والأندماج الحر الطوعي باعتباره يتميز عن الأتحاد القسري ذلك هو السبب الوحيد(٥) ».

الأهداف واحدة وواضحة تماماً .. الخلاف في الأسلوب .. كان لينين بمثالية الثوار يتوقع أن تتم وحدة الهنود والمصريين مع الانجليز في ظل الأممية الاشتراكية ..

---

(١) نفس منطق الرأسمالية الاوربية في الاحتفاظ بالمستعمرات ..

أي يتحول الكومنولث البريطاني إلى سوفيت بريطـــاني .. يقوم فيه « فقراء المصريين وفقراء الهنود بسد حاجة لنكشير « المطلقة والماسة للقطن » كذلك وحدة اختيارية بين تركستان وروسيا .. وحدة قائمة على الاختيار الحر لا القسر ، عمادها هؤلاء العملاء الجـــدد الذين تم تبشيرهم بالشيوعية ، ويتولون هم ربط المستعمرات القديمة ، بالدولة الاستعمارية مرة اخرى باسم الأخوة الأممية .. وانطلاقاً من هـذا الفهم توقع لينين أن تنضم بولندا وفنلندا بسهولة أكثر إلى روسيا مستعمرتها القديمة، للتقدم الثقافي وتقدم الفكر الاشتراكي فيهما عن مستعمرات الشرق المتخلفة ..

والذي حدث هو العكس تماماً ، انفصلت المستعمرات الأوربية واختـــارت المستعمرات الإسلامية « طواعية » وبأسلوب ستالين الشديد الإقنـاع .. اختارت الأنضمام ..

ان اهداف لينين كانت بحاجة الى واقعيةستالين واجراءاته القسرية كي تتحقق.. ان اللينينية هي الحل العبقري للتحديات التي اكتشفها بطرس الأكبر . . والستالينية هي الاسلوب الوحيد لتحقيق اللينينية ، وانجاز اهداف بطرس الأكبر ..

ان نقد ستالين مباح ومقبول .. غير اننا نرفض أي زعم بأن ستالين لم يكن الابن البكر للماوكسية — اللينينية .. بل ان « الياس مرقص » قد وضع اصبعه على فكرة فشل الماركسية أساساً ، كنظرية تقسر الحركة القومية في الشرق ، عندما قال : ان تاريخ تكون الامم وتوحد الامم في آسيا وافريقيا في عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، لا يمكن ان يكون تكرار لتكون وتوحد الامم الاوربية في عصر الرأسمالية الصاعدة .. (٦) »

هذا صحيح . . ان الماركسية لا تصلح لتفسير حاضرنا ولا لتغيير واقعنا . . ونحن نضيف ولا لتفسير ماضينا. ولكن الخلاف المنتظر لا يرجع فقط للمناخ الجديد

الذي يتم فيه « فقس » الامم الاسيوية والافريقية .. بل ايضا وربما بـل أساساً ، لاختلاف في ذات تكوين هذه الامم ..

ان تاريخ الامم الاسيوية والافريقية لم يدرس بعد وبالتالي لا يمكن اخضاعها غيابياً لاحكام صدرت بناء على دراسة تاريخ اوربا..

ان تاريخ آسيا وافريقيا اعرق وأكبر وأكثر تعقيداً وخصوبة من أن تفسره الماركسية فضلا عن ان تتحكم في مساره !..

تبقى ثلاث نقاط في نقاشنا للمفهوم الماركسي ..

- وحدة اللغة ..
- وحدة التكوين النفسي الذي يتجلى في وحدة الثقافة ..
- الارتباط المزعوم بين الأمة أو النزعات القومية وبين الرأسمالية ونبوءة الماركسية بأن الأمم أو القوميات ستختفي بإختفاء الطبقات أو بتطبيق النظام الاشتراكي .

والحديث عن اللغة سيتناول بالحتمية آراء القوميين اللادينيين الذين أفرغوا حنانهم القومي كما قلنا على عامل اللغة ! ..

لقد أستعار « الحصري » النظرية الألمانية في القوميات وهي نظرية اللغة ، وكما لاحظ بحق ان نظرية ستالين لم تكن سوى « خطة سياسية » لاستبقاء الامبراطورية القيصرية وتفتيت الولايات الاسلامية .. فإنه للاسف قد فاته أن يلاحظ إن « الجدل العلمي » بين الفرنسيين والألمان — لم يكن إلا صراعا سياسياً حول الالزاس ..

والحصري يرى « اللغة روح الامة وحياتها .. والتاريخ ذاكرة الامة وشعورها ووعيها » .

ويقول : « النظرية القائلة بان « اس الاساس » في تكوين الأمة هو « وحدة اللغة » . لقد نشأت هذه النظرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر في المانيا ، وانتشرت منها إلى معظم البلاد الاوربية والغربية والشرقية ، وهي تعرف الآن باسم « النظرية الالمانية » (٧) .

وينسى الحصري أن يطبق ما لاحظه بخصوص النظرية الروسية في القومية ..

ينسى أنه في السياسة والاجتماع والفلسفة .. لا يوجد ما يسمى بالنظريات العلمية .. بل العلم هنا منحاز .. والنظريات تعكس المصالح القومية أو الطبقية ..

فهذه « النظرية الالمانية » وحدها هي التي كانت تحقق الأهداف القومية في الوحدة الالمانية ، وضم السكان الناطقين بالالمانية والخاضعين أو المندمجين باختيارهم في دول اخرى وبالذات سكان الالزاس ..

ومن هنا كان من الطبيعي أن تظهر نظرية « علميـــة » على كل من الحدود الألمانية — الفرنسية : نظرية اللغة التي يقول فيها « فيخته » إن الحدود الاساسية التي تستحق التسمية باسم « الطبيعية » هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغـات . فإن الـذين يتكلمون باللغة الواحدة يرتبط بعضهم ببعض ، بحكم نواميس الطبيعة بروابط عديدة ، فيكونون كلا لا يقبل الانفصام » .

ونظرية المشيئة الفرنسية حيث يجعل ارنست رينان «اس الأساس » في تكوين الأمة ، هو الارادة وبتعبير آخر « مشيئة المعيشة المشتركة .. »

كان الألمان والفرنسيون يتحاورون حول سكان الزاس ، فما داموا يتكلمون الألمانية فيجب وفقا للنظرية الألمانيـة أن يلتحقوا بالوطن الأم . . ألمانيا . . شاءوا أو أبوا .. لأن ذلك إطاعة لنواميس الطبيعة .. ونواميس الطبيعة لا تخضـــع لاستفتاء ..

بينما يردد الفرنسيون ان سكان الالزاس يريدون البقاء مع فرنسا وبالتالي فهذه هي قوميتهم بصرف النظر عن لغتهم ..

وبالطبع فان الكلمة الحاسمة في مثل هذا الحوار كانت للمدفع . ولكن النظريات هي التي تعطي الجندي خلف المدفع مبررا للموت وقتل الآخرين ..

ينسى استاذ القومية ذلك ، ويستورد لنـا نظرية « علمية » في فهم القومية ، نظرية وضعت لخدمة مصالح القومية الالمانية بصرف النظر عما قد تكبده لقوميته هو من خسائر ..

وعندما نتحدث عن اللغة فلا شك اننا نعني اللغة العربية الفصحى . . ومن هنا يتبين زيف ادعاءات الشيوعيين الذين يؤيدون الكتابة بالعامية ، أو يصوتون ضد مشروعات التعريب في المغرب العربي . . اذا ما زعموا انهم يؤيدون الأمة العربية أو يؤمنون بوحدتها .

اللغة في اعتقادنا ليست تلك التي تفرق الانسان عن الحيوان . . اي القدرة على التخاطب بين أفراد الجنس البشري . . فهذه اللغة تميز الانسان كانسان على الحيوان . . ولكن اللغة التي تميز الامم عن بعضها هي اللغة التي تسجل الفكر القومي . . تسجل الثقافة القومية والا كان الالمام باللغة وحده يكفي للاندماج القومي . . ولاستحال تفسير لماذا يصبح صلاح الدين رائدا للقومية العربية . . ولماذا يصبح محمد علي وابنه ابراهيم وساطع الحصري قوميين عرب أو أدوات ينحت بها الشعب العربي تاريخه . . رغم اصولهم اللغوية غير العربية . . — بينما يعيش « الجريكي » بيننا عدة اجيال ، ويتكلم العربية حتى في حياته العائلية . . ولكنه لا يصبح عربياً أبداً بل يظل يونانيا الى يوم هجرته الثانية . .

لماذا ؟

لان القضية ليست قضية اللسان وحده . . بل ما يحرك اللسان . . الضمير الذي تنطق عنه اللغة . . الفكر الثقافة . . النظرة للحياة والوجود . . التراث . . الأساطير . . الانتصارات . . الهزائم . .

وكل هذه المعاني لا وجود لها ما لم تتجسد في كلمات . . أي لغة . . صحيح . . ولكن اللغة أيضا لا تنطق عن فراغ او لغو . . فنحن عندما نلقن اطفالنا الفاظ

لغة لا نلقنهم كلمات فحسب ، بل نلقنهم أيضا عبر هذه الكلمات تراثنا وثقافتنا معتقداتنا .. وموقفنا في الصراع الاممي ..

« الحصري » يعرف العربي بأنه من يتكلم العربية ، ويرفض اضافة ومن يريد ن يكون عربيا .. اخلاصا منه لنظرية اللغة لا المشيئة ..

ولكني ارفض هذا التعريف ، وأقول ان « العربي هو من يفكر عربيـــا » الفكر قد يكون شعوريا او لا شعورياً كما هو معروف..المهم أن هناك مكونات فسية وعقائدية تترسب في ضمير الأمة ، ولعلها اكثر نقاء وتجسدا في جماهيرها غير لمتعلمة .. وهذا ما نعنيه بتفكير الأمة .

ويجب ان ننظر في تحفظ شديد للصفة الاطلاقية التي تخلعها الماركسية والحصرية لى اللغة .. فالواقع ينفي هذه المعادلة : لا أمـة بغير وحدة اللغة اذن : انفصال للغة = انفطال الأمة ..

اذ يمكن ان نحصي عشرات الأمم التي تتكلم الانجليزية . . وبنفس القـــوة يصعب على غير المتحذلقين الزعم بأنه لا توجد امة سويسرية .. بل ثلاث امم لأنه توجد في سويسرا ثلاث لغات .. كذلك يصعب تصور وجود معمـــل قومي على حدود الولايات المتحدة كان يتلقى المهاجرين وهم يتكلمون بمعظم لغات العالم فيعيد صبهم في لغة واحدة .. وبذلك يجري نمو القومية او الأمة الأمريكية رغم تباين لغات افرادها ..

كان مجموع سكان الولايات المتحدة سنة ١٧٩٠ — ٢١٤ ر ٣٫٩٢٩ وصل سنة ١٩٤٠ الى ١٣٤ مليونا اي تضاعف خلال ١٥٠ سنة الى ثلاثة وثلاثين ضعفا .. «من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٩٤٩ كان عدد المهاجرين ٣٨ مليونا جنسياتهم ولغـــاتهم كالآتي :

ألمانيا	٦٫٠٢١٫٩٥١
ايطاليا	٤٫٧١٩٫٢٢٣
ايرلندا	٤٫٥٠١٫١٠٠

بريطانيا	٤ر٢٥٥ر١٠٠	
النمسا والمجر	٤ر١٤٣ر٧٧٥	
روسيا	٣ر٣٤٩ر٣٤١	
السويد	١ر٢١٧ر٤٤٨	
النرويج	٠ر٨٠٤ر٨٥٢	
فرنسا	٠ر٥٩٤ر٩٩٨	٨

ان النظرية الستالينية قد نفت وجود الأمة الأمريكية وتحدثت عن اتحاد قوميات .. والحصري وصل من هذه الأرقام الى انكار انجليزية اللغة في الولايات المتحدة الأمريكية ، ما دامت اللغة هي أس الأساس ..

وهكذا نرى إن علينا انكار وجود الأمة الامريكية لكي نحافظ على طهارة الماركسية والحصرية .

غير إن وجود الأمة الامريكية هو أحد حقائق العصر الحادة والمزعجة .. ولا سبيل إلى نسيانها أبداً وخلفها كل هذا الاستعمار النووي ..

وانه أسهل على المرء أن يعترف بوجود خلل في النظرية الماركسية أو المنطق الحصري من أن يسير في هذه الحياة الدنيا وهو ينكر وجود الامريكيين ! كذلك يصعب إقناع المواطن الكونغولي بوجود امتين في بلجيكا لمجرد انهم هناك يتكلمون لغتين .. بل توجد في فرنسا التي لا جدال في وجودها كأمة واحدة ذات تاريخ قومي واحد يوجد « عدة السن بعضها أرقى وأقوى من لسان محلي » وفي الهند يضع مئات من اللغات الارية والدرافية وغيرها [٩] » وفي مصر يتكلم أهل النوبة لغتين .. ويوجد لسان محلي لأهل الواحات .. ولكن ما من أحد قد جرؤ على الحديث عن قومية نوبية أو قوميتين أو قومية سيوية ..

من هنا لا نرى الاطلاق في موضوع اللغة ..

وتاريخ أمتنا اقترن بالذين دافعوا عن وجودها ، وحموها من الفناء ، وكتبوا صفحات في تاريخها بالرغم من ان امهاتهم هدهدتهم بغير اللسان العربي .. من صلاح

الدين الكردي إلى الظاهر بيبرس البندقداري وقطز التركماني .. حتى نصل إلى الذين يعتبرون علي بك الشركسي ومحمد علي الالباني رواداً على طريق الوحدة العربية .. حتى الأمير عبد الكريم بطل العروبة في المغرب .. غنته امه بالبربرية واخيراً فيلسوف القومية العربية الاستاذ الحصري تبادل المزاح مع اترابه في طفولته بغير اللسان العربي .. بل بالتركية كلهم عرب لأنهم فكروا عربياً [1] .

فاللغة وحدها لا تكون أمة واختفاؤها كلغة بيتية لا يحتم الانفصال في الامة إذ المهم هو لغة الحياة .. لغة الثقافة ، لغة الحضارة ، لغة الوجود الحضاري وفي مواجهة الحضارات الاخرى .

ويستخلص من ذلك إن وجود بعض الالسن المحلية عند اجزاء من ابناء الوطن العربي لا يعني وجود قوميات اخرى [2] .

(١) ربما لم يكن ابراهيم باشا يتقن العربية . ولكنه اصبح عربياً عندما استطاع ان يفهم ولو من الناحية العسكرية ان عليه الا يتوقف الا عندما يعجز عن التفاهم باللغة العربية ..

(٢) **للاستاذ الياس مرقص تفسير دقيق كل الدقة عندما يقول « الامة العربية هي مجموع الناطقين باللغة العربية .. ولكن يجب الا ننسى انها جماعة تاريخية ، وان اللغة في نمو وانتشار ، وحركة الاستعراب لم تنته ما زالت هناك اقليات (في المغرب مثلا) لا نفهم لغتها ، وهذه الاقليات لا يجوز ان نخرجها بتعريف (كماركسي يجب اخراجها) او ان نفرض عليها اللغة .. وهي اليوم او غدا ستصير عربية بحياتها وشعورها ، قبل ان تكون عربية بلغتها . ان الامة الصينية ، تتسع لاقليات لغوية وكذلك الامة الفرنسة وغيرها (نقد الفكر القومي ص ٥٧٧) هذا صحيح لكن لنا اعتراضا على موضوع فرض اللغة وهو الذي وضع الخط تحت كلمة فرض - ويبدو انه متأثرا بالازمة الكردية - ان وحدة الثقافة تحتم تعليم اللغة .. واللهجات او اللغات الموجودة في الوطن العربي لا ثقافة لها بالمعنى الذي تعنيه كلمة ثقافة .. وهذه الاقليات قد تخلت عن ثقافتها الخاصة منذ ان اعتنقت الاسلام وانمجت في الوجود العربي حياة ومصيرا وبالتالي فان نشر الثقافة بين ابناء هذه الاقليات يحتم فرض لغة معينة .. فاذا كانت هذه هي اللغة المحلية المنقرضة ، فذلك يعني عرقلة حركة التاريخ ، يعني السير في طريق التمزق والانفصال بينما تعليم العربية يعني الاسراع في تحقيق الارادة القومية والتاريخية .. وكلما اسرعنا كلما قل عدد الضحايا ومن الافضل ان نواجه القضية بهذا الوضوح .. فان اهتمام الروس الذي يعلن عنه ببعث اللغات القومية ، استهدف عمليتين : قطع صلة هذه القوميات في المناطق الاسلامية بثقافتها وتراثها الاسلامي وذلك بالغاء الحروف العربية ، وربطها بالثقافة والتراث الروسي من خلال فرض اللغة الروسية كلغة الثقافة ولغة الحياة المشتركة .**

وفي الصين يجري التثقيف بلغة واحدة رغم وجود اكثر من خمسين لغة وفي حالة الامة الواحدة وحيث لا وجود لاضطهادات قومية يكون التثقيف باللغة العربية .. ليس فرضا ..

ولأنه – كما رأينا – لا يمكن فصل اللغة عن الثقافة . . وإذا ربطنـــا ذلك بالتكوين النفسي المشترك الذي ينعكس في وحدة الثقافة ، فسنجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام قضية الدين .

فالتعريف الماركسي يتحدث عن « التكوين النفسي المشترك الذي ينعكس في وحدة الثقافة » واستاذ القوميين[1] اللادينيين يقول . « اللغة روح الأمة وحياتها .. والتاريخ ذاكرة الأمة وشعورها ووعيها » . ولكن الماركسيين ينكرون الدين .. وتعريف ستالين الشهير قد استبعده نهائياً . حتى لم يكلف نفسه عناء مناقشته ، ولو قبل لأعدمه البلاشفة الروس ، لأن « الخطة السياسية » لا « النظرية العلمية » كانت تستهدف ضم مناطق شاسعة يسكنها شعب لا يربطه الا الدين الاسلامي وتاريخ مرير من الحروب الدينية ضد الكنيسة الروسية .. ومن هنا كان يتحتم حذف الدين من مكونات الأمة لكي لا يبقى للمسلمين السوفيت سبب واحد لشعورهم بالقومية .. ولكي ينسوا تاريخ الغزو الصليبي الروسي لبلادهم . لكي يصبح أحفاد البخاري رضي الله عنه .. مواطنين سوفيت ..

أما الحصري فيقول : « ولكني أعلم ان هناك نظرية اخرى يتحتم علينا درسها وبحثها بكل اهتمام هذه النظرية هي التي تستتبع مفهوم الأمة بمفهوم الديانة وتعتبر وحدة الدين « اس الأساس » في تكوين الأمة ... انهـــا (أي هذه النظرية) لم تلعب دوراً يذكر في نشوء النظريات القومية في البلاد الأوربية » ١٠ لهذا السبب الذي يتوهمه .. يجب ان تكون هذه النظرية خاطئة .. لأن محك صدق النظرية هو

---

(١) الحصري

أخذ الأوروبيين بها !

وهذه النظرية هي من تصور الأستاذ الحصري ، ولا نظن انها واردة بشكل جدي .. فليس هناك ما يسمى « بأس الاساس » لأن القومية ظاهرة « حياتية ».. على العبث ان نرجعها الى « أس الأساس » ..

وكل الحجج التي قدمها ضد الدين كعامل من عوامل تكوين الأمة . . بزعم انه لم يوحد الفرس والعرب .. الخ يمكن ان توجه هذه الحجج بكل سهولة الى « اس الأساس » في نظرية اللغة .. فالأمثلة كثيرة على ان اللغة الواحدة لا تخلق امة واحدة .. وانه اضطر لالغاء وجود الامة الامريكية، بل ونفى تكلم الامريكيين بالانجليزية (!) لتبرير انقسامهم عن انجلترا، واثبات صحة نظريته في تطابق اللغة الواحدة على الامة الواحدة كتطبيق الحافر على الحافر !..

غير اننا سنبدأ بالماركسيين لنعود لنفيهم غير الجدلي في المنطق القومي اللاديني.. اسأل الماركسيين : « ما هو التكوين النفسي المشترك ؟ » ومن أين يأتي . . ان لم يكن من الدين ؟ وفي حالة الامة العربية بالذات يستحيل ان نتلمس وحدة التكوين نفسي أو وحدة الثقافة ، بنزع الاسلام ، فليس ثمة ما يربط العراقي بالمراكشي .. ولا اليمني بالسوري إلا الاسلام ، وما من ثقافة مشتركة تربطها الا الثقافة العربية الاسلامية ..

فالماركسي الذي يلتزم بالنص الستاليني عليه أن يشرح لنا ما هو التكوين النفسي المشترك للامة العربية من المحيط إلى الخليج .. ان لم يكن اسلامها ... والا فليقل انه لا يؤمن بوجود هذه الأمة ، وانه يعني بالتكوين النفسي المشترك ذلك الذي تكون داخل الاطر الاقليمية ..

أما القوميين اللادينيون .. فهم يحدثوننا عن وحدة التاريخ التي « تولد تقاربا في العواطف والنزعات ، وتؤدي إلى تماثل في ذكريات المفاخر السالفة ، وفي ذكريات المصائب الماضية .. والى تشابه في أماني النهوض ، وامال المستقبل .. ولذلك نستطيع ان نقول : ان الذكريات التاريخية تقرب النفوس وتكون بينها نوعاً من القرابة المعنوية أشد تأثيراً من القرابة المادية بدرجات » .

وبعد هذا العرض الذي يطمعنا في اسلامه ، يشفع الحصري ذلك بقوله :

« ولكن لا الدين ولا الدولة ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الامة الأساسية .

ثم يلخص دعوته في سطرين : —

« اذا أردنا ان نعين عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الامة قلنا : اللغة ، تكون روح الأمة وحياتها التاريخ يكون ذاكرة الأمة وشعورها . » ١١

نسأل ما هي مفاخر الأمة العربية السالفة .. حدثنا عنها .. أهي انتصارات التغالبة والغساسنة ما شأن المصريين بذلك .. ولا أظن انها تثير طرب التونسيين ؟. أهي فتوحات ملوك حمير ؟! ما شأن الليبيين بها ؟ .

فتوحات رمسيس ضد الحثيين . . غزوات الليبيين لمصر . . حروب ربيعة ومضر .. وحرب البسوس . . أمجاد بابل واشور .. رحلات الفينيقيين ؟ .

أرأيت ؟! ان تخطي الاسلام يفتح بابا لا تطيق ريحه ؟ . .

ان مفاخر الامة العربية السالفة هي انتصارات الاسلام .. هي قهرنا لكنيسة بيزنطة .. هي ابادتنا لديانة المجوس وملكهم ، هي أمجادنا الخالدة في الأندلس .. هي سحقنا للغزو الصليبي الاول .. هي فتح اوربا .. والتحدث بالعربية في جنوب ايطاليا وفرنسا وحكم سويسرا ثلاثة قرون ..

اذا أردنا ان ننتشي بانتصاراتنا كاملة الى ما هو ابعد من نصف قرن فلا بد ان نعتبر وحدة التاريخ هي اسلاميته ..

وما هي ذكريات المصائب الماضية ؟ .. فتح العرب لمصر .. أهو مصيبة أم انتصار ؟ إن نحينا الاسلام اختلفنا .. وإذا اختلفت امة على تقويم حدث مصيري في تاريخها فاعتبره البعض انتصاراً قومياً وحسبه الاخرين هزيمة قومية ، فقد انتهت وحدة الامة ..

إذا نحينا الاسلام جانباً فسيؤرخ البعض فتح مصر على انه نصر لعرب الجزيرة

ومصيبة لعرب مصر [1] .

بل حتى في المغرب العربي حيث الدين واحد .. بتنحية الاسلام يصعب الاتفاق على وصف الحروب العنيفة التي دارت بين العرب والبربر .. أهي من مفاخر الأمة أم من أحزانها . ؟ ألا يشككك انيس صايغ بأنه « ليس بين المصادر العربية الأصيلة ما يؤكد أن عرب سورية والعراق ساعدوا المسلمين مساعدة فعالة بشكل عام [12] .. »

احذف الاسلام تجدد ثاراتها .. ولكن بالاسلام كأساس لوحدة التاريخ .. يصبح القبطي المصري فخوراً منتشياً بانتصار امته العربية في معارك الفرما والعريش ونابليون والاسكندرية . لأنه بانتصارات جيش عمر تحررت كنيسته وإلى الأبد ، وانتهت سطوة وارهاب روما وبيزنطة .. واكتملت عروبته .. والعربي الذي يعتبر هزيمة الصليبيين على يد صلاح الدين مصيبة تاريخية .. ليس يمت بصلة لأمة العرب . فلكي يكون المرء عربياً يجب ان يمارس وحدة التاريخ ، يجب أن ينتشي بانتصارات صلاح الدين المسلم على اعداء امته وعروبته حتى ولو حملوا الصليب مثله .. ويذكر العربي في نجد بفخر وامتنان لابطال البربر انهم هم الذين حملوا العروبة للاندلس ، وذادوا عنها يوم وهن الساعد العربي ، وابقوها قروناً للعروبة والاسلام ..

وان عبد الكريم آخر الأبطال الاسطوريين في التاريخ العربي كان من أصل بربري .. وكذلك ابطال جيش التحرير الجزائري الذين ردوا للجزائر عروبتها .. لا فرق بين عربيهم وبربريهم .. وكذلك يشعر المسلم البربري بالامتنان لعرب الجزيرة أن هدوه للاسلام وهدوه بالاسلام .. وقل نفس الشيء عن المسلم الكردي والشركسي .. فالاسلام ليس فقط هو عامل التكوين النفسي المشترك أو وحدة

(١) بينا بالحقيقة التاريخية نجد انه عند المصريين المسلمين اشراقة تاريخية بها دخلت مصر في الاسلام والعروبة وعند المصريين الاقباط نفس الشيء : بها تحررت كنيستهم وعاد بطركهم المختفي في الصحراء ودخلت مصر في العروبة .

التاريخ بين العرب المسلمين .. بل وايضاً بين العرب المسلمين والعرب غير المسلمين .. لانه لا تاريخ مشترك للعرب الا التاريخ الاسلامي ..

يقول الحصري : « إن تاريخ العرب دخل في طور جديد هام، بظهور الاسلام . ولكن من الخطأ أن يظن ان العرب كانوا أمة بدائية محرومة من الحضارة قبل الاسلام ١٣٠ »

صدقنا .. ولكن ماذا تعني بالعرب ؟ .. هل تقصر دعوتك على سكان الجزيرة أو حتى امتداداتهم في المشرق العربي ؟ ..

إن محاولة ضرب الاسلام بالعروبة عن طريق تفخيم التاريخ العربي قبل الاسلام .. محاولة فاشلة ..«إن الحركة الاسلامية كانت واقعة تاريخية هامة أوجدت تحولاً انقلابياً خطيراً في أحوال العرب » واقعة تاريخية هامة ؟ تفضلوا واذكروا لنا واقعة تاريخية اخرى قبلها .. أو حتى بعدها .. واقعة غير اسلامية ..

أهي ثورة لورنس ؟![1]

الحصري يقول : « إن معظم أقسام العراق والشام وجميع انحاء افريقيا الشمالية من مصر والسودان إلى المغرب الاقصى كانت غير عربية ، ولم تستعرب إلا بعد الاسلام » .

إذن فالعروبة في العراق والشام (سوريا — لبنان — الاردن فلسطين) لمصر — السودان — ليبيا تونس والجزائر — مراكش — بدأت بالاسلام ! .. فمن منا يذهب بعيداً .. الذي يفتش للعروبة عن تاريخ منفصل عن الاسلام .. أم من يبدأ تاريخ العرب الحقيقي بالاسلام ؟ !

إذا أردنا أن نحمي ذاكرة الامة العربية من « كوابيس » الاقليمية فلنذكرها دائماً بتاريخها الاسلامي. فليس في ذاكرة الامة العربية ما تعيه وعياً صادقاً جاداً .. وعي اليقظة .. إلا تاريخها الاسلامي .. وليس في شعورها ما يخدم وحدتها إلا ما

---

(١) وعودة ابو تايه حتى لا يغضب كتاب مجلة « الكاتب » ويحرروا ضدنا بلاغاً كيدياً!

كان بعد الاسلام .. ولا تنطبق كلمة وعيها الا على تاريخها الاسلامي [1] .

وقومي آخر [2] يريد ان يفرق بين العروبة والاسلام :

«نحن نريد بدراسة الجذور أن نميز بين العروبة والاسلام.. فمع إن الاسلام جاء ثورة عربية ومع التوافق الكلي بين الخط العربي والخط الاسلامي في صدر الاسلام، فإن التباين بين الخطين بدأ واضحاً حين توسع الاسلام في آفاقه، وحين اتخذ سبيلا لضرب العرب ، وحين انجر العرب باسم الدين إلى قبول سيادات اجنبية ما لبثوا أن ثاروا عليها . إن اعتزازنا بالتراث واعطاءنا القيم منزلتها لا يعني اتخـــاذ الاسلام رابطة سياسية أو إقامة الكيان على اساسه (١٥) » .

هذا التباين .. اين كان .. أهو في نطاق الامة العربية ؟ . أم هل ننوي التوحيد من المحيط إلى المحيط .. ألا يكفينا عبء فعلها إلى الخليج ؟ .

وهـل كان قبول العرب سيادة المماليك ثم الاتراك باسم الدين ، أم باسم غريزة حب البقاء ؟ وعلى ماذا سنقيم أساس الكيان ؟ ..

يقول « اني اجد من هذا العرض إن القومية العربية قومية ثقافيـة تستند إلى المقومات الثقافية للامة العربية وإلى تاريخها ، وتنبعث من الجذور التاريخيـة للوعي العربي (١٦) .

نكرر السؤال ما هي ثقافتنا القومية .. وما هي الجذور التاريخيـــة للوعي العربي .. قبل الاسلام .. أو بغير الاسلام ؟ . وحجة الحصري ضد الدين باعتباره « اس الاساس » في القومية أو حتى أحد عواملها ، هو ان اوربا قد قامت فيهـــا القوميات على غير اعتبار بالدين .. والحجة الثانية ان الدين لم يوحد المسلمين . بينما

---

(١) ينقل مدثر عبد الرحيم عن ه . أ . غيب قوله : « ان العرب اذا تبعوا الاتراك في منهجهم اللاديني حطموا انفسهم بايديهم لان ذلك وما يطوي عليه من اضعاف رابطة الاسلام بينهم أو وضعه في موضع ثانوي سيؤدي بالطبع وبالضرورة الى احياء العصبيات الجاهلية بينهم ، ويفتح الباب للعنصرية والوطنية المحلية ويحلها محل القومية العربية الشاملة التي وضع اساسهـــا بتوحيد شعوبها في ظل اخائه وشريعته ولغة قرآنه .. » (١٤)

(٢) الدكتور عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية .

العروبة توحدهم .. ويمكن القول بإنه بالاسلام وحده توحد العرب .. بينما العروبة لم توحدهم قط ! ..

فلم يحدث ان اتحدت مصر والعراق والجزائر إلا في ظل الخلافة الاسلامية .. أموية أو عباسية أو عثمانية . ولكنها لم تتحد قط في ظل دولة عربية ، ولا يبدو حالياً بصيص من أمل في قيام دولة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج ..

وبالرغم من كتابات الحصري واستبعاده هو وتلاميذه للدين ، ورغم كل ما كتبوه ، وبفضل كفاحهم القومي اللاديني ، زاد عدد الكيانات العربية وهو في ازدياد مستمر ..

إذن فحجة إن الاسلام لم يوحد .. اضعف من حجة والعروبة ايضاً لم توحد ولا توحد .. وليس ثمة من يزعم اننا ندعو إلى قيام دولة إسلامية من اندونيسيا إلى مراكش ومن اوزبكستان ويوغوسلافيا إلى وسط افريقيا .

حتى الافغاني نفى مثل هذا التفكير السخيف عندما شرح فكرة الجامعة الاسلامية قائلا : « لا التمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى جهده لحفظ الآخر ما استطاع .. فإن حياته وبقاءه في بقائه (١٧) » .

ونحن عندما نتحدث عن الحضارة المسيحية المعاصرة التي نواجهها لا نجد دولة مسيحية شاملة تضم كل الدول الغربية .ولكن لا ينفي هذه الحضارة واستمرارها .. انها تتجسد في شكل دول متعددة .. ولا الحروب بينها .. ونفس الشيء عندما ندعو الى الحضارة الاسلامية فاننا نتصور امكانية وجود العديد من الدول الاسلامية ، بل ولا نضمن استمرار السلام بينها . فقد حمل صحابة رسول الله ﷺ السلاح ضد بعضهم البعض .. وقال فقهاء المسلمين تعليقاً على ذلك أنه لولا قتالهم لما عرفنا حكم الشرع في قتال أهل القبلة !

ففي داخل هذه الحضارة ستوجد عدة أمم ، وعدة مصالح ، وعدة تيارات تتلاقى وتتقابل وتزدهر من تلاقيها وتقاتلها ، الحضارة الاسلامية .

والامة العربية تلعب دوراً رئيسياً في هذه الحضارة الاسلامية ، ولكن ليس ثمة ما يحتم قيام دولة واحدة من المحيط إلى الخليج .. انما المهم هو وجود الموقف العربي الواحد ، والنهضة العربية الكاملة ..

فنحن عندما نتحدث عن الاسلام كجوهر الوجود العربي ، لا ننطلق من فكرة لا امة إلا امة الاسلام أو لا جنسية للمسلم إلا في اسلامه .. لا ، ان هذا التفكير يتنافى مع جوهر وروح الحديث الشريف « لا فضل لعربي على عجمي » فالدعوة إلى المساواة لا تكون إلا بين متميزين ..

ونحن كما نرفض ضرب الاسلام بالعروبة ، نرفض بنفس القوة ضرب العروبة بالاسلام ..

وليس ثمة من يزعم بأن الدين وحده يقيم امة .. ولا أن اشتراط الدين في عناصر تكوين أمة هو نظرية عامة نفرضها على البشر في كل زمان ومكان .. فنحن لا ننظر للبشرية ، بل نتحدث عن ظاهرة محددة هي القومية العربية . وفي هذه الظاهرة نقول بكل ثقة إن الدين مرتبط بالقومية برباط عضوي يفضي إلى الفناء الكامل إذا ما حاولنا عزله .. يرتبط كما رأينا باللغة وبالتاريخ المشترك والتكوين النفسي ووحدة الثقافة وبوحدة الحاضر والمستقبل ..

غير اننا يجب الا نتقبل في بساطة الزعم القائل بأن اوروبا قد نحت الدين في تكوين قوميتها .. ولست أدري من اين جاء هذا الزعم .. وقد لعبت الكنيسة القومية الدور الأول في تكوين الأمم الحديثة التي نراها اليوم .. وكيف كان الصراع بين الكنيسة الانجليزية والكاثوليكية هو جوهر الصراع بين بريطانيا واسبانيا التي انحاز البابا اليها

الدين هو الذي حرك اوروبا وحرك اساطيلها وحرك جيوشها ولعب الدور الحاسم في بعث الحركات القومية فيها .. وباسم المسيحية ، كان استقلال القوميات الاوروبية العثمانية .. والنشاط الديني الذي صاحب قيام الدول الاوروبية الحديثة ، اضعاف كل النشاط الذي بذل خلال قرون المسيحية كلها ، السابقة على عصر

الاستعمار .. وحيثما وجدت الأمم الاوروبية الحديثة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، كانت كنيستها القومية هناك تبشر وتنصر وتجند ..

وإذا كانت اوروبا قد حرصت على تحقيق تقدمها في الداخل بفصل الكنيسة عن الدولة ، فقد اعتنقت بالنسبة للخارج شعار « غامبتا » : « إن سياسة فرنسا اللاكنسيه ليست بضاعة للتصدير » .. وفي المستعمرات .. أي في بلادنا كانت الكنسية في خدمة الدولة الاستعمارية ..

وإذا كان يقصد بأن الدين لا يدخل ضمن عوامل الأمة في اوروبا، إن البريطاني الكاثوليكي لا يخلع من الجنسية البريطانية .. فمن قال اننا نجرد العربي غير المسلم من جنسيته .. ولكن اليس لبريطانيا دينها القومي واسقفها الوطني .. اليس البريطاني الكاثوليكي الذي يميل بهواه مع بابا روما أو اسبانيا الكاثوليكية يشنق بتهمة الخيانة ? .. الم يكن الصراع بين انجلترا وايرلندا صراعاً دينياً في أحد جوانبه ..

من الذي بعث روسيا ووحدها وادخلها عصر القوميات الرأسمالية .. « اسطورة موسكو وروما الثالثة .. الشعب الروسي حامل الرسالة الالهية » [1] (١٨) .

يقول الياس مرقص : « على الصعيد النظري العام ، يمكن القول : لقد كان الدين الايدلوجيا الوحيدة للشعوب في عصر تكوّن الامم الأوروبية .. وعلى هذا الاساس ، فقد اعطى هذه الشعوب عدداً من العناصر التي دخلت في شخصيتها القومية [2] (١٩) .

على أية حال لم نجد نحن في حالة قوميتنا العربية ايدلوجية اخرى تنهي الحاجة إلى هذه الايدلوجية الوحيدة .. المهم أن الدين قد لعب دوراً حاسماً في تكوين الأمم الاوروبية .. ثم في غزو هذه الامم لآسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية .. بما زال يحكم الصراع بينها وبين شعوب هذه القارات .. وهذه قضية منفصلة تمام الانفصال عن قضية فصل الكنيسة عن الدولة ، وثورة اوروبا على الكنيسة ومعاداة الثورات

---

(١) الياس مرقص ص ٦٤ .

(٢) الياس مرقص ص ٦٤ .

عموماً للكنيسة. ومن المضحك إن الشيوعيين والعلمانيين كانوا يصرون على أن يتضمن برنامجهم في البلدان الاسلامية مبدأ فصل الدين عن الدولة (اسوة بما هو موجود في برامج الاحزاب الليبرالية والشيوعيين في اوروبا) ثم يعجزون عن تفسير معنى هذا الشعار ، ولا ما هي الخطوات التنفيذية التي يتحتم على الدولة ان تتخذها لتحقيق هذا الفصل .. إذ ليس في الاسلام كنيسة ، ويمكن أن يعيش المسلم ويموت دون أن يرى رجل دين .. إلا خلال الصلاة في الجامع .. وحتى إمام الجامع ليس رجل دين بالمعنى المسيحي ، إذ يمكن لأي مسلم أن يصلي بالمسلمين إذا ما صلحت صلاته ..

والدستور المصري ينص على إن الاسلام هو دين الدولة الرسمي ، ومع ذلك فمن حق أي مسلم أن يرتد عن الاسلام والعياذ بالله - ويعتنق أي دين يشاء ! فما معنى فصل الدين عن الدولة في الاسلام ؟ ! .. يرى الاستاذ مدثر عبد الرحيم : « إن الاتراك اصطدموا بمشكلة صعبة ، هي أنه ليس في الاسلام هيئة تقوم مقام الكنيسة في اوروبا المسيحية وتتوسط بين العبد وخالقه.. وتحاول اقتسام حياة الفرد والمجتمع مع الدولة ، وإن العلمانية أو الفصل بين الدين والدولة لذلك كلام لا معنى له في مجتمع مسلم لا كنيسة فيه تفصل عن الدولة. إلا أن يكون هو معاداة الاسلام نفسه ومقاومة آثاره في المجتمع .. ولما كان هذا متفقاً مع سياسة النظام الجديد في خلق دولة قومية بحتة لا مكان فيها لحضارة الاسلام التاريخية ، فقد اعتبرت الحكومة ذلك معنى لدعوتها للعلمانية ، فمنعت نشر الكتب والمجلات الاسلامية ، وحدت من نشاط الجمعيات الداعية للاسلام ، واوقفت الحج وحولت المساجد إلى متاحف اثرية أو ثكنات عسكرية .. إلى آخر ذلك ..

« ولم يكن مستغرباً والحال هذه ، ان علت اصوات المحتجين لافتة أنظار المسؤولين الى ان العلمانية او فصل الدين عن الدولة — حتى في اوربا وامريكا — ليس معناها كبت الدين أو معاداته. ولكن فات هؤلاء المحتجين امران هامان : اولهما ، ان الحد من نشاط الدعوة والداعين الى الاسلام على هذه الشاكلة هو المعنى المنطقي الوحيد الذي يمكن ان تحتمله فكرة العلمانية في مجتمع مسلم ليس فيه كنيسة أو هيئة كالكنيسة تفصل عن الدولة . ثانيهما ، ان هذا هو عين ما أرادت

الحكومة الجديـدة أن تفعله تحقيقاً لسياستها الرامية الى الابتعاد بتركيا ، عن حضارة الاسلام التقليدية والسير بها في طريق القومية التركية الخالصة على النمط الأوروبي الحديث .. ومن ثم كان أثر هؤلاء المحتجين في سياسة البلد الرسمية ضعيفاً ضئيلا .. » ٢٠

واضيف إلى ذلك ، ان هذا هو ما كانت تطالب به اوروبا حكومة اتاتورك ثمنا لاستمرارها : محاربة الاسلام ، والانتقام للهزيمة التي لحقت بالمسيحية على ضفاف البسفور .. فما كان يرضى اوروبا الصليبية اقل من ان تعـــود آيا صوفيا كنيسة من جديد .

« وقع مائة من أعضاء البرلمان الانجليزي على مذكرة اللورد روبرت سيسل التي تتضمن المطالبة باخراج الاتراك من الاستانة » «وارسل اثنا عشر اسقفاً في الاستانة برقية الى رئيس أساقفة كانتربري يدعونه فيها الى المساعدة على اخراج الاتراك من الاستانة .. فأجابهم بأنه طلب مع غيره من الاساقفة البريطانيين إلى الحكومـــة البريطانية هذا الطلب . وانهم سيبذلون مجهوداتهم لهذه الغاية . »

« وأرسل اسقف نيويورك الى رئيس اساقفة « كانتربيوي » تلغرافا بهذا المعنى بالنيابة عن مائة اسقف وشكره على المساعي التي يبذلها « في الحروب الصليبية » التي تبذل ضد بقاء الاتراك في الاستانة ٢١ » .

بعد هزيمة الدولة العثمانية لم يكن يشفي غليل اوروبا الا كتابة سطر النهاية في الحروب الصليبية بالنصر الكامل .. اللنبي تنشر صوره في صحف بريطانيا وتحتها كلمته المشهوره عند ما فتح بيت المقدس «اليوم انتهت الحروب الصليبية » أو تعليق الصحيفة « العودة من الحروب الصليبية » ويهنىء لويـــد جورج الجنرال اللنبي في البرلمان البريطاني بالنصر في «آخر الحروب الصليبية ، أو الحرب الصليبية الثامنة ..» والجنرال الفرنسي يقف فوق قبر صلاح الدين قائلاً في شماتة العوام : « عدنا يا صلاح الدين » ..

كان النصر شاملا وساحقاً وركع العالم الاسلامي كله تحت أقدام الصليب . . لم يبق الا الاستانة وأسيرها يسمى خليفة المسلمين .. وتحرك أساقفة بريطانيـــا

وامريكا لاخراج الاسلام من اسلامبول وإنزال رايته من فوق ايا صوفيا ..

ويعبر حافظ ابراهيم عن الاحساس بالهزيمة الاسلامية ، وما كان يتردد عن نية الغرب بأبيات يتفطر لها قلب المسلم ، والشرقي الثوري :

« أيا صوفيا » حان التفرق فاذكري
عهود كرام فيك صلوا وسلموا
إذا عدت يوما للصليب وأهله
وحلى نواحيك المسيح ومريم
ودقت نواقيس وقام مزمر
من الروم في محرابه يترنم
فلا تنكري عهد المآذن ، إنه
على الله من عهد النواقيس أكرم

(أي عربي لم يملأ الحقد الأسود قلبه ضد الاسلام ، لا ينفطر قلبه أسى على هذه الهزيمة) . وبدلا من اخراج الأتراك من القسطنطينية، أخرج أتاتورك الاتراك من الاسلام ..

واذا كانت تركيا قد دفعت ثمن الابقاء عليها كدولة ، ومنحها موضع قدم في القارة الاوربية .. التخلي عن دينها وتاريخها ، بل عن الصفحة الوحيدة المشرقة ، بل عن مبرر وجودها تاريخيا .. وهو تاريخها الاسلامي . فهل حققت تركيا اللااسلامية أي تقدم يمكن ان نتحسر على ضياعه .؟ لقد كانت تركيا «رجل اوروبا المريض» .. والآن هل بقي الرجل ؟.. كلا أبقي المرض وحده .. انها تعيش عالة على الاستعمار وفي حمايته وبقروضه ..

أين الحضارة التركية .. أين التقدم العلمي .. أين الديموقراطية ؟! ولربما بدا شعار التخلي عن الاسلام منطقيا قبل سقوط الامبراطورية العثمانية وربما أمكن تبرير هذا الموقف حينئذ بالرغبة في الحفاظ على وحدة الدولة بكسب العناصر المسيحية في

البلقان أو حتى في العالم العربي .. فما تبرير التخلي عن الاسلام بعـــد ان زالت الامبراطورية ، ولم تعد تركيـــا تضم — او تطلق على — غير مسلمي الأناضول الشديدي التمسك بالإسلام .؟

ويقول الأستاذ « مدثر عبد الرحيم » عن تخلي الأتراك عن الحروف العربية في كتابة اللغة التركية .. واستبدالهم الحروف اللاتينية بالحروف العربية :

« الأتراك لم يخطوا خطوتهم الكبرى في قطع الصلة بماضيهم العثماني باتخـــاد الحروف اللاتينية بدلاً من العربية الا تابعة للسوفيت ، وبعد ان حضروا عـــدة اجتماعات في روسيا كان آخرها مؤتمر عقد في باكو عام ١٩٢٦ لبحث هذا الموضوع وأثره في حكم الدويلات التركمانية في داخل الاتحاد السوفييتي ، قرروا فيـــه ترك الحروف العربية لانها على حد تعبيرهم : « غير علمية » وان كان الدافـــع الحقيقي لذلك طبعاً هو الحرص على احكام ربط تلك الولايات بجهاز الدولة السوفيتيـــة ، وقطع الصلة بين رعاياهم الترك وبين تراثهم القومي والاسلامي » ٢٢ .

وهكذا غرر الروس بالأتراك فلم يكن الصراع بين روسيا القصيرية وتركيـا العثمانيـة في أحد دوافعه الا محاولة من جانب روسيا القصيرية لتحطيم نفوذ تركيا العثمانيـة وقوة الجذب التي تشكلها دولة الخلافـــة على رعايا روسيا المسلمين الأتراك ... يقول القائد العثماني أنور : « ان الأتراك في روسيا لا يعطفون علينا بسبب اننا اتراك ، بل بسبب اننا مسلمون ، وهؤلاء « الياقوت » الذين هم في سيبيريا ، هم ترك في المحتد مثلنا ، ولكن نظراً لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم ، ولا يعرفوننا ولا نعرفهم .. » ٢٣

فحطم الاتراك سلاحهم بأيديهم ، وتخلوا عن الإسلام ، وجروا خلف السوفيت فتخلوا عن الحروف العربية .. وأصبح أتراك روسيا سوفيتا ، وعادت تركيا دولة صغرى تهددها بلغاريا بحشد الجيوش عند حدودها [١] بل الأجدر بالتأمل ان الذين

---

(١) وفي نهاية اربعين عاما من الاصلاح ، كان سبعون في المائة من الشعب لا يزالون اميين وكان الاقتصاد مهتزا والفقر عظيما واحتفظ التقليد الاسلامي بولاء الشعب في البلاد ، في المدن والقرى « من كتاب عصر القومية » « هانز كوهن » سنة ١٩٦٠ .

روجوا الفكرة الطورانية كبديل عن الاسلام . . . وزعموا ان هـــذه الفكرة ستوحد العناصر التركية من المجر إلى الصين .. فأضاعوا تركيـــا باغرائها بنبذ الإسلام واخوة الإسلام .. الذين روجوا لذلك في تركيا ... كانوا مهـــاجرين روسا ! .

ومن الذي يملك أن ينطق التاريخ ليقول لنا لحساب من لعب هؤلاء الروس المهاجرون لتركيا دورهم التخريبي داخـــل بلاد العدو القومي لروسيا التي جاءوا منها .

فصل الدين عن الدولة هو شرك تجرنا إليه الصليبية الاوروبية لشن حرب ضد الاسلام في ميدان هو فيه معجزة خالدة .. لأنه دين بلا كهنوت ولا كنيسة تتدخل بين المسلم وربه . . ولأنه الدين الذي كفـــل حرية العقيدة وحرم على معتنقيه الاكراه في الدين ..

أما الحملة على الدين باسم التقدمية ، وافتراض إن التقدم يحتم الاصطدام بالدين فذلك فهم يرجع إلى النقل الحرفي من التجربة الاوروبية إذ ما دام الدواء قد استخدم في اوروبا فيجب أن نتعاطاه ولو بغير داء ! بل أحياناً نستورد المرض لكي نتعاطى الدواء الاوروبي ! ولعل « توينبي » المؤمن بالمسيحية ، الداعية الفخور بالحضـــارة المسيحية ، هو خير من يفسر لنا أسباب الصدام بين الكنيسة والحركات التقدمية في اوروبا .. يقول :

« في الوقت الذي كانت فيه الحضارة المسيحية الغربية [1] تنبثق – منذ القرن السابع عشر وما بعـــده عن العالم المسيحي الغربي – خشيت الكنيسة – بحق – شيوع التمسك بالامور الدنيوية والارتداد إلى وثنية جديدة .. هنا مزجت الكنيسة – خطأ – الايمان الديني بالنظام الاجتماعي الذي كان في طريقه إلى الزوال .. وهكذا بينما كانت الكنيسة تقود في المؤخرة معركة ثقافية ضد ما اعتبرته اخطاء « تحررية »

(١) تأمل تعبيره « الحضارة المسيحية الغربية » لماذا يستنكر منا نحن الحديث عن « الحضارة الاسلامية العربية .. ؟

و « مستحدثة » و « علمية » سقطت دون أن تدري -- في هاوية الرجعية السياسية ، فأصبحت — من ثم — تؤيد الاقطاع والملكية والارستقراطية بل و « الراسمالية» وتسند بوجه عام النظم القديمة القائمة .. وغدت الكنيسة حليفة بل غالباً ما كانت اداة عناصر السياسيين الرجعيين ، الذين كانوا في الواقع خصوماً للمسيحية والروح الثورية على السواء .. ومن هنا كان مصدر السجل السياسي للمسيحية الحديثة : ففي القرن التاسع عشر تحالفت مع الملكية والارستقراطية لكي تسفه الديمقراطية الليبرالية ، وهي في القرن العشرين تتحالف مع الديمقراطية الليبرالية لتسفه النظم الجماعية ، وهكذا بدت الكنيسة ، وقد وقفت دائماً منذ الثورة الفرنسية عند مرحلة سياسية متخلفة عن سير الزمن، وهذه النقطة بالذات ، بيت القصيد في نقد الماركسية للمسيحية في العالم الحديث (٢٤) » . ولأن ذلك هو تاريخ الكنيسة في اوروبا .. فمن حق الثوار والمجددين أن يجعلوا حربهم علىالكنيسة محك الثورية والتقدمية ومن حقهم أن يضعوا الدين الذي تشهره الكنيسة في وجه ثورتهم ، ضمن قوى الرجعية، ومن حق الذين يظنون ان تاريخنايجب أن يكون تكراراً ممسوخاً ومشوهاً للحضارة الاوروبية أن يضعوا كلمة اسلام بدلا من كلمة مسيحية ثم يعيدون كتابة التاريخ الاسلامي أو العربي ..

ولكن ليس من حقهم أن يفرضوا علينا قبول هذا المنطق الخاطىء .. فالاسلام لا كنيسة فيه ، ومن ثم لا كهنوت محترف يمكن أن يصبح جزءاً من الطبقة الرجعية الحاكمة ..

والاسلام ظهر في مواجهة المجتمعات الرجعية والحضارات المنهارة ، فحطمها وأشاد نظاما اجتماعيا جديداً ، فبدايته كانت ثورية .. لم يقل : « أعطوا ما لقيصر لقيصر » .. بل قال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ... وأفضل الجهاد كلمة حق عند امام جائر » ، أي الحاكم الظالم .. ودعا إلى تغيير المنكر باليد ابتداء .. فان أعجزنا ذلك فلا أقل من أن نرفضه بقلوبنا .. لا أن نرى الحق ما تراه السلطة .. وتستنكر الملائكة على المستضعفين في الأرض قبولهم للظلم ما دامت أرض الله واسعة يهاجرون فيها ..

وفي القرن التاسع عشر كان الاسلام في الجانب المقهور .. الجانب المستعمر .. فكان من الطبيعي كما لاحظ خرشوف بحق في حديثه مع الثوار الجزائريين – أن يحتفظ بثوريته لأنه دين الشعوب المستضعفة .. دين الشعوب الثائرة .. الدين الذي يتعرض للاضطهاد والمحاربة على يد صليبية أوروبا الاستعمارية[1] لذلك كانت حركاتنا الثورية كلها يقودها مصلحون دينيون : الوهابية . . السنوسية .. المهدية . . كفاح سلطان مراكش .. الأمير عبد الكريم ..

وكان الازهر في مصر معقلا ثوريا منذ بداية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ، مشايخه الأحرار هم الذين قادوا الكفاح ضد الغزو الاستعماري الاوروبي المتمثل في الحملة الفرنسية ودفع عدد من شيوخه الأجلاء حياتهم وحريتهم فداء لحرية بلادهم واستقلالها .. استشهد الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان والشيخ احمد الشرقاوي ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ اسماعيل البراوي .. ماتوا شهداء الثورة ضد الاحتلال الفرنسي وأول أبطال العروبة الشهيد سليمان الحلبي كان طالباً أزهرياً .. وهو الذي اغتال قائد جيش الاحتلال الفرنسي .. إلى ان نصل إلى آخر الشيوخ العظام صاحب القولة المشهورة: « تقتير هنا .. وإسراف هناك .. » لخص فيها جرأة وبلاغة رجال الاسلام الخالدين، وانهى بها حكم عائلة محمد علي ..

---

(١) روى لي هذه الحادثة الثائر الجزائري « اورزيجان » ولعله ينشر تفاصيلها ..

والحجة الحادة التي يشهرها دعاة القومية العربية اللااسلامية هي الحرص على كسب الاقليات غير المسلمة ، وبالذات الحرص على استرضاء لبنان .. الذي يعترفون بطابعه المسيحي ، رغم انكارهم للعامل الديني ، وتتفيههم لدور الدين .. فعندما يكون الأمر متعلقاً بالمسيحية يظهر العامل الديني ، ويلعب دوره ويجب الاعتراف بـه ، وتعديل الشخصية القومية للمواءمة معه أما حيث الغالبية العظمى من المسلمين . بل وحيث لا يوجد إلا المسلمون فان الدين يجب أن يبعد حرصاً على العلمية ..

لقد لعبوا دوراً كبيراً في تأكيد مسيحية لبنان ، بل ربما كان لهم الفضل في زيادة الاحساس اللبناني بهذه المسيحية التي تضخمت على نحو مفتعل منذ ان بدأت فرنسا تحرك أصابعها في الساحل السوري .. على أية حال هل كان هذا التهذيب « الذي اجري للقومية العربية بحذف الاسلام منها محققاً لادعاءاتهم بأنه سيكسب لنا « لبنان » ؟

أبداً ..

عندما رفعوا الاسلام من العروبة ، تقدم الآخرون خطوة اخرى فرفعوا الجبل من العروبة .. « وتبلورت القومية اللبنانية » على يد ميشيل شيحا وسعيد عقل .. أكد ميشيل شيحا في كتابه « لبنان اليوم » إن لبنان ليس سامياً أو عربياً .. فسكان لبنان لبنانيون ، ولبنانيون فقط وببساطة » وأشاد سعيد عقل وغيره بالدور الفريد الذي لعبه لبنان في حضارة العالم ، ودعا إلى ارادة العيش المشترك اللبنانية (٢٥) . »

وبعد أن يعلمنا ويثقفنا « ادوار عطيه » ويبدي غبطته بتخلينا عن الاسلام ، يؤكد أنه لم تكن هناك أي مبرر لتقسيم سوريا « عدا صورة ما من الحكم الذاتي

للبنان داخل وحدة سورية ٣٤ » .

وموسى العلمي « الزعيم الفلسطيني الناهض (٢٧) » : أرتأى ان يتمتع لبنان بحكومة ذاتية مكفولة في داخل الوحدة « حرصاً منه على الا ينفر اللبنانيين المسيحيين » . حتى دعاة القومية العربية العلمانية ، سلموا بالكيان اللبناني ، وأكدوا أنهم لا يرغبون في دمجه في هذه الوحدة العربية غير الاسلامية .. إذن فلماذا حذف الاسلام ؟ .. ما دمنا قد سلمنا بالكيان اللبناني المنفصل عن الوحدة العربية .. فماذا يضير لبنان المسيحي أن يتعاون ويتآزر مع اخوانه العرب المسلمين ؟!

يقول الياس مرقص : « ولبنان له وضع خاص .. وقد اعترف ممثلو الفكرة القومية العربية (والعربية الاسيوية) منذ البدء بهذا الوضع الخاص ، وأيدوا بوجه الاجمال كيان لبنان (أو جبل لبنان) الذي كان موطناً وملجأ للفكرة العربية في زمن الاستبداد التركي العثماني — واستقلاله الداخلي في الدولة العربية المزمع انشاؤها ، وبعد ذلك،تطورت الأمور : اقيمت دولة لبنان الكبير ، وبلور الشعور اللبناني الاقليمي في مفهوم « قومي » وفلسف في صورة لبنان الفنيقي المتوسطي المرتبط باوروبا ، أي انه وجه كلياً ضد القومية العربية ، على صعيدي الفكر والواقع (٢٨) » .

ويطمئن « ميشيل عفلق » اللبنانيين ، فيقول في خطاب له في عام ١٩٥٥ الى طلبة المغرب العربي :

« وواجبنا أن نشرح للبنانيين بأن العروبة التي نعمل لها هي عين ما يطلبونه ويطمحون اليه من وراء التهرب من العروبة ، فالعروبة تمنع الضغط الديني ، انهم يتهربون لاعتبارهم إن العروبة — وهي الاسلام بنظرهم — لا تسمح بتكوين مجتمع يحفظ كرامة الانسان ، ويساير التطور الحديث في العالم (الاسلام عند ميشيل عفلق لا يحفظ كرامة الإنسان) .. ويقول ذلك لطلبة المغرب العربي في سنة ١٩٥٥ حيث كان الاسلام هو القوة الدافعة الرئيسية في النضال ضد الاستعمار الفرنسي !) فاللبنانيون بحكم موقعهم — موقع القطر اللبناني — وبحكم الاتصالات بينهم وبين

الغرب ووجود ارساليات اجنبية ، تذوقوا الحضارة الغربية اكثر من أي قطر عربي آخر ، وعرفوا قيمة الحرية الفرديـــة التي هي أثمن شيء في الحضارة الغربية ، فهم يخشون بعد أن حصلوا على شيء من هذه الحرية ، أقول يخشون إذا ما اندمجوا في مجموعة العرب أن يفقدوا حريتهم » .

أليس هذا ما كان يتوقعه رواد العروبة الاسلامية في القرن التاسع عشر . . ألم يكن واضحاً ان رفع شعار العروبة غير الاسلامية، لا يقصد به أبداً تأكيد وحدة العرب بل ضرب الاسلام ؟ . . فلما تحقق هذا الهدف انتقلوا إلى الهدف الآخر وهو ضرب العروبة . .

فماذا حقق اولئك الذين خلعوا الاسلام من أجل كسب لبنان فسلموا بالكيان اللبناني المنفصل عن القومية غير الاسلامية . . ماذا حققوا . . ؟

فصلوا العرب غير المسلمين ، وفصلوا المسلمين غير العرب !

يقول انيس صايغ : « وهكذا ظهرت الحركات اللاعربية بين بربر شمال افريقيا واقباط مصر وجنوبي السودان واشوريي العراق وموارنة لبنان (٢٩) .

ويحصي ادوار عطية العرب غير المسلمين فيقول : « مليونا وربع مليون . وفي لبنان حيث يبلغ عدد السكان مليونا يتساوى تقريباً عدد المسلمين والمسيحيين . . وفي سوريا تبلغ نسبة السكان المسيحيين قرابة ١٠ ٪ من سكان يبلغون ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة عداً . وفي العراق يوجد تسعون الف من المسيحيين ، ويبلغ عدد سكان فلسطين العرب قبل تشتتهم في سنة ١٩٤٨ -- حيث قامت دولة اسرائيل (المغتصبة) حوالي مليون وربع مليون نسمة منها مائة وعشرون الف نسمة تقريباً من المسيحيين . . ويوجـــد معظم هؤلاء المسيحيين الفلسطينيين اليوم في الدولة الاردنية «٣٠» وبالحساب يكون المجموع ٢٫٣١٠٫٠٠٠ في ثمانين مليون عربي . . ومنعاً لأي جدال في الارقام نضاعف هـذا الرقم الذي ذكره ادوار عطيه فنجعلهم طواعية خمسة ملايين . . أي اكثر قليلاً من ستة بالمائة . وهو نفسه يحصي أن نسبة المتكلمين باللغـــة العربية تتراوح بين ٢ ٪ في تونس و ٤٠ ٪ في مراكش »

وإذا قسمنا هذه الجماعات إلى مسلمين غير عرب وعرب غير مسلمين لالتمسنا العذر للمسلمين غير العرب في تمسكهم بقوميتهم أو في التنقيب عن هـذه القومية لمواجهة تشنجات حركة قومية تقوم على الجنس والعنصر من مبـادئها : « الوطن العربي للعرب ولهم وحدهم حق التصرف بشئونه وثرواته وتوجيه مقدراته [1] » فما دامت قد رفعت راية القومية ونبذ الاسلام ، فلينادِ كل على ليلاه.. ومـا دمنا قد جئنا نتقسم الى قوميات فلترفع كل قومية رايتها . لا غرابة اذن في انتشار الافكار الانفصالية أو ما يسمونه بالشعوبية الجديدة بين اخواننا الذين عاشوا معنا اكثر من الف عام .. حتى تنبهوا فجأة على تحرش منا باسم القومية الكبرى ..

ولكن غير المفهوم هو موقف العرب غير المسلمين ، فما عذرهم في معاداة القومية العربية العلمانية ..

ان الغاء الاسلام ومحاولة التفتيش عن تاريخ للعرب بعيداً عن الاسلام، محـاولة البحث عن رابط يربط المغربي بالعراقي باليمني بالمصري .. غـير الاسلام .. عبث نتيجته المحتومة ان نرتد اشوريين وفينيقيين وفراعنة.. أمـا الزعم بأن استبعاد الدين هو المحاربة الطائفية ، فهي اللاطائفيـة السوقية التي يتحدث عنهـا اوزيجان .. ويفندها الياس مرقص بقوله « إن مبـدأ » « لا طائفية » ليس منطلقاً أو مرتكزاً لحزب جدي ، وإن هذا الشعار الصحيح ، حين يتخذ منطلقاً ومرتكزاً قد لا يكون سوى ستار الطائفية مقنعة لا تلبث إن تتحول الى طائفيـة مكشوفة ١٣١ » ....

وهو ما حدث بالضبط ان الذين رفعوا شعار اللاطائفية ضـد الاسلام ، ونادوا بالقومية العلمانية [2] .. كانوا يخفون طائفية حادة في ضمائرهم .. فلما بـدا لهم ان

---

(١) برنامج حزب البعث !

(٢) وهم جميعاً بالمصادفة غير السعيدة . من غير المسلمين . مـن عازوري الى جورج حبش ..

النصر قد تم وطويت راية الاسلام .. كشفوا عن طائفيتهم وحاربوا العروبة والاسلام .

فانطون سعادة [1] الذي اعجب الحصري بلا طائفيته ، يأسف نفس الحصري على ان « فكرة العروبة كانت تخلط في ذهن سعادة مع معاني البداوة الصحراوية من ناحية، ومن الحزبية المحمدية من ناحية اخرى .. قد توهم الرجل ان فكرة« الوحدة العربية » ما هي الا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية ، ولذلك أخذ يحمل عليها كما كان يحمل على الطائفية بوجه عام .. وأميل الى الظن (يقول الحصري) بان أول من صادفهم وخالطهم من دعاة العروبة وحملة الفكرة العربية كانوا من المسلمين وربما كانوا من الرجعيين والمذبذبين ، ولذلك توهم ان كل دعاة العروبة طائفيون مستترون أو مقنعون » ..

ثم يبدي الحصري اعجابه بالزعيم « الذي اصيب بعقدة نفسية من بعض دعاة العروبة ! والتحليل السليم هو إن « انطون سعادة » بصرف النظر عن الجهات الاجنبية التي حركت وخططت ومولت ونظرت ـ لم تكن « لا طائفيته» وعداؤه للعروبة الا ستاراً لطائفية متعصبة .. وكون قادة العروبة من المسلمين ليس مبرراً لعداء « الحزبية المحمدية [2] » والعروبة الا عند الطائفيين. فقد كان الافغاني مسلماً ديناً ودعوة وكان من اخلص تلاميذه مسيحي ويهودي ..

---

(١) ادهش انطون سعادة ان يكون دعاة العروبة من المسلمين في امة نسبة المسلمين فيها ٩٧ ٪ ! وكيف يكون الاسلام طائفية في وطن ٩٧ ٪ منه مسلمون ؟ .. أو حتى ٩٠٪ ..
وميشيل عفلق يصف الاسلام ايضاً بالطائفية ويعلن مغتبطاً : « ان الدعوة الاسلامية والدعوات الطائفية الاخرى كان مصيرها الفشل » .
الاسلام ليس طائفية ، لانه دين الاغلبية العظمى ..
(٢) ان صح ان يوصف دين الاغلبية العظمى بالحزبية ..

المهم هو احترام الدعاة لانفسهم وتجنبهم التملق الرخيص باجراء خصومات في مقومات وجودهم ومبادئهم لترضية كل زبون .. فالزبون ليس دائماً على حق [1] ..

فالذين رفضوا العروبة لانهم رأوا فيها دعوة محمديـــة ، لم يفلح القوميون اللااسلاميون في جذبهم للعروبة بخلع دين محمد .. يقول ادوار عطيه : « ومع ان الفكرة العربية ولدت وانتشرت الى حد كبير بين مسيحيي لبنان (الذين راحت حياة بعضهم فدية للدفاع عنها ايام سيادة القانون العسكري التركي في الفترة ١٩١٤ - ١٩١٨) فإن اغلبية مسيحيي لبنان رحبوا بمجيء فرنسا دولة منتدبة في نهاية الحرب ضد قيام دولة عربية مستقلة يكون فيها المسلمون اغلبية وهؤلاء يتكونون اصلا من المارونيين وبعض الطوائف الاخرى التي لم تكن فقط على اتصال بروما، ولكنها كانت ايضاً مشربة بالثقافة الفرنسية والانحياز العاطفي لفرنسا عن طريق مدارس الجزويت والفرير الكثيرة المنتشرة في البلاد ، ولو انه كان هناك ارتياب مقدور ، حتى بين اليونان الارثوذكس والطوائف البروتستانتية ، في الوطنية العربية باعتبارها حركة اسلامية في الغالب ، ومن ثم الالتجاء الى حماية دولة مسيحية (٣٢) » .

ثم يشرح تطور الوطنية اللبنانية من تيار الاندمــــاج في فرنسا ، والتيار الذي استراب في هذا الارتباط وايقن إن لبنان لا « يستطيع أن يعزل نفسه عن العالم الاسلامي العربي » وكان من نتيجة هذا التطور ان ظهر نوع جديد من « الوطنية اللبنانية العربية » ويعرف هذه الحركة بأنها « تنظيم المسلمين والمسيحيين على أساس الاتفاقات المتبادلة : ينضم المسيحيون اللبنانيون إلى المسلمين في المطالبة بالاستقلال ، ويعترف المسلمون بالشخصية الذاتية للبنان باغلبيتها المسيحية ووجهتها الغربية «بالغين

---

(١) وقد عرف تاريخنا العربي ، مسيحيين دافعوا عن الاسلام والعروبة .. رشيد سليم الخوري .. وجرجي الحداد .. وامين الريحاني .. وخليل مطران .. وامين نخلة .. ووليم مكرم عبيد .. الخ .

المنقوطة ، كقطر عربي قائم بذاته لا يندمج في سوريا ولا أية وحدة عربية كبرى يكون المسلمون فيها اغلبية ساحقة (٣٣) !

إذن فقد سقطت الحاجة الى ابعادالاسلام بحجة كسب لبنان .. ما دام الاتفاق عاماً على أن يكون ذلك الحذف لن يغير من حقيقة الوضـــع .. وما دام يقرن بكيان خاص منفصل عن اية وحدة عربية كانت أو اسلامية ..

وكما يوجد التفسير المثالي للتاريخ ، والتفسير المادي للتاريخ يبدو ان هؤلاء الطائفيين قد اخترعوا التفسير اللااسلامي للتاريخ .. فكل الكوارث والانحرافات سببها التفسيرات الاسلامية ! انيس صايغ يقول : « حينما أدت نكبة فلسطين إلى نكسة الشعور العربي في مصر ، وهي نكسة مؤلمة اثرت في مصير الفكرة العربية في مصر . . فلأن شعب مصر كان ينظر يومها إلى العروبة من زاوية اسلامية وقبل بها شعوراً عاطفياً يفتقر إلى الشمول والتعمق . . وكانت الخسارة العسكرية والسياسية ضربة على الفكرة نفسها (٣٤) » .

وهو كلام غير مفهوم ، غير دقيق .. فليس ثمة من يزعم ، ولا دليل لمن يدعي ، إن – العروبة اصيبت بنكسة في مصر من جراء حرب فلسطين – بل بها دخلنا ، وبصفة نهائية ، في القضية العربية وصراعاتها ..

لقد كفرنا بالحكومات العربية ، وبالتضامن العربي الرجعي .. وبالنظم المتهرئة .. ولكن لم نكن وحدنا الذين وصلنا إلى هذه الحقيقة ، ولم تكن حكومة مصر الرجعية هي أول حكومة تسقط نتيجة حرب فلسطين .. وإن يكن أول حكم اعدام في المنهزمين قد نفذ في القاهرة ..والذي عاش مأساة الحرب في الفالوجا ، عندما اسقط النظام الرجعي في القاهرة تحدث في أول كتاب له عن الدائرة العربية ..

لم تحدث ابداً نكسة في الشعور العربي في مصر ..

ما هي مظاهر النكسة ؟ .. لا يحدثنا .. ولا نظنه يعني ظهور بعض كتابات – ما زالت تظهر – لبعض الذين يخفون حقداً أسود على العروبة ، وينتهزون أية فرصة لينفثوا حقدهم ..

ثم ما هي الزاوية الاسلامية التي كان المصريون ينظرون بها إلى العروبة يومها والتي تسببت في حرمانهم من العمق والشمول . . ومن الذي افترض إن الزاوية الاسلامية تجنبنا العمق والشمول ، ولو كنا قد تخلينا عن هذه النظرية فكيف كنا سنستقبل السلوك المزري لبعض القيادات العربية .. كيف كانت النظرة اللااسلامية ستحول دون تأثير النكسة المؤلمة في الشعور العربي ؟ . . لا يفسر ! ..

إن شعب مصر كان وما زال وسيظل لا يفصل بين العروبة والاسلام ، وينظر بكل عمق وشمول وريبة ايضاً لكل دعوة تحاول أن توقع بين العروبة والاسلام ..

وثورة ١٩٥٢ التي يرى « انيس صايغ » انها ساقت المصريين إلى العروبة هي ثمرة مباشرة لحرب فلسطين ولخسارة هذه الحرب بصفة اساسية .. حرب فلسطين لم تصب فكرة العروبة في مصر بنكسة .. والعروبة في مصر ليست فكرة ، بل قضية وجود . . ومرة اخرى نراه يستخدم التحليل اللااسلامي ليخرج بنتائج عجيبة .. يحلل لنا ثورة لورنس .. ثورة الهاشميين .. ثورة حسين – مكماهون فيقول : « قامت الثورة إذن على اسس قومية عربية ، مهما كانت مساندة الانكليز لها ، ومهما كانت نفسية المشرفين المباشرين عنها أي الحسين وابنائه ، وهي لذلك ذروة النضال الوطني ضد الاتراك .. ولكن التعبير عن أهداف الثورة سريعاً ما انحرف عن منحاه القومي ، وتخبط في التباسات اسلامية ٣٥ .. »

مساندة الانكليز لا تنتقص من قوميتها ، بل تظل رغم هذه المساندة المريبة « ذروة النضال الوطني » ! أما الذي يفسد قوميتها ويوقعها في التخبط والالتباس فهي الاسلاميات !

كأن مقياس الوضوح والقومية هو مدى التجافي للاسلام حتى ولو كان مصدره بريطانيا عدوة العرب الأولى .. وبقدر ما يعجبون بثورة لورنس ، ويجعلونها بداية القومية العربية .. نراهم يتنكرون للثورة الوهابية لمجرد أنها رفعت لواء الاسلام ..

« قد يقول البعض إن الحركة الوهابية اصطدمت بالدولة العثمانية .. وانها بحكم موطنها واتباعها عربية صرفة . . ولكنها على اية حال ليست جزءاً من الحركة القومية (٣٦) .

لماذا ؟ .

لأنها اتخذت « اتجاهاً اسلامياً » . .

وما ذنبها وليس في جزيرة العرب غير المسلمين ؟ . . ترضية لمن إذن كان عليها أن تنبذ الاسلام . . وهل يبدأ تاريخ العرب الا بحركة ذات « اتجاه اسلامي » صرف ؟

فلماذا تحذف الثورة الوهابية من تاريخ الحركة القومية (على الأقل في طورها الأول إلى نهاية القرن التاسع عشر) . . بالعكس إنها كانت أنقى حركة عربية إلى نهاية القرن التاسع عشر . . ولم تتخبط تاريخياً إلى منتصف القرن العشرين . وفيلسوف القومية العربية يتخذ نفس الموقف ، فبالرغم من انه يعترف باليهودية كأمة استناداً للدين وحده ، نراه ينكر على الثورة الوهابية طابعها القومي العربي لمجرد انها « حركة دينية [1] » والغريب ان الفلاسفة والبحاث في قضية القومية . . لا يقفون ليفسروا لنا معنى « حركة دينية » ولا ما هو الفرق بين « حركة دينية » تطالب بحق شيوخ الازهر في لبس الحذاء (٣٧) الحديث وبين حركة دينية ترفع السيف وتقاتل السلطة العثمانية ، وتزيل هذه السلطة من كربلاء إلى الحديدية . . وتقيم دولة عربية مستقلة تمام الاستقلال . . أول دولة عربية مستقلة بغير معونة من استعمار اجنبي . . بل وتتضمن البذور الحقيقية لأي اصلاح جدي في الوطن العربي . ألا وهي العودة إلى روح الاسلام وهي البداية لاكتشاف التكنولوجيا الحديثة . . فالعرب عندما خرجوا باسم الاسلام في فجر الدعوة المحمدية . . لم يكن معهم إلا طريقة جديدة في التفكير . فلما اصطدموا بالتفوق المادي للدول المحيطة بهم كان عليهم ان يحموا طريقتهم في التفكير باكتساب التقدم المادي عند عدوهم . . عندما واجهتهم مشكلة

---

(١) بينما لينين نفسه لم يجد تناقضاً بين القومية والاسلامية فهو يقول عن الثورة في اندونيسيا : « في جزيرة جاوه حيث نهضت حركة قومية اسلامية » (برافدا ٧ مايو ١٩١٣ - اي قبل الحكم) .

الفيل في حرب الفرس .. كان عليهم ان يكتشفوا طريقة لهزيمة وحماية عقيدتهم .. والفيل لم يكن معروفاً لغالبيتهم .. حتى انه لما جاءوا به إلى المدينة مأسوراً قالت نساء المدينة : « هذا من فعل الفرس » ولم يصدقوا انه من مخلوقات الله !

فبدائية الثورة الوهابية لا تشينها ، ولا حتى تشنجاتها ، فان من يصطدم بالدولة العثمانية ، ثم بمن يحمون الرجل المريض .. كان عليه ان يكتسب سريعاً التفوق المادي الذي استعار فكرة الغرب ، واسلحة الغرب ، فلم يحدث ثورة قومية ، بل عملية ممتازة للمخابرات البريطانية ، وكان عليه أن يتقبل المصير الذي يرسمه الغرب له، ولثورته .. وإن يركب المدمرة البريطانية إلى حيث تشاء بريطانيا متمثلاً بقول الشاعر :

مشينا خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها ..

وخطاه كتبت في دار المعتمد بالقاهرة ..

ورغم ذلك فالثورة الوهابية مستبعدة من تاريخهم القومي .. وثورة لورنس هي البداية لهذا التاريخ ! .. ومع ان الثورة الوهابية كما قلنا ثارت ايضاً ضد السلطنة التركية ، بل وكان انتصارها عليها أقوى وأشرف من انتصارات لورنس وعودة أبو تايه .. لأن الجريمة التي لا تغفر عند القوميين العلمانيين للثورة الوهابية .. انها رفعت لواء الاسلام ..

وقد كان « الياس مرقص » أصدق منهم نظرة واكثر عروبة عندما تساءل « كيف نسي [1] ان الحركة الوهابية قامت في قلب الجزيرة العربية ، واعلنت العودة إلى اسلام العصر الأول « وهو اسلام عربي » وعبرت عن ايدلوجية جزء من المجتمع العربي ضد ايدلوجيا الحكم التركي ، الصوفية .. الطرق .. والكهنوت واثرت على

---

(١) الحصري في نقد الفكر القومي ص ٦٩ ٤ .

المصلحين في البلاد العربية المتقدمة [١] » لا ، هو لم ينس .. فقد تلمس العروبة عند « انطون سعادة » . . ولكن الثورة الوهابية استحقت ان تحذف من تاريخ العرب لانها اتخذت طابعاً دينياً ، ومن ثم أصبحت «حركة دينية » والتاريخ القومي عندهم هو ما كان ضد الاسلام ، لذا فان الحذف من تاريخ القوميـة العربية يشمل كل من تلا الشهادتين في كفاحه ..

« فمقاومة الجزائريين للغزو الفرنسي كانت أول رد فعل من جانب العالم العربي في الغرب ضد التسيطرية الاوروبية .. ولا يمكن ان يقال انها كانت تعبيراً للقومية العربية ، لأن فكرة العروبة لم تكن قد ظهرت بعد في العالم الحديث .. وانمـا كانت ثورة من جانب شعب عربي للدفاع عن حريته وبلاده ضد غزاة ينتمون إلى جنس آخر وديانات اخرى (٣٨) .. »

لأن فكرة العروبة لم تكن قد ظهرت بعد .. فلا يمكن ان يقال ان مقاومـة الجزائريين كانت تعبيراً عن القومية العربيـة . . لأنه في منطقهم ان الافكار هي التي تصنع الحقائق وليست الحقائق هي التي تصنع الافكار [٢] ..

ماذا نسمي إذن كفاح « شعب عربي » للدفاع عن حريته وبـلاده ضد غزاة ينتمون الى جنس آخر وديانة اخرى ؟ ..

يا سبحان الله !

---

(١) بل و قول فيلبي ان فيصل بن سعود الاسير في القاهرة بعد هزيمة الوهابية على يد جيش محمد علي الارناؤوطي (المصريون لم يشتركوا في ضرب الثورة الوهابية فلم يكن قد تكون جيش مصري بعد) اصبح ولياً واصبح سجنه يحج اليه المرضى المصريون للاستشفاء ببركة الثائر الاسير ودعواته ! ..

(٢) ومع ذلك فقد كان الامير عبد القادر الجزائري ينشد في حروبه ضـد فرنسا بيتاً من تأليفه يقول فيه :

ورثنا سؤدداً للعرب يبقى   وما تبقى السماء ولا الجبال ..

ما هي القومية العربية ان لم تكن كفاح شعب عربي ضد غزاة من جنس آخر وديانة اخرى ؟ أم يا ترى يجب أن تكون القومية العربية هي كفاح شعب عربي ضد شعب عربي من نفس جنسه ودينه !! والحصري يذكر عرابي مرة [١]..ولكن ليؤنبه ولينسب له رسالة نقلا عن « جورجي زيدان » (تأمل !) – وللتدليل على فساد عروبة احمد عرابي وانه يرى ان طاعة الله ورسوله تستوجب بقاء العرب تحت حكم آل عثمان !

وطلبة المرحلة الاعدادية يعرفون ان الثورة العرابية كانت أروع وآخر مقاومة ضد الغزو الأوربي للوطن العربي .. وان عرابي هو اول من خلع الارستقراطية التركية التي عمل « الحصري » صدر عمره في خدمتها في وزارة التربية التركية .. وعرابي قاتل من اجل استقلال مصر .. بل من اجل مصير الامة العربية كلها الذي تقرر في معركة التل الكبير .. ولكن لأن عرابي لم يخلع الاسلام يخرج من تاريخ العروبة ويدخل انطون سعادة وعودة ابو تايه ولورنس ! ..

ونفس الموقف من الثورة المهدية .. انهم يلحقون السودان بالمجال الحيوي لعروبتهم ثم لا يذكرون ثورة السودان بحرف في تأريخهم لامجادهم العربية .. مع انها كانت ثورة ضد الترك ، وضد النفوذ الاجنبي ... حررت السودان كله من السلطتين التركية والبريطانية وحاولت تحرير مصر .. ورغم ان المراجع الاوروبية لا تصف المهديين الا بكلمة « العرب » .. لماذا تسقط هذه الثورة من سجل العروبة .. لانها نادت بالاسلام ! ..

والحركة السنوسية .. التي قادت كفاحاً خالداً ضد الغزو الاستعماري وتحملت تنكيلا مروعاً وتشريداً مؤبداً .. وحمت عروبة ليبيا، بل وأقلقت الوجود البريطاني في مصر مدة .. لماذا تحذف من التأريخ القومي للعروبة ؟ .. لأنها نادت بالاسلام !

---

(١) من الثابت ان عرابي ارسل دعاته لالهاب الحماس وطلب التأييد في دمشق ..

ترى هل نتجنى على هذا الفريق لو قلنا ان القومية العربية عندهم تعني معـــاداة الاسلام واستبعاده ؟ .

ويثني « انيس صايغ » على المفهوم القومي المعاصر ، ويعددمن صفاته «العلمانية» ويفسرها بانها تحرير المفهوم القومي من أي التباس مع المفهوم الاسلامي للجماعـة ، والارتباط بينهما حاصل لأكثر من سبب يعددها في : « النبي والقرآن والفتوحات وأوائل المسلمين وأوائل الخلفاء كلهم عرب . . كذلك كانت الحضـارة والمجتمع العربيان اسلامي الإطار والنفسية والتقاليد والمفاهيم .. »

ثم لا يقدم لنا حلًا لالغاء هذهالحقائق من التاريخ ! ولكنه يقول : « وقلما وضع الحد الفاصل بينهما في القرنين الاخيرين، بالرغم من علمانية احرار العرب في سورية، العربية، تاليفاً وحزبياً وجهاداً مسلحاً » ويعدد مخاطر انعدام خط فاضل بين العروبة والمفهوم الاسلامي للجماعة في :

« انه يعطي العروبة معاني لا تحملها ، ويقسم الامة العربية على نفسها ،ويلحق بعض العرب بقوميات لا وجود لها (مثل ماذا ؟ ج) ويكرس الريبة الحاصلة في نفوس كثيرة (ريبة الاقليات المسيحية . . وبعض الاقليـــات الاسلامية كالشيعة والدروز) بالقومية العربية ، ويعيد الى الاذهان تاريخاً حافلًا بالفتن والقسوة والتآمر وبالظلم والحقد والتفاوت في الحقوق ..

« وعلمانية المفهوم القومي في اهمية علمـــانية الدولة انها لا تناسب منطق القرن وعدله فحسب بل تقضي على آخر حيل اعداء العرب للايقاع بهم (٣٩) » .

لندع جانباً النبرةالتعليمية والنصح بمجاراة روح العصر ..إن ما يهمنا هوالاعتراف بهذا الارتباط بين الاسلام والعروبة .. ونطمئن الذين يقلقهم هـــذا الارتباط ، نطمئنهم انـه لا سبيل إلى فصمه ، ولا سبيل لازالته .. ومهما انكرناه نحن ثلاثا قبل صياح الديك فالمتآمرون يعرفونه .. ولن يصدقونا ..

أما مخاوف الأقليات المسيحية، فقد فندنا هذا القول ، ورأينا ان العربي الصادق

في عروبته يرى في الاسلام تراثه وتاريخه وامجاده وثقافته وتكوينه النفسي والفكري..
والمضمون الاسلامي للعروبة لا يكلفه شيئاً في دينه، ولا عباداته ولا حريته الشخصية، ولا سلوكه الاجتماعي، ولا يفرض عليه أية التزامات تأباها عقيدته .. وقد عاشت جميع الكنائس العربية في ظل الاسلام وحده، بينما استؤصلت كل الكنائس المعارضة في خارج الدولة الاسلامية، وفي ظل الحكم المسيحي .. ولولا الحكم الاسلامي لما عاشت الكنيسة القبطية والرومانية والمارونية والروم والكاثوليك والايفانجليكية والبرسبتيرية .. الخ .. كفلت حرية العقيدة وحرية العمل والتآخي الوطني في ظل « تاريخ حافل بالفتن والقسوة والتآمر والظلم والحقد والتفاوت في الحقوق ! » . [1] فكيف يخشى المسيحي الذي نجا من ذلك كله، كيف يخشى في القرن العشرين .. قرن الديمقراطية والاشتراكية والتحرر ... الخ الخ الخ !

أما الذين يفتقدون إلى حسن النية، فلا سبيل إلى كسبهم بخلع الاسلام .. وقد رأينا إن القومية العربية قد فشلت في كسبهم، بل فروا إلى الاقليمية .. أما الحديث عن ريبة الاقليات الاسلامية كالشيعة والدروز .. فلا نجد وصفاً يليق به أقل من أنه دس وافتراء على اخوة لنا في الدين والعروبة .. شكيب ارسلان درزي، وهو خير من تجسدت فيه العروبة الاسلامية .. والشيعة هم جند الاسلام وجند العروبة..بل إن الافتراءات الاخرى تحاول ان تنال منهم من جانب العروبة بالزعم ان لهم ولاء اسلامياً يوحدهم مع غير العرب .. ولكن احداً لم يشك قط في ايمانهم الديني . ولم يزعم أحد ان الدعوة الاسلامية تثير الريبة في نفوسهم . .

وكل هذه الافتراءات باطلة . فهم كمواطنين من اصدق المؤمنين بالعروبة والاسلام .. فامامهم عربي، وابن عم سيد العرب، وزوج الشريفة الهاشمية رضي الله عنها .. وولداه سيدا شباب العرب .. وشيوخهم من نسل رسول الله ﷺ ..

---

(١) وعندما يتحدثون عن الاسلام يفقدون كل علمية ويسقطون في هاوية الافتراء الرخيص .. اهو الاسلام الذي تاريخه « فتن وقسوة وتآمر وظلم وحقد .. الخ ام الحكم الرجعي المتخلف المعادي لروح الدين ؟

فكيف يثير الاسلام ريبتهم ؟

ولعلنا نتفهم شيئاً من حقيقة موقف الذين يلحون على استبعاد الاسلام .. ونقوم حقيقة ايمانهم بالعروبة ؟.. ونسترجع القول « ليس حباً في معاوية ولكن بغضاً في علي !؟

لعلنا نكشف ذلك من هذه الفقرة التي ينهي بها المؤلف كتابه في تطور مفهوم القومية ، وبعد حديث طويل عن العروبة والوحدة العربية والقومية العربية العلمانية نصل إلى الصفحة الاخيرة في الكتاب فاذا به يقول : « لم تعش أية وحدة عربية طويلاً في التاريخ ، لا قبل الاسلام ولا بعده .. وكانت كل دولة عربية مركزية تجابه عصيانات مستمرة حتى نهاية عهدها .. وقد قام العرب بثورات اقليمية وشخصية ضد الحكم المركزي العربي أكثر مما قاموا بثورات وطنية ضد الاجانب .. بل إن مدى تعاون فئات عربية ما مع محتلي البلاد من الاجانب (من ايام البيزنطيين والفرس والاتراك والتتار والصليبيين إلى أيام الانكليز والفرنسيين) يفوق مدى صراع العرب ضد هؤلاء بوجه عام ..وإلى اليوم يوجد لاسرائيل عملاء رسميون ينكشفون يوماً بعد آخر ويوجد في جيشها مجندون عرب (٤٠) » .

أي تاريخ مشين لأمة .. وأي واقع كئيب اسود .. وأي مستقبل يمكن أن يخرج من ذلك كله ! . . هذا ما يؤمن به وما يبشر به القوميون العلمانيون !

بقيت كلمة في دعاة القومية اللادينية هي موقفهم المريب من اسرائيل .. ومن المضحك المبكي إن « انطون سعادة » رفض اعتبار اليهود أمة .. وقال انهم كنيس وثقافة .. فرد عليه فيلسوف القومية العربية مؤكداً انهم أمة وحجته في ذلك دينهم القومي [(١)] .

ويسأل الياس مرقص – بحق – فيلسوف القومية العربية .. لماذا اعترف لليهود بانهم أمة ويسأله هل وجدت فيهم وحدة اللغة في ١٩٢٨ ؟

اننا نسأل الاستاذ الحصري..من أين لك أن تعتبر يهود العالم أمة .. هل وجدت فيهم ومنذ ١٩٢٨ .. وحدة اللغة (٤١) .

نعم نحن نسأل بدورنا من أين ؟ .. ولمـــاذا تخليت عن اس الاساس في حالة

---

(١) تأمل : اليهود قومية لان دينهم قومي .. ودينهم قومي لانه قاصر على قوميتهم .. ودر مع الحلقة .

نقل الياس مرقص عن قاموس لاروس التعريف بـ « ماكس نورداو » استاذ الحصري والذي يصفه الحصري بانه « مفكر قومي جريء » ويخفي يهوديتـه في كتاباته .. « والمفكر القومي الجريء » هو : « ماكس نورداو ١٨٤٩ – ١٩٢٣ كاتب وطبيب وصحفي يهودي مجري لـه مؤلفات متنوعة .. امضى القسم الاكبر من حياته في باريس .. صار اعتباراً من ١٨٩٥ احـد العاملين النشاطي في الحركة الصهيونية . » نقد الفكر القومي ص ١٥ ؛ .

وهذا المفكر القومي الجريء « كان يقترح اجلاء سكان شمال افريقيا الى الصحراء ليفنوا هناك ويسكن بلادهم شعوب اوروبا !

واحدة .. هي اليهود .. لماذا اعفيتهم من شرط اللغة .. لماذا « أكلت » كل الحجج ضد الدين ، في حالة واحدة فقط .. هي حالة اليهود .

وادوارد عطية [1] يعترف بالقومية اليهودية ، فهو يقول : « وانـــه لمن حقائق التاريخ الحديث المثيرة للاسى حقيقة .. إن القومية اليهودية والقومية العربية تحركتا في نفس الوقت تقريباً ، وإن هدف الأولى لا يمكن ان يتحقق بغير صراع فتاك مع الثانية في واحد من أعظم اقاليم العالم العربي حيوية ، ولعل هذا لا يثير دهشة ما دام كل من القوميتين .. العربية واليهودية تفرعتا عن المثالية القومية الاوروبية في القرن التاسع عشر (٤٢) » .

وإذا كانت القومية العربية التي يتحدثون عنها فرعاً عن القومية الاوروبية ، فهي ليست لنا بصلة .. لأن قوميتنا سابقة على قومية اوروبا القرن التاسع عشر بأكثر من قرونها التسعة عشر .. !

ولن نناقش إذا ما كان اليهود قومية حقاً أم لا .. انما فقط نريد أن نتأمل هـذا المنطق الأعوج . فما دمتم قد سلمتم بقيام قومية يهودية ، استناداً إلى الدين وحده .. فليس ثمة من يزعم ان يهود القرن التاسع عشر قد اجتمعت فيهم صفة واحـدة من صفات القومية المطروحة في شتى النظريات ومحلات بيـع القوميـة .. لا الأرض .. فما كانوا قد احتلوا فلسطين بعد ، ولا اللغة .. فالعبرية لم تكن مستخدمة خارج المعابد ولا الحياة الاقتصادية المشتركة ولا التراث الفكري والنفسي باستثناء الدين .. حتى المشيئة لم تكن قد عمت اليهود في هذه الفقرة ، بل كانت الصهيونية او ارادة العيش المشترك تلقى مقاومة حادة من غالبية اليهود ..

---

(١) ولد في لبنان من ابوين مسيحيين سنة ١٩٠٣ درس في كلية فيكتوريا بالاسكندرية ومنها انتقل الى كلية براسينوز في جامعة اكسفورد ثم قضى معظم حياته العملية في السودان كمحاضر للتاريخ في كلية غوردون ثم ضابط اتصالات عامة لحكومة السودان حتى عام ١٩٥٤ (من ترجمة حياته في كتابه العرب) ..

إذن الدين وحده قد استطاع ان يقيم قومية .. فلماذا الاصرار على تجريد القومية العربية ، قوميتنا نحن .. من الدين ؟ لماذا يغدو الحديث عن الاسلام في القومية العربية حديثاً غير علمي ... ويصبح الدين اليهودي مبرراً وحيداً لقيام قومية اسرائيل ؟

مع انهما اولاد عم .. فهما بزعمكم فرعان من المثالية القومية وكيف حدث ان القومية اليهودية المستندة إلى الدين كانت فرعاً من المثالية القومية الاوروبية في القرن التاسع عشر ، التي يزعمون لنا انها تخلت عن الدين وتطهرت من أفكاره !

القضية الثالثة التي يكتمل بها النقاش حول القومية .. هي مناقشة الزعم الماركسي الذي يفسر التناقضات القومية بالتناقضات الطبقية بين الرأسماليات .. والذي يؤمن بوحدة اممية للشعوب . وبالتالي فإن زوال النظام الرأسمالي سيفضي - وفقاً للتفسير الماركسي - إلى زوال الأمم ، أو حتى في المرحلة الأولى إلى زوال التناقضات بين الأمم وقبل ان نعرض وجهة نظر الشيوعيين ، وما اثبته التاريخ من بعد هذا الذي رددته الماركسية عن الواقع بعداً لم يعد من الممكن اخفاؤه أو تغطيته . . أقول قبل أن نعرض لهذا الزعم، نقف قليلاً عند الجهد المخلص الذي يبذله « الياس مرقص » للتوفيق بين وفائه للماركسية ، وبين علمه وإخلاصه لقوميته..فهو يقول : « الماركسية لا تقول ابداً إن - الأمة حقيقة عارضة .. إن بعض خصومها هم الذين ينسبون اليها هذا القول ، لأنهم لا يقبلون أمة ازلية وهم اصلاً لا يتصورون الاشياء إلا في حدود ثنائية الازلي والعارض .. في الماركسية كل الأشياء تاريخية وكلها تزول ، وبعضها يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقرار . والأمة من هذا البعض (٤٣) » .

ليس صحيحاً ان خصوم الماركسية هم الذين دسوا عليها هذا التفسير .. ولكن تصور التناقضات القومية باعتبارها تناقضات الطبقات المالكة ، ومن ثم الوصول إلى الاممية ووحدة الجنس البشري بزوال نظام الملكية .. كل هذا ساعد على أن تقترن الأمة بالرأسمالية وان تعتبر مرحلة أو - ظاهرة مرتبطة بالنظام الرأسمالي . أو مستمرة بعده لفترة من الوقت (ربما بالقصور الذاتي) أو سبقته في شكل غامض غير محدد المعالم ..

والقضية ليست قضية أمة ازلية .. بل ازلية الأمة .. فقد اتفقنا على ان شكل

تعبير الأمة عن نفسها يتغير ، واحيانا تفنى أمة بعينهـا .. وتظهر امم جديدة .. ولكن الأمم كحقيقة كظاهرة تميز الجنس البشري .. يبدو حتى الآن انها ظاهره ازلية بقدرمانسمي وجود الجنس البشري ظاهرة ازلية .. ربما سيختفي الانسان يوماً ما .. بل حتى الكرة الأرضية تحدثت الماركسية عن اخفائها .. ويكاد علمـاء الكون يجزمون بحتمية هذا الاختفاء .. ولكن هذا اليقين لا يمنعنا من ان نتصرف وكأن وجود الكرة الارضية ظاهرة ازلية .. وان نتحدث عن البشر .. وكأن التاريخ بدايته ونهايته مرتبط بوجودنا ..

وماركس نفسه قد رفض ان يضع قوانين تنظم الحركة في المجتمع البشري غير الطبقي . قال ان هذه ظاهرة جديدة لا يعرفها ، ولا يعرف قوانينها .. ونحن بدورنا لا نعرف هذه المرحلة التي ستختفي فيها الأمم .. ولكننا نعرف انه في حدود الوضع الحالي للجنس البشري .. فلا بد من انقسامه الى امم .. وان الأمم وجدت في مرحلة العبودية والاقطاع والرأسمالية .. وباقية بل وبشكل حاد في مرحلة الاشتراكية ..

يقول الياس مرقص في الرد على وجود التناقضات الطبقية داخل الأمة : « هذا لا ينفي وجود المصالح القومية ، فقد اوجدت البورجوازيـة السوق القومية والسوق العالمية .. وهناك في إطار السوق العالمية والاقتصاد العالمي تناقض بين الأمم ، على اساس توزع الدخل العالمي .. إن مصالح الأمم ليست متماثلة والبشر ينقسمون عمودياً إلى امم .. ذلك عنصر في الواقع الموضوعي (٤٤) » .

وهو قول صحيح تماماً .. بقي ان نضيف اليه مـا كان جديراً به ان يضيفه لو تحرر قليلاً من وفائه للماركسية . نقول اذا كان التناقض بين الطبقات داخل الامـة الواحدة في عصر الرأسمالية (وقبلها) لم يستطع ان يلغي التقسيم العمودي للبشر .. أفلا يؤدي الغاء التناقضات الداخلية في ظل الاشتراكية الى تدعيم انقسام العـالم إلى امم ذات مصالح غير متماثلة وبالذات حول توزيـع الدخل العالمي .. أي نصـل إلى

الفرض الذي نطرحه وهو إن قيـــام النظام الاشتراكي في امتين لا ينهي التناقض القومي ، ولا يقضي على التطلعات الاستغلالية والتوسعية بين الامم بـــل يزيد حدتها (١) .

(١) هذه الفرضية التي اصابت سكرتير الحزب الشيوعي المصري المنحل بالحيرة وجردته من الحيلة في الرد .. بالرغم من أنها لم تصبح فرضية بفعل الادلة الصينية السوفياتية .. علما بان أنجلز قد تنبأ بالتناقضات بين الدول الاشتراكية . يقول لينين ان انجلـــز لا يتصور البتة ان الاقتصاد سوف يظل بحد ذاته وبشكل مباشر جميع المصاعب . ان ثورة اقتصاديـــة ستكون حافزاً يحث جميع الشعوب على النضال في سبيل الاشتراكية ولكن فـــي نفس الوقت ان الثورات ضد الدول الاشتراكية ـ والحروب ممكنـــة سوف تتكيف السياسة حتما مـــع الاقتصاد ، ولكن ذلك لن يحصل بصورة فورية دستورية ، بصورة بسيطة ومباشرة ..
ان البروليتاريا لن تصبح قديسة ومعصومة عن الاخطاء والزلات بمجرد تحقيقها الثورة الاجتماعية ولكن الاخطاء المحتملة (والمصلحة الانانية ، محاولات الجلوس على ظهر الاخرين) ستدفعها حتما الى ادراك هذه الحقيقة .
هذا ما كتبه لينين قبل وصوله الى السلطة بعام واحد ، فلما اصبحت الفلسفة هـــي نظرية الدولة قبر هذا النص فلم ينشر الا بعد حرق جثة ستالين واجبر الشيوعيون علـــى ان يغنوا « ادى اخر الحروب » اما ما لم يدركه انجلز فهو ان غريزة الركوب على ظهـــور الاخرين ليست عادة مرذولة يتخلى عنها بالتربية الحسنة فـــي ظـــل الاشتراكية .. بـــل اثبتت تجربة نصف قرن من الاشتراكية انها تزداد حدة في ظل الاشتراكية كما حدث بيـــن روسيا والصين (راجع في هذا الموضوع كتابنا الماركسية والغزو الفكري الطبعة الثانية (الدار القومية) .

الفصل الثاني

قيام الدّولة العثمانيّة

قضية القومية العربية اللااسلامية مرتبطة تمام الارتباط بقضية الدولة العثمانية .. فهذه الحركات قد نبتت ضمن الدولة العثمانية وفي الشام بالذات .. وحجتها الوحيدة هي مقاومتها للسلطة التركية .. ومن ثم كان التقويم السليم للدولة العثمانية ضرورياً لتحديد طبيعة هذه الحركات ..

وإذا أردنا ان نخرج بحكم موضوعي على الدولة العثمانية فيجب ان نفتش عن الحقائق بعيداً عن كتابات الاوروبيين وأرائهم..فالدولة العثمانية كانت آخر حاجز اسلامي في وجه صليبية اوروبا .. انها هي التي منعت الغزو الصليبي للعالم الاسلامي على الأقل من بوابته الأمامية طوال ثلاثة قرون . وهي التي حالت دون احتلال الوطن العربي أربعة قرون كاملة ، فمنعت فناءه القومي ..

والدولة العثمانية هي التي انتزعت القسطنطينية واسمتها اسلام بول .. بعد ان صمدت القسطنطينية للزحف الاسلامي قرابة تسعة قرون، فتركت الدولة العثمانية بفتحها جرحاً دامياً في كل صليبي اوروبي .. لم يمحه إلا عودة الصلبان تطل من جديد في كنيسة اياصوفيا بعد أربعة قرون تردد الآذان من مآذنها . .

والدولة العثمانية هي التي طرقت ابواب فينا وقهرت شرق اوروبا حتى أصبح اسم « تركي » (وهو ما زال إلى عهدنا هذا يعني « مسلم » عند العامة في اوروبا) مصدر رعب يخيفون به الأطفال.. فمن الوجهة الصليبية البحتة ، أي بالتفسير الذي يرى في الصراع الديني أحد عوامل تكوين تاريخ العلاقات بين اوروبا والشرق .. بهذا

التفسير نرى انه من الطبيعي جداً أن تكون الدولة العثمانية هدفاً لحملات تشهير غير علمية، وغير منصفة، تهدف إلى تلطيخ سمعة الاسلام واثارة التعصب الديني عند مقاتلي اوروبا الهجوم على البرابرة.. الدولة العثمانية . واستئصال الاسلام الشرير !.. وهذه المسترها - التشنجية هي التي حركت التضامن الاوروبي خلف كل انتفاضة مسيحية ضد الدولة العثمانية .. فالحرب الصليبية التي بدأت في القرن الحادي عشر، ثم حملت لواءها البرتغال واسبانيا..لتعم بعد ذلك اوروبا، هـذه الحروب الصليبية اصطدمت بموجة اسلامية جارفة، انقذت الاسلام من ان تطويه الموجـة المسيحية الزاحفة ..

هذا اللقاء أو الصدام، أورث اوروبا الحقد والعداوة ضـد الدولة العثمانية ... واذا نحينا هذا التهاج في التفسير واستبعدنا الدافع الديني تماماً لنكون «شطاراً» من أبناء العصر المتنورين فنرى ان الدولة العثمانية كانت منذ أواخر القرن الثامن عشر تمثل الفريسة المطروحة امام الذئاب الاستعمارية للتقسيم والنهش والابتلاع .

كل التوسع الاستعماري كان يصطدم بها ويقتطع منها .. فرنسا في شمال افريقيا وساحل الشام، انجلترا في جنوب الجزيرة العربية والخليج .. ثم مصر وأفريقيـا فالعراق .. ايطاليا في طرابلس .. روسيا على طول امتدادها وتوسعهـا سواء في الولايات الاسلامية التي لجأت الى ضمهـا او في البلقان حيث جرى طرد المسلمين وابادتهم ..

كان من الطبيعي ان يبرر هـؤلاء الذئاب حرصهم على تحطيم الدولة العثمانية واقتطاع اجزائها .. تبرير ذلك بدافع انساني وتقدمي .. لا بد ان تكون الفريسة رجعية وكريهة وغير جديرة بالبقاء حتى تغدو حملة غزوها انسانية رحيمة، ومن أجل تقدم البشرية وتحرير الشعوب البائسة من النير التركي .. رسالة الرجـل الأبيض الذي حمله الأقدار مسئولية تحرير كل الجنس البشري .. تحريره من كل

عبودية إلا عبودية السيد الأبيض واستغلاله .

من هنا يجب أن نتحفظ عندما يقول جلادستون ان السلطان عبد الحميد هو الشيطان لان جلادستون هو « ابليس عينه » .. فهو الذي قضى على استقلالنا .. لنرفض هذه الاحكام المسبقة والصورة الرهيبة التي تكتبها أقلام صليبية واستعمارية عن الدولة العثمانية فقد كانت هذه الدولة وما زالت هدفا ممتازا لعمليات الغزو الفكري .. ولنحاول أن نتفهم ماذا كانت الدولة تمثل في التاريخ . . وكيف قامت .. ولماذا قامت .. وكيف انهارت .

كان ظهور الاتراك العثمانيين .. وقيام الدولة العثمانية ضرورة تاريخية حتمتها الأحداث [1] في هذه الرقعة من العالم .. بل لعلي لا أذهب بعيداً ان قلت انه كان حادثا سعيداً رغم كل البشاعة التي تم بها .. لقد سبق ظهور الدولة العثمانية تطورات هامة غيرت وضع العالم الاسلامي .. والعربي بالذات ، بالنسبة لميزان القوى العالمية .. كما غيرت التكوين الداخلي للمجتمع .

فقد تمزقت وحدة الدولة الاسلامية .. بعد ان كان هارون الرشيد أعظم ملوك الدنيا .. يتحدى السحابة ان تمطر خارج مملكته [2] .. تناثرت هذه المملكة وبسرعة نادرة .. حتى ان ايرادات الخلافة في سنة ٩٠٠ م أصبحت تعادل ٣ أو ٤ ٪ من ايرادها قبل مائة سنة فقط !

ولكن العالم الاسلامي لم تتناقص ثروته ، بالعكس ان دخول العالم الاسلامي مرحلة اللامركزية وتعدد الدول الاسلامية قد صاحبه ازدهار الحضارة الاسلامية والثقافة العربية .. بدأت عملية التفاعل بين القيم الاسلامية والتراث الحضاري

---

(١) في بلاغ قدمته مجلة « الكاتب » لشرطة الميثاق .. ضبط مقدموا البلاغ هذه العبارة في مقال لنا بمجلة الرسالة وابلغوا فينا السلطات على صفحات المجلة باننا نعارض الميثاق مما يوحي باننا نعمل لحساب الدولة العثمانية (!) ورفضوا نشر ردنا الموجع ـ حتى لويس عوض ذو الصلات الوثيقة بمجلة حوار التابعة للمخابرات الاميركية يتهمنا بمعاداة الميثاق لاننا ندافع عن الدولة العثمانية !

وفي مقال بجريدة « وطني » بقلم « جرجس حلمي عاذر » جاء فيه ان الاستاذ طلعت يونان مدير وكالة انباء الشرق الاوسط بالاسكندرية القى محاضرة تاريخية عن اعلام الصحافة القبطية بالقاعة المَرقسية بالعباسية .. تحدث عن جريدة الوطن التي تاسست عام ١٨٧٧ فقال بانها كانت اول جريدة مصرية اجبرت الوالي التركي اثناء الحرب بين تركيا وروسيا على السماح لها بالخوض في الشؤون السياسية الى حد ان هذه الجريدة الوطنية الاولى ناصرت روسيا ضد تركيا التي كانت وقتئذ تحكم وتتحكم في البلاد . « ! بحروفه من جريدة وطني ١١ ـ ٤ ـ ١٩٦٥ فتامل ! وعنوان المقال » اول جريدة وطنية اسسها قبطي « لمناهضة الحكم العثماني المستعمر ! » حتى روسيا القيصرية !! ..

(٢) نظر امير المؤمنين هارون الرشيد الى سحابة عابرة وقال لها : « امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ! »

للانسانية ، وظهر الفلاسفة المسلمون ، والعلماء المسلمون ، وتطورت العلوم والفنون والآداب ..

انتهت مرحلة الدرس والترجمة والتمثل ، وبدأت مرحلة الخلق وازدهرت محققة نتائج تفوق كل التخيلات ، ولولا تشكيك « الدجال » .. لما احتجنا إلى ان نثبت ماحققه العرب ..

ولكن حسبنا ان نشير هنا الى بعض ما اثبته قلم خاطب الاوروبين بلغتهم ، فالتزم الصدق ، وان أعوزته العاطفة :

« خلف العرب في ملكوت السموات وعلى وجه البسيطة في صورة ألفاظ لغتهم أثراً خالداً لثقافتهم وتغلغلها في اوروبا ، فكلمات منكب الجوزاء bet el geuse ورجل الجوزاء اليسرى Rigel والقائد Ael Kaid والطير Al Tair (الطير أو النسر) وغيرها من الاسماء الدالة على النجوم المعينة في المفردات العلمية العالمية هي هي كلمات عربية شاهدة على نشاط العرب في الفلك ، وعلى وضعها الثابت في أصول المعرفة العالمية سواء بسواء .. وفي لندن ميدان مشهور وحصن كبير للبحرية البريطانية يحملان اسمين عربيين تسربا إلى التاريخ البريطاني وحياة اللندنيين اليومية عن طريق أسبانيا فكلمة ترافلجار Trafalgar مأخوذة من كلمتين عربيتين معناها « طرف الأغر » بمعنى رأس أو على التبادل « رأس الفخر » وكلمة « جبر التار » هي في العربيه « جبل طارق » وطارق هو قائد الجيوش العربية الاولى التي عبرت أسبانيا من شمال افريقيا ..

« وليس الأمر مقصوراً على تسرب الكلمات العربية من أسماءالنجوم والاماكن إلى اللغات الأوروبية اذ انها توجد في لغة التخاطب اليومية التي هي وصف لمهمات والعاب ووظائف حكومية (وهذا مظهر من مظاهر التفوق الحضاري ، كما تعج لغتنا اليوم بكلمات تليفزيون وسينما وراديو وكندشة) وعلى غرار ذلك كان من المتوقع أن تكون الأسبانية والبرتغالية مشتملة على أكبر نسبة من هذه الألفاظ ..

ولهذا فالكلمة الاسبانية « الا زنبا » المقابلة لخزانة Cupload مأخوذة من الأصل العربي «خزانة » والأسبانية Alcalde ·judge مأخوذة من القاضي و Aduan الاسبانيةو Douan بالفرنسية و Doagne بالايطالية مأخوذة من الديوان «بالعربية» على حين ان Alcatifa البرتغالية = Gorpet مشتقة من « القطيفة » العربية بمعنى حرام أو قطيفة و كلمة Custam,Haise Alfanedega مشتقة من « الفندق » العربيه (اللوكاندة ، بالعربية المعاصرة) و Safra = Wasteplace مشتقة من صحراء.

« واللغة الانجليزية نفسها تشتمل على بضع مئات من الكلمات ذات الأصل العربي ، و كثير منها له طابع دولي بشكل أو بآخر ، وعلى الاقل في لغات غرب اوروبا ، وهل هناك كلمة تتسم بعمق جذرها في التقاليد الانجليزيه أو تثير الترابط الانجليزي أكثر من كلمة Admiral انها تأتي من الكلمتين العربيتين «أمير البحر» كذلك يلاحظ ان المصطلح الفرنسي «أميرال» أقرب كثيراً إلى الأصل العربي .. إذ يشتمل كما هو ظاهر على الكلمة الاولى العربية وإداة التعريف في الثانية على غرار « Abdual » في الاستعمال الانجليزي المعاصر وعدد كبير من الكلمات الاوروبية تبدأ « بأل » وهو أداة التعريف العربية ، وهناك حـــالة اخرى من الاقتراض في الكلمة الفرنسية « Salamalec» المأخوذة من التحية العربية « سلام عليك » بمعنى عليك الامان ..

« وهناك مجموعات من الكلمات الانجليزية المشتقة من العربية تبين أثر التجارة والصناعة والزراعة فكلمة Cheque تأتي من الكلمة العربيـــة « صك » مدللة على أصلها العربي لكثيرمن العمليات التجارية والمالية، ولا تزال هذه الكلمة حية إلى يومنا هذا في صورة (عقد التمليك) أو في « أنا مدين لك » وقد دارت عجلة الزمن دورة وصلت إلى درجة من الكمال (!!) بحيث أصبح عرب العصر الحاضر يستعملون كلمة Gheque حينما يشيرون إلى أوامر الصرف »

وقد أحصت الدكتورة « سيجريد هونكه » في كتابها «شمس الله على العرب» ٩٣ لفظة عربية في اللغة الألمانية .. منها :

« الشكة .. وهي ما يلبس من السلاح ، ومن ثم قيل شاك في سلاحه اصبحت

الجاكيت وغالبا ما تنطق شكيت وسكر وليمون، الكحول وكوب وأصله «قبة» Goppa Goupe cup بنزين صودا – سمسار Sensal جبه . . أصبحت Juppe وعدنا فنقلناها نحن إلى Cuppe العربية الدارجة «الجوب» ومثلها «البلوزة» التي ترجع إلى «بلوزيوم» المدينة المصرية الشهيرة بالنسيج الناعم . . ميزان . . والحبل أصبحت Câble Kabel Caple وعادت إلينا من جديد فنحن نقول الآن الكابل ! . .

دار الصناعة أصبحت Arsenal Darsena .

ولسنا نهدف في هذا الحديث إلى تأريخ التقدم العلمي للعرب . . ولكننا نقف قليلاً عند بعض – منجزاتهم لنبين إنه كان من الممكن أن تتابع الحضارة تقدمها باللغة العربية وإن اسس العلم الحديث الذي قامت عليه الحضارة الاوروبية الحديثة قد ارساها العقل العربي في ظل الحضارة الاسلامية . .

ففي الفلك :

« حسب التباني السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و ٤٦ دقيقة و ٢٤ ثانية والفلكيون اليوم يحسبونها بمقدار ٣٦٥ يوما ، وخمس ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٧ ثانية . . كما تنبأ الفلكيون العرب بكسوف الشمس وخسوف القمر بدرجة من الدقة المتناهية اذهلت الناس (٤٦) » .

« وكان آخر بحث نشره الاستاذ المرحوم «لويس ماسينيون» هو عن اكتشاف العرب للغيوم التي اهتدى بها ماجلان في رحلته حول العالم » والمراجع العربية تتحدث عن كروية الأرض كحقيقة مفروغ منها يقول « ابن يوسف المصري » (١٠٠٩) (٣٩٩ هـ) : ذكر سند بن علي في كلام وجدته له إن المأمون أمره هو وخالد بن عبد المالك المروروذي ان يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض »(٤٧) » وطول محيط الأرض = كما قاسه علماء المأمون هو ٤١٫٢٤٨ كيلو متراً والمعروف إن محيط الأرض هو ٤٠٫٠٧٠ كيلو متراً ولذلك يقول نيلنو : « قياس للعرب (لمحيط الأرض) هو أول قياس حقيقي اجرى كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل . . فلا بد لنا من عداد ذلك القياس في اعمال العرب

العلمية المجيدة المأثورة » . (كارلو الفونسو نلينو علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى روما ١٩١١ ص ٢٨٤) (٤٩) » .

وتؤكد الدكتورة هونكه إن العرب هم الذين اخترعوا البوصلة .. وتقول إن خمسمائة واربعة وثلاثين فلكياً عربياً حفظ لنا التاريخ اسماءهم ، وهذا عدد يندر ان نجده بين ابناء امة راقية اخرى في العالم ..

ويمتاز التفكير العربي بأنه لا يتقبل المسائل العلمية كحقائق مسلم بها ما لم يفحصها ويطبقها ، حتى مؤلفات ارسطو او بطليموس فقد عرضوا لها ناقدين فاحصين فأصبحنا نجد مؤلفات تحمل ما معناه : حول الخطا الذي وقع فيه « ثيون » عند حسابه الكسوف والخسوف : أو حول اختلاف جداول بطليموس عن التجارب التي قام بها ثابت بن قره (٥٠) » .

« وفضل بن الهيثم على الفلك يتجلى في اكتشافه إن جميع الاجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها ، عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس . . وهذه النتيجة التي انتهى اليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة اخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة في علم الفلك ، فقد عارض ابن الهيثم العالمين الاسكندريين (اويقليد) و (بطليموس) فأثبت خطأ نظرياتهما وبذلك فرض اراءه الجديدة (٥١) » .

« كذلك لم تلتفت اوروبا إلى ملاحظات العرب المتعلقة بالبقع الشمسية ؛ والتي انتبهت اليها اوروبا عام ١٦١٠ م فقط ، وما يقال عن البقع الشمسية يقال ايضاً عن ذبذبة محور الكرة الأرضيـة ولو أن الناس لا يشعرون بها نظراً لكبر الأرض (٥٢) » .

ومن الجدير بالذكر أيضاً ان اوروبا لم تلتفت إلى رأي البيروني الذي نادى به حوالي عام ١٠٠٠ م (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) وهو الخاص باعتبار الشمس هي مركز الكون من وجهة النظر الفلكية قبل كوبر نيكوس بخمسة قرون (٥٣) !

وفي علم الضوء : « جاء ابن الهيثم فتوصل إلى طرق اخرى حديثة ، وذلك بفضل نظريته الخاصة بالاشعة وانكسارها ، هذه النظرية التي كانت نقطة تحول في ابحاث العالم في الطبيعة وبخاصة الضوء » وهو الذي اثر في اوروبا تأثيراً بعيداً وعرفته تحت

اسم « الحسن » وكان اشهر الاساتذة العرب الذين اخذوا بيدها في هذا المضمار من البحوث ، فقد وضع نظرية حول حركات الافلاك على اطباق غير شفافة ، وقد شغلت هذه النظرية العصور الوسطى كثيراً ، كما خلقت لنا اثراً في المكان الخاص بـ « شتم » بالقرب من مدينة (اينزبروك) حيث يوجد اليوم مائدة من خشب القرو ترجع إلى عام ١٤٢٨ م وقد صنعت في (اوجسبرج) وهي تبين حركات لافلاك الستة حسب نظريته وفي صورة نموذجية (٥٤) » .

وقد قال اويقليد وبطليموس ان العين ترسل (اشعة بصرية) على الأشياء المراد رؤيتها ، فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأي وقال إن العين لا ترسل شعاعاً وإن هذا الشعاع ليس هو الذي يسبب الرؤية .والعكس هو الصحيح فان الجسم المرئي هو الذي يرسل اشعة إلى العين وإن عدسة العين هي التي تحوله .

وكان هذا الرأي لابن الهيثم كشفاً جديداً قفز بالعالم العربي وبخواص الحواس قفزة بعيدة جداً وصحح الخطأ الذي وقع فيه العالم القديم .. وفسر لنا ابن الهيثم الضوء ومظاهره ، كما اوجد بذلك قانوناً جديداً أثبت صحته وأيده بتجارب كثيرة مختلفة ، فكان ابن الهيثم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب وابن الهيثم وامثاله من العلماء العرب هم مؤسسو الابحاث التجريبية وليس روجر بيكون أو باكوفون فرولام أو ليونارد وفينشي أو جليلي، فالعرب سبقوهم وبلغوا بابحاثهم التجريبية المستوى الرفيع ، واصبح اسم الحسن ابن الهيثم هو همزة الوصل وهو النجم الذي اضاء الطريق ومهد لقيام الابحاث الحديثة بعد ان سبق اوروبا اليها (٥٥) ..

وكيف يقع خسوف القمر اذا كان القمر جسما غير مضيء؟وانه يستقبل ضوءه من الشمس ؟ فمثل هذا السؤال الفلكي دفع ابن الهيثم إلى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق اجسام نورانية ومن هنا أوجد رأيه الخاص بمصادر الضوء ، وأخذ يقوم بمختلف التجارب ، وأوجد دراسة خاصة بطبيعة القاء الظل كما أطلق هو نفسه هذه التسمية على بحثه هذا . وأول تجربة قام بها هي الخاصة بجهاز يشبه تقريباً آلة التصوير وبها ثقب ، وكانت هذه الآلة هي النموذج الأول لآلة التصوير ، وقد اثبت ابن الهيثم عن طريق هذا الجهاز استقامة خطوط الضوء، ولم يكن يصدق عينيه ندما

شاهد العالم وقد أصبح اسفله اعلاه بمجرد وضع الصورة وضعاً عكسياً إن التجارب التي توصل بمقتضاها ابن الهيثم إلى هذا الفتح العلمي الجديد هي بعينهـــا التي اهتدى اليها (ليوناردو دوه فينشي) فيما بعد فقد وجد ابن الهيثم تعليلًا لكسر الاشعاعات عندما تمر خلال وسيط مثل الهواء أو الماء واعتماداً على هذه الظواهر وتلك الحقائق استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية والشيء الجدير بالذكر حقا ان ابن الهيثم توصل إلى معرفة ارتفاع هذه الطبقة تماما، وانها خمسة عشر كيلومتراً .. ولم تقف ابحاث ابن الهيثم عند هذا بل امتدت إلى هالة القمر والغسق وقوس قزح ونحن نعلم ان ارسطو قد فشل عندما حاول في شرحه تعليلياً التعليل العلمي .. وذهب ابن الهيثم بعيداً فطبق معلوماته على اجهزة البصريات فدرس وحسب الانعكاس في قطاع المرآة الكروية أو المخروطية اعني الاشعاعات المتوازية التي توجد في نقطة الاحتراق ، كما اهتدى ايضـــا إلى قوانين تركيب كشاف الضوء ، كما فحص اثر الحرق وتكبير المرئيات ، لا عن طريق المرآة المقعرة فقط بل عن طريق الزجاج الحارق والعدسة وبذلك استطاع ابن الهيثم عمل أول نظارة للقراءة .. وقد تجلت عبقريته النظرية والتجريبية في فحصه الخاص الذي قام به على سير الشعاع في داخل كرة وقد استخدم هذه التجارب ذاتها شارحه العبقري (كمال الدين) بعد ذلك بقرنين (كمال الدين ابو الحسن الفارس) .

أما اثر هذا العربي العبقري على اوروبا والاوروبيين فعظيم جداً، فنظرياته في في الطبيعة البصرية ما زالت مسيطرة حتى اليوم على اوروبا ، فعلى ابحاث ابن الهيثم الخاصة بالبصريات تعتمد جميع الابحاث الحديثة منـــذ ظهور الانجليزي (روجر بيكون) حتى البولندي (فيتليو) .. ويدعي الايطاليون ان (ليوناردو ده فينشي) هو مخترع المصورة ، والمضخة ، والمخرطة وأول طائرة . والواقع ان جميع هـــذه المخترعات تعتمد على أبحاث واختراعات الحسن بن الهيثم كما تؤيد ذلك الأدلة الكثيرة الموجودة بين أيدينا ، ففي ألمانيا عندما بحث (يوحنا كيلر) في حوالي القرن السادس عشر القوانين التي اعتمد عليها جليلي في عمل منظاره الذي شاهد به نجوماً لم تر من قبل أدرك ان خلف هذه الابحاث يقف الحسن ابن الهيثم وحتى يومنا

ىذا تعرف المسألة المعقدة المتصلة بالالمام بالطبيعة والرياضة معاً والتي حلها الحسن بن لهيثم عن طريق معادلة من الدرجة الرابعة ، وأظهرت هذه المسألة نبوغه الرياضي في لجبر، إذ حسب النقطة الموجودة في مرآة مقعرة وعلى بعد خاص منها جسم يعكس لى صورة خاصة حساباً صحيحاً ، ما زالت تعرف باسم مسألة الحسن.» ٥٦

وفي الرياضيات :

« والكندي هو أول من استخدم « الفرجار » لقياس الزوايا في الهندسة » .

« عرفت العمليات الحسابية باسم «Alguarismo» والغريب اننا ترجمناها حديثاً اسم اللوغاريتمات وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي !! والصحيح أن نترجمها « الخوارزميات» أو – الجداول الخوارزمية بدلا من الترجمة المضحكة «اللوغاريتمات» و « جـــداول اللوغاريتمات » كما تسمى في كتب الطلاب في المدارس الثانوية في مصر » ٥٧

« ومن كتب الخوارزمي عرفت اوروبا الصفر» وقد استخدم الهنود هذه الدارة كاشارة للتعبير عن نقص شيء من الأشياء أعني لا شيء ويعبرعنه في الهندية (سونيا) ي (فراغ) ، فلما عرف العرب هذه الاشارة ومدلولها ترجموها بلفظ (صفر) أي (خالي) أو (خلو) ثم جاء ليونارد وتتلمذ على العرب في الحساب فأخذ اللفظ لعربي كما هو واستخدمه كما استخدمه العرب وان كان قد ضاع لفظ (صفر) صياغة لاتينية فأصبح لاتينية فأصبح (صفرم) Celhirum وعرفه بقوله : « هذه الدارة تعرف في العربية تلفظ صفر .

وإذا انتقلنا إلى ايطاليا وجدنا في آخر كتاب ليونارد ولفظ (صفرم) يكتب (زفرو Zefero ثم (زيرو Zero) .

« واستخدام الأعداد العربية ليس قاصراً على الألمان فقط ، بل نجدها عند جميع الشعوب المثقفة ، ولولاها ما استطاع العالم اصدار التذاكر أو تدوين أثمان الأشياء ولا طبع دليل تليفون أو تقرير سوق الأوراق المالية. ولولا هذه الأعداد العربية ما قام هذا البناء الشامخ الخاص بالرياضيات والطبيعيات والفلك أو الطائرات أو السفن عابرات المحيطات كذلك الطبيعة النووية وغيرها . وتقديراً لفضل العرب على

الانسانية خلد العالم اسمهم بتسمية هذه « الأعداد العربية »

هذا ما تقوله الدكتورة الالمانية « سجريد هونكه » .

« فالعرب وليس اليونان هم اساتذة اوروبا في النهضة العلمية والرياضية (٥٧) ».

وفي الطب :

« اكتشف العرب عدة اكتشافات بالغة الاهمية منها الجرب الذي اكتشف جرثومته الطفيلية « ابن زهر » والعرب وضعوا قواعد التشخيص معتمدين على النبض والبول » ونذكر ابا القاسم خلف بن عباس الزهراوي الذي ترجم كتابه «التصريف» إلى اللاتينية وطبع عشرات الطبعات وهو أول كتاب تفرد فيه الجراحة علماً مستقلاً قائماً على معرفة التشريح [1] .

« وابو القاسم الزهراوي هو أول من اجرى عملية إزالة حصوة المثانة في النساء (٢) (٦٠) » .

« قبل ستة قرون امتلكت كلية الطب في باريس اصغر مكتبة في العالم وكانت محتوياتها كتاباً واحداً وهذا الكتاب لمؤلف عربي .. لقد كان مؤلفاً قيماً جداً حتى ان صاحب الجلالة ملك جميع المسيحيين لويس الحادي عشر أراد مرة استعارته فدفع تأميناً اثنى عشر ماركاً فضة ومائة ريال ذهباً وكان غرضه من استعارته تمكين اطبائه الخصوصيين من الحصول على نسخة منه للرجوع اليها إذا ما طرأ على صحة صاحب الجلالة طارىء ما ..

« فهذا الكتاب الذي كان يكون مكتبة طلبة طب جامعة باريس يوماً ما عبارة عن موسوعة لسائر المعارف والعلوم الطبية منذ العصور اليونانية القديمة حتى عام ٩٢٥م

---

(١) يزعم الدجال السابق سلامة موسى ان العرب لم يتقدموا في الطب لانهم حرموا التشريح

(٢) عبد الرحمن بدوي .

ولم تضف القرون الأربعة التي مضت على كتابته شيئاً يذكر في عالم الطب ، فكان هذا الكتاب الطبي العظيم جداً والذي وضعه عالم عربي لا تدانيه جميع هذه الرسائل التافهة التي تملأ مختلف المكتبات التي عرفتها الاديرة المسيحية الاوروبية [1] ..»

« وكان الباريسيون يقدرون حقاً قيمة هذا الكتاب الذي تتكون منه مكتبتهم الطبية حتى انهم أقاموا نصباً تذكاريا في المدرج الأكبر لكلية الطب واليوم ما زال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يومياً صورته وصورة عربي آخر عندما يجتمعون في قاعة المحاضرات الكبرى في شارع (سان جرمان ده بريه) وقد اطلقت اوروبا على مؤلفنا العربي الرازي واسمه الكامل ابو بكر محمد بن زكريا : لفظ (رازيس Rhesis) » ومن كتب الرازي الكثيرة الانتشار كتابه الخاص بأولئك الذين لا يتيسر لهم استدعاء الطبيب » وهو أول معجم طبي للاستعمال في البيت ، وهو يصف الأمراض المختلفة بدقة فائقة كما يصف علاجها بواسطة مواد متوفرة في كل مكان وبادوية موجودة في كل مطبخ وكل بيت [2] ..

« ويجب ان نذكر هنا كتابا صغيراً وضعه الرازي وهو يعتبر حجة في مادته وقد طبع في اوروبا في الفترة الممتدة بين عامي ١٤٩٨ — ١٨٦٦ م أربعين مرة . وإلى هذا المؤلف ترجع هذه البحوث الخاصة بالنقرس والحصوة وامراض المثانة والكلي وأمراض الأطفال(٣) .

« ولا عجب اذن اذا قلنا ان المعاهد الاوروبية ظلت زهاء ثلاثة قرون تعتمد على المؤلفات العربية فقط ولا غرابة كذلك إذا أغرى هذا التراث العقلي العربي ،

---

(١) هذا ما تقوله الدكتورة حقا «سجريد هونكه » اما الدجال فيزعم ان ادبرة الشام كانت مصدراً لثقافة ابي العلاء المعري !

(٢) يعرف الآن باسم « الى ان يأتي الطبيب » .

(٣) لو ان علماء اوروبا قالوا بتدريس الطب بالعربية كي يستمروا مع التقدم العربي لما قام طب اوروبا ولكنهم ترجموا ودرسوا وتعلموا ثم ابتكروا فتفوقوا ..

العدو الذي كان دون العربي عقلا وثقافة وعلماً ، فأقبل الاوروبيون على الاعتراف من حياض المعرفة العربية » ٦١

في الصناعة :

« العرب هم الذين صنعوا الصابون لأول مرة ، وكانوا يعملون منـــه صنفين ، صنفاً من الصودا ، وصنفاً آخر أبيض اللون من البوتاس . والعرب هم الذين أدخلوا السكر المصنوع من القصب في أوروبا.. كذلك برع العرب في كثير من الصناعات القائمة على الكيمياء فاستخرجوا الذهب بطريق الغسل ، وقطروا الزئبق من الزنجفر وصنعوا أنواع الحبر المختلفة : الحبر العادي والحبر السري والحبر الذهبي ، وانتجوا مختلف الألوان والأصباغ،فاستخرجوا الأزرق السماوي من حجر اللازورد والأصفر الفارسي ، واللون القرمزي من دودة القز ، بل مهر العرب أيضاً في صناعة الأحجار الكريمة المزيفة ، واللآلىء الصناعية » ٦٢ .

« في القرن الثاني عشر عاد نفر من الحجاج المسيحيين مـن زيارة قاموا بهـا لقبر الرسول يعقوب في سنتياجوده كومبستيلا في أقصى شمال غربي أسبانيا . . عـاد هؤلاء الحجاج ومعهم أول ورقة إلى أوروبا جاءوا بها من الأندلس العربية وذكر أولئك الحجاج ان العرب يستخدمون الرق للكتابة الجميلة وتدوين الكتب المقدسة وهذا الورق يوجد بكثرة بحيث يسمح باستخدامه في الأغراض التجـــارية كلف البضائع مثلا . .

« ان صنـــاعة طواحين « مصانع » الورق كانت من اختصاص العرب وعنهم أخذها الغرب كما أخذت اوروبا كذلك طواحين الماء والهواء وغيرهما فالورق صفحة من صفحات الفخار للعروبة » . .

« والعرب هم أول من اخترع لغما تقذفه الصواريخ » والعرب الأندلسيون هم صانعو القنابل من البارود ، ولا أدل على أهمية العرب والعربية والدور الهام الذي

قام به العرب في ميادين الثقافة والحضارة ، من أن الباحث كان مضطراً اذا ما أقبل على عمل بحث من البحوث إلى دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة »..حتى الاستحمام: « وهناك عادة هامة بالنسبة للعربي احتفظ بها الأوروبي، الا وهي عادة الاستحمام» هذا ما نقلناه عن الدكتورة « سيجريد هونكه » .. التي تقول : « من يعرف حتى اليوم عظمة وخطورة الدور الذي قام به العرب » .

أما في ميدان العقل فقد حلق الفكر العربي في آفاق لم تخطر ببال عقـــل في القرون التي سبقت حضارتنا ولا جرؤت على أن تهجس بها النفوس في اوروبا لعدة قرون لاحقة .. افتح أي كتاب عربي تجده يناقش وجود الله وخلق القرآن وحقيقة الرسالات ومسئولية الانسان عن افعاله والخير والشر والخلود .. والمادة والروح واللذة والألم .. وقضـــايا الحكم والثورة وحق الشعب في تعيين الحاكم وخلعه ومحاكمته وإعدامه . . كان المسجد حلقة للنقاش الحر المفتوح يذكرنا بهايدبارك ... تأمل كيف أعلن الأشعري (٨٨٣ – ٩٤٢ م) انشقاقه عن المعتزلة : « اعتـــلى مقعداً في مسجد البصرة وصاح بأعلى صوته « من عرفني فقد عرفني » ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وإن الله لا تراه الابصار وإن الأفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع مقتعـــد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم » .

هذه قضايا لو فكر عقل اوروبي فيها بعد ذلك بستة قرون لمـــات رعباً من محاكم التفتيش ..

وفي لحظة المغيب انجبت الثقافة الاسلامية ابن خلدون ،الذي يعلق توينبي على كتابه بأنه « بلا شك أعظم مؤلف من نوعه حاول خلقه أي عقل على الأطلاق في أي زمان أو مكان » ويقول روبرت فيلنت في كتابه « تاريخ فلسفة التاريخ » : ابن خلدون كمؤرخ مسبوق بكثيرين حتى بين مؤرخي العرب ، ولكنه كصاحب رأي في التاريخ لا يوجد له قرين في أي عصر أو بـــلد .. وليس افلاطون وارسطو ولا

اوغسطين بأنداد (٦٣) » .

« وقامت في قرطبة جامعة وعدد كبير من المدارس بالمجان ويروى انـــه كان يوجد بها سبعون مكتبة من بينها مكتبة الدولة الزاهرة بالكتب والمخطوطات من جميع أرجاء العالم ، علاوة على حوانيت بيع الكتب . وقامت بالمدينة مساجـــد وقصور كثيرة منبثة بين منازلها البالغة ثلاثة عشر الف بيت ،وكانت اميال طويلة من شوارعها مرصوفة ومضاءة على حين إن الوحل والظلام لم يختفيـــا من شوارع لندن وباريس إلا بعد ذلك بحوالي ثمانمائة أو تسعمائة سنة ! وكان مستوى الثقافة في الممالك المسيحية المجاورة والمعاصرة مثل ليون ونافاروبرشلونه ، على درجة ظاهرة من التأخر بالنسبة لقرطبة ، بحيث انه كلما تطلب حكام هذه البلاد معماريا ممتازاً أو طبيبـــا استقدموه من العاصمة العربية ، بيد أن العرب بلغ احتقارهم للاوربيين درجة طوعت لأحد قضاة طليطلة العلماء أن يجاهر برأيه فيهم « مزاجهم قد تبلد وفكاهتهم سمجة على حين تضخمت اجسامهم وبهتت ألوانهم وطالت شعورهم ويعوزهم بعـد ذلك حضور البديهة وثاقب الفكرة وتسود فيهم الغباوة والبلاهة (٦٤) » .

وكان من الممكن أن تستمر عملية التطور والنمو ، وان تحقق الحضارة الاسلامية التقدم التكنولوجي الذي حققته الحضارة الغربية المسيحية . . فإن بذور هذه النهضة الاوروبية ، كانت موجودة بأكملها كما رأينا – في المجتمع الاسلامي . . بل نستطيع القول إن اوروبا قد اخرت هذه النهضة بنقلها الفكر الاسلامي ، واعادة احتضانه ، ثم تفريخه بعد ان كان قد وصل في الحضارة الاسلامية إلى مرحلة أبعد من تلك التي بدأت فيها اوروبا . . .

ومن حقنا ما دامت ايدينا لم تلوث بآثام الحضارة الحديثة أن نزعم إن حضارتنا كانت قادرة وخليقة بان تعطي البشرية التقدم التكنولوجي من غير آثام الاستعمار . . على الأقل لأننا كنا سنبني الحضارة الحديثة في آسيا وافريقيا واوروبا معا . . فقد كنا في ذلك كله . . وكم من صفحات دامية ما كان لها ان تكتب لو إن نمونا الحضاري استمر في طريقه . . وما من عالم نزيه يستطيـع ان يقدم سببا واحداً يحتم على حضارتنا

أن تتخلف ، أو يفرض عجزها عن تحقيق ما تم بعدذلك في اوروبا وعلى اسس المعرفة التي قدمها المسلمون ..

غير ان تطورنا قد اصطدم بحادثين عاقا هذا التطور . ثم اوقفا سيره .. رداه إلى الخلف في عنف :

- الغزو الصليبي ...
- ثم الطوفان المغولي المدمر ..

والحروب الصليبية لم تحدث ازدهاراً كما يتوهم البعض .. إن الازدهار الفكري الذي صاحبها واستمر بعدها هو التطور الطبيعي للحضارة الاسلامية .. ولكن الحروب الصليبية انهكت اقتصاديات المنطقة وهي قلب العالم العربي .. عاشت حوالي قرنين في حروب متصلة وحالة تعبئة عسكرية .. ثم ما كادت تسحق قوة الصليبيين المحتلة حتى جاء الطوفان المغولي يكتسح المشرق العربي، ولكن اخطر آثار الحروب الصليبية والغزو المغولي .. هو التغيير الذي طرأ على تكوين المجتمع العربي .. اعني ظهور طبقة العسكريين المحترفين ، وانتقال السلطة اليها .. فلم تعرف الدولة الاسلامية نظام الجيوش المحترفة ، بل كان يدعى للجهاد فيخرج كل قادر راغب ...

وإذا كان الاستاذ الحصري يعتبر الانكشارية أول جيش دائم في التاريخ فإن المماليك كانوا أيضا أول محاربين محترفين.. وهذه كانت صنعتهم الاساسية التي يشترون من اجلها ويتفرغون لها بعد تخطي مرحلة الطفولة التي يستخدمون فيها في الاغراض المنزلية ، والمؤامرات،والتسلية البريئة والشاذة لأساتذتهم .. ويتم خلالها تلقين الولاء والتدريب على القتال .. إلا ان المملوك الأمرد سرعان ما يتحول إلى قاتل محترف .. وتوكل له مهمة الدفاع عن البلد .. ونهبها في نفس الوقت ..

فمنذ قهر المسلمون الدولتين العالميتين فارس وبيزنطة .. انتهى الخطر الخارجي القادر على اقتلاع الوجود الاسلامي .. ومن العقد الثالث للهجرة ، تقاتل المسلمون

وقتلوا خلفاءهم وذبحوا ابن بنت رسولهم ، وأقاموا دولاً واسقطوا دولاً . . وسملوا عيون الخلفاء وأرسلوا بعضهم يتسولون في الطرقات وخــلال ذلك كله لم تجرؤ بيزنطة العدو الوحيد الذي بقي ، إن تستغل هذه الخلافات الداخلية في خلق تهديد حقيقي للوجود الاسلامي .. ولكن الغزو الصليبي والطوفان المغولي كانا تهديداً حقيقياً للوجود الاسلامي .. تهديد يحمل خطر الإبادة الجسمانية للمسلمين .. وكان رد الفعل الطبيعي هو ظهور العسكريين المحترفين ..

فلما قهروا الصليبيين والتتار انتقلت لهم السلطة .. واصبح لهم حق العيش على حساب الفلاح والتاجر والصانع .. مقابل الحماية من الغزو .. اتفاقية غير حرة ،ولا كانت ثمرة تعاقد أو عقد .. انما هي اتفاقية طبيعية ، يمليها حب البقـــاء ، وهي اتفاقية شرسة بشعة ، تستطيع ان تقول فيها ما تشاء ، ولكنها اساس العلاقـة منذ قطز إلى الغوري ..

وقد أدى الطرفان التزاماتها كامـــلة : قهر المماليك لويس القديس ، وطردوا فلول الصليبيين من الشام وقهروا جحافل التتار .. وخلصوا ثغور المسلمين من قراصنة الفرنج اكثر مـــن مرة .. ودفع الفلاح والتاجر الارزاق والاتاوات والمكوس والنفقة والمشاهرة والمجامعة ..

دفعوا إلى حد الموت..ومنذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر اختلت الاتفاقية جرى على المماليك قضاء التاريخ.. تحللوا كقوة محاربة قادرة على صد الخطر المتفاقم، خطر ظهور دول الافرنج الناهضة بعـد استئصال الاسلام من الاندلس .. وظهور سفن البرتغال المتفوقة ميكانيكيا على سفن المسلمين والمتفوقة اساساً بعصبية بحارتها الدينية على عصبية العرب حتى انه كان عربياً ذلك الذي قادهم حول رأس الرجـاء الصالح فطوقوا حضارته !

وكانت مشيئة الله إن هذه الطبقة من العسكريين كانت من غـير العرب .. فلم يقتصر تأثيرهم على دفع الفئات العربية المثقفة إلى الوراء ..

يقول وليم بولك :

«إن العرب الذين ابعدوا من الاجهزة العسكرية وانتزعت منهم السلطة تحولوا إلى مجرد عاملين عند الذين يمارسون السلطة ، وتفرغ العرب لحماية تعاليم الاسلام .. وبالنسبة للاسلام كانت هذه فترة انتشار .. فالتجار المسلمون نشروا الاسلام على نطاق واسع في افريقيا شرقاً، في جنوب شرق آسيا ، حتى المغول الذين ازالوا بقية النفوذ السياسي للعرب المسلمين تحولوا باعداد ضخمة الى الاسلام وهكذا أصبح الاسلام ديناً عالمياً بمعنى الكلمة ولكن فيما يتعلق بتعاليم الاسلام ذاتها. فكما كان الحال في اوروبا في العصور المظلمة ، قصر رجال الدين جهودهم على حماية الشعلة الشاحبة والخافتة لمدنية عظيمة ولم يكن يخامرهم إلا أمل قليل من القدرة على تأجيجها من جديد او الاضافة إلى لهيبها الساطع القديم. ومن ثم فلم يجرأ على التجربة أو التطوير خوفاً من تبديد القليل الذي بقي [1] » .

فقفل باب الاجتهاد كما يشنع البعض ليس جهلاً ، بل هو محاولة التحوصل التي تلجأ اليها الكائنات الحية عندما تواجه ظروفاً أقوى من قدرتها على المقاومة فتختار التجمد على المغامرة والفناء . غير ان الانصاف يقتضينا أن نذكر إن الحضارة الاسلامية قد امتصت هذه العناصر غير العربية ، وإنها في فترات السلم والرخاء التي اتيحت لها لم تقصر أبداً في حماية الثقافة الاسلامية .. وإن الفترة التي تذكر في التاريخ باعتبارها المرحلة التي إنتقلت فيها مسئولية حماية التراث والثقافة العربية إلى مصر هي فترة الحكم المملوكي .. فليس المماليك بالصورة البشعة التي صورها الغزو الفكري .. انهم بغير نزاع افضل طبقة عسكرية في تاريخ العالم [2] .

ولكن التطورات التي تمت في اوروبا كانت اكبر من قدرتهم على مواجهتها م مرور ثلاثة قرون على حكمهم في مصر والشام، كان له أثره في تدهورهم، وتدهور

---

(١) الولايات المتحدة والعرب ..

(٢) حتى ظهور اليونكرز — وان تفوق المماليك بحبهم للسلام في العلاقات الخارجية ..

طبقتهم ثم الهجمات المتتالية « للافرنج » وسيطرتهم على البحار . اثرت على موارد الدولة وتقدمها ، مع انهيار الخلافة الاسلامية للعالم العربي بفعل سقوط بغداد ، ثم تعرض الجزيرة والعراق لسلسلة من الحروب المتصلة انهكت موارد البلاد .. في وقت كانت فيه الاندلس تسقط شبراً فشبراً ، والمغرب العربي يتعرض لغزو دائم من جانب اوروبا الصليبية الناهضة .. كل هذه العوامل اشتركت في رسم نهاية المماليك :

- تمزق العالم الاسلامي إلى دويلات متناحرة متقاتلة . .
- تزايد خطر الغزو الافرنجي : الغزو الصليبي بداية الاستعمار الاوروبي ..
- تدهور المماليك كقوة عسكرية وعجزهم عن مواجهة القوة العسكرية لاوروبا ..
- تدهور اقتصاديات البلاد وخرابها بالاوبئة .

ولنتأمل قليلاً هذه العوامل :

- تزايد خطر الافرنج :

مع ابن اياس .. نعيش العشرين سنة التي سبقت الغزو العثماني ..

- المحرم ٨٧٨ وفيه جاءت الاخبار من الاسكندرية بأن الفرنجة قد تعبثوا ببعض سواحلها ، واسروا من المسلمين تسعة انفـــار وفعلوا مثل ذلك في ثغر دمياط ...
- رمضان ٨٨٠ « وفيه جاءت الاخبار من الاسكندرية بأن بعض تجـــار الفرنج احتـــال على تجار الاسكندرية حتى اسرهم .. وكان فيهم تجار السلطان وتوجهوا بهم إلى بلاد الفرنج ..
- جمادي الأول ٨٨٤ : « وانشأ بهذا البرج مقعداً مطلاً على البحر ينظر منه مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهي داخلة المدينة .. وجعل حول هـذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلاً ونهاراً بسبب أن تطرق الفرنج الثغر على حين غفلة ..

- ذو القعدة ٩١١ « وفيه سافر « تغري بردى » الترجمان إلى نحو بلاد الفرنج وأخذ معه كتاب « البترك » وكان قـــد تزايد تعابث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار » ..

- ذو الحجة ٩١٢ « واخبر أيضا إن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند وإن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع في بناء ابراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن فسر السلطان لهذا الخبر ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز . . حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ، وساروا يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطرق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد .. »

- صفر ٩١٥ « وفيه جاءت الاخبار بان العسكر الذي توجه إلى الهند صحبة حسين المشرف قد كسروهم الفرنج كسرة فاحشة ، وقتلوا العسكر عن آخره ، ونهبوا ما في مراكبهم اجمعين ، فتنكد السلطان لهذا الخبر .. »

- رجب ٩١٥ « وفيه جاءت الاخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير محمد بيك لما توجه الى الجون بسبب إحضار الاخشاب صادف مراكب فيها فرنج يعبثون في البحر على التجار ..

- رجب ٩١٥ وكان سبب ذلك ان تغري بردى لما توجـــه إلى بلاد الفرنج اشترى من ملوك الفرنج عـــدة اسرى من المغاربة بنحو من خمسين الف

دينار [1] .. »

- وقد كاتب السلطان جماعة من ملوك الهند بأن يكونوا مع السلطان عون على قتال الفرنج الذين يتعبثون بسواحل بلاد الهند وقد كثر منهم الفساد هناك وبلغت عدة المراكب التي يعبثون في السواحل نحواً من خمسين مركباً والأمر إلى الله في ذلك ..

- جمادى الاولى ٩١٦

- وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الفرنج قد ملكوا مدينة طرابلس الغرب ، وهذه المدينة من أجل مداين الغرب ، وهي مدينة عاصية ولولا ان الفرنج تحايلوا على أخذها لما قدروا ذلك وقد أحاطوا بها براً وبحر فوقع بين الفريقين واقعة عظيمة وقتل من المسلمين نحو من أربعين ألف إنسان .. وكانت هذه الحادثة من معظم الحوادث المهولة وقد جاؤوه الفرنج من البحر في مائة مركب ، ومن المراكب طلعوا إلى البر ووقع بينهما القتال حتى ملكوها ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد للغاية وكذلك الناس قاطبة ..

وفيه قبض شريف مكة على ثلاثة أنفار من الفرنج دخلوا مكة وهم في زي الأروام .. فلما قبض عليهم وجدهم بغير ختان ، فتحقق انهم فرنج وأنهم دواسير

---

(١) لم يكن السلطان وحده هو الذي يأتي بالاسرى بل سبقه الى ذلك السيد احمد البدوي رضي الله عنه بثلاثة قرون ! (٦٣٦ — ١٢٣٨ م) وكان للسيد احمد البدوي وفقا لما روي طريقة غريبة في مقاومة الصليبيين : « كان غيابه اكثر من حضوره وكانت تأتي عليه الاربعون يوماً لا يأكل فيها ولا يشرب ولا ينام وهو شاخص ببصره الى السماء وعيناه كأنهما شحمتان - وكان اذا عرض له حال يصيح صياحا متصلا ويكثر الصياح .. وقال حجاج طنطا لاشراف مكة : « يا أشراف ، عندنا رجل قرشي اقلقنا واتعبنا من الصياح في الليل والنهار ، وهويقول عليهم . عليهم . » — (السيد احمد بدوي : شيخ وطريقة د . سعيد عبد الفتاح عاشور) ..

من عند بعض ملوك الفرنج ، فقبض عليهم ووضع في الحـــديد ، وبعث بهم إلى السلطان ..

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب البيرة بأنه قبض على جماعة من عند اسماعيل الصوفي وعلى أيديهم كتب من عند الصوفي إلى بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونة على سلطان مصر وانهم يجوا إلى مصر من البحر ويجي هو من البر ..

وفيه جاءت الأخبار بأن الفرنج خرجوا على الأمير محمد بيك بالقرب من ساحل « قلعة » أياس فتحارب معهم الأمير محمد بنفسه ، وقد فرعنه من كان معه مـــن العسكر ، فقتل ، وقتل من كان معه من الجنـــد ، وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب وكانت نحو من ثمانية عشر مركباً فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية وامتنع عن الأكل يومين .. وقد تزايد شر الفرنج في هذه السنة وكثر تعبثهم بالناس في البحر الرومي والبحر الهندي والأمر إلى الله تعالى ..

● ذو القعدة ٩١٦

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان إلى الميدان وعرضوا عليـــه قناصلة الفرنج ، منهم القنصل الذي بثغر الاسكندرية ، والقنصل الذي بدمشق ، والقنصل الذي بطرابلس ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام ووعدهم بالشنق ، وسبب ذلك ان نائب البيرة قبض على دواسيس من عند اسمعيل الصوفي وعلى أيديهم مكاتبات إلى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الفرنج أن يأتوا في مركب من البحر،وأن – يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم . .

● محرم ٩١٧

بلغ السلطان ان تغري بردى كاتب ملوك الفرنج بأحوال مملكة مصر ،

وان السلطان ليس له همة إلى إرسال تجريدة ، وان السواحل خالية ليس بها مانع .

● ربيع الأول ٩١٧

وفيه حضر الرئيس حامد المغربي وصحبته جماعة من الفرنج نحو من مائة إنسان ووجدهم يتعبثون بسواحل البرلس فقبض عليهم وشكهم في زناجير . .

● ربيع الأول ٩١٩

● وفيه حضر هجان من مكة من مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وانهم بيحاصروا مدينة سواكن وإن الشريف بركات أمير مكة خرج إلى جدة هو وباش المجاورين وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك وأقاموا بجدة خوفاً على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه ، فأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء هذا الخبر تنكد له السلطان إلى الغاية ، ولا سيما كان منقطعاً في الدهشة بسبب عينه ، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد . . فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة فلما خرج قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ورقى الى المنبر خطب خطبة بليغة في معنى هذه النازلة التي وقعت بسبب الفرنج وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن . . فلما أقامت الصلاة قال المؤذنون : القنوط عقيب الصلاة ، فلما صلى قاضي القضاة صلاة الجمعة ، قنط في الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة فقنط السلطان والامراء ومن في الجامع قاطبة ، فعد ذلك من النوادر . .

وفيه صلى السلطان صلاة الجمعة ، ودخل إلى الدهيشة واجتمع هو والأمراء وضربوا مشورة في أمر الفرنج الذين تسلطوا على جهات اليمن ، فأشيع بين الناس ان السلطان عين في ذلك اليوم أربع تجاويد الى جهات معلومة ، فأقاموا الأمراء

عند السلطان في ضرب هذه المشورة إلى قريب العصر وتخففو من ثيابهم ، وكان مجلساً حافلا وقع فيه بعض جدال بين السلطان وبين الأمراء بسبب من يسافر منهم ..

● محرم سنة ٩٢٠.

فإن بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه القطائع في السنة الحالية ، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحواً من ست سنين و كذلك جهة دمياط ،.

● جمادي الأول ٩٢٠.

وفيه أرسل الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان بذلك وإن الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند ، وأرسل يستحث السلطان في إرسال تجريدة بسرعة قبل ان تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جدة من أمر الفرنج .. »

ولم يقل لنا ابن اياس اذا كان السلطان قد تنكد للغاية أم لا .. ولم يذكر عدد الأيام التي فقد فيها عظمته الشهية .. ولكنه يقول : « انه في هذا الشهر اضطربت الأحوال على السلطان [1] من جميع الجهات . »

* * *

ولم تكن دولة المماليك عاجزة عسكرياً عن مواجهة « تعبث » الفرنج بالبحر الأحمر الذي كان قد أصبح ولتسعة قرون بحيرة عربية مقفلة ، بل حتى عجز مؤرخها عن ان يفسر هذه الظاهرة العجيبة وهي ظهور مراكب «الافرنج » في هذا البحر..

(١) السلطان المقصود هو السلطان الغوري آخر السلاطين المماليك .

والحق إنه سؤال أدهش الحضارة الآفلة .. كيف وصـــل الفرنجة من شمال البحر وغربه إلى البحر الأحمر ؟

ابن اياس يفسر اكتشاف رأس الرجاء الصالح وطواف الفرنجة حول افريقيـا ودخولهم البحر الأحمر وتهديدهم لا الموارد المالية لدولة المماليك وحدها .. بل حتى الأراضي المقدسة .. يفسر ابن اياس هذا الحدث التاريخي فيقول : « وسبب هـذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الاسكندر بن فلبس الرومي، وكان هذا نقبا في جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلا زالوا الفرنج يعبثون في ذلك مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز وكان هـذا من أكبر اسباب الفساد [١] ..

كانت السيطرة على البحار قد انتقلت إلى الفرنج [٢] ..

غير ان سيطرة الفرنجة على البحار لم تكن هي القضية التي تواجـــه المسلمين .. القضية العاجلة كانت حماية الثغور العربية ذاتها من خطر الاحتلال « الفرنجي » ...

(١) ويعيد التاريخ نفسه فعند انهيار الدولة العثمانية نلمح صورة الخلع لجهل مماثـل : روى لافاليه المؤرخ الفرنسي : « لمـا نشبت الحـرب سنة ١٧٦٨ بيـن تركيا وروسيا خف سفير فرنسـا الى الباب العالي لاعلامه عن ثورة في اليونان كانت على وشك الظهور بمساعـي روسيا ولابلاغه بان روسيا اعتزمت سوق اسطولها الى بحر الارخبيل تجـــاه البلاد اليونانية امدادا للثائرين وتهديداً للعاصمة ، وقد تلقى الوزراء هذه الانذارات التي نقلها رسول باريس

ونشرت صحـ يفة تركية : «على اثر تحذير سفير فرنسا للدولة عقد مجلس «فوق العادة» بالهزء والسخرية وقيل له « ايمكن للاسطول الروسي الذي يرسو امـــام بطرسبرج ان يصل الى استامبول ؟ »

للمداولة في مضمون هذا الانذار ، وبعد البحث قرر المجلس ان لا قيمة لهـــذا الانذار اذ لا يوجد اتصال ما بين بحر البلطيق وبين بحر سفيد » .

(فلسفة التاريخ العثماني ص ٣٦)

(٢) من الغريب ان الذي قاد سفن البرتغاليين حول رأس الرجاء هو بحار عربي .. بـــن ماجد ... ولكن الانهيار الحضاري مزق الوحدة الاسلامية وجعل عبقريتهم في خدمة عدوهم.. حتى تجهل مصر اقوى الدول العربية تفسير مثل هذا الحدث الخطير ..

فهل كان المماليك يقدرون على هذه المهمة .. حتى نلعن القـــدر الذي أزال دولتهم وأقام دولة بني عثمان !

نسأل ابن اياس .

● في شعبان ٩١٤ نزل السلطان من الدهيشة ودخل الزردخاناه وعرض الاسلحة التي كانت في الزردخاناه من قديم الزمان ، فرأى اشياء كثيرة منها تلفت من الصدأ فطلب عبد الباسط ناظر الزردخاناه ووبخه بالكلام ، ثم قصد شنقه في ذلك اليوم على باب الزردخاناه ، فالزم باصلاح ما فسد من الاسلحة واستمر في الترسيم بعد ذلك مدة طويلة وهو في الحديد ..

● في جمادي الاخر ٩١٦.

وبعد ان امتنع السلطان يومين عن الأكل على اثر انباء قتل الفرنج للامير محمد وأخذهم ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب « نزل السلطان (الغوري) الى نحو تربة العادل التي بالريدانية وجربوا قدامه تلك المكاحـــل التي سبكها ، فلما اطلقوا فيهم البارود ، تفرقوا اجمعين وبقي نحاسهم طاير مع الهوى ولم تصح منهم واحدة ، وكانوا نحواً من خمسة عشر مكحلة ، فتزايد نكد السلطان في ذلك اليوم إلى الغاية ، ورجع إلى القلعة سريعاً « وكان عول على أن يمد هناك اسمطة للامراء وينشرح في ذلك اليوم فلم يتم ذلك . »

● وفي جمادي الآخر ٩١٧.

وفي يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وتوجـه الى نحو المطعم السلطاني فجربوا هناك قدامه عدة مكاحل فصح منها بعض الشيء ..

● وفي ربيـع الآخر ٩٢٠.

يوم الخميس سابعه نزل السلطان وتوجه إلى تربة العادل التي بالريدانيــة وجلس

هناك على المصطبة ونصب له سحابة ثم جربوا قدامه مكاحل نحاس وحديد فكان عدتهم نحو اربع وسبعين مكحلة فصح منهم شيء وتفرقع شيء .. »

ويستنكر ابن اياس ان تدفع الجوامك للمماليك : « الاراذل الذين صار يستكثر منهم في الديوان ، ففيهم من لا يعرف يجذب الفرس ولا يمسك الرمح ، وهذا أمر عجيب » ..

نعم أمر عجيب ! أمر عجيب لأن حق الطبقة في الاستمرار ، واقتطاع حصة في ايرادات البلاد ، هو مقابل قيامها بدورها الاجتماعي .. ويبدأ انهيار الطبقة وتحولها إلى قوة طفيلية ورجعية عندما تعجز أو تكف عن تأدية دورها ..

ودور المماليك الوحيد هو القتال .. فاذا فقدوا القدرة عليه ، لم يعد لهم حق في الاستيلاء على حاصلات البلاد أو نهبها :

« فرسم لهم ان يعملوا يرقهم ويتوجهوا إلى السويس لاجل حفظ المراكب التي انشاها السلطان (الغوري) هناك فقالوا : نحن ما نسافر بلا نفقة ، فحنق السلطان منهم وقال : انا اسافر إلى السويس بنفسي .. وقد تقدم القول على ان الفرنج قد زاد تشويشهم على التجار في البحر المالح وصاروا يخطفون البضائع من المراكب وقد ملكوا كمران وهي من بعض جهات الهند ، وقد تكامل من مراكب الفرنج في البحر نحو من عشرين مركباً ، فكثرت الاشاعات بسفر السلطان إلى السويس ، انتهى ذلك .. »

ولا ادري لماذا يقول ابن اياس « انتهى ذلك » لأنـــه في نفس الشهر يسجل : « عرض السلطان عساكر الطبقة الخامسة التي استجدها ، فلما عرضهم عين منهم جماعة بان يتوجهوا إلى السويس فشرع مقدم المماليك سنبل يقول لهم : « يا اغاوات عبوا يرقكم حتى تسافروا إلى « سويسه » « فضحكت عليه الناس بسبب ذلك » (!!) وفي يوم الخميس رابع عشرينه دخلوا جماعة من المماليك الذين تعينوا إلى السويس على الأمير طومان باي الداودار ، وشكوا له سفرهم إلى السويس بلا نفقة وصمموا على عدم

السفر إلى السويس . فطلع الأمير طومان باي وذكر للسلطان ما قالوه المماليك « وكاد ان يقع من ذلك فتنة فلما سمع السلطان ذلك أمر بيطلان السفر إلى السويس وخشي من اقامة فتنة » .

وفي يوم الجمعة نزل السلطان وعدى إلى الروضة ، ونصب له خياماً على خرطوم الروضة وبات هناك ومد له الزينة بركات بن موسى هناك اسمطة حافلة ، وأقام إلى يوم الأحد وطاب له ذلك المكان وانشرح به،وكان صحبته مغاني وارباب الالات .

(انشرح السلطان الغوري وهو عاجز عن إرسال تعزيزات إلى السويس لحمايته من « تعبث الفرنج » كان لا بد إذن ان كان للامة العربية ان تبقى ، ان تفسح طبقة المماليك مكانها للانكشارية الذين كانوا في هذا الوقت يدقون أبواب فينا .. ويبثون الرعب في قلب اوروبا .. وأيضاً في قلب المماليك ..

● ففي رجب ۹۲۱ :

« ثم ان السلطان قصد أن يعين له قاصداً من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصداً ابن عثمان ، وقالوا للسلطان : هذا رجل جاهل سفاك للدماء ، وكل من توجه اليه بهذا الجواب قتله ، فلم يوافق إلى التوجه اليه أحد من العسكر » .

جبنوا عن مقابلته فكيف بقتاله ؟

● وفي ذي القعدة ۸۹۲ قدم قاصد من عند ملك المغرب صاحب الاندلس وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن بأن السلطان يرسل اليه تجريدة [1] تعينه على قتال الفرنج ، فانهم قد اشرفوا على اخذ غرناطه وهو في المحاصرة معهم » .

---

(١) بعد ذلك بـ ٣٦ ؛ سنة طلب نائب في البرلمان المصري ان تتدخل الحكومة لمنع سيطرة بريطانيا على السودان ، فرد عليه رئيس الوزراء سعد زغلول بسؤاله « عندك تجريدة ولما لم يكن عند النائب تجريدة توقف الانجليز فقد سكت .. وام يحلها على طريقة السلطان واخذ الانجليز السودان كما اخذ الفرنجة غرناطة .. لانعدام التجريدة ؟

(ولم يكن لدى الاشرف قايتباي تجريدة طبعاً .. فماذا كانت نجدتــه .. العجب ؟) « اقتضى رأيه بأن يبعث إلى القسوس (جمع قس) الذين بالقيامة التي بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من اعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب « قشتيليه » بأن يحل عن أهل اندلس .. ويرحل عنها .. وإلا (نعم او لا ..) يشوش السلطان على أهل القيامة ويقبض على اعيانهم! ويمنع جميع طوائف الفرنج من دخول القيامة ويهدمها فأرسلوا قاصدهم وعلى يـــده كتاب إلى صاحب نابل كما أشار السلطان .. » وبالطبع كانت النتيجة كما اثبتها ابن اياس :

« ولم يفد من ذلك شيء ، وملكوا الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد [1] » .

وما دامت هذه هي تجريدة سلطان مصر كبرى البلاد العربية .. فقد :

« جاءت الاخبار من جهة المغرب بان الافرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الاندلس ووضعوا في المسلمين السيف، وقالوا من دخل ديننا تركناه، ومن لم يدخل في ديننا قتلناه والأمر لله ! »

ولا جدال في ان ظهور الدولة العثمانية ، وتوليها الدفاع عن الشواطيء العربيـة للبحر الأبيض هي التي اخرت غزو الفرنج للمغرب العربي حوالي ثلاثة قراون ... فانقذ ذلك عروبته واسلامه .. أما المماليك فقد أراق «الغوري » ماء وجهه ليخرجهم إلى قتال العثمانيين ، وعندمــــا انهزموا وزحف جيش العثمانيين إلى مصر .. طلبهم طومان باي للقتال دفاعاً عن البلد الذي يحتكرون نهبه !

« جلس بالحوش على التكة وطلع العسكر ليقبض النفقة ، فلما طلعوا انفق عليهم لكل مملوك ثلاثين ديناراً وجامكية ثلاثة اشهر بعشرين ديناراً .. فارموا تلك النفقة

---

(١) وقبل ستة قرون صاحت امرأة اسيرة في جند الروم :
وامعتصماه ؟ وبلغ الخبر امير المؤمنين وهو في مجلسه وكان بيده كأس انزلها من على شفتيه وصاح لبيك . لبيك ولم يقعد حتى فتح عامورية .. ثم عاد فشرب كأسه من حيث تركها .

في وجهه وقالوا : ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك ، فاننا لم يبق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برج ولا سلاح ، فنزلوا كلهم من القلعة على حمية ، وهم على غير رضى ، فحنق منهم السلطان وقام من على التكة وطلع إلى المقعد وقال : « ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك والخزائن فارغة من المال ، وان لم ترضوا بذلك فولوا لكم من تختاروه في السلطنة ، وانا اتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد .. فوقع في ذلك اليوم بعض اضطراب واشيع ان بعض المماليك قالوا للسلطان ان كنت تعمل سلطاناً فامشي على طريقة من تقدمك من السلاطين وإن رحت لعنة الله عليك ، غيرك يجي يعمل سلطاناً .. فسمع ذلك بأذنه منهم ، وأشيع ان السلطان قال للعسكر : انتوا اخذتوا من السلطان الغوري مائة وثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً وكسرتوا السلطان واخنيتوا به حتى قتل منكم قهراً .

وخلف الانهيار العسكري كان الانهيار الشامل .. فتطويق سفن الفرنجة للعالم العربي أدى إلى خراب الثغور ، وتضاءلت التجارة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .. ومع تدهور الاقتصاد اصبحت لعبة المماليك المفضلة هي تزييف النقود ..

« فلما تسلطن الغوري حظي عنده وطاش وجرى منه ما تقدم ذكره ، وجار على الناس بالظلم حتى أخرب ثغر الاسكندرية ودمياط وبندر جدة ، وغير ذلك من الثغور بسبب مصادرات التجار ، فتلاشى أمر الثغور والبنادر من يومئذ ، وتضاعفت المكوس جداً حتى جاوزت الحد في ذلك .. »

« فإن بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه القطائع في السنة الخالية وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحو من ست سنين وكذلك جهة دمياط . »

(٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م)

« ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب ، وجور القبـاض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة امثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيـل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ووجد بها بعض دكاكين مفتحـــة والبقية خراب لم تفتح » (٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) .

« وكان حسين نائب حدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة امثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل امرها إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والارز والانطاع واخرب البندر وكذلك بنـــدر الاسكندرية ، وبندر دمياط » (٩٢٢ هـ / ١٥١٦) .

عجز المماليك عن حماية الثغور وعن تأمين طرق التجارة فاعتصروا التجار الذين تركوا لهم الثغور .. ولم يبق أمام المماليك الا سرقة العامة وأهل البلاد .. والعامة يجيدون اخفاء الأموال ويتفاخرون بعدد ضربات السوط التي يتحملها أحدهم قبـل اخراج ما تحت البلاطة .. والمحاصيل تظهر في مواسم محددة وحاجة السـلطان إلى المال لا تنتهي ، وأفضل السبل اذن لسرقة العامة هي تزييف النقود عرفها المماليك قبل الحضارة الحديثة بعدة قرون .. ولو كانوا قد اخترعوا النقود الورق لاغرقوا بها البلاد ولكن لم يكن أمامهم الا غشي العملة الفضية والذهبية .. ولأن الانهيار عندما يأتي يكون عاملا شاملاً .. فقد عجز السـلطان حتى عن إجادة التزييف !

يقول ابن اياس : « فاتلف سائر المعاملة من الذهب والفضة وظهر بها الزغـــل كالشمس حتى ضج من ذلك سائر الناس والامراء ، وصارت معاملة السلطان لا تمشي في غالب البلاد ، وامتنع الذهب البرسبيه والجقمقي والاينالي والخشقدمي والقايتبيه ، وصار الذهب الغوري والفضة هي التي عليها العمل مع مـا بها من الغش الفاحش » (٩١٥ هـ) ..

وفي هذا الشهر نادى السلطان على الفلوس الجدد والعتق بان الرطل منهم بثمان عشر نقره ، وضرب فلوساً معاددة تخسر فيهم السوقة ، الثلث ، وهم في غاية الخفة، فصارت البضائع تباع بسعرين،سعر بالفلوس الجدد وسعر بالفلوس العتق (٩١٧هـ) ومعاملته (الغوري) في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنجس المعاملات ، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل فكانوا يضعون في الذهب والفضة ، النحاس والرصاص جهاراً ، فكان الاشرفي الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي « اثنا عشر نصفاً ، وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب في أموال المسلمين واتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس - منهم لا دينار ولا درهم .. »

« فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي فمشى على طريقة جمال الدين وقد استباح اموال المسلمين ، فكان النصف الفضة ينكشف في ليلة ويصير من جملة الفلوس الحمر » (٩٢٢ هـ) .

سلطان هزو :

وحقاً وصدقاً « كيفما تكونوا يولى عليكم .. »

هؤلاء المماليك وهذه الدولة كيف كان سلطانها وقبل كل شيء .. فالسلطان الغوري كان من أعظم سلاطين المماليك الجراكسة ..

فلنقرأ بعض نوادر خيرهم هذا :

« وقد اضر الناس كثرة نزول السلطان ، وتعطلت أحوال الرعية من عدم المحاكمات في أشغال الناس . وقد قلت العلامة على المراسيم .. وكان دأبه الركوب في كل يوم والاشتغال بروية التنزه والرياضات دائماً . . . »

« وأقام السلطان في الميدان أربعة ايام بلياليها وهو في ارغد عيش ، وأطلق الماء في البحرة التي في الميدان ، وصار يمد السماط هناك ويأكل هو واخصاءه فشق ذلك

على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه وكسروا الصحون الصيني ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وقام من وقته وطلع إلى الدهيشة وكان قصده الإقامة في الميدان إلى يوم الجمعة ، فنكدوا عليه المماليك » (٩٢٠ هـ) .

وبعد كسر « الصحون الصيني » ونكد السلطان .. تزايد نكده ، فقد ضرب هو شخصياً .. « فلما طال المجلس على السلطان وأعيت الرسل المترددة بالرسائل بين السلطان وبين المماليك ، قام السلطان من الميدان وقد أدركته صلاة الجمعة ، فلما طلع اغلقت المماليك في وجهه باب السبع حدرات « ثم رجموه من الطباق ولم يمكنوه من الدخول إلى الحوش ، وقيل جاءته رجمة في تخفيفته (عمامته) وسبوه من الطباق سباً فاحشاً بعبارة قبيحة ، فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفسه من البهدلة (اكثر من ذلك ؟) فرجع إلى الميدان وخرج من باب الميدان الذي عند حوش العرب وخرج من بين الكماين وتوجه إلى الروضة وعدى إلى المقياس وأقام بهذلك اليوم . . »

وقد عابت سيدة الغناء [1] أن تقول إحدى اوبريتات « سيد درويش » عن المماليك والترك : « حاجي بابا حمص اخضر » إذنبت في اذنها الرقيقة عبارة « حمص اخضر » .

ولها عذرها .. ولكن العبارة موفقة جداً في تصوير الجو .. والا فبماذا يعبر عن هذا المنظر ..

« فوقف الاتابكي سودون العجمي وبقية الأمراء المقدمين ، وباسوا الأرض على ان يقوم ويطلع إلى القلعة ، ويرضى عن مماليكه ، فشق السلطان ملوطته وبكى حتى اغمي عليه (كان قد تجاوز السبعين) ورشوا على وجهه الماء وهو يقول : (بالاحرى وهو يصرخ) ما بقي لي حاجة بسلطنة ، فأرسلوني إلى أي مكان تختارونه

---

(١) ام كلثوم في حديث صحفي .

وولوا أمير كبير ، فخاف امير كبير وصار يرعب من كلام السلطان وحصـل له وهم . . . » (٩٢١ هـ) ..

حقاً حمص اخضر .. بل كان هزأة حتى بمقاييس عصره .. يعلق ابن اياس على مصادرته احدى المغنواتيه فيقول : « وقد طفل السلطان نفسه إلى مصادرة المغاني أيضاً » ..

ومع ذلك فلنترك مؤرخه يقيمه بمقاييس عصره . .

« وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم كألف سنة مما تعدون .. وكان ملكاً مهابا (!) جليلا مبجلا في المواكب ملء العيون في المنظر، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة ! »

« وكان للغوري محاسن ومساوىء ، ولكن مساوئه اكثر من محاسنه .. » .

« وأما ما عد من محاسنه ، فانه كان رضي الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة – بحدة عند قوة خلقه ، ومنها انه كان له الاعتقـاد الزائد في الصالحين والفقراء ، ومنها انه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم ، ومنها انه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه ، ومنها انه كان يفهم الشعر ويحب سماع الالات والغناء وله نظم على اللغة التركية .. وكان قريباً من الناس يحب المزح والمجون في مجلسه غير كثيف الطبع في ذاته ، وكان عنده لين الجانب ورياضه بخلاف طبع الأتراك [1] ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعـة زائدة

---

(١) مازال الحديث يدور على الغوري سلطان مصر ولكن سخرية التاريخ جعلت مؤرخي عصره يصفون انتصار العثمانيين عليه بأنه زوال دولة الاتراك في مصر وليس بدايتها ..

بخلاف عادة الملوك في أفعالهم [1] .. »

« واما ما عد من مساوئه فانها كثيرة لا تحصى ، منها انه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله . « ولم يفته أحد من أعيان التجار حتى صادره وأخذ أمواله، لا سيما ما جرى على الشيرازي والحلبي التاجر وغيره من التجار وصادر حتى امير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه ما لا له صورة .. »

« ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك .. »

« وفي الجملة ان السلطان الغوري كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه ولم يجيء بعد أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور ، وكان كفئاً تاماً للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون » .

هذا هو آخر السلاطين والذي أزال العثمانيين دولته في مصر والشام والجزيرة ..

ومع الانهيار الشامل أصبح الطاعون من الأمراض المصرية المتوطنة كالتراخوما والبلهارسيا في القرن العشرين ! لا تكاد تخلو سنة من تاريخ ابن أياس دون أن يسجل وقوع الطاعون .

● ذو الحجة ٩٠٩

وفي أواخر هذا الشهر قوي أمر الطاعون بالقاهرة وفشى أمره بعد مضي أيام فطر النصارى وهي التي يسمونها الخماسين .. وقد ظهرت الثريا ، واستمر الطاعون عمالا حتى دخل شهر بؤونة القبطي ونزلت النقطة وهذا بخلاف العادة حتى عد من النوادر لكنه كان خفيفاً بالنسبة لما جاء بعده في سنة عشر وتسعمائة . وقد وقع الطاعون في سنتين متتاليتين حتى عد من النوادر .

---

(١) تأمل ثورية المؤرخ الاسلامي عندما يطلق هذا الحكم .. وتأمل ديمقراطية الملوك المسلمين عندما لا يكلفه ذلك عنقه !

رمضان ٩١٠

وفيه تزايد أمر الطاعون وفتك في الأطفال والمماليك والعبيد والجواري والغرباء، ووصل إلى أربعة آلاف جنازة في كل يوم .. »

٩١٧ :

« وكانت سنة مباركة لم يقع فيها طاعون ولا فتن »

٩١٨ :

« وكانت سنة هادئة من الفتن والشرور ، ولم يظهر فيها الطاعون بمصر بل ظهر بثغر الاسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل منه إلى مصر شيء » .

٩١٩ :

« تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وفتك في الناس فتكا ذريعاً وحصل للناس غاية الرعب .. مع انه كان خفيفاً جداً بالنسبة إلى الطواعين المتقدمة . . وتناهت ورقة التعريف في هذا الشهر بعدة من يموت في كل يوم ، فبلغت إلى ثلاثمائة وخمسة وستين انساناً ممن يرد التعريف ، والعادة في الفصول الكبار إن الواحد من التعريف بعشرة ممن لا يرد التعاريف ، فلما تزايد أمر الموت فتحت مغاسل على جاري العادة في الفصول المتقدمة .. »

« وفي هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك في المماليك حتى صار يموت منهم في كل يوم نحو من خمسين مملوكاً » . .

وصحيح إن كثرة الموتى ، تكون أحيانا من حسن طالع السلطان لأنه يصادر أموال المتوفين . حتى حسد ابن اياس الغوري على حسن حظه إذ توفي ثلاثة من الاثرياء في سنة واحدة .. وعدها من علامات سعد السلطان ! .. إلا أن الوفاة على المماليك كانت تحمل معنى آخر خطيراً .. هو نقص القوة العسكرية ، فهذه الفئة الفريدة من نوعها ، كانت تشكو لوناً من العقم لعله يرجع إلى شذوذها الجنسي الذي تبدأ به حياتها عند استاذها ، ولعله يرجع إلى عزوفها عن التزاوج مع المصريين . . فلم يكن امامها من سبيل للتكاثر والاحتفاظ بوجودها ، إلا جلب المماليك عن طريق

شراء الجدد .. ولكن ابن عثمان الذي قرر الاصطدام بهم منع عنهم هذا المورد قبل الحرب بسنوات وجاء الطاعون يفني خمسين مملوكا في اليوم الواحد . .

انها النهاية . . وما من قوة تستطيع أن تغير النهايات .. وعندما يقرر التاريخ نهاية دولة .. فأنه يبدو وكأن جميع قوى الطبيعة تعمل ضدها .. وفي الحقيقة ان الدولة تكون هي التي جندت كل القوى ضد وجودها !

نعم جاء العثمانيون ليرثوا المماليك .. والسؤال هو .. هل كانوا أقدر على تقويم ما هو أفضل من هذه الصورة البشعة التي عرفناها .. ؟ لو سألنا التاريخ واكتفينا بإجابة عابرة .. لكان الجواب بالنفي.. غير انه يصعب أن نصف هذا الحكم الجزئي بالموضوعية .. فالتركي ابن الاناضول ، مسلم صادق ، يلتزم بالدين عن ايمان عميق.. غذاه وجوده الدائم في جبهة القتال ضد أعداء الاسلام طوال أربعة قرون ، تلقى فيها عن الأمة الاسلامية ضربات متصلة من دول اوربة مجتمعة من بريطانيا إلى روسيا . ومن النمسا إلى البرتغال .. ضربات اوروبا الاستعمارية المتفوقة التي استخدمت ضده كل الأساليب من التآمر والتضحية المسمومة إلى تدبير الفتن وتكوين الاحزاب والجمعيات وشراء الذمم ، والغزو المسلح الصريح وليس من السهل ان نقرر هل كان الاتراك قادرين على ان يواصلوا التطور الحضاري للعرب والمسلمين .. من المؤكد لو اتيحت لهم فترة سلام واستقرار .. ولكن تركيا بدأت بعبء امبراطورية خرافية المساحة في مواجهة قوميات تقوم على أسس الدولة الحديثة. أي أكثر تماسكاً وأقدر على الحركة وتركيا بحكم دينها الاسلامي لم تكن قادرة على ممارسة اسلوب التوحيد بالقهر والإبادة ، وهو الاسلوب الذي مارسته الدول الاوربية الاستعمارية ..

ويكفي الأتراك فخراً انهم ابقوا على جميع الاقليات في ظل تسامح ديني وجنسي نادر .. بينما أباد الاسبان والبرتغاليون المسلمين من الاندلس خلال ثماني سنوات .. بعد أن عاشت الاندلس مسلمة ثمانية قرون ..

حرمت الشعوب المسلمة في روسيا القيصرية من كافة الحقوق ، بحيث استحال ان تنجو بداخلها أي حركة مقاومة جدية ..

وما من باحث شريف يجرؤ على القول بأن حكم روسيا [1] القيصرية لشعوب مستعمرات كان أفضل من حكم تركيا لدول البلقان .. ولكن التسامح الاسلامي ، والايمان بالمساواة هو الذي مكن القوميات البلقانية من النمو والتطور إلى حد امتشاق السلاح والانفصال بمعونة الكنيسة الروسية وجيوش وأموال القيصر .. بينما استطاع الاستبداد الروسي أن يقصم ظهر الولايات الاسلامية ، ويمتص منها كل حيوية ، وهي أعرق ثقافة وأكثر تحضراً من شعوب البلقان .

غير أن هذه ليست القضية ، أو بمعنى أصح ليس ذلك هو السؤال .. حول لماذا قامت دولة العثمانيين .. والجواب لانهم كانوا اكثر فئات المجتمع الاسلامي احتفاظاً بالخصائص الحربية ، وأقدرها على حماية هذا المجتمع من الغزو الفرنجي فحلوا محل المماليك في هذا العقد الرهيب . . عقد الاقطاع العسكري ..

أصبح من حقهم أن يستولوا على خيرات البلاد ، وأن ينهبوا الفلاحين والتجار والعامة وان يضربوهم ويعصروهم في كعوبهم وأصداغهم .. ويزنون ويلوطون بفتيات البلاد وفتيانها !

هذا حقهم بلا منازع .. وفقاً لشريعة العقد الرهيب .. مالك .. أو حياتك .. وقد حفظ العثمانيون حياتنا من « الفرنج » فكان لهم كل شيء ..

هذا العقد احترمته كل الأطراف .. فالعسكريون لهم السلطة .. وما يستطيعون انتزاعه من أموال الناس .. مقابل القتال ضد الغزو الاجنبي .. والعلماء يقيمون الشرع يحفظون جذوة الدين أن تخمد ، ويحافظون على حياة العامة وحقوقها ، ويتحركون عندما يتجاوز ظلم العسكريين حدود الممكن ..

والتاجر والصانع والفلاح وابن البلد .. ينتبون وينهبون (مبني للمجهول)

---

(١) ماركس شخصيا كان يؤيد الحرب ضد روسيا القيصرية ويعتبر هزيمتها نصراً على الرجعية ومدير مكتب وكالة انباء الشرق الاوسط في الاسكندرية الاستاذ طلعت يونان يسجل من مفاخر صحيفة الوطن « انها ايدت روسيا القيصرية في حربها ضد الدولة العثمانية . »

ويضربون ويبذلون جهدهم في البعد بأنفسهم وأموالهم عن دار السلطة ومتناول يدها وعيونها ..

احتوم الجميع العقد .. حتى والدولة تحتضر .. والغوري قد قتل ، واختفت جثته ، والشيخ سعود هو الذي تولى البيعة للسلطان طومـــان باي ، فخطر له أن يتدخل في السلطة ، فانتقد أحد الموظفين وطلب حبسه .. يقول ابن اياس : «وأما ما كان من أمر الشيخ سعود فانه لما فعل بابن موسى مـــا فعل قامت عليه الدايرة والاسئلة وانكروا عليه الناس والفقراء وقالوا : ايش للمشايخ شغل في أمور السلطنة واشتغلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى» مع انه لما جاء خبر وفاة الغوري » ركب طومان باي خليفته هو والأمير علان (اسمه كذا) وجماعة من الامراء المقدمين وتوجهوا إلى كوم الجارح عند الشيخ سعود فلما جلسوا بين يديه .. الخ .. » ومع ذلك فالاختصاصات واضحة !

ولما انهزم المماليك أمام ابن عثمان .. فسخ العقد من تلقاء نفسه « انحط قدرهم عند العرب والفلاحين والناس قاطبة بسبب هـذه الكسرات التي وقعت للمعسكر وتملك ابن عثمان للبلاد الشامية وثبت عند الناس ان دولة الاتراك (أي المماليك) قد آلت إلى الانقراض وان ابن عثمان هو الذي يملك البلاد » « وصار جماعـــة من الفلاحين إذا أتاهم قاصد من باب استاذهم يقولون : ما نعطي خراج حتى يتبين لنا ان كانت البلاد لكم أو لابن عثمان ، فتبقى نوزن الخراج مرتين . »

كيف كانت النظرة لابن عثمان ؟ بعض الدراسات اللادينية تزعم اننا قبلنا الحكم التركي بسبب العصبية الدينية ، وأننا غرر بنا باسم الاسلام فتخلينا عن استقلالنا وقوميتنا .. وبالتالي يخرجون من ذلك بتحذير من تأثير العصبية الدينية الضارة .. مع انه حتى ولو صح هذا التفسير عما مضى .. فليس ثمة خطر مماثل الآن ..

ولكن هل قامت الدولة العثمانية حقا بسبب العصبية الدينية ؟ .. لقد بدأ ظهور العثمانيين بحربهم ضد الروم وسجلوا انتصارات حاسمة على المسيحية المعادية في اوروبا.. في وقت كان الضغط المسيحي فيه ، يشتد على الوجود الاسلامي في غرب البحر الأبيض .. ثم فقد هزت انتصارات ابن عثمان قلوب المسلمين بحصولها على الحصن المنيع الذي استعصى ثمانية قرون . . القسطنطينية !

وكان ابن عثمان ذكياً يفهم نفسية العالم الاسلامي الذي يواجهه .. كان يعمد الى غزوه فكرياً قبل الغزو العسكري ، ومن هنا كان حرصه على ابلاغ السلطان « المفزوع » في القاهرة بأنباء انتصاراته على الفرنجة .. اولا بأول .. واجبار هذا السلطان باسم الاخوة الاسلامية على دق « الكوسات » ونصب « الرايات » احتفالا بانتصارات خصمه الذي يستعد لالتهامه :

كتب [1] السلطان مراد الثاني إلى الملك الاشرف برسباي (٨٣١ هـ / ١٤٢٧) :

« لا يخفى على علمه العالي ان ملكهم جمع جميع الكفرة من اقصى بلاد الكفر

(١) هذه الرسائل نقلها الاستاذ الحصري من الجزء الاول من منشآت فريدون بك وذلك في كتابه : البلاد العربية والدولة العثمانية ..

واحزاب الشياطين ، فقصدوا ان يهجموا على أهالي الاسلام عوذا بالله تعالى ، فتوجه متوكلا على الله مع عساكر الموحدين مجاهدين إلى الجهاد ، وإعلاء كلمة الحق ونصرة الدين ..

« وسار العساكر المحمدية وانتهوا إلى جزيرتهم الجانية وهي جزيرة في وسط ماء طونة ، وفي طرفيها حصنان حصينان . ركبوا في السفن وحاصروها وبنصر من الله وفتح قريب فتحوها ، وجميع سفنهم وآلاتهم التي كانت القرال يهيئوها على طول الايام ومرور الاعوام لاضرار أهـل الاسلام .. اخذوها (وما ذلك على الله بعزيز) ..

وقذفوا في قلوبهم الرعب . فانهم فروا إلى اقصى بلادهم . فتشتت شملهم وتفرق جمعهم من الخوف والحذر – كما أن الشيطان يفر من سيف عمر ، رضي الله عنه . ولما تهيأنا وتشمرنا مع جنودنا لطلبهم حيث كانوا واين وجـدوا ، إذا اتصل الينا بالمسامع وتواتر بأن ملك الممالك اللازبة ، توسبات بن لان ، لما سمع خبر جهاد عساكر الموحدين واعلاء كلمة الحق واليقين ، مات فجأة ببركة ، معجزة محمدية ، وهيبة صيتة اسلامية فحمدنا الله بذلك حمداً مشعراً بقدرة ..

ورسالة محمد الفاتح إلى سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينية [1] :

« إن من أحسن سنن اسلامنا ، انهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .. ونحن على تلك السنة قائمون . وعـلى تلك الامنية دائمون ، ممثلين بقوله تعالى (قاتلوا – الذين لا يؤمنون بالله) ومتمسكين بقوله عليه السلام : « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار » فهممنا هذا العام ، عممه الله بالبركة والانعام ، معتصمين بحبل ذي الجلال والاكرام ، متمسكين بفضل الملك العلام ، إلى اداء فرض الغزاة في الاسلام ، مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من

---

(١) هذه الفقرات اختارها الاستاذ لحصري ..

الكفار » وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين في البر والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً ، والتي بقيت في وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخراً ..

فكأنها حصف على الخد الاغر ..

وكأنها كلف على وجه القمر ..

« وهي محصنة صعب المرام ، شامخة الاركان ، راسخة البنيان ، مملوءة من المشركين الشجعان خذلهم الله اينما كانوا وهم مستكبرون على أهل الإيمان، متناصرون بالجزائر الغربية مثل رودس وقطلان . ووندبك وجنويز وغيرهم من أهل الشرك والطغيان وحصن محصن مسدود مشدود ومشيد منسق النظام ، ما ظفروا به اسلافنا العظام ، هؤلاء السلاطين الاساطين الفخام ، ومع انهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلا . وهي قلعة عظيمة مشتهرة في السنة أهل الأرض باسم القسطنطينية ، ولا تبعد أن تكون هي التي نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والاخبار المصطفوية ، عليه وعلى آله اتم الصلاة والتحية ، « فيفتحون قسطنطينية، فبيناهم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون .. الحديث . »

وغير هذا من الصحاح المشهورة ، هي هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر ..

« حاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا، وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوماً وليلة . . ومتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادي الأولى ، هجمنا مثل النجوم رجوما لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي ، بالضرب الحيدري لآل عثمان . قد من الله تعالى بالفتح قبل ان ظهرت الشمس من شروقها . فلما ظهرنا على هؤلاء الارجاس الانجاس الحلوس ، طهرنا القوس من القسوس ، واخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الاسلام . »

ولا ينسى محمد الفاتح « إن يحرب للغوري في مؤخرته فيكتب لشريف مكة :

« فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً لما رزق الله لنا في هـذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا اذن سمعت ، وهي تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية ، فالمأمول من مقر عزتكم الشريفة ان يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى مـع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين. .الخ. . متفرغين من الله نصرتنا ، أفاض الله علينا بركاتهم . . ورفع درجاتهم . . وبعثنا مع المشار اليه هدية لكم خاصة الفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار . . (لا كدنانير المماليك . . زغلاً ونحاساً احمراً ! ج) المأخوذ من تلك الغنيمة وسبعة الآف فلوري آخر للفقراء ، منها الفان للسادات والنقباء ، وألف للخدام المخصوصة للحرمين ، والباقي للمتمكنين المحتاجين في المكة المعظمة والمدينة المنورة فزادها الله شرفاً . . فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم . . »

ولم يتأخر رد الشريف ، المفروض انه تابع لسلطان مصر . .

« وفتحناها (الرسالة ، فكل يفتح مـا يقدر عليه ج) بكمال الآدب ، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وابناء العرب ، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين ، وما هي إلا فتح القسطنطينية -- العظمى وتوابعها التي متانة حصونها مشهورة بين الانام ، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعام وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير . .

وبششنا بـذلك غاية البشاشة ، وابتهجنـا من احياء مراسيم آبائكم العظام ، والسلوك بمسالك اجدادكم الكرام ، روح الله أرواحهم ، وجعل اعلى غرف الجنان مكانهم ، في اظهار المحبة لسكان الأراضي المقدسة . . »

ويعلق الحصري على هذه الرسائل بقوله إن هـذه الرسالة كانت تكسب الدولة العثمانية في البلاد العربية « مكانة معنوية رفيعة ، ولا حاجة إلى القول : إن هـذه المكانة المعنوية ساعدت مساعدة كبيرة ، أولا على استيلاء العثمانيين على البـلاد

العربية ، وثانياً على دوام حكمهم لهذه البلاد مدة طويلة دون تعب كبير [1] » .
صحيح .. لقد تم استيلاء العثمانيين على الدول العربية في اربعين سنة وحكموه
أربعة قرون ، وهو ما لم يتهيأ لأي دولة لا في ظل الاسلام ولا قبله ولا بعده ..

وابن اياس يقدم لنا صورة لمشاعر العصر لنقف عندها قبل ان نناقش النتيجة
الصحيحة التي وصل اليها الحصري من مقدمة خاطئة ..

يقول ابن اياس : « وفي يوم الجمعة ثاني هذا الشهر وردت الاخبار بوفا
السلطان المعظم المفخم الغازي المجاهد المرابط ملك الروم وصاحب مدينة الرو
بالقسطنطينية العظمى وما مع ذلك من الفتوحات ، وهو السلطان ابو زيد بر
السلطان محمد بن السلطان مراد خان بن ابي يزيد المعروف بيلدروم بن اورخان بر
اودن بن عثمان بن سليمان بن عثمان الأكبر الذي مات شهيداً بالغزاة .. »

« وفتح في ايامه عدة مدن من بلاد الفرنج ، وانتشر ذكره بالعدل في سا
الآفاق وكان من خيار ملوك بني عثمان قاطبة [2] فلما تحقق السلطان وفا
بكى عليه وأظهر الحزن والاسف ثم صلى عليه صلاة الغيبة بعد صلاة الجمعة ا
الجامع الأزهر وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون .. وفي جامع السلطان الذ
بالشرابشيين وغير ذلك ، وقد حزنوا عليه الناس فانه كان قامعا للفرنج لا يفتر ء
الجهاد فيهم ليلا ولا نهاراً ، وكان به نفع للمسلمين ، انتهى ذلك .. »(٦٥)

ويقول الحصري : « ان استيلاء العثمانيين على البلاد العربية لم يكلفهم حرو
كثيرة ، لأنه لم يستلزم محاربة سكان البلاد . انما استلزم محاربة الدول المسيط
عليها فقط .. »

---

(١) الدول العربية والدولة العثمانية ص ٣٨ .
(٢) هذا هو والد فاتح مصر . وهذا التاريخ سنة ٩١٨ هـ أي قبل فتح مصر بخمس سنو
وقارن نعيه لسلطان العثمانيين بنعيه لسلطان مصر !

ولا أرى تعبير « الدول المسيطرة عليها » دقيقاً .. بالذات في حالة مصر والشام، لأن ذلك الاستيلاء لم يلزم إلا محاربـــة الغوري .. بل لم يخل الأمر من مساعدة سكان البلاد ..

فبعد ما انكسر السلطان الغوري الذي حاول رشوة الاغوات في اثناء المعركة فأخذ يصيح « يا اغوات هذا وقت المروة .. قاتلوا وعلي رضاكم» يقول ابن اياس: « فلم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسحبون من حوله شيئاً بعـد شيء .. فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم :« ادعوا الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم. وصار ما يجد له من معين ولا ناصر فانطلق في قلبه جمرة نار لا تطفى .. الخ »

« هذا ما كان من أمر السلطان وابن عثمان . وأما مــــا كان من أمر الأمراء والعسكر بعـد الكسـرة، فانهم توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول بها فوثب عليهم أهل حلب قاطبة وقتلوا جماعــــة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبركهم ورداءهم التي كانت بحلب وجرى عليهم من أهل حلب ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان وكان أهـــل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حيث توجهوا قبل ذلك صحبة قانيباي .. أمير آخور كبير ، فنزلوا في بيوت أهل حلب غصباً ، وفسقوا في نسائهم وأولادهم . وحصل منهم غاية الضرر لاهل حلب ، فمـــا صدقوا أهل حلب بهذه الكسرة التي وقعت لهم ، فأخذوا بثأرهم منهم» (٦٦) . »

نقطة اخرى حتى تكتمل القضية .. وهي نقطة اعتقد أنها لم تثر إلا في القرن التاسع عشر عندما وصل الانهيار العثماني ذروته . وطرحت قضية الانقاذ العربي .. أما في نطاق الدوله العثمانية على أن تنتقل القيادة والزعامة للعرب .. أو بانفصال العرب وحملهم مسئولية حمايـة وطنهم وانقاذ الاسلام مـن التطويق الاستعماري .. تلك هي قضية الخلافة .. وصحة تنازل آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة لسلطان العثمانيين وإذا كان الجدل حول صحتها قداستهدف إعادة الحديث في الخلافة العربية واستثارة البعث العربي .. فان هذا الحديث قد أثار أو يثير عنـد مـن يقرأه اليوم

تصوراً إن الخلافة قد انتزعت من العربي ، أو إن مصر كانت لهـــا مكانة خاصة لمجرد وجود أمير المؤمنين بها ثم اغتال الاتراك هذه المكانة وربما يستند هذا التفسير إلى سطرين وردا في ابن اياس عند تأريخه خروج الخليفة مــــع السلطان سليم فهو يقول . « فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الاسف وقالوا قـــد انقطعت الخلافة من مصر وسارت باسطنبول ، وهذه من الحوادث المهولة [1] غير ان دقة مؤرخنا وتسجيله لجميع الخواطر يجب الا تدفعنا للمبالغة في الاستنتاج فإن ابن اياس ، على سوء رأيه في العثمانيين وسلطانهم ، ودقة مـــا سجله على « فتنة بن عثمان » وإصراره في اكثر من مرة على تشبيه ما وقـــع على مصر بما حدث لها في زمن « النجق نصر » المابلي الذي « اخرب مصر وأحرقها حتى أقامت اربعين سنة خراباً ، فكان النيل يطلع وينهبط وينفرش على الأرض فـــلا تجد من يزرع أرض مصر عليه . »

ورغم تكرار ابن اياس الاسى على تحول مصر إلى نيابة « بعد ان كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاومي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين ، حيث قال : اليس لي ملك مصر .. »

ومع ذلك فإن ابن اياس لا يأسى كثيراً على خسارة مصر بانتقال الخلافة منها (الا في هذين السطرين اللذين اشرنا اليهما .. وبلغ من دقته انه اثبتهما على انهما من أقاويل الناس ثم لا يأتي ذكر الخليفة إلا في تعداد من اخرجوا مـن أعيان رؤساء الديار المصرية الذين اخذهم السلطان معه إلى استمبول .. وهي قائمة « بمن تيسر له ذكره » في اسماء دون الالف انسان .. كما قيل « والقائمة تضم إلى جانب « أمير

---

(١) فليس دقيقا ما يقوله الحصري « ان المؤرخ ابن اياس كان معاصراً لاستيلاء العثمانيين على مصر فقد دون في تاريخه - بدائع الزهور - كثيراً من الوقائع والامور بتفاصيل وافية ولم يذكر شيئاً عن أمر الخلافة (البلاد العربية والدول العثمانية ص ٣٣) .. ليس صحيحاً فقد تحدث ابن اياس ..

المؤمنين » جماعة من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمباطين والخراطين والمهندسين [1] والحجارين والفعلة .. »

وحتى لا نمضي بعيداً في تخيلات وأوهـــام الالفاظ – يحسن ان نتعرف بأمير المؤمنين اخر الخلفاء العباسيين في القاهرة ، لنرى كيف يزرى الانهـــار بالنعوت والاسماء وما جرى على حفيد من تحدى السحابة ان تمطر خارج سلطانه ! . ومـن ثار لصرخة امرأة مسلمة بفتح مدينة من مدن الروم .. « في شعبان (٩١٤) طلـع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، فوقع بينـه وبين ابن عم ابيه خليل ، تشاجر فاحش بمجاس السلطان ، فقـــال خليل للخليفة يعقوب : انت ولايتك ما تصح فانك اعمى ، وكان الخليفة يعقوب بعينه ضعف ، فقام اليه الناصري محمد بن الخليفة وقال له : انت ما تصح خلفك صلاة لانك مـــا تحسن قراءة الفاتحة ، وكان خليل الثغ لم ينطق بحرف الراء ، ثم الزمه السلطان بأن يقرأ بحضرة القاضي ، فلما قرأ تعفش في القراءة بين الناس ثم سكت ولم يكمل قراءة الفاتحة ، وانفض المجاس مانعا وكان مجلسا مهولا ، فقـــال السلطان يوم الاثنين نعقد مجلساً في أمر من يصح للخلافة .. فقام الخليفة يعقوب والقضاة على ان الميعاد يوم الاثنين ، وقد ترشح أمر الناصري محمد بن الخليفة يعقوب ليلي الخلافة عوضاً عن ابيه وكان السلطان محطاً على الخليفة [2] يعقوب رابحاً منه مالا كما سيأتي الكلام على ذلك ..

وفي يوم الاثنين رابعه حضر القضاة الاربعة والخليفة يعقوب وولده محمد وابن عمهم خليل وكان الخليفة يعقوب عهد لولده محمد بالخلافة عندمـا حصل له ذلك في المجلس المقدم ذكره فعرض ذلك العهد على قاضي القضـــاة الشافعي كمال الدين

---

(١) انظر ابن كان ترتيب المهندسين ..

(٢) لقب خليفة ذاته كان قد فقد معناه اذ كان في مصر في ذلك الوقت اكثر من خليفة : خليفة السيد البدوي .. خلفة الرفاعي .. خليفة الدسوقي . خليفة اسماعيل الانبابي الخ ..

الطويل ، وكان الخليفة عبد العزيز عهد بالخلافة من بعده لولده يعقوب ثم من بعده لولد ولده محمد ، فلما وقف قاضي القضاة على هذين العهدين ، قال الحق للناصري محمد بن الخليفة يعقوب .. ثم ان الخليفة قال للسلطان أنا قد شخت وكبر سني وقد عزلت نفسي من الخلافة وعهدت الى ولدي بالخلافة، فإن شاء السلطان يوليه أولا .. فقال السلطان قد وليت ولدك ، وساعدته الامراء على ذلك ..

« فقام الخليفة يعقوب وودع السلطان فأكرمه وعظمه ، ونزل إلى داره وهو في غاية العز والعظمة وألبسه السلطان سلاري صوف أبيض بصمور من ملابيسه . وألبس سيدي خليل أيضاً سلاري من ملابيسه وألبس ولديه أيضاً سلارين بسنجاب. ثم أحضروا للناصري محمد شعار الخلافة فأفيض عليه وتلقب بأبي عبدالله المتوكل على الله فولاه السلطان الخلافة على أتم وجه جميل ولم يراع من الأنام خليل وكان ابن عمهم خليل ، سعى على الخلافة بمال جزيل فلم ينل من ذلك مناه ، فما كان من ذلك السعي أغناه ، فولى خليل بوجه طويل (١) ونزل من القلعة وقد اشتعل قلبه بنار الخليل ».

« ثم ان المجلس انفض وقام الخليفة المتوكل على الله وقد تلقب بلقب جده عبد العزيز ونزل من القلعة في موكب حافل وصحبته القضاة الأربعة وأعيان الناس وزينوا له حارته وأوقد له الشموع بالصلبية ، وكان له يوم مشهود وولي الخلافة وهو شاب ولم يتفق لأحد من خلفاء مصر (٢) بأنه ولي الخلافة ووالده في قيد الحياة مقيماً معه في بيت واحد ، سواء كانت مدة خلافة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب اثنتي عشرة سنة الا ثلاثة أشهر .. وقيل أنه تكلف في هذه الحركة الى اثني عشر الف

---

(١) سخرية الموقف جعلت ابن اياس يلجأ للسجع السخيف وهو لا يستخدمه كثيراً ..

(٢) تأمل هذا التعبير : خلفاء مصر .. في اعتقادي انه يؤكد ان الخلافة قد زالت منذ سقوط بغداد لذلك لم نكن بحاجة الى عبد الرزاق ليكشف لنا انه من الممكن ان يستمر الاسلام بغير خليفة يحكم كل المسلمين ..

دينار ، ولولا فعل ذلك كان نفي الى دمياط أو إلى القدس فكان ما فعله عين الصواب كما يقال :

« يعوض الله مالا أنت متلفه . .

وما عن النفس ان اتلفتها عوض »

ويبدو ان هذا الذي يسرده ابن أياس هو البيان الرسمي الذي صدر بقبول استقالة المستملك بالله .. وتكليف المتوكل على الله بتولي الخلافة . .

ولكن الصورة الحقيقية هي ما يلمح لها « ابن أياس » بعد ذلك عند ما أصيب السلطان الغوري في عينيه فأرسل يسترضي الخليفة المخلوع يعقوب « فأرسل له نفقة خمسمائة دينار على يد الأمير طقطباي نائب القلعة، ورسم بأن أحداً لا يكلفه شيء (!)

فلما نزل اليه الإمير طقطباي قال له « السلطان يسلم عليك ويقول لك أدعو له وأبريء ذمته ، ولا تؤاخذه بما وقع منه في حقك ، فكان في حظ نفس ، فقال له والله أنا داعي للسلطان وخاطري طيب عليه وما حصل منه إلا خيراً . وقد تقدم القول على ان السلطان لما تراجع سيدي خليل مع الخليفة يعقوب تعصب السلطان لسيدي خليل ، وقال للخليفة يعقوب أنت ضعيف النظر فلا تصح ولايتك على المسلمين وكسر بخاطره وغرمه مالا وخلعه من الخلافة بغير ذنب كما تقدم (الذي تقدم من ابن أياس ليس على هذا النحو الصريح ج) فلما حصل للسلطان هذا العارض في عينه فظن ان ذلك بخطيئة الخليفة يعقوب ، فارسل الأمير طقطباي نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين يتعطف بخاطره ويسأله له الدعاء وأرسل له خمسمائة دينار (وقد لطش ١٢ الف دينار ج) ويختم ابن أياس القصة بعبارة تلخص الوضع كله فيقول : » وعد ذلك من النوادر (٦٧) .

ويزيدنا ابن أياس علماً بالموقف .. ففي ذي الحجة ٩١٧ يقول : « وفيه أذن السلطان للخليفة المنفصل المستمسك بالله يعقوب ، والد المتوكل على الله محمد ، بأن يركب الى صلاة ويسير ويزور القرافة ، وكان من حين انفصل من الخلافة وولي

ولده وهو مختص في داره لم يركب ولم يجتمع بأحد من الناس حتى أذن له السلطان في الركوب .. »

ووالد الخليفة المخلوع حاول مرة أن يخرق الناموس ويمارس بعض سلطاته فأرخها ابن أياس على هذا النحو : « ومن الحوادث ان الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطي بوظيفة لم يسمع بها قط ، وهو أن جعله على سائر القضاة قاضياً كبيراً ، يولي منهم من يشاء ويعزل من يشاء ، مطلقاً في سائر ممالك الإسلام ، وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في دولة بني أيوب، فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم واستخفوا عقل الخليفة على ذلك وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل .. ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه حديث السن ، وقصد ان يكون الأمر مغدوقاً به دون السلطان ، فلما قامت الدائرة والأشلة على الخليفة رجع عن ذلك وكادت تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقع أمور يطول شرحها حتى سكن الحال بعد مدة » ..

ولما سقط الغوري في مرج دابق ونهبت « ملابيسه » ما كان لأمير المؤمنين ان يبقى بلا « ملابيس » فدخل خيمة السلطان المنتصر ، سليم شاه ، وكان الغوري ، قد خرج بالخليفة منتصراً ببركته فلما هزم السلطان الغوري ونهب وطاقه ، تقدم الخليفة الى وطاق المنتصر ، ويحكي ابن أياس : « وقيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان قام له وعظمه وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع أنه قال له : أصلكم من أين « تأمل !! ج) قال له : من بغداد ، فقال له ابن عثمان : نعيدكم إلى بغداد كما كنتم (لم تكن بغداد قد سقطت بعد في يد ابن عثمان ، الواضح انه ما كان يفكر حتى في أخذ الخليفة الى اسلامبول فضلا عن نزع الخلافة منه ج) يكمل ابن أياس : والأقوال في ذلك كثيرة فلما أراد الخليفة الانصراف ، خلع عليه دلام حرير من ملابيسه وأنعم عليه بمال له صوره ، ورده إلى حلب ، ووكل به أن لا يهرب من حلب » !!

وفي القاهرة اعيدت الخلافة ليعقوب الخليفـــة المخلوع بسبب ضعف بصره أو بسبب الاثني عشر ألف دينار ! وتصل المهزلة أقصاها . فكل مـــن السلطانين المتحاربين يحتفظ في جيشه بخليفة الأب الأعمى يرتدي سلاري صوف من ملابيس طومان باي .. والابن الشاب يرتدي دلامة حرير من ملابيس سليم شاه » ..

ومع السلطان المنتصر وفي ركابه دخل الخليفة ذو الدلامة الحرير .

« وفي هذه الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد والأمر والنهي في الديار المصرية ، وصارت أولاد السلاطين جالسة في دهاليز بيته . وكانت رسالته ماشية في القاهرة لا ترد عند وزراء ابن عثمان وشفاعته في النـــاس لا ترد ، وصار رنكه مضروباً على غالب البيوت التي في القاهرة وصار هو مقام سلطان مصر في نفاذ الكلمة وإظهار العظمة في تلك الأيام ، ودخل عليه من الناس أموال وتقادم عظيمة ما لا فرح به آباؤه ولا أجداده . وصارت جماعة من الستات والخوندات مرمية في دهاليز حرمه .. فطاش الخليفة في تلك الأيام إلى الغاية ، وظن ان هذا الحال يتم له ، فكان القبان بآخره كما يقال في المعنى ..

أمور تضحك السفهاء منها ..
ويبـــكي من عواقبها اللبيب ..

لا أظن انه بعد هذه الصورة الباكية لحال الخلفاء في مصر ، ان من حقنا أن ندعي ان الأتراك قد سلبوا العرب « شيئـــاً له صورة » أو ان السلطان العثماني نفسه كان حريصا على سلبها .. بل نحن نذهب إلى القول إنه لم تكن هناك خلافة حقيقية منذ سقوط بغداد ، ولا كان ثمة من يعيرها اهتماما خارج مراسيم البلاط المصري بيروقراطيته وشكلياته الازلية .. فها هو سليم شاه يسأل أمير المؤمنين « اصلكم منين يا اخ ! » كأي عمدة يحتفي بفلاح غريب يطرق بابه في يوم عيد ! والاخر يجيبه : من بغداد !

وأصبح تكريم الخليفة العباسي أن يلبس من « ملابس » السلطان الذي باعه.

النخاس وأحد وزراء بني العباس وزع يوم زفاف خليفة عباس رقاعاً بها ضياع .. لمن سقطت في يده أن يتسلم الضيعة بعبيدها وحيواناتها وزرعهافاصبح يتصدق على حفيده بخمسمائة دينار ويعد ذلك من النوادر .

الخلافة هي تلك التي أقامها ابن عثمان يوم وحد العالم الاسلامي غرب ايران وجعل للمسلمين (العرب بالذات) قوة عسكرية واحدة مهما تكن نزعتها وانهياراتها الداخلية ، إلا انها كانت قوة واحدة إزاء الفرنجة ..

غير اني لا أرى تفسير قيام الدولة العثمانية بالدافع الديني .. بل بدافع الوجود الحضاري .. فالمسلمون والعرب [1] منهم بالذات كانوا يواجهون مسئولية الاختيار القاسي، الفناء تحت ضربات الفرنجة .. أو قبول الحماية العثمانية .. ولكنهم لم تساورهم أية أوهام حول طبيعة العثماني والادارة العثمانية .. ولا عن تدين هذه الحضارة .. بل كان سلاطين مصر ومماليكها أكثر حرصا على المشاعر الدينية وأكثر تأنقاً في ممارسة الفواحش من جيش الانكشارية .. فهؤلاء « كانوا همجا لايعرف الغلام من الاستاذ ، ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول من الحوش الى باب القلعة الى عند الايوان الكبير وباب الجامع الذي بالقلعة ، وصار زبل الخيل هناك بالكيمان على الأرض وأخرب غالب الأماكن .. ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرملة من باب القرافة إلى سوق الخيل — ثم ان — العثمانيين نصبوا خيمة في وسط الرملة وجعلوا فيها ادنان بوزه ، وخيمة اخرى فيها جفن حشيش وخيمة اخرى فيها صبيان مرد يحارفون كعادتهم في بلادهم »

فليس بسبب « تقوى » العثمانيين قبلنا حكمهم ولكن وهذه هي عبقرية امتنا .. اذهب للزعم بأن الأمة قد اختارت البقاء ولو على حساب المشاعر الخلقية والنصوص

---

(١) اذ ان الخطر الداهم كان نتيجة نمو الدول الاوروبية في البحر الابيض المتوسط والمواجهة للجانب العربي ..

الشرعية .. فلم يكن للعثمانيين من فضيلة إلا قدرتهم العسكرية على حفظ الوجود العربي الاسلامي من خطر الفناء الشامل ..

لنأخذ رأي ابن اياس من الناحية الدينية . ولو أنه سبق أن عبر عن رأيه في نعي السلطان « بايزيد » والد السلطان سليم فاتح مصر – عندما فسر حزن العامة عليه بأنه « كان قامعاً للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهم ليلاً ونهاراً وكان به نفع للمسلمين فهو لم يقل كان تقياً ورعاً ، قائماً بأحكام الدين ، بل لخص في دقة وذكاء المؤرخ المصري دوره التاريخي « كان قامعاً للفرنج » فكان به نفع للمسلمين » .. فالمسلمون كانوا بحاجة إلى قامع للفرنجة« وعليه كفره » .

« أما سليم شاه بن عثمان هذا عنده جهل زائد ويحب إقامة الفتن ، وكان سفاكاً للدماء فقتل اخوته وأولادهم وكان منهم من هو مرضع عما قيل من جهله « وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوك السالفة ، غير انه سيء الخلق سفاك للدماء ، شديد الغضب لا يراجع في القول » وكان القاضي الذي قرره ابن عثمان يحكم في الصالحية أجهل من حمار ، وليس يدري شيئاً في الأحكام الشرعية ويضيع على الناس حقوقها » ..

وفي مدة اقامته بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ، ولا رآه أحد ولا أنصف مظلوما من ظالم في محاكمته ، بل كان مشغولا بلذته وسكره وإقامته لوزرائه بما يختارونه . فكان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك دماء المماليك الجراكسة ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من النـــاس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقص منقوص لا يثبت على قول واحد كعادة الملوك في أفعـــالهم وليس له سماط يعرف ولا نظام كعادة السلاطين في سماطهم الذي كانت تجلس عليه الخاصكية كل يوم .. »

« أما عسكره فكانوا جيعانين العين نفسهم قذرة يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق ، وعندهم عفاشة زائدة وقلة دين ويتجاهرون بشرب الخمور في

الاسواق بين الناس ، ولما جاء عليهم شهر رمضان فكان غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجوامع ولا صلاة الجمعة الا قليل منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف ولا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم » ..

فليس صحيحاً ما يذهب إليه البعض (١) من أن سبب قبول العرب للحكم العثماني هو الدافع الديني .. لا ... السبب الرئيسي في اعتقادنا هو الضرورة الحضارية .. هو غريزة حب البقاء لأنهم وحدهم كانوا القادرين على حماية المسلمين لا الاسلام .. بل الاسلام في المسلمين لقد أطاعت أمتنا غريزتها وغرائز الأمم لا تخطيء ..

والسؤال الذي قد يخطر ببال البعض .. أي الاحتمالين كان أفضل للعرب : « احتلال الغرب . احتلال الفرنجة أصحاب الحضارة المقبلة . . أم حماية العثمانيين رمز الحضارة الغاربة بل وأكثر عناصرها تخلفاً ..

والسؤال على هذا النحو باطل .. فلم يكن هناك خيار .. لان احتلال الفرنجة لم يكن يحصل معه أية أمل في البقاء .. وكانت مذابح الصليبيين في الشام ماثلة امام العرب وكانت عبرة الأندلس حية ساخنة وهي التي أيقظت حواس الأمة ، وهدتها حتى عهد الجبرتي عندما يصف الحملة الفرنسية بقوله : « وأوشكت القضية أن تصبح أندلسية » ومن أجل ألا تصبح أندلسية .. كان قدراً محتوماً أن تظهر الدولة العثمانية ..

روى ابن أياس ما جرى في الاندلس فقال : « وفيه جاءت الأخبار من جهة الغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ووضعوا في المسلمين السيف وقالوا من دخل في ديننا تركناه ، ومن لم يدخل في ديننا قتلناه ، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ولله الأمر

---

(١) الحصري مثلا

« وتقول الدكتورة سيجريد هونكه : في ٢ يناير ١٤٩٢ رفع الكاردينال د . بيدرو جوانزليس ده مندوزا ، ــ الصليب على الحمراء ، وهي القلعة الملكية للاسرة الناصرية ، وكان ذلك اعلاناً بانتهاء حكم العرب على أسبانيا فهنا في غرناطة كانت العروبة قد انتهت في الأندلس ، اذ كانت قد شاخت وبلغت نهايتها .. وبضياع سيادة العرب وحكمهم انتهت هذه الحضاره العظيمة التي بسطت سلطانها على القارة الاوروبية طيلة العصور الوسطى ،وقد احترمت المسيحية المنتصرة لحد ما الاتفاقيات التي تمت بينها وبين المسلمين ، وظل هذا الاحترام قائماً مدة ثماني سنوات ثم وقعت أحداث قضت على المسلمين وبقايا ثقافتهم وحضارتهم ، وتعرضوا للاضطهادات الشنيعة فقد حرم عليهم الاسلام وتعاليمه ، وأوامره ، كما حرم عليهم استخدام اللغة العربية وحتى نطق كلمة عربية أو أغنية عربية أو شعر عربي ، كما حرموا عليهم أيضاً حتى العزف على الآلات ــ الموسيقية العربية ، واستخدام الأسماء العربية وارتداء لباسهم القومي ، وزيارة الحمامات [١] وفرضت المسيحية على من يخالف هذا من المسلمين أشد العقوبات من سجن وطرد وحرق والمسلم على قيد الحياة ..وهكذا تم النصر على العروبة ، وذلك عن طريق مختلف أنواع الاضطهاد من حرق وقتل وتعذيب (٦٨) انتهت شهادة العالمة المسيحية

ثماني سنوات .. ثم أبيد العرب والاسلام .. ونحن حكمنا الأندلس ثمانية قرون فعاشوا تحت حكمنا .. وتكاثروا وعلمناهم الاستحمام .. وتعلموا . . ثم تعصبوا وتسلحوا وقضوا علينا .

وأوروبا الصليبية لم تتخل عن اسلوبها في الابادة الجماعية منذ الكاردينال بيدرو إلى عصر القنبلة الذرية ، وليس بغير السيف يمكن ابادة العروبة والاسلام .

أما نحن ففي عصور انهيار حضارتنا ، ورغم دخولنا في عصور الظلام ، فقد

---

(١) تأمل ما عرفته المسيحية الناهضه من سبل القضاء على الوجود القومي .. هي لم تفرض عليهم التنصر دينيا ولكنها بتحريم العادات القومية ازالت الوجود والدين .. وهو نفس ما يحاول البعض ممارسته فينا اليوم بغير سلاح ، بل بدعوى التمدن ..

عاشت بيننا وفي حمايتنا شتى الكنائس ومختلف الأديان . لم نجرب مرة واحــــدة الابادة الجماعية ولا التعذيب بالقــــوة . . لم نجبر أحداً على الدخول في دين الله أو ملكوته . .

ينقل « محمد جميل بيهم » قول « رينيه بينوف » : لا يخفى ان الدولة العثمانية ما حاولت قط تتريك العناصر في بلادها الاوروبية . . لذلك فحيث حافظ هؤلاء علي أديانهم استطاعوا أن يحتفظوا أيضاً بلغاتهم وتواريخهم وبشعورهم الوطني ، حتى إذا جلا عن بلادهم الأتراك عادوا إلى ما كانوا عليه قبل العهـــد العثماني ، وعادت الفسيفساء التي كانت تزين كنائس الروم بعد ان طلاهـــا الأتراك بالكلس والجير اخفاء للرسوم المحرمة عندهم ، عادت الى الظهور برونقها وجمالها اذ رفع الطلاء عنها. وكانت تواريخهم في زوايا الاديرة لا تفتأ تصون شعورهم الوطني » .

ويعلق الاستاذ بيهم: « وقدجنى العثمانيون ثمرات هذه السماحةالسياسية » .

ونحن نقره على الاستنتاج .. وليس العثمانيون وحدهم هم الذين جنوا عقوبة التسامح بل التاريخ الاسلامي كله وكلما تنمر لنا طلقاء سيوفنا . . كلما دار بخاطر المسلمين سؤال . هل هذا التسامح خطيئة . .ندفع ثمنها؟ .. ولكن لا حيلة لنا فهكذا أمر ديننا [1] ونحن لا نملك أن نغيره .. ان التسامح هي هدية الاسلام للانسانية . . وان كنا قد دفعنا الثمن غالياً .. فلأننا لم نستطع ان نعلم البشرية ما علمنا ديننا .. ان ليس من العدل ولا من الدين ان يضطهد الانسان بسبب دينه أو جنسه أو لونه أو عنصره .. ولا أمل للبشرية ما لم تتعلمه « لا اكراه في الدين .. (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » أفأنت تكره الناس حتى يكونوا

(١) اجمع الفقهاء على ان البلد الذي يضطهد فيه الذمي (المسيحي او اليهودي) تصبح ديار حرب يجوز القتال فيها بل وغزوها . واذا استحال على المسلم ان يوقف هـــذا الاضطهاد يتحتم عليه الهجرة منها . .

مؤمنين» « لكم دينكم ولي دين .. لا فضل لعربي على عجمي..و كلكم لآدم وآدم من تراب » ..

ما لم تتعلم البشرية قبول مخالفيها في العقيدة والتعايش معهم ، فيستمر تاريخها مخضبا بالدم والمآسي .. ورسالتنا في هذه الدنيا أن نعلم البشرية حرية الانسان .. والايمان بالانسان أولا قبل أن يكون يهوديا أو أسود أو هنديا ..

يقول « جميل بيهم » ألم يعتبر العثمانيون بمعاهدة سنة ١٨٢٩ التي ابرمت بينهم وبين الروس عقب الحرب بين الدولتين ؟ فقد تقرر في ذيل تلك المعاهدة ، عملا بمشيئة روسيا ترحيل جميع السكان المسلمين من الافلاق والبغدان ، وبيع مالهم فيها من عقار وأثاث خلال ثمانية عشر شهراً فقط » ..

ويسجل بذلك تسامح العثمانيين كغلطة تاريخية .. نعم ! لم يعتبر العثمانيون ،- ولا اعتبر العرب قبلهم . ولن يعتبر المسلمون أبداً.. (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا « ولا تزروا وازرة وزر أخرى » .

هذا التسامح هو مبرر وجودنا وهو سر تميزنا وصليبية أوروبا ومذابحها لم تؤثر في خلق صلاح الدين فبقي اسمه الاسلامي شامخاً رمز الفروسية والنبل وتوارى في العار حملة الصليب الدموي .

لا .. ليست غلطة أحد .. ولكن طبيعة شرسة في الجنس البشري . . جاء الاسلام لتهذيبها .. وما زلنا نحاول .

وعندما قامت الدولة العثمانية .. كان الخطر ماحقاً هذه المرة .. الابادة الشاملة التي جربت مع العرب في الاندلس ثم مع السكان الاصليين في العالم الجديد والتي ظلت آثارها حتى القرن التاسع عشر في محاولة ابادة الجزائريين ، أو إزالة عروبتهم، وإبادة الافريقيين ، وفي التصريحات المحمومة من رواد القومية في اوربا التي تتحدث عن طرد سكان شمالي افريقيا جنوباً إلى ما وراء الصحراء .. واخيراً الابادة الاجرامية لسكان فلسطين.. إن الحضارة الغربية تقوم على الابادة الشاملة فهل كان العنصر العربي بوسعه أن يواجه هذا الخطر وأن يصده ويقهره ثم يواصل نموه الحضاري ؟

الجواب لم يصدر يوم سقوط الغوري في مرج دابق .. بل يوم خلع صلاح الدين الخليفة الفاطمي العاضد آخر خلفاء الفاطميين .. وهو على فراش الموت وتولى البطل الكردي حماية الاسلام .. مستعيناً بمماليكه التركمان .. واستطاعت شجرة الدر ومماليكها ان تنقذ مصر من الاحتلال الفرنسي .. ونظرة واحدة لما تعانيه الجزائر من احتلال ١٣٠ عاماً ترينا أي دين في عنقنا لشجرة الدر العظيمة ومماليكها طيب الله ثراهم .. إذ انقذونا من احتلال لويس التاسع قبل احتلال الجزائر بستة قرون .. فانقذت اسلامنا وعروبتنا .. ثم قهر قطز المغول ، وانقذ الثقافة العربية من خطر مهول واخيراً استأصل الظاهر بيبرس الوجود الصليبي في المشرق العربي ..

ثم جاء الجراكسة .. حتى كان الغوري .. فليس العثمانيون هم الذين انتزعوا السلطة من العرب ، ولا هم الذين دفعوا بهم إلى خليفة الاحداث .. فقد قال التاريخ كلمته قبل ظهور العثمانيين بعدة قرون ..

كذلك ليس العثمانيون هم المسئولين عن تخلف الحضارة الاسلامية .. فقد كانت

شمس حضارتنا تميل إلى المغيب قبل ظهورهم [1] ..

سنة الله في الأرض .. دار الزمان دورته .. كانت شمس حضارتنا توشك على المغيب في رحلة نحو فجر جديد ..

وأقبل المساء بعد يوم حافل .. لقد كان يوماً صاخباً مثيراً مرهقاً ورائعاً حقاً لم يمر على البشرية يوم مثله .. نبه ضميرها ، وايقظ عقلها ، وفتح عينيها على مـــا في هذا الكون من امكانيات الحياة والمتعة ..

---

(١) للعالم المؤرخ الاستاذ « محمد جميل بيهم » راي جدير بالتأمل والدراسة .. ويمكن ان نقول انه منطقي جدا مع تحفظ واحد هو راينا في امكانية التطور الرأسمالي في ظل الفلسفة الاسلامية ..

يرى الاستاذ بيهم : « ان خلفاء السلطان سليم لو آثروا خطته الاسيوية الاسلامية على التوسع في اوروبا لكان مصيرهم غير هذا المصير ولا سيما لو قرنوا الفتح بالتجدد . لقد كانت الطريق الاسيوية معبدة لفتوحاتهم اكثر من الطريق الاوروبية .. فكم حاول اهل جاوة اقناع آل عثمان مـن اجل استلام زمام امورهم ، وكم اعرب اهل الهند عن رغباتهم من اجل الانضمام الى دولة الخلافة . وكم تنادى المغاربة في مراكش والجزائر وتونس لتوثيق عرى الحكم بينهم وبين امير المؤمنين .. وكم تمنى اتراك ما بين النهرين الى حدود الصين لو تتاح لهم الفرصة ، كيما يتصلوا بأبناء عمومتهم الذين كانوا يرفعون رؤوس قومهم ..

وبالطبع يدرك الاستاذ بيهم أن الاتراك كانــوا سيتعرضون للهجــوم الاوروبي المتطلع لاستعمار جاوة والهند وغيرهما غير ان فكرته انهم في هذه الحالة كانوا سيقاتلون في ارض متضامنة بعكس الحال في اوروبا .. وبدلا من ترك الاطراف الاسلامية بغير دفاع واستنزاف القوى في التوسع في اوروبا برغم عدم المؤاتاة التاريخية كان الافضل تعبئة العالم الاسلامي .. على أية حال هذه الحقائق التاريخية التي يشير اليها الاستاذ بيهم تؤكد وجهة نظرنا في الضرورة الحياتية التي تفســر ظهــور الدولة العثمانية واحساس العالم الاسلامي كله بخطر الغــزو الاوروبي الجديد وتعطشــه للحماية من جاوة الى مراكش ..

ما من حضارة اقبلت على الحياة كما اقبلنا .. فلم نعرف زهد العاجزين ، ولا انحلال واغراق البائسين .. الحياة عندنا متعة ، لا كأس ننتحر بتجرعها بشراهة .. ولا شر ننأى عنه ما استطعنا ..

لقد طال يومنا .. عشرة قرون كاملة .. وآن ان يأتي المساء .. فهذه سنة الكون لنغف حتى تشرق شمس الآخرين ..

صحيح ان لحظة الغروب طالت .. واننا وشمسنا تنحدر الى المغيب ، قد افزعنا اوربا ، ودقت اكفنا أسوار فينا .. وسددنا الطريق على الغزو الاستعماري للشرق ، واجبرناهم على الالتفاف حولنا ، وما زال الرعب في قلوب اوربا إلى اليوم [١] ..

كان العملاق يغفو ..

وعندما مات سليمان ، ظل الجن سنوات وسنوات في العذاب المهين .. لا يجرؤون حتى على الاقتراب منه للتأكد من موته .. حتى دلتهم دابة الأرض تأكل عصاه .. فلما انهارت كشفوا الحقيقة ..

وحتى في عتمة الليل كانت ذكريات النهار تعيش في احلامنا ، فنحتقر الافرنجي الذي طالما هزمناه .. وكان لنا من اتساع رقعتنا .. واحساسنا لقرون عديدة بالتفوق العقلي المنبعث من التفوق العقائدي .. كان لنا من غير ذلك مبرر للاستهانة بالعدو حتى التقى مراد بك وابراهيم بك بجيش نابليون باستخفاف كامل ..

هذا الغرور والاستخفاف كان بغير شك ثمرة الانتصارات العثمانية ، فقد رأينا كيف كان الفزع من الفرنجة قبل وصول الجيش العثماني إلى حد فقدان حرية العمل داخل البلاد العربية والتخوف من انتقام الفرنجي ، يقول ابن اياس : « واشيع بين

---

(١) يروي يوسف الرويس ان الفلاحين في جنوبي فرنسا كانوا يفرون الى الشمال في سنة ١٩٥٦ خوفا من غزو المسلمين بقيادة عبد الناصر ..

الناس أنه احتاط على ما في القيامة من مال الفرنج ، ورب ما يحصل من هذه الحادثة مفسدة كبيرة من قبل الفرنج » . .

هذا الرعب زال تماماً بظهور العثمانيين وتحملهم مسئولية الدفاع عـــن الثغور الاسلامية في البحر الأبيض .. بل حل محله ثقة مبالغ فيها واستكانة لا مبرر لها .. المهم ان ظهور الدولة العثمانية لم يكن ظاهرة دينية ، ولا كان قبول حكمها مبعثة العصبية الدينية كما يحاول البعض [1] ان يفسر ليؤنبنا على اسلامنا .. بـــل ضرورة تاريخية .. القت بمجتمع يحيط به الفناء إلى حماية أقوى عناصره عسكرياً . وأكثرها تخلفاً من الناحية الحضارية .. وهم المحاربون العثمانيون .. ولعل موقف المغرب العربي هو أوضح دليل على هذا الوعي الغريز لدى الأمة ..

فقد كان المغرب العربي في مواجهة المدفع .. إذ بدأ الغزو الاوربي الحديث منطلقا من الاندلس . . وكما زحف الاسلام من شمال افريقيـــا إلى اوربا كانت الموجة ترتد وبدأ الغزو الصليبي الجديد من اسبانيا والبرتغال الى شمال افريقيـا . . لذلك كان شعب المغرب العربي أكثر العرب احساساً بخطورة الوضع ، وبالتالي اكثر تعاطفا مع العثمانيين فالجزائر انضمت للدولة العثمانية بغير حرب ولا غزو بل طواعية ..

« أما دخول الجزائر تحت الحكم العثماني فقـــد تم بدون حرب ، بل بمحض ارادة – حاكمها : « خير الدين » المعروف بـ « بارباروس » .. كان قد تكون هناك نوع من الحكومة البحرية تملك اسطولا قوياً يشتغل بالقرصنة لمقابلة قراصنـة

---

(١) فليس صحيحاً ما يذهب اليه الحصري من ان اعتقاد المسلمين بالخلافـــة العثمانية قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهيلا كبيراً . بالعكس ان وجود الخلافة في مصر ثلاثة قرون لم يسهل حكم المماليك للعالم الاسلامي .. بل لم يعره احد اهتماماً خارج احتفالات القلعة. ولكن القوة العسكرية كانت العامل الحاسم في كسب الولاء والخلافـــة لم تطرح الا كوسيلة لتوحيد العالم الاسلامي وكسب ولائه في مواجهـــة التحالف الاوربي الساعي لتقسيم الدولة العثمانية ..

اوربا » وصار خير الدين يتغلب على اساطيل الاسبان وسيطر عـــلى غرب البحر الابيض المتوسط. ومع هذا فقد رأى أن يقدم خدماته واساطيله إلى الدولة العثمانية واستقبله السلطان سليم القانوني . وجعله قائداً عامـاً لاساطيل الدولة . وانضمت الجزائر بهذه الصورة إلى الدولة العثمانية ثم قام خير الدين واخلافه بحركات حربية ادت الى ادخال تونس وطرابلس ايضاً في هذه الدولة العثمانية وفي سنة ١٥٥٦ اصبحت شمال افريقيا حتى وهران وتلسان تابعة للدولة العثمانية (٦٩) » .

« وفي يوم الاثنين تاسع عشر (٩٢٢ هـ / ١٥١٧م) جلس السلطان على التكة بالحوش ، وطلع الجم الغفير من المغاربة ، فلما طلعوا إلى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان وأرسل اليهم الأمير شاد بك الاعور فقال لهم : السلطان يقول لكم عنو منكم الف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة . فأرسلوا يقولون للسلطان نحن مالنا عادة نخرج مع العسكر . ونحن ما نقاتل الا الفرنج وما نقاتل مسلمين. واظهروا التعصب لابن عثمان (٧٠) .. »

الحس القومي عند عرب المغرب كان صادقا . فقد كانت الجزائر هي أوا الدول العربية تعرضاً للغزو الشامل (١٨٣٠) ..

وكان الغزو الفرنجي للمغرب العربي بالذات يتسم باخطر محـــاولات ابا الاسلام والعروبة . .

الفصل الثالث

سقوط الدولة العثمانية

نعم كان دخول العرب في الدولة العثمانية في النصف الاول من القرن السادس عشر ضرورة تاريخية .. حتمت انتقال السلطة في الوطن الاسلامي وخاصة في آسيا لعربية وشمال افريقيا الى أكبر قوة عسكرية من أبناء الاسلام ، لصد خطر الافناء لصليبي الذي صاحب نهضة الفرنج واكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وبداية عصر الكشف والنهب الاستعماري .

وكان للعثمانيين تخلفهم وجرائمهم وظلمهم ولكن أحـــدأ لم ينظر إليهم كمحتل أجنبي ، وقد رأينا كيف دخلت الجزائر باختيارها في الدولة العثمانية وكذلك أمراء لبنان وشريف مكة ..

وقد استطاع الترك أن يصدوا الخطر عن العالم العربي وأخروا احتلاله ما بين ثلاثة وأربعة قرون (١) .. ولهم بذلك في ذمة الاسلام والمسلمين دين لا ينقض ولا تشوهه أفعال حكوماتهم منذ الانقلاب الدستوري .. فنحن نتحدث عن الشعوب لانها هي الباقية والحكومات إلى زوال ، خاصة من تنكر منها لدينه وتاريخه (٢).
صدت المدافع التركية سفن المستعمرين الجدد .. وطاردهم الاسطول التركي (٢٠٠٠ سفينة) فانطلقت سفنهم تعبث فساداً بعيداً عن نيران الاتراك .. فاكتشفت ونهبت وأبادت شواطيء افريقيا الغربية والجنوبية ثم سلبت الشرق

---

(١) الجزائر ١٨٣٠ .. والمشرق العربي ١٩١٦ ..

(٢) اخبرني استاذي الشيخ توفيق المدني الثائر الجزائري .. واحد الذين ردوا للعروبة والاسلام وطنا غاليا .. هو الجزائر .. ابلغني انه اثناء زيارته لتركيا (١٩٦٦) لاحظ العودة الى الاسلام بقوة وان الشباب بالذات يواظب على الصلاة وقد عاد الاذان وخطبة الجمعة بالعربية ..

الاقصى من الحكم الاسلامي .. الهند واندونيسيا والفيلبين والملايو .. ثم الولايات الاسلامية فيما بين روسيا والصين وايران . . كلها خضعت لابشع استعمار عرفته البشرية ..

لقد كان ملك الهكسوس مضطراً لادعاء ازعاج فرس النهر لنومه .. ليبرر مقاتلة امراء طيبة .. أما الاستعمار الاوربي فكان له من التبجح والتوقح .. ما يدفعه إلى المباهاة والمجاهرة باهدافه اللصوصية الصريحة ، والتداعي إلى اقتسام بلاد الاخرين ، دونما اعتبار لسكانها كأنهم سائمة أو جماد لا يحسب له حساب ..

وبينما كانت الحضارة الاسلامية تقوم على الامتزاج الكامل بين العناصر المختلفة وما أدى إلى ذوبان العنصر العربي داخل المحيط الاسلامي حتى في المناطق التي تم فيها التعريب .. نرى الحضارة الاوربية تقوم على ابادة العناصر الوطنية واستئصالها تماماً .. وحتى العناصر التي جردتها من دينها وقوميتها لم تسمح لهـا ابداً بان تمارس حقوق المساواة مع الامة الاوربية ، وظل الخط العنصري يقسم البشر إلى نوعين : الجنس الابيض السيد ، والبشر الملونين ، مادة حياة ورخاء وتجارب الجنس السيد .. ظل هذا الخط هو الحقيقة البارزة في الحضارة الغربية على تعدد مراتبها وتنوع مفاهيمها ، وكثرة شقشقتها عن الحرية والمساواة والاخاء .. حتى سمعنا الحديث يعود من جديد حول هذا الخط بين الشيوعيين انفسهم. ودار الحديث عن شيوعية بيضـاء واخرى ملونة .. وما زالت البشرية تردد قول رسول الله : « طف الصاع ! طف الصاع !.. ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء صلوات الله عليك يا خاتم النبيين» .

وصحيح إن مدفعية الاتراك قد ابعدت سفن الفرنجة عن الشواطىء العربية .. غير ان الامم لا تقوم على المدافع وحدها .. ولسوء حظنا كانت النهضة الحديثة لا تقوم على التفوق العسكري من خلال الاسلحة التقليدية وحدهـا .. بل تقوم على التطور الصناعي والعلمي الذي يضيف كل يوم سلاحاً جديداً ومدفعاً من عيار أقوى وأبعد مرمى ..

والقوة العسكرية ما لم تصاحبها نهضة على جميع مستويات الأمة ، سرعان ما تنقلب وبالاعلى الأمة ذاتها ..

فالقوة العسكرية التي وصلت إلىاسوار فينامرتين وطوت صحيفة الامبراطورية البيزنطية وبعثت الرعب في اوصال الروس ، واضطرت قيصرتهم إلى ان تبيت في فراش القائد التركي لتفلت من حصاره .. وصدت اطماع الفرنجة في بلادنا .. هذه القوة العسكرية لم تجد حضارة خلفها تسندها وتطورها وتجدد دماءها [1] .. ومن ثم فسرعان ما دب فيها الانحلال وبسرعة رهيبة مذهلة ، ولولا ان الصدمة الأولى قد تركت الرعب في قلب اوربا ولسنوات طويلة [2] .. ولولا ان التوسع الاستعماري قد اختار اسلوب الالتفاف حول العالم العربي وإن الوجود العثماني في اوربا — الذي طال إلى القرن التاسع عشر بل إلى مطلع القرن العشرين قد اخر عملية التصفية النهائية للامبراطورية العثمانية .. لولا ذلك كله لربما كان مصيرنا قد ساء لو حاول الفرنجة ان يجربوا حظهم ثانية مع المدافع العثمانية بعد قرن واحد من اكتساحهم للعالم العربي .

وبمنطق التاريخ الذي لا يرحم .. اصبحت الانكشارية التي أعطت العثمانين مبرر وجودهم وحكمهم . هي العامل الأكبر في ازالة هذا الوجود .. بل اصبحت نقطة البدء في مشروعات الاصلاح .. هي التخلص من عساكر السلطنة ! .. بل ودخل السلطان « محمود » التاريخ لأنه اباد الانكشارية ..

---

(١) لم يكن امام الاتراك من سبيل للتطور الحضاري الا تبني الحضارة العربية وتطويرها ولكنهم اضاعوا فرصتهم الوحيدة في التاريخ برفضهم اتخاذ اللسان العربي ومن ثم الفكر العربي.. وقد حاول السلطان سليمان يجعل اللغة العربية لغة رسمية وكان هو مثقفاً عربياً ويتقن اللغة العربية ويمارس لونا من الشعر العربي ..

(٢) في سنة ١٥٢٦ طلب فرانسوا الاول ملك فرنسا النجدة من السلطان سليمان فخاطبه بقوله « السيد الاعظم . سيد العصر » ورد عليه السلطان ملقبا ملك فرنسا » : « فرنسيس بك ملك ايالة فرنسا » (فلسفة التاريخ العثماني ص ٧) رحماك يا تاريخ !

وفي ظل التطويق الصليبي الذي احاط بالدولة العثمانية .. وفي ظل رسالة روسيا المقدسة .. التي رسمتها لنفسها وهي طرد الأتراك من اوربا .. وقعت الدولة العثمانية في حلقة مفرغـــة .. فهي لم تكن تستطيع ان تظفر بفترة سلم ولو لعشر سنوات تتفرغ فيها للاصلاح الداخلي . الذي يبدأ بابادة عساكرها .. لأن العدو مـــا كان ليرحم أو يسكت .. وهي ما كانت تستطيع ان تبدأ أي اصلاح مع وجود هـــذا الجند الفاشل المشاغب الذي تولى تدمير الدولة بانحلاله ورجعيته .. ثم قضى عليها نهائياً بثوريته وديموقراطيته وتدينه .. فكان نكبة عليها يوم أقام من نفسه مفسراً وحامياً للشريعة . ثم كان النكبة الكبرى يوم خلع الاسلام والشريعة ..

وأتم التاريخ دورتـــه .. وبسيوف الجند قامت الدولة .. وبسيوفهم طويت صفحتها ..

والتقدم والتخلف يشبهان اقبال الدنيا وإدبارها .. فكل العوامـل المساعدة في حالة النهوض تتحول إلى عوامل معوقة في مرحلة الانهيار .

كان جند الانكشارية محاربين ممتازين لعدة اسباب منها اقتناعهم ببركة الحاج بكتاش ..

فقد طلب السلطان « اورخان » من الحاج بكتاش شيخ الطريقة البكتاشية ان يبارك له جند الانكشارية في بداية الدولة العثمانية .. فرفع الشيخ يده والقى كم جبته على رأس جنـــدي وقال : « ليكن اسمهم » « ينكى تشاري » (أي الجيش الجديد .. وليبق وجههم مشرقاً وساعدهم قوياً وسيفهم قاطعاً ورمحهم نافذاً وليعودوا دائماً محفوفين بالنصر .. وتذكاراً لهـــذه المناسبة علق الأمير علاء الدين على اللبادة المستطيلة البيضاء التي عمم بها رؤوس هذه الكتيبة قطعة قماش أرادها ان تكون رمزاً لطرف كم الشيخ اثناء مباركته اياهم .. وإلى هذه القطعة يرجع مصدر « الزر » في

الطرابيش (١) .

ولم يصبح الجيش جديداً .. ولم يبق من آثار دعوة الشيخ بكتاش إلا « الزر » !
فلم تعد وجوههم مشرقة .. بل أصبح وما زال رمزاً للعبوس الكئيب .. ولصورة قاطع الطريق الذي يتولى مهمة حفظ النظام وحماية الأمن ..

ولم تعد سواعدهم فتية .. وإن اصبحت طويلة في النهب والسلب .. وسيوفهم تحولت قاطعة لاعناق السلاطين ودعاة الاصلاح .. ورماحهم نافذة عند الخصيان والاغوات .. وما عادوا إلا محفوفين بالهزائم .

ورفضوا كل محاولة للتجديد أو التدرب على سلاح جديد .. لأن بركة الشيخ بكتاش تكفي !

(١) ويبدو ان كم الشيخ بكتاش غفر الله له كان مهلهلا على نحو رهيب .. وهذا يفسر كون « الزر » يتكون من عدة فتل لا قطعة واحدة كما هو المفروض في كم الشيخ .. او لعله كان يضع شرابية في كمه .. وهذا ايضا يثبت ان السائحات الامريكيات اكثر الماماً بوقائع التاريخ باصرارهن على لبس الطربوش والزر من الامام . اذ المفروض ان الجندي الانكشاري السعيد الحظ قد تلقى بركة الشيخ بكتاش وجهاً لوجه لا وجها لظهر .. وفي حضور السلطان اورخان!

صليبية أوربا

اوروبا واجهت الدولة العثمانية باعتبارها القوة الاسلامية الكبرى[1] وهذا الطابع الصليبي لم يتغير طوال عمر الدولة العثمانية .

« فعندما فاجأت أساطيل البندقية والفاتيكان وأسبانيا ورهبان مالطة، الاسطول التركي في « ليبانه » . . « Lepant » باليونان (١٥٧١ م / ٩٧٩ هـ) وحطمته بعد ان كان بحارته قد تركوه في اجازة . .

« هللت اوروبا وكبرت لهذا الانتصار وأقامت معالم الزينات في كل مكان . . وأفرطت في التسبيح بحمد « دون جوان دوتريش » . . أمير الاساطيل المتحدة . . الى حد ان قداسة البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس بمناسبة هذا النصر « ان الانجيل قد عنى دون جوان نفسه حينما بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا » .

« ثم لا يذكرون دون جوان في القواميس المدرسية الحديثة الا باعتباره منقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها (٧١) .

وبعد ذلك بثلاثة قرون تجمعت أساطيل أوروبا مرة اخرى لضرب الاسطول التركي – المصري في نافارين باليونان .

---

(١) وصلت حدود الامبراطورية العثمانية من الدانوب شمالا الى المحيط الهندي جنوبا . ومن سلسلة جبال القفقاس الى جبال اطلس ، حوالي ٤٠٠ الف ميل مربع .

« كانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركي ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين وكانت العرائض تنهال على الملكة فيكتوريا طالبة انقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين .. وكان جلاد ستون زعيم حزب الاحرار يشير الى السلطان عبد الحميد بقوله : « الشيطان . . وعدو المسيح » .

« واقترح كاتب فرنسي حلا للمسألة الاسلامية القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس » (٧٢) .

قال رينيه بينون : ان الفلاح الروسي لم يفهم مغزى لحرب منشوريا مطلقاً وانما هواه يتلخص في قتال التركي .. ومناه ينحصر في الحرب الروسية الصليبية لآل عثمان ، بغية انقاذ النصراني من المسلم .. وهذه النظريات كانت تتلألأ مع نظريات حكومات القيصر ..

« إذا شاء الله ان يشمل بعطفه امراء المسيحية ويبث فيهم روح الحب والتعاون للقضاء على هؤلاء الشياطين الذين كادوا يفترسون المسيحية . . فأي هدف أسمى يريدونه وأجمل من احتلال تلك الموانىء الرابضة عند ساحل جبل لبنان في سورية (١) .

وعندما خرج الجنرال اغناتيف (الروسي) ومعه صورة المعاهدة ممضاة من مندوبي الدولة العثمانية إلى الغراندوك وكان واقفاً أمام الجيوش الروسية . . تحف به أركان حربه وسلمه الصورة فصاح الجند (الروسي) صيحة الاستبشار وأقام لهم أحد القسوس صلاة حافلة في ميدان الاستعراض ، نزل في أثنائها جميع القواد والضباط عن ظهور خيولهم وجثوا على الأرض هم وجميع الجنود شكراً لله على هذا الفوز غير المنتظر (٧٣) .

(١) سفير فرنسا في تركيا (في فلسفة التاريخ العثماني) .

ورأى رانك – الأب الجليل للتاريخ الألماني – المسيحية تطغى على الامبراطورية العثمانية وتخترقها : « ان المسيحية لا تعني في مفهومنا الدين المسيحي وحده .. وحتى الثقافة المسيحية أو الحضارة لن تعبر الا عن معنى ناقص للكلمة .. انه الذكاء الخلاق للعرب انها الروح التي تحول الشعوب إلى جيوش نظامية .. وتبني الطرق وتحفر القنوات وتغطي المحيطات بالاساطيل وتدخلها في ممتلكاتها .. وتعمر القارات النائية بالمستعمرات .. انها روح قد نفذت إلى أعماق الطبيعة بالدراسة الدقيقة وتحكمت في كل حقوق المعرفة وأعادت إليها الشباب بالجهود الدائمة الجدة .. دون أن تفقد رؤيتها للحقيقة الخالدة .. انها الروح التي تقوم القوانين والنظم بين الناس رغم عواطفهم المتباينة .. اننا نرى القوة الروحية تتحرك أمامنا في تقدم عجيب »(٧٤) .

علنا ان نلغي عقولنا ونمحو التاريخ لكي لا نرى هذه الصليبية ..

هل كانت روسيا القيصرية يقلقها انعدام الحرية الدينية .. أو تسعى حقاً لتحرير الشعوب فلماذا اذن لم تحرر شعوبها ؟ بل لماذا كانت تطارد الكاثوليكية في بلادهـ وتبيد المسلمين [١] ..

هل كانت بريطانيا القرن التاسع عشر يقلقها تحرر الشعوب .. ومن هو الشيطان؟ أهو عبد الحميد الذي حاول بعجزه ان يصد الاستعمار عن العالم العربي .. أم جلادستون فاتح بلادنا ؟

إن التفسير العلمي المزعوم سيقول : دول استعمارية تسعى لابتلاع الولايات العثمانية .

عظيم ! نحن نضيف لهذا التفسير .. انه لخدمة هذه الأهداف ، استغلت الدول الاستعمارية الدين واعتمدت على العاطفة الدينية الصليبية عند شعوبها .. فقد كان

---

(١) نحن نتحدث عن روسيا القيصرية .. فلزم التنويه .

الاغراء باسم الصليب والمسيح اكثر فعالية من الاغراء باسم الاستعمار [١] .

يقول عبد الله النديم : « لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين ، لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة .. ولكن المغايرة الدينية وسعي اوروبا في تلاشي الدين الاسلامي أوجب هذا التحامل الذي اخرج كثيراً من ممالك الدولة . »

ويقول مصطفى كامل : « ان المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين المسيحية والاسلام .. أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين الدول المسيحية ..

ويعرف الأمير مصطفى الشهابي .. المسألة الشرقية بأن «أساسها الحقيقي كان أولا فصل نصارى الدولة العثمانية عنها في اوروبة .. ثانياً الاستيلاء على الأقطار الاسلامية من تلك الدولة .. سواء أكانت عربية أم تركية ..

وفي مارس ١٩٢٥ كتب جان بدرون في « الجورنال » الباريسية عن الأهداف الحقيقية للوطنيين العرب : « ان الهدف الذي يسعون في سبيله هو غير الهدف الذي

---

(٢) على اية حال لم نعد بحاجة الى استعراض الحجج التي ندلل بها على صليبية اوروبا كما كان الحال عندما صدر هذا الحديث لاول مرة في كتابنا « الغزو الفكري » .. عندما ابتسم عملاء « الغزو الفكري » والذين تسمموا به دهشا من الحديث عن الحرب الصليبية في عصر البخار والذرة .. لقد انتهت هذه المرحلة واعترفت حتى مجلة « الطليعة » الاشتراكية العلمية « بصليبية اوروبا » في مقال لوليم سليمان : « ويبدو كما لاحظ ذلك هـ. ج. ويلز ان الروح الصليبية متاصلة في الفكر الديني الغربي بسبب ارتباطه ارتباطا وثيقا بالعوامل السياسية والاقتصادية .. ولهذا نجد في الكتابات الغربية الدينيه والسياسية معا .. الاشادة بعمل الصليبيين .. ان حملة « اللنبي » على القدس اثناء الحرب الاولى تسمى في الكتابات الغربية بالحملة الصليبية الثامنة او الاخيرة .. يقول « بترسن سمث » في كتابه عن حياة المسيح الشعبية « باءت الحروب الصليبية بالفشل .. ولكن حادثا خطيرا حدث بعد ذلك .. بعثت انكلترا بحملتها الصليبية الثامنة وفازت انجلترا هذه المرة !! » هذا ما كتبه وليم سليمان في مجلة الطليعة القاهرية .. عدد ديسمبر ١٩٦٦ صفحة ـ ٨٤ .

انفقنا .. لم يبق الا ان نوافق على أن الشيوعية هي سلاح الحملة الصليبية التاسعة .. وانه لا سبيل لمواجهة الصليبية الا بتعبئة اسلامية ..

وفي انتظار اعداد اخرى من الطليعة ..

يظهرونه وانما هم يضمرون شراً للأمة الفرنساوية .. ويرمون إلى استعادة السيطرة الاسلامية لتكون شاملة افريقيا الشمالية كلها .. وهذا المظهر هو أحد مظاهر الحرب الازلية بين الشرق والغرب ..

ان أقل ضعف يبدو من جانبنا يعجل بتنفيذ الخطة التي يعملون على تحقيقها .. وان الوقت للعمل الجدي قد آن اوانه ..

ويقول الجنرال كيللر .. ولن نتخلى عن مهمتنا التاريخيـــة في حماية الأقليات المسيحية وعن تأثيرنا على الأوساط الاسلامية .. فان كل غُنْم أو خسارة في الشرق له تأثيره في افريقيا الشمالية (٧٥) .

« ومورهيد » في كتابه الصادر في عام ١٩٦٠ يصف فتح مصر وتونس بأنه نصر مسيحي .. أما ثورتا عرابي والمهدي .. فهما تمرد اسلامي .. ويعلن ان الصراع بين الاسلام والمسيحية حقيقة خالدة في افريقيا كالنيل نفسه .

هذه الروح الصليبية لم تتخل عنها اوروبا أو بمعنى أصح الحضارة المسيحية الغربية كلها لحظة واحدة .. في مواجهتها للشرق الاسلامي .

وفي مطلع القرن التاسع عشر .. بدأ ان فرصة العمر قد لاحت للصليبية الغربية لتكيل ضربة قاصمة مدمرة لعدوها الابدي .. العالم الاسلامي .

ولم يحدث قط عبر التاريخ ان امتلك عدو مثل هذا التفوق الذي امتلكته اوروبا الصناعية ازاء العالم الاسلامي .. كان بوسع الصليبية المسيحية ان تفعل بنا ما تشاء.. وكيفما شاءت .. وحيثما شاءت .

في سنة ١٨٥٥ كتب توكفيل يصف هذا التفوق الساحق : « اني شديد اللهفة لمعرفة ما يرجع اليه التدهور السريع الذي يبدو حتمياً للأجناس التي رأيتهـــا .. التدهور الذي أسلم بعضهم .. وقد يسلمهم جميعاً لسيطرة قارتنا الصغيرة اوروبا التي كثيراً ما ارتعدت أمامهم في الماضي . ابن الحشرة التي تأكل هذا الجسم الاسيوي الكبير ؟ لقد أصبح الأتراك جنوداً سيئين .. ويبدو الآن انه قد قدر عليهم ان يخدعوا وان يهزموا من كل انسان .. ومع ذلك فانت تعيش الآن في الأمة الاسلامية

التي تتصف ، اذا صدقت تقارير الرحالة .. بالذكاء وحتى بالالمعية ، إما هو هذا الفساد الذي لا علاج له والذي يجرها إلى اسفل خلال القرون ؟ هل يمكن أن نكون قد ارتفعنا بينما ظلوا هم ساكنين ؟ انا لا اظن ذلك .. انا اظن بالاحرى ان الحركة المزدوجة قد حدثت في اتجاهين متضادين .. انت تقول اننا سنشبه يوماً ما جموعك الشرقيين . . ربما .. ولكننا قبل ان يحدث ذلك .. سنكون سادتهم . ان ملايين قليلة من الرجال كانوا منذ قرون قليلة يكادون يعيشون بغير مأوى في غابات اوروبا ومستنقعاتها سيكونون خلال مائة عام قد غيروا وجه الأرض وسيطروا على الاجناس الاخرى .. ونادراً ما ابدت لنا القدرة الالهية منظر المستقبل بمثل هذا الوضوح . ان الاجناس الاوروبية كثيراً ما تكون اكثر الاجناس شراً . ولكنهم على الأقل اشرار منحهم الله ارادة وقوة . ويبدو انه قد قدر لهم ان يكونوا لوقت ما على رأس الجنس البشري . ولا شيء على وجه الأرض كلها سيقاوم تأثيرهم (٧٦) .

والمذل في هذه المواجهة التاريخية . . انه ما من مرحلة تاريخية .. واجه فيها العدو الضعيف مثل هذه الهزيمة المحتومة .. والتي لا سبيل لتجنبها .. واذا كان قد بقي مسلمون إلى اليوم بعد هذه المحنة القاتلة .. فهذا هو سر الاسلام ومعجزته .. ومبعث الأمل في نفوسنا أنه لن يقضى عليه ابداً .

سقط العالم الاسلامي تحت أقدام الصليبية الغربية . بلا حول ولا طول .. انهكته قرون الانهيار التي ابادت حتى البشر فعانى تدهوراً خطيراً في تعداد السكان.

أما عن الوطن العربي فان السؤال الذي يثار دائماً هو مدى مسئولية العثمانيين فيما فرض عليه من تخلف .. وهل كان بوسعهم ان يحولوا دون هذا الانهيار .. وقد اجبنا على هذا السؤال بأنه كان قدراً محتوماً .. لأن الاتراك لم يكونوا اكثر عناصر العالم الاسلامي تحضراً .. لعلهم كانوا اقلها تحضراً .. ولأن الحروب المتصلة التي اجبروا على خوضها في مواجهة الغزو الاوروبي وتآمره .. وحقد صليبية روسيا .. انهكت قوى الدولة ، فعملت عوامل الانحلال الاخرى على تفتت الدولة وانهيارها.

وإذا لم نتوقف طويلاً عند فكرة ان الاسلام .. يتنافى مع الدوافع المحركة للنظام الرأسمالي الاستعماري .. وبالتالي ما كان بوسع المسلمين إلا ان يتخلفوا في مرحلة سيادة هذا النظام .. ليعودوا فتشرق حضارتهم في مرحلة زوال النظام الاستعماري الرأسمالي .

حتى إذا لم نتوقف طويلاً عند هذا الخاطر فلا شك في ان النظام الرأسمالي لا يقوم إلا على الاستعمار .. والعالم الاسلامي كان مادة الاستعمار .. لأن التقدم في اوروبا الذي بدأ بطرد المسلمين من الاندلس .. واحتكار العالم الجديد .. قد سد الطريق على المجتمع الرأسمالي الاسلامي المفترض .. وان كان يصعب تصور امكانية ممارسة مجتمع اسلامي للاستعمار .

على أية حال لقد بدأ التخلف والانهيار .. ولكن الدولة العثمانية تتحمل بغير شك مسئولية التدمير في صورته الاخيرة .. مسئولية الكثير مما تم لحساب الصليبية الغربية ولكنها مسئولية المتخلف المنهار العاجز عن أي عمل إلا ما يتفق وارادة خصمه المتفوق .

ولسنا هنا بصدد تحليل اسباب انهيار الدولة العثمانية .. فان هذه الدراسة معنية بتحليل الشكل الذي تم به الانهيار وتأثير ذلك في تطور الفكرة القومية .. وكيف لعبت الدولة العثمانية في لحظة احتضارها دوراً في بعث الحركة الاسلامية والالتفات إلى التراث الاسلامي .. بل واساساً إلى العصبية الاسلامية .. ثم كيف ادى أنهيارها على نحو معين إلى خلق مفاهيم خاطئة – ما زالت تعيش للاسف – حول الاسلام .. وعلاقته بالقومية .

الجامعة الإسلامية

تنبه المسلمون فجأة وعلى نحو عنيف .. على التفوق الساحق للغرب الصليبي . . كانت سنوات الجهل والانهيار قد « حنطت » في أذهان المسلمين تفوقهم العسكري على اوروبا أو الفرنجة كما كانوا يسمونهم ..

حتى خف مراد بك متثاقلا مغتراً .. حاملا معه جواهره ورياشه لمقاتلة نابليون ليفر بعد ساعات وقد أصابه ذعر لم يفارقه حتى مات على سرير من الجريد في قنا .

وفي معركة الأهرام .. وعلى طلقات المدافع التي حصدت فرسان المماليك . . أفاق المسلمون وإلى الأبد .. ولكن كان الوقت جد متأخر . . كان التطويق قد تم .

يقول توينبي : « كانت هذه الكتلة الاسلامية الضخمة الحاجزة – تحديا استثار رد فعل بين الجماعات الرائدة.. في المجتمعين المسيحيين المتعاصرين . . وهكذا في لمح البصر اختطف البرتغاليون من أيدي العرب ، السيادة البحرية ، على المحيط الهندي.. بينما كان الرواد البرتغاليون المجتهدون شرقاً يحدقون – بحركة خاطفة من التوسع البحري للغرب – بالعالم العربي الاسلامي من الجنوب ، كان ملاحو الأنهار من القوزاق يتجهون شرقاً ويوسعون حدود العالم الروسي ، بنفس السرعة والاكتساح وذلك بأحداقهم بالعالم الاسلامي من الشمال .

ولقد فتح الطريق أمام القوزاق ، القيصر المسكوني ايفان الرابع حين استولى
على قازان عام ١٥٥٣ ، اذ كانت قازان قلعة العالم الايراني الاسلامي عند حدود
الشمالية الشرقية .. وبعد سقوطها لم يعد ثمة عقبة .. عدا الغابات والصقيع .. تحول
بين طلائع المسيحية الارثوذكسية الروسية وبين عبور الاورال وشق طريقهم شرقاً
على طول الممرات المائية في سيبيريا .. حتى انتهى بهم المطاف إلى التوقف لعثورهم
مصادفة في عام ١٦٣٨ على المحيط الهادي .. وفي ٢٤ مارس ١٦٥٢ على المستنقعات
الشمالية الشرقية لامبراطورية المانشو . وهكذا استطاع العالم الروسي المنتشو -
بوصوله إلى تلك الحدود الجديدة — الاحداق لا بالعالم الايراني وحده ولكن
بالسهوب الاورالية كلها كذلك .

وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن ، لم يقتصر الأمر على الأحداق بالعالم
الاسلامي الذي كان شركة بين المجتمعين العربي والايراني . ولكن أمكن
تطويقه تماماً . ففي أواخر القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر وضع الطوق
حول رقبة الفريسة .

« على ان المفاجأة التي تم بها ايقاع العالم الاسلامي في تلك الحبائل لم تكن
شيئاً خارقا للعادة . كما انقضى وقت طويل .. قبل ان يتنبه المسلمون أنفسهم إلى ما
يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف . وتبلور هذا العمل بالنسبة للجانبين الغربي والروسي
في الانقضاض على فريسة عاجزة عجزاً واضحاً بينما تبلور بالنسبة للجانب الاسلامي في
محاولة الافلات من تلك الضائقة العصيبة » (٧٧)

ذلك هو السؤال المصيري الذي واجه العالم الاسلامي في مطلع القرن التاسع
عشر .. والذي عكف المخلصون على التفتيش له عن حل .. عن مخرج للفريسة .
حل يحمي العالم الاسلامي من الفناء .

ولم يكن الحل — ولو نظرياً — صعباً كما يتوهم البعض، أو يستعصي على العقل

المسلم ادراكه .. بالعكس . ادرك المسلمون بوضوح أهمية المدفع في الجدل العقائدي .. وعرفوا ان المدفع لا بد له من مصنع ينتجه ويطوره .

ولكن كيف الوصول الى المصنع .. كيف يمنع الاحتلال الغربي الذي وضع لكل ذي عينين انه هو الذي يمنع المصنع .

قلبت القضية .. وما زالت تقلب عن البعض من بقايا عملاء الاستعمار .. بقايا حملة الغزو الفكري .. الذين نكدوا حياة الوطنيين في القرن التاسع عشر واكثر من عقد في القرن العشرين .

فقد صوروا – وما زال بعضهم يزعم – ان المشكلة هي في تعلم التقاليد الاوروبية ومن ثم فإن الاحتلال الغربي نعمة لأنه يقودنا إلى التحضر !

بينما وعي الوطنيون ان المشكلة هي المصنع .. ومن يمتلك المصنع لا يصعب عليه ن يتعلم تقاليد المصنع وعاداته ونظمه .

والغرب كان يهدف باحتلاله اولا واخيراً إلى منع المصنع .. ومن ثم تغدو ىذه الحركات « القرودية » التي يسمح لنا بتعلمها .. لغواً وتعطيلاً وانحطاطاً بقيمنا مفاهيمنا .

كيف نتملك المصنع ؟ . بأن نمنع احتلال الغرب لبلادنا .. وكيف نمنع حتلال الغرب لبلادنا ونحن لانمتلك المصنع ولا المدفع .

وللخروج من هذه الحلقة المفرغة فكر المسلمون في الحل الغريزي الذي تلجأ اليه ل الكائنات الحية : التضامن .. من هنا ظهرت فكرة التآزر الاسلامي التي سارعت دول الاستعمارية باطلاق اسم « الجامعة الاسلامية » عليها لاثارة الصليبية في اوروبا امريكا .

« الجامعة الاسلامية .. لم تكن تعصباً ولا تخلفاً .. ولا كانت هناك دعوات كثر تقدماً منها .. حتى يقال انها كانت دعوة متخلفة .. انهـا تنطلق من نفس

الفكرة التي تحرك الشعوب الافريقية.. أو شعوب ما يسمى بالعالم الثالث الآن.. وهي مواجهة التفوق الصناعي بالتفوق العددي.

وهل هناك من أسس حقيقية لوحدة افريقية.. فضلا عن وحدة القارات الثلاث. بأكثر مما كان في العالم الاسلامي في القرن التاسع عشر.. حيث كان قلب العالم الاسلامي تضمه ولو نظريا دولة واحدة.. ومن الممكن ان تنمو فيه حركة واحدة وتربطه لغة واحدةلدين واحد. ولا تقسمه حواجز ولا حدود؟.

اذا كنا نؤيد حركة التضامن الافرواسيويه – لاتينية على ما بها من حواجز جنسية ودينية ولغوية واقتصادية واجتماعية.. فيجب ألا نسخر من فكرة الوحدة الاسلامية أو «الجامعة الاسلامية» التي رفعها المسلمون في القرن التاسع عشر في مواجهة خطر لا يقل عن الخطر الذي تواجهه اليوم شعوب القارات الثلاث.

كان المسلمون هم مادة الاستعمار.. هم المقصودون بلقب الشرق.. هم المقصودون باسم المستعمرات.. لان امريكا اللاتينية كان قد تم تقسيمها.. بل وبدأت حركة تحريرها من الاستعمارات الاوروبية لحساب الاستعمار الامريكي.. واليابان أفلتت بمعجزة وبجدية شعبها ووعي واخلاص حكامها.. والصين قد فرت بضخامة حجمها، بعد ان قذفت للوحوش ببعض أطرافها كما تفعل الهيدرا الذكية.

لم يبق اذن الا العالم الاسلامي هدفاً للغزو الاستعماري.. فما العيب في أن يرتفع شعار «يا مسلمي العالم اتحدوا».

يقول الدكتور محمد حسين [1]: «وحين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنهال عليها الامدادات بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الاسلامية.. وينبث الدعاة في

---

(١) في دراسته الممتازة: «الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر».

كل مكان ، يحرضون الناس على الدفاع عن الاسلام .. حتى تبلغ دعوتهم إلى الهند والصين .. وحين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا وحين كانت تتجاوب الصيحات في بلاد البلقان « اقذفوا بالمسلمين إلى البحر » كان السلطان يدعو الى تحرير المسلمين من روسيا فتتجاوب صيحاتهم : « الآن سوف يسود الاسلام » .

فمن أي جهة نظرت للقضية ستجد ان هذا هو الشعار الوحيد الممكن .. أمام صليبية اوروبا .. أمام عدو يتقدم باسم الصليب والكنيسة .. ما خطيئتنا في ان نواجهه باسم الله والقرآن ؟ ..

أمام عدو يتفوق علينا بمدافعه . . ما الضير في ان نواجهه بالكثرة البشرية . . وبالتهديد « بالبيرق النبوي » .

وهل كان بوسع أي دولة أو قومية تفصل نفسها عن الجامعة الاسلامية انتواجه هذا العدو منفردة ؟ ..

ابداً .. « محمد علي » لم يكن إلا دمية في يد المصالح الغربية الصليبية .. لعب دوره المرسوم فلما حاول ان يتخطاه اعيد بعنف إلى الدائرة المخصصة له .

هذه هي فكرتنا بصفة عامة عن الجامعة الاسلامية ..

وسنجد في الصفحات التالية ان « الجامعة الاسلامية » كانت هي الشكل التحرري الذي عبرت به شعوب المستعمرات عن مقاومتها للغزو الاستعماري .. وانها كما كانت رد فعل لصليبية اوروبا . . فقد كانت أيضاً حركة تحرريه لمواجهة الاستعمار الغربي في القرن العشرين .

وسنرى ان دعاة الجامعة الاسلامية كانوا أكثر العناصر وعياً بالاستعمار الغربي .. وان الحركة الوطنية المعادية لهذا الاستعمار لم تخرج في الطور الأول عن نطاقهم وان دعاة الجامعة الاسلامية كانوا دعاة العروبة وكانوا في نفس الوقت أكثر العناصر تطرفاً في الوطنية – بمعناها الاقليمي – في مواجهة الاستعمار الغربي .

وأيضاً كان دعاة الجامعة الاسلامية أكثر الناس معرفة بفضائح الدولة العثمانية

وبعدها عن الدين وعجزها وتخلفها .. ولذا فانه من المضحك حقاً تصوير « الجامعة الاسلامية » كأنها منبثقة من تقديس الخليفة العثماني . . أو الرغبة في حماية السلطنة .. أي مجرد عصبية دينية وطاعة لولي الأمر ..

بالعكس .. ان الاهتمام بحماية الدولة العثمانية كان نتيجة وليس سبباً . . من وجهة نظر القيادات غير الحاكمة .

كانت الدولة العثمانية كما بدت في المرحلة الأولى هي السد ، مهما تكن درجة انهياره، الذي يحول ولو نظرياً ضد سقوط الدول العربية في يد الاستعمارية الغربية. وكان الأمل انه اذا ما بقيت هذه الدولة متماسكة وأحيطت بسياج من العطف والتأييد الاسلامي الذي يمكن تحريكه في بعض الأحيان .. فمن الممكن تأجيل هذا الغزو حتى يتم الاصلاح الداخلي .

يقول العقاد : « كان من دعاة الاصلاح من يرى ان الجامعة الاسلامية بزعامة الدولة الاسلامية الكبرى هي القوة التي بقيت لامم الاسلام..في عصر الاضمحلال .. لقد اعوزته قوة المال ، والعتاد ، وقوة العلم والصناعة ، وقوة السياسة والسيطرة الدولية .. فلا أقل من قوة التضامن والاتحاد (٧٨) » .

« ويكتشف السلطان عبد الحميد في مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التي يستطيع بواسطتها ان يحفظ الامبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانفراط وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الاسلامية ونشر شعاره المعروف « يا مسلمي العالم اتحدوا » (٧٩) .

يقول العقاد : « كان عبد الحميد يسمع باذنيه – كما يسمع العالم كله – اسم دولته الدائلة عند اعدائه المتربصين بها في القارة الاوروبية . . بلا اختلاف بين قادر منهم وعاجز وبين مستعمر منهم ومبتدىء في صناعة الاستعمار .. يتعلق بنصيب له يفرضه من ذلك الملك المباح .. كان اسم « التركة » أو تركة

الرجل المريض .. عنواناً على البلاد العثمانية .. أيا كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين .. ومن ترك أو عرب ، ومن اوروبيين أو اسيويين أو افريقيين .

كانت « جامعة » في الحق يجمعها الطمع في اشتات الطامعين وليس بينها من وحدة قط في رأي الطامعين .. إلا انها تتماسك إلى حين ، في طريق التفرق والزوال .

« وكان لا بد من جامعة باقية لا يزيلها عمل انسان .. ولكنها قد تنشط بعمل انسان يؤيده الله وتلك هي جامعة الاسلام . بولاية خليفة المسلمين . »

« وليس عبد الحميد أول من تلقب بالخلافة من سلاطين آل عثمان ولكنه كان أول من وضعها هذا الوضع الحاسم في معترك السياسة العالمية والسياسة الداخلية .. وأول من جعلها مسألة حياة أو موت في تاريخ الدولة التركية . أما قبل عصر عبد الحميد فقد كان للترك عامة موقف من مسألة الخلافة غير هذا الموقف (٨٠) »

ويقول محمد جميل بيهم : « ان السلطنة العثمانية كانت حتى قبيل عهد السلطان عبد الحميد تستفيد من الخلافة عفواً .. أو تجرب ان تستفيد منها ولكن هذا العاهل الذكي السلطان عبد الحميد .. اختط طريقة عملية للجامعة الاسلامية وذللها لسياسة الدولة حيال الاجانب .. واستثمرها احسن الاستثمار (٨١) » .

وهذا ما نذهب اليه من أن الجامعة الاسلامية لم تنشأ انطلاقاً من الايمان بالخلافة أو تقديس الدولة العلية .. بل ان اهمية الخلافة قد ابرزت عن عمد لتتكون حولها الجامعة الاسلامية .. فإذا كانت بعض كتابات الاحرار عن الخلافة وأمير المؤمنين قد كثرت بالذات في هذه الفترة فقد كان ذلك عملا سياسياً يهدف توحيد المسلمين حول مركز واحد يمكن ان يتكلم باسمهم وان تهدد بهم في نفس الوقت .

وقد كان لهؤلاء الاحرار مبررات لهذا الأمل :

أولا : أنه لم يكن أمامهم غيره .

ثانياً . إن صليبية اوروبا كانت تقود حتمياً إلى استصراخ المسلمين .

ثالثا : إن القوى الاستعمارية نفسها حاولت في فـترة من الفترات ان تستعين بالخليفة .. أي بنفوذه الاسلامي .. فلجأت بريطانيا العظمى إلى السلطان التركي تطلب تدخله ليأمر الهنود بوقف الثورة ضد بريطانيا .

ومن الطبيعي ان يفكر عبـد الحميد والاحرار المسلمون إن الذي يستطيع ان يأمر بوقف اطلاق النار يمكن أن يهدد بالأمر باطلاقها .

وقد كانت روسيا وفرنسا وبريطانيـا بالذات تدرك خطورة البيرق النبوي [1] ويخشون احتمالات رفـع شعار الجهاد .. لا لأنـه كان قادراً على اسقاط الحكم الاستعماري .. بل لأنه كان قادراً على ان يكبدهم خسائر فادحة .

« ووليم بولك » يقوم ثورة الهاشميين بأن دورها لم يزد عن انه منع السلطان من اعلان جهاد اسلامي .. والجنرال كيللر يقول انه خـلال ثورة ١٩٤١ اعلن مفتي القدس الجهاد المقدس ففرت من الجيش بعض الوحدات الهندية [2] .

ويقول بيهم : « ان اوروبا وخصوصاً انكلترا وفرنسا الدولتين اللتين تحكمان

---

(١) يقول جميل بيهم : اما عصا الخلافة في تلك الحقبة التي كان السلطان يلوح بها ، فكانت العلم النبوي الشريف .. ولطالما كنا نسمع اثناء وجودنا في المدارس ان السلطان سينشر العلم النبوي في اليوم العصيب ، فيزحف المسلمون وراءه من كل صوب .

ما الضير ان يلجأ الضعيف .. صاحب الحق ، المعتدى عليه الى استغلال الوهم بوجود سلاح سري لديه ! وقبل ذلك بثلاثة ارباع قرن رفع السيد «عمر مكرم » بيرقاً وخرج لمقاتلة الفرنسيين « فسمته العامة البيرق النبوي » (الجبرتي) .

(٢) فالى الحرب العالمية الثانية (!) كانت الرابطة الاسلامية يمكنها ان تحرك بعض وحدات في الجيش الهندي .. ولعل هذا يفسر لنا المخطط البريطاني بعزلة المسلمين الهنود عن الهند .. ثم عزلة باكستان عن العرب .. وكراهية بريطانيا للخلافة والرابطة الاسلامية .

أكبر عدد من المسلمين .. شعرتا بحراجة الموقف إزاء التفاف العالم الاسلامي حول الخليفة وحسبت له الف حساب » .

وعت العناصر الوطنية الشريفة .. ذات الجذور العريقة في هذا الوطن الطابع الصليبي للاستعمارية الغربية .. وبالهدف الاستعماري للصليبية الجديدة ..

فجندوا الشعور الاسلامي لمواجهة الزحف الصليبي واستعانوا بالعداء الغريزي للابادة الصليبية في تعبئة المقاومة الوطنية ضد الموجة الاستعمارية الجديدة ..

يقول الشاعر الاسلامي ، الكاشف :

صليبية يا قوم أم عنصرية
حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك

وفي الحروب الليبية – الايطالية .. يقول شوقي :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة
تعاونوا بينكم يا قوم عثمان
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به
فالله قد جعل الاسلام بنيانا
في ذمة الله أو في ذمة نفر
على طرابلس يقضون شجعانا

ويقول حافظ :

بارك المطران في اعمالكم
فسلوه : بارك القوم علاما ؟

ويقول عبد المطلب :

خليلي ! مالي إذ تذكرت برقة
يجنبي نيران الاسى تتلهب ؟ !
إذا وقف البابا يبارك جندكم
فما كل بابا للمسيح مقرب .

ويقول محرم :

يمضي تراث المسلمين موزعا — والمسلمون نواكس الأذقان
ما بين مصر إلى طرابلس إلى — عدن إلى القوقاز فالبلقان
كر الصليب عليه كرة حانق — ضرم العـــداوة ثائر الشنآن

ويقول :

الترك جند الله لولا بأسهم — لم يبق في الدنيا مقيم أذان .

كان ذلك هو الموقف الدفاعي الشرعي في مواجهة جند إيطاليا الذين يغزون بلادنا ويرددون نشيداً صليبياً تقول كلماته :

« يا أماه ! !
اتمي صلاتك ولا تبكي ..
بل أضحكي وتأملي
ألا تعلمين أن ايطاليا تدعوني
فأنا ذاهب إلى طرابلس
فرحاً . . مسروراً
لأبذل دمي
في سبيل سحق الامة الملعونة
ولأحارب الديانة الاسلامية
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن

ليس بأهل للمجد
من لم يمت ايطالياً حقاً

ويعلق « محمد فريد » على الانذار الذي وجهته الدول الأوروبية لتركيا في مستهل حكم عبد الحميد وبعد إعلان الدستور بحجة حماية الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية فيقول : وقد أتينا على ذكر هذه اللائحة ليرى القارىء تعصب الدول لحماية المسيحيين بالدولة .. مع انه لو تدخلت الدولة في شؤون احداها وطلبت من فرنسا مثلاً عدم التعرض لما يمس الأمة الاسلامية بالجزائر أو مساواة المسلمين بها بالمسيحيين واليهود ، لشدوا النكير عليها ورموها بالتعصب الديني، المتصفين هم به دون غيرهم.. ولكن هي القوة ، قضى التمدن الغربي الحديث أن تسود على كل حق تحت راية الانسانية والمساواة وما هي الا ألفاظ لا معنى لها الا فيما يلائم مصالحهم وما نحن بمغرورين » (٨٢)

عبد الحميد

أنت عبد الحميد والتاج معقو
د وعبـــد الحميد رهن القيود
خالد أنت رغم أنف الليـــالي
في كبار الرجال أهل الخلود

« حافظ »

أدرك الوطنيون الاهمية المصيرية لشعار الجامعة الاسلامية وتنبه السلطان عبد الحميد لأهميته . واستطاع ببراعة وذكاء نادرين أن يستغله أحسن استغلال .. مما اخر سقوط الدولة في يد الاستعمارية الغربية .. ربع قرن .. وربما كان مصير التاريخ سيتغير ، لو لم تلجأ الدول الاستعمارية وبريطانيا بالذات الى اسلوبها التقليدي .. أسلوب الغزو من الداخل فخلعت السلطان الذي كان بحق أقوى وأصلب الحكام المقاومين للاطماع الاستعمارية في العالم الاسلامي . وانفتح الباب بفضل الاصلاحيين العلمانيين وسلموا بلادهم للذئاب وفازوا هم بالدستور ! .

رحم الله عبد الحميد ..

كان ملكا مستبداً .. يقيم حكمه على الجواسيس ويدير له سياسته شر حكومات الأرض .. رشوة .. وخيانة وتجسس وعمالة لشتى دول اوروبا .

كان في بلاطه وفي حكومته عملاء لقيصر روسيا وحكومة فرنسا .. وحشد هائل من عملاء المخابرات البريطانية .. بل ولايطاليا والنمسا وألمانيا .. وكان في جيشه وحاشيته وحكومته أكثر من عميل للصهيونية .. بل ويهود يخفون ديانتهم للتآمر .

وكانت قصوره تعج بالحصيان عملاء المخابرات الاستعمارية الذين زحفوا مضحين حتى برجولتهم [1] ليتجسسوا على السلطان حتى يمهدوا الطريق للجيوش والاساطيل تقتطع من دولته وتحول شعوبنا إلى مستعمرات لدولهم ..

---

(١) قال عبد الحميد : « كان يدهشني دائما ان اعلم بان كثيرين من الاوروبيين كانوا يتوسطون للحصول على الخدمة ولو حراسا للحريم .. خصوصا واني تناولت في اسبوع واحد ثلاث رسائل من ثلاثة كانوا على شيء كثير من الادب والتهذيب .. يريدون هذه الخدمة

وكان ملكاً ذكياً كتب عنه جمال الدين الافغاني : « ان السلطان عبد الحميـ
لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهـــاء وسياسة (٨٣)
ولسنا ننكر رأي جميل بيهم « كان سياسياً حاذقاً ذكياً داهية .. ولكنه كان مستبـ
صرف مواهبه عن الاصلاح الداخلي الذي يؤدي إلى تعزيز قوى الدولة ويؤيد نفوذ
إلى محاربة خصومه الداخليين وأعداء المملكة الخارجين ، مستعينا بسياسة « فر
تسد » وهي سياسة إذا كانت من قبيل الترقيع .. خسرت بها السلطنة بلاداً واموا
دون جدى » .

نقول : اننا لا نكذب هذا الرأي .. ولكننا لا نقر التفسير .. بل نضيف ا
عامل الظروف التي واجهت السلطان .. فإن سياسة « فرق تسد » هذه حكمت
بريطانيا امبراطورية ووضعت الشمس حبيسة حدودهـــا اكثر من قرنين .. بـ
عجلت نفس السياسة بزوال الدولة العثمانيـــة السر . هو ان سياسة « فرق تسد
البريطانية كان يسندها تفوق بريطانيـــا وتقدمها .. بينما تعثرت نفس السياسة
تخلف الدولة العثمانية .. ومعروف إن ذكاء المرء واجتهاده ينقلب عبئاً عليه ان
لم تكن الظروف موآتية والاسباب المادية متوفرة بحيث تتيح الاستفادة من هـــ
الذكاء .

**المستهجنة .. كان احدهم موسيقيا في باريس .. والثاني كيماليا في المانيا والثالث تاجـــ
في سكسونيا .. وماذا اقول بعد ذلك عن انحطاط الاخلاق في اوروبا .. عندما ارى كثير
منهم لا يريدون التخلي عن دينهم فحسب بل يرضون بفقدان الرجولة في سبيل خدمة الحر
.. على حين ان هذه الخدمة تستلزم ان يكونوا خصيانا .**

**ويعلق محمد جميل بيهم : « ونحن لا نظن ان السلطان المشار اليه المشهود له في النبا
والحنكة يعتقد ان اولئك الافرنج طالبي الخدمة بين الحريم .. انما هم طلاب مال فحسب
والواقع انهم عمال الدول الاجنبية التي تؤمن بنفوذ النساء فـــي القصر السلطاني (فلسـ
التاريخ العثماني ـ ص ٤٢ ـ ٤٣) .**

**وبالطبع ما كان السلطان يجهل ذلك .. ولكنه كان يهاجم اوروبا ويشهر بهـــا ووصفـ
بانهم يريدون الاخصاء لمنافع شخصية فيه من التشنيع اكثر من القول بانهـــم يفعلون ذلـ
لمصلحة وطنية ..**

**ايعاب على سلطان يواجه بهذا الطوفان من الجواسيس .. ان يقيم هـــو بدوره نظام
مضادا للتجسس ؟.**

رأى هذا السياسي التركي ، تآمر الدول الاوروبيـــة عليه .. وتلقى فور توليه العرش درساً قاسياً بدد الاوهام التي كانت تروجها دعايات الاستعماريين وتزعم ان هدفها وشغلها الشاغل هو اصلاح الدولة العثمانية .. وإن ما يؤرقها هو استبداديـــة الحكم فيها .. نفس البكاء الذي نسمعه إلى الآن كلما أرادوا استعمار دولة أوالتدخل في شئونها الداخلية .

فقد أراد عبد الحميد في مستهل حكمه [1] ان يكسب ود الدول الاوروبية .. آلهة الكرة الأرضية في ذلك الوقت فأعلن تشريعات دستورية واصلاحية .. ليفاجأ بان الدول الاوروبية تستغل ذلك للاعداد لوليمة اقتسام جثة الرجـــل المريض .. فلجأ الى دعوة الجامعة الاسلامية .

يقول العقاد : « نشطت دعوة الجامعـــة الاسلامية . . بعد ولاية عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى اثر انعقاد مؤتمر برلين .. وافتضاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها .. بغير فارق بـــين الاسلامية منها وغير الاسلامية » .

ثم يلخص بوعي هدف السلطان من هذه الدعوة قائلاً : « ولا خفاء بقصد السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الاسلامية باسم الخلافة العثمانية .. فما كان لمثله في حصافته ودهائه ان يطمع في سيادة فعلية على بلاد المسلمين باسم جامعة الاسلام .. فإن أهون ما في هذا الطمع من الخطوب الجسام انه يوقعه في حروب لا طاقة له بها مع عصبة المستعمرين التي تملك كثيراً من بلاد الاسلام .. أو تتطلع إلى امتلاكها، وقد يوقعه هذا الطمع في حروب مـــع الأمم الاسلامية التي لا تزال على شيء من الاستقلال .. ولو كانت في ظل سيادته العامة وهي السياسة « الاسمية » التي تربط بعض الأمم بدولة آل عثمان منذ فتوحها الأولى .. فغايـــة الأمر فيما قصد اليه

---

(١) د ١٨٧٦ الى ١٩٠٩ م .

السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الاسلامية باسم الخلافة ان يحتمي بعطف العالم الاسلامي في وجه التعصب الاوروبي المطبق عليه من كل جانب وان يستمع العالم الاسلامي اليه حين يناديه بتلك الصفة لأنه اكبر ولاة الأمر فيه وأعظمهم مركزاً في مراسيم السياسة الدولية .. ولم يكن يخفى عليه إن العالم الاسلامي لا يقارع المستعمرين سلاحاً بسلاح .. ولا ثروة بثروة .. ولا نفوذ بنفوذ .. ولكنه كان يقنع منه بما يستطيعه في كفاح الاستعمار ويعلم انه يستطيع الكثير مما يخشاه المستعمرون وبعض هذا الكثير المخشي أن يقلق حكوماتهم وشركاتهم ويقاطع متاجرهم ويدخل بالتأييد والخذلان في خصوماتهم »

ويرى استاذنا العقاد ان دعاة « الجامعة الاسلامية » قد عرفوا جميعاً غاية ما يراد من هذه الدعوة باسم الخلافة العثمانية أو باسم الاسلام على التعميم . . وينقل عن الأفغاني شرحه لفكرة الجامعة الاسلامية قوله «لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً . فان هذا ربما كان أمراً عسيراً ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه . . الا ان هذا - بعد كونه أساساً لدينهم - تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات » .

« هذا اوان الاتفاق .. الا أن الزمان يؤتيكم بالفرص . . وهي لكم غنائم فلا تفرطوا .. ان البكاء لا يحيي الميت .. ان الأسف لا يرد الفائت .. ان الحزن لا يدفع المصيبة .. إن العمل مفتاح النجاح » .

وشكيب أرسلان يؤكد هذه الضرورة التاريخية في قوله: « ان الخلافة الصحيحة لم تقم الا في عهد الراشدين .. وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكاً عضوضا قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم .. وما انقادت الامة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك الا خشية

الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج .

ويكتب محمد عبده لرشيد رضا : « ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها .. وأنا أيضاً أكره السلطان .. ولكن لا يوجـد مسلم يريد بالدولة سوءاً فانها سياج في الجملة .. واذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود بل وأقل من اليهود » .

وصدقت فراسة الشيخ الامام .. بل أكاد أقول نبوءته . . فعنـدما سقطت الدولة العثمانية أصبحنا أقل من اليهود .. أعطوا بلادنا لليهود ! ! ولم نملك ما ندفع به هذه المهانة التي ما زالت تلطخ وجه كل عربي وشرفه .

وتحدث محمد فريد .. شهيد الوطنية في مصر عن سياسة عبد الحميد :

« ثم أصغى لمشورة نبهاء وزرائه الميالين لمنح الدولة العثمانية نظامـاً دستورياً شورياً .. يحفظ لجميع رعايا الدولة حقوقهم .. ويكون بمثـابة رابطة بين جميع الشعوب والملل المكونة منها الممالك العثمانية .. فيكون الجميع سواء في الحقوق والواجبات وتبطل بذلك المنافسات والضغائن الجنسية والدينية ، لاشتراك الجميع في نظر شؤون الدولة ووضع القوانين الملائمة لحالة الأهالي ودرجة ارتقائهم في سلم المدنية والعمران .. ويتنبه كل منهم إلى الدسائس ولفظ الخائنين من بينهم لفظ النواة » .

« وقد ازداد تعلق جلالة السلطان الأعظم بتأييد النظامات الجـديدة ووثق الاهالي ببلوغ أمانيهم ولم شعث الأمم المختلفة .. وايجاد أمة واحدة عثمانية تكون كرجل واحد أمام العدو وحاجزاً حصيناً ضد تداخل الدول بحجة اصلاح أحوال الشعوب المسيحية .. بما أن كل شعب يسن له بمعرفة النواب عـن الجميع قوانين تلائم أحواله المذهبية ويعيش الكل في راحة ورغد بال » (٨٤)

نريد أن نقول : انه لم تكن ثمة أوهام تساور دعاة الجامعة الاسلامية حول

الواقع السيء للدولة العثمانية. ولا كانت عصبية دينية أو تقديساً لشخصية السلطان الذي حولوه هم إلى خليفة المسلمين . . بل لعلمهم - كما قلنا - كانوا أكثر العناصر وعياً بسوء الحال . . سواء على نطاق الدولة أو في داخل قصر السلطان . . ولكنهم أرادوا ان يقيموا سداً في وجه الطوفان الاستعماري .

ومن هنا فإن الجامعة الاسلامية تبدو لنا هي الشعار الوطني والثوري والتحرري في تلك الفترة . . ونرى ان دعاتهم كانوا هم الوطنيين الذين رفضوا الاستعمار .

ولان قضية سقوط بلادنا في يد الاستعمارية الغربية . . كانت هي القضية الرئيسية التي تحدد المواقف التاريخية لكل الحركات والأفكار . . فاننا نضع في الجانب الوطني دعاة الجامعة الاسلامية مهما تكن خطاياهم الاخرى . . التي تحتل مرتبة ثانوية بجانب القضية الرئيسية . قضية مقاومة الغزو الاستعماري الاوروبي . . بينما نضع في الجانب الآخر . جانب خدمة اهداف المستعمرين اعداء الجامعة الاسلامية مهما تكن انجازات بعضهم أو صواب بعض افكاره . . فكل هذا ينحدر إلى مرتبة لا اهمية لها بجانب القضية الرئيسية التي خدموها بوعي أو بغير وعي . . قضية تسليم بلادنا للامبريالية .

وإن الذين يرون الرجعية في الاسلام وحده . . قد عميت بصائرهم . . فليتخبطوا كيف شاءوا ولكن ليس من حقهم أن يفرضوا العمى علينا . . إن الرجعية والتقدمية تتحددان اولاً واخيراً في هذه الفترة بالموقف من الاستعمار . . فالذين عادوا انجلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا . . هم التقدميون ولو لبسوا العمامة . . والذين خدموا الغزو الاستعماري واعطوا سنداً ومبرراً للاحتلال واعوانه . . هم الرجعيون ولو لبسوا القبعة كما كان ينادي سلامه موسى .

ان الرجعية أو التقدمية . . انما هما موقف من حركة التاريخ . . وليستا قضية فكرية أو سلوكاً شخصياً .

ودعاة الجامعة الاسلامية على أية تفسير لموقفهم . كانوا ضد الدول الاستعمارية .

هذه حقيقة تاريخية لا سبيل لانكارها مهما يبلغ الحقد على الاسلام عند البعض ! وأن لجأ الخبث الاستعماري الى اتهامهم وقتها بالعمل لحساب تركيا كما هي عادته دائماً في اتهام الحركات الوطنية بالميول الاجنبية .

إن الذين آمنوا بالجامعة الاسلامية ودعوا اليها هم الذين تصدوا للاستعمار الغربي وقاوموه في كل مكان .

وكان عداء الاستعمار هو مفتاح فهم موقفهم وتفسير فلسفتهم .. يؤكد ذلك اننا لا نجد أي تناقض في مفهومهم بين الدفاع عن الجامعة الاسلامية والتمسك بالاسلام .. وبين دفاعهم عن العروبة .. بل وعن الأوطان العربية بالمعنى الاقليمي كما نقول اليوم (١) .. فالذين آمنوا بالجامعة الاسلامية هم الذين اعتزوا بعروبتهم ودافعوا عن حرية العرب واستقلالهم .. هم الذين علمونا حب مصر .. بينما نجد ان الذين اخترعوا التناقض والذين يزيف التاريخ اليوم من اجل تبرئة ساحتهم .. اولئك الذين عادوا الاسلام والجامعة الاسلامية لم يخلصوا للعروبة بل كانوا برداً وسلاماً على الغزو الاستعماري للوطن العربي ..وبحجة مقاومة السيادة العثمانية الوهمية تعاونوا مع المحتل لبلادهم .. وكانوا يدورون في فلك السياسة البريطانية .. ويخدمون مصالحها ..

في الجانب الأول .. نجد رفاعة رافع الطهطاوي وجمال الدين الافغاني وعرابي

(١) يقول وليم بولك : « واشترك بعض المتصلين بجمال الدين الافغاني في الحركة العرابية ١٨٨١ — ١٨٨٢ وانضم اليه تلميذه السابق في باريس حيث كان يعيش في المنفى وفي ١٨٨٤ يبدأ الاثنان في نشر مجلة اسبوعية بالعربية تدعى «العروة الوثقى» حثا فيها المسلمين في كل مكان على الاتحاد لانقاذ انفسهم من السيطرة الغربية .. وقد عاشت المجلة مدة قصيرة نشرت فقط ١٨ عدداً .. وكانت ممنوعة في مصر والهند ومع ذلك كان تأثيرها على جيل كان قد بدأ يبحث عن وسائل الدفاع وتحقيق ذاته . »

(الولايات المتحدة والعالم العربي)

وشكيب ارسلان ومحمد عبده ورشيد رضا ومصطفى كامل ومحمد فريـــد وشوقي وحافظ واحمد محرم ..

وفي الجـــانب الاخر من نرى ؟ .. الكثير .. سنعرضهم كلما لاحت مناسبة ولكننا نتعفف عن ذكرهم بمحضر الاسماء الشريفة التي ذكرناهـــا .. اولئك الذين ضربوا الاسلام بالعروبة .. وضربوا العروبة بالاقليمية .. وباعوا اوطانهم للمحتلين.

وكما وعى الأحرار الدور التحرري الذي يمكن أن يلعبه شعار « الجامعة الاسلامية » وعى الاستعماريون أيضا نفس هذه الحقيقة ..

« وفي الحقيقة شعر الاوروبيون بخطر هذه السياسة على نفوذهم .. وانبرى رجال لهم شأن في تاريخ الاستعمار كالمسيو « هانوتو » .. واللورد كرومر واللورد غراي إلى مهاجمة الجامعة الاسلامية واعتبارها بؤرة للتعصب الديني .. وأن ليس القصد منها سوى تحدي قوات الدول المسيحية .. ودعوا الامم الاوروبية إلى مراقبتها مراقبة دقيقة والحذر منها » (١٦) .

أما السلطان عبد الحميد فقد كان بحكم مركزه وبحكم سلوكه معادياً للاستعمار الغربي .. محكوماً في عدوانه بضعفه وانهيار حكومته واضطراره إلى المساومة وشراء سكوت بريطانيا لمواجهة روسيا .. والعكس أحياناً .. ثم اضطراره لحماية حكمه ضد ما كانت تدبره له بريطانيا – ولكنه كان يعي خطورة ما يدبر لدولته .. باذلا كل جهده في مواجهة هذا الخطر ..

وهو عندما رفع شعار الجامعة الاسلامية .. وضع أيضاً سياسة تقوية الدولة العثمانية .. أراد أن يجعل من كلمة عثماني شبيهاً بما تعاني كلمة سوفيتي أو أمريكي اليوم .. أن يلتزم الجميع بالولاء بصرف النظر عن الجنس أو اللغة أو الدين .

« مؤملا ان الاسم العثماني الذي ما برح حتى الآن علم المكنة والاقتدار المشتهر .. يكون من بعد الآن شاملا لدوام المنفعة المختلفة الموجودة بين جميع تبعتنا وحفظها » [١] .

---

(١) خطاب افتتاح البرلمان العثماني الاول .

وأدرك أهمية العنصر العربي .. دوره الثقافي والحضاري وأيضا دوره الديني . وأدرك أساسا ان العرب هم هدف التوسع الاستعماري في هذه المرحلة والذين تتر عليهم الاغراءات الساعية لفصلهم حتى يسهل ابتلاعهم .

وبذل السلطان أو الشيطان عدو المسيح .. كما يسميه جلادستون ، جهوداً كا هي الاولى والاخيرة في تاريخ الدولة العثمانية لكسب العرب ومنحهم مكانا في الدولة بل انه أصبح في اواخر ايامه محاطاً برجالات العرب من كل الأقطار .

« فعين خير الدين باشا التونسي صدراً أعظم في ١٨٧٨ .. ثم قرب اليه جم الدين الافغاني (الذي كان قد أصبح عربي الثقافة والأهداف والذي عاشت مدر في الوطن العربي اساساً وكان من تلاميذه النوابغ مسيحي ويهودي « اديب اسح ويعقوب صنوع » ثم بدأ يصطفي العلماء والاشراف وابناء الاسر العربية من مسل ومسيحيين ، حاشية له ورجالا لدولته وحسبنا التنويه هنا بالشيخ ابي الهدى الرفا من حلب والشيخ محمد ظافر من الجزائر ، والشيخ سعيد من حمص والشيخ احم القيصرلي من المدينة .. عدا الاشراف كالحسين وعلي حيدر وعبد الإله باشا وصاد باشا .. كما انه اعرب عن ثقته بالعرب بانشاء فرقة حرس منهم خاصة بجلالته وتأييداً لمشروعه تقبل فكرة عزت باشا العابد وحققها بوصل بلاد الشام بالح بواسطة خط حديدي (١٧) » .

« وعهد إلى احمد عزت باشا العابد بمنصب في المابين وشفيق بك المؤيد المفو في الديون العمومية .. وشفيق بك الكوراني رئيس الضابطة وحقي باشا وسليم ونجيب بك ملحمة وقد بلغا رتبة الوزارة وكلهم من سوريا ولبنان .. كما نذ طالب بك النقيب واحمد باشا الزهيري من اعضاء مجلس شورى الدولة وهما العراق .

هذا إلى ان ثقة جلالته بالعرب بلغت حداً بعيداً . . حتى رفع بعض ضباه إلى درجات عليا في العسكرية واتخذ منهم خاصة له .. فكان من ياورانه الفري

محمد باشا ومحيي الدين باشا ولدا الامير عبد القادر الجزائري وفؤاد باشا المصري.. كما كان من اركان اساتذة لمدارس العسكرية والحكومية المشير اركان حرب شفيق باشا واخوه الفريق وهيب باشا .. وهما من قرية المتين في لبنان .. وشكري باشا الايوبي الدمشقي ناظر الاعمال العسكرية .. والميرالاي الدكتور يوسف الرامي من قرية فالوغا في لبنان والدكتور الياس مطر من بيروت والاستاذ سليم باز من دير القمر بلبنان .. ولم يقف حدود توثيق صلات العرب به .. عند هذا الحد .. بل عمد إلى مصاهرتهم . فزوج أميرتين من اسرته من شابين عربيين ورافعهما إلى رتبة داما .. وهما الأمير عبد المجيد بن الشريف علي حيدر وصالح بك خير الدين التونسي (١٨) ..

وبدأ عبد الحميد سياسة مصالحة عامة حتى مع الوهابيين ..

ويقول الدكتور « توفيق برو » في معرض تفنيد حجة الذين يزعمون ان السلطان كان يقرب العرب وحدهم : « ولكن عبد الحميد كان يتبع سياسة تقضي بالاعتماد على كافة العناصر . مثلما كان ظلمه واستبداده يشمل كافة العناصر ولم يكن ينظر إلى الفوارق الجنسية والمذهبية .. فكنت ترى في الوزارة العثمانية وفي البلاط والمجالس المختلفة أفراداً من الألبان والعرب والترك والأرمن والاغريق . . وهذا دليل على انه كان ينظر إلى الشعوب العثمانية بنظر واحد .. وأيضاً لم يكن من سياسة عبد الحميد .. ترويج فكرة القومية التركية بل عمل على خنق كل صوت يخوض في بحث الفكرة التركية والقومية التركية .. لا في مجال السياسة فقط . . بل في مجال الأدب أيضا .. وقد منع الخوض في قضايا اللغة التركية ونشر البحوث المتعلقة بذلك » (١٩)

وهذا هو بالضبط ما كانت تحتاجه الدولة العثمانية : سياسة تدمج العناصر وتذيب حساسيتها ولهذا لاح الأمل في امكانية البعث العثماني.. وقيام دولة قوية تضم العرب والاتراك والمسلمين في اوروبا .. أو حتى بدونهم . . سرعان ما تتحول إلى دولة

عصرية .. تصد الغزو الاستعماري وتحمي استقلال ما تبقى وتكون ملاذاً وظهيراً لما سقط .

ولكن كما لخص حافظ ابراهيم مأساة المشرق العربي في مقارنته بنجاح المشرق الاقصى عندما تفوقت اليابان.. الدولة الشرقيةعلى روسيا القيصرية ممثلة الاستعمارية الصليبية (١) .

لا تلم كفي إذا السيف نبا   صح مني العزم والدهر أبى

والدهر في تلك المرحلة كان الاستعمارية الاوروبية وأنبتها المراهقة والنشطة في نفس الوقت : أمريكا .

والدهر في هذه المرحلة كانت تسير خطواته وفقاً لمشيئة بريطانيا العظمى ..

وسرعان ما التقت كلمة الدهر ضد هذه المحاولة التي كانت أخطر ما واجه الاستعمارية الغربية في توسعها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ..

والتقت كلمة الاستعمارية الغربية على التطويح بعبد الحميد . . واحباط محاولة بعث الدولة العثمانية بتحطيم النواة الصلبة لهذه الدولة . . ونعني بها الاخوة العربية التركية .

يقول رشيد رضا : « ان بريطانيا هي الخصم الأكبر الاشد ، الأقوى من خصوم الخلافة الاسلامية .. لأنها تخشى ان تتجدد بها حياة الاسلام..وتتحقق فكرة الجامعة الاسلامية .. فيحول دون استعبادها للشرق » (٢٠)

---

(١) من المواقف الجديرة بالتأمل اغتباط الوطنيين دعاة الرابطة الاسلامية بانتصار اليابان الوثنية على روسيا المسيحية .. لان موقفهم كان ينطلق من عداء الاستعمار الغربي وليس التعصب الديني".. بينما المضحك ان دعاة الاقليمية اعداء الدافع الديني .. انبوا الوطنيين على تعاطفهم مع اليابان لاننا لسنا من الشرق بل جزء من الحضارة الغربية .

ولا ننسى ان عبد الحميد رفض توقيع اتفاقية تسليم البترول العراقي للانجليز . . وكان توقيعها من باكورة أعمال الاتحاديين عند وصولهم للسلطة بعـــد الانقلاب الدستوري .

وكان سفير بريطانيا في تركيا في هذه الفترة هو المستر « بارنغ » وقد تولى على طريقة الانجليز التحريض على افتراس الدولة العثمانية بالتقـــارير . . فوصف دفاع المسلمين عن أنفسهم ضد مذابح البلغار بأنها « أفظع شيء شأن تواريخ هذا القرن » مع ان القرن المذكور الذي شاهـــد ستين عاماً مجيداً لبريطانيا قد شانته مذابح بريطانيا في كل قارات العالم . . وهل عرف تاريخ الأتراك خزيا وصليبية سوداء كتلك التي ارتكبتها جيوش بريطانيا العظمى بنبش قبر المهدي وقطـــع رأسه الشريف وارساله إلى عاهر انجليزي ليجعلها مطفأة لسجائره لولا الغضبة التي اجتاحت الرأي العام . وأجبرتهم على اعادتها الى السودان . . وكانت كرامة للرجل الصالح .

وانضم إلى الاستعمارية الغربية ضد عبد الحميـــد . . حليف شديد الخطر بارع الدهاء كان قد بدأ يظهر على مسرح السياسة الدولية بشكل سافر . . ومن يومها ووجوده يتأكد كل يوم خلف الاحداث العظمى التي توجه السياسة الدولية

ارتكب السلطان عبد الحميد غلطة العمر عندما وقف بصلابة وحزم ضـــد الصهيونية . . بدافع من دينه . . بدافع من وعيه كحاكم يريد كسب ود العرب . . بدافع من وعيه بخطورة قيام عنصر معاد نشط في فلسطين بموقعهـــا الاستراتيجي الخطير . . بدافع من ذلك كله رفض عبد الحميد العرض الصهيوني الوقح بأن يبيـــع لهم فلسطين وزاد على ذلك ان ضرب صاحبه . . ممثل الصهيونية « بالشلوت » .

وقررت الصهيونية أن يزول عبد الحميد وأن يزول على نحو مذل لم يسمع بـــه التاريخ من قبل . . ليكون عبرة لغيره من حكام الشرق الذين يعترضون مشيئة الصهيونية . .

وما أكثر الذين وعوا الدرس من الحكام فأصبحوا مطية لاهواء الصهيونية وما أقل الذين وعوا الدرس من الشعوب .. فما زلنا نسمي عبد الحميد بالمستبد والشيطان والرجعي .. نردد الالفاظ التي روجتها الاستعمارية الغربية والصهيونية لكي تزيحه عن طريقها .. وترفع قبضته عنا لكي تلتهمنا هي ..

الحكاية أو المأساة يرويها كتاب خطر الصهيونية على الاسلام والمسيحية :

« في سنة ١٩٠٠ دخل قره صوه أفندي على السلطان بفضل الفريق عارف بك وابلغه انه موفد من قبل الجمعية الصهيونية وانه قادم يطلب اليه اعطاء تلك الجمعية الاراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة السلطانية الخاصة . وعشرين مليونا تعرضها الجمعية الى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة . . فغضب السلطان وطرده من حضرته [١] .

وعلى الأثر ألف اليهود جمعية سرية اكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة.. والدونمة كما هو معروف لقب يطلقه الاتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا من أسبانيا واستوطنوا « سلانيك » وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالاسلام مع احتفاظهم باطنا بالدين اليهودي [٢] ومنهم جاويد بك وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي .. فاتصلت بأحرار الترك .. ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي . . وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي .. وكانت لهم اليد الطولى في الإنقلاب الثاني وخلع عبد الحميد (٢١)

وتبلغ المأساة الذروة ..

---

(١) كان السلطان عبد الحميد قد اصدر فرمانا في ١٨٨٨ بمنع الهجرة الجماعية اليهودية الى اراضي الدولة العثمانية ومنها فلسطين طبعا . كذلك قرر عدم السماح للحجاج اليهود بالبقاء اكثر من ثلاثة اشهر في فلسطين .

(٢) بمجرد نجاح المؤامرة واستيلاء تنظيمهم على السلطة .. اعلنوا يهوديتهم التي اخفوها اربعة قرون .. فتأمل .

« ومما يؤسف له ان الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع الى عبد الحميد ، غير عمانوئيل قره صو أفندي زعيم يهود سلانيك .. الذي طرده عبد الحميد ! »

ما أبشع انتقام الصهيونية .. وما أبشع ان نقف نحن اليوم ضد عبد الحميد ومع عمانوئيل قره صو !! .

وآخر المأساة ان ناحوم أفندي ، حاخام اليهود في تركيا ، كان هو الوسيط بين الحلفاء ومصطفى كامل .. ولكن لنتعرف على القصة بالتفاصيل ..

واجهت اوروبا والصهيونية خطر حركة تحررية تحاول بعث الدولة العثمانيه
أساس حماية وحدتها ، والقضاء على عوامل التفرقة بين عنصريها الاساسيين : « العر
والاتراك .. عندئذ نشطت القوى المضادة لوقف هذه المحاولة .. بتدميرهـــا ،
الداخل .. وعزل قوتها الاغرائيـــة عن العرب والمسلمين الموجودين تحت السـيط
الاستعمارية (مستعمرات روسيا القيصرية .. وفرنسا وبريطانيا) غير اننا يجب
نقف هنا عند نقطة يسقط فيها التفسير الساذج .. فليست الثورة الدستورية كاملة ،
صنع المخابرات .. وليس الحل الذي كان يؤمن به الاحرار هو استمرار الحكم الحميد
بتخلفه .. فقد كان التطور الطبيعي لمن يفكر في بعث الدولة العثمانية لمجابهة الغز
الاستعماري هو التفكير في المدفع والاسطول .. والتفكير الجدي في المدفـــ
والاسطول ، سيقود حتما إلى التفكير في الاصلاح الداخلي .. إلى ثورة داخلية تجد
جهاز الحكم ، وقبل جهاز الحكم، تجعل المجتمع كله في مستوى التحديات والاحلام.
فلم يكن الاحرار من البلاهة بحيث يظنون ان البيرق النبوي وحده كفيل بهز
الغرب المدجج بالسلاح والتفوق التكنولوجي .. ولا كانت الدعوة للجامعة الاسلام
تشغلهم عن التفكير الجدي في ضرورة الاصلاح العاجل . ولكنها كما قلنـا كان
مجرد محاولة لكسب الوقت .. الافــلات من التمزيق أو « الوضع العصيب » ،
يسميه توينبي .. الافلات لفترة يتم خلالها التسلح لمواجهة الغزو ..

تماماً كما نتحدث نحن الآن عن الأمة العربية والقومية العربية والتضامن العربي
ونخوف العدو بتحرك العرب من المحيط إلى الخليج .. ولكننا لا يمكن ان نستـ
لوهم ان هذه « الجامعة العربية » وحدها كفيلة بحماية استقلالنا واسترداد فلسطين .

بل يجب ان نستعين بهذه القوة الايجابية على بناء انفسنا .. هذا ما فكر فيه الاحرار .. وما سعوا اليه من دعوة الجامعة الاسلامية ، والتفكير في صيانة الدولة العثمانية . ومن هنا كانت ثورة حقيقية تتجمع على نطاق الدولة ككل وفي داخل وحداتها حيث توجد حكومات مستقلة نسبياً .. ثورات ضد النظم والأوضاع التي أصبحت بتخلفها، هي حصان طروادة للاستعمارية الغربية ..

هـذه الثورة لو انها تجمعت على الأسس السليمة وقادها الرجال الاحرار المؤمنون بوطنهم وبحضارتهم لغيرت وجه التاريخ ، لأنها كانت ستقيم مجتمعاً عصرياً متطوراً ، يستند إلى التأييد الاسلامي العالمي ويحقق الامتزاج الكامل بين العرب والأتراك..

« وكان عدد كبير من الوطنيين الأتراك والوطنيين العرب (منذ عهد مدحت باشا وقبله، وقبيل الانقلاب الدستوري في ١٩٠٨ يطمحون إلى تجديد الامبراطورية العثمانية واصلاحها ليبرالياً على أساس تحقيق مساواة الرعايا العثمانيين أمام القانون وفي الوظائف .. الخ . . بصرف النظر عن الأصل والدين واللغة والقومية .. وفي هذا الجو ، كانت فكرة « الأمة العثمانية » هي الغالبة في اذهان المفكرين ، حتى المسيحيون اللبنانيون كانوا بوجه الاجمال لا يعترضون على « الامة العثمانية » المتعددة القوميات . . وقويت الآمال في تجديد الدولة وبناء الامة في اعقـــاب الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ .. وحتى بعـــد استفحال خطر التتريك ، لم يقطع رواد الفكرة العربية كل الصلات مع هذه الايدلوجيا ، وكان هـذا الموقف الفكري يرتبط بالموقف السياسي – الخوف من الانفصال ومن خطر الاستعمار الداهم (٩١) .. ومن هنا سارعت المخابرات البريطانية والروسية والفرنسية ، ومعهم الصهيونية إلى إلى إجهاض هذه الثورة .. فالمخابرات لا تصنع ثورات.. انما الثورات تتجمع لعوامل تاريخية واجتماعية واقتصادية . . ولعبة المخابرات البريطانية المفضلة هي مسايرة التاريخ لتبديدها وتفجيرها سلمياً . . وليست معارضتها .. فعندما يدرك خبراؤها ان سقوط النظام القائم حتمي يبدأ التخطيط لما بعد سقوطه .. ومن هنا بدأ التخطيط للسيطرة على الثورة العثمانية . لاجهاضها وجرفها ، بل واستغلالها في تدمير ذات الأهداف

التي قامت الثورة من اجلها .. وتمزيق الدولة نهائياً .. وكان أن قفزت إلى السطح عناصر مريبة احتضنت شعار الدستور والحركة الدستورية ، واستطاعت ان تسيطر على الحركة التي كانت سليمة في قاعدتها ، سليمة في منبتها ، سليمة في طموحها .. فوقعت الثورة التي ارادت تجديد دولة الخلافة وتحرير المسلمين ، في يد جواسيس روسيا المقدسة .. وبريطانيـــا حامية المسيحية ، وايطاليا مقر البابابوية . ثم الصهيونية ..

والسؤال الذي يطرحه القوميون اللااسلاميون هو : هل كان من مصلحة العرب ان تنجح هذه الثورة وان يتم هذا البعث ، فتحقق الوحدة العثمانية .. ألم تكن هذه الوحدة تحمل خطر زوالهم كعنصر وثقافة ولغة ؟ ..

والجواب .. لا ..

لسبب بسيط : هو ان العرب مع خروج الولايات الاوروبية اصبحوا يشكلون اغلبية الدولة العثمانية ولأن العرب كانوا العنصر الانشط والأعرق ثقافة ، والأعمق في جذوره الحضارية .. واللغة التركية ذاتها كانت تكتب بحروف عربية ، وحتى عندما كتبت باللاتينية ما زالت معظم الألفاظ الحضاريـــة فيها عربية [1] وعملية « الترويس » التي تمت في ظل الاتحاد السوفيتي ، للشعوب غير الروسية ، امكن تحقيقها بتفوق القومية الروسية الساحق عدداً وحضارة .. وحتى التفوق اللغوي .. أما في حالتنا هذه فلم يكن أمام القومية التركية من أمل إلا في ان تتعرب هي .. لا أن تتركنا ..

يقول الأمير مصطفى الشهابي : « ومن محاسن الدولة العثمانية في نظر الشعوب التي كانت تحكمها تلك الدولة ان الترك كانوا أقل استعداداً للأخذ بوسائل المدنية من الشعوب المذكورة ، ولذلك لم يستطع الترك فرض لغتهم على بلاد العرب مثلاً ،

---

(١) يقول توفيق برو : « حلل نص مزخرف من الادب العثماني الرفيع فوجد ان ٤٠٪ من كلماته عربية و ٤٠ ٪ فارسية و ١٠ ٪ فرنسية او يونانية و ١٠ ٪ فقط تركية اصيلة ».
(عرب وترك ص ٣٢٤) ..

ولا نشر ثقافتهم عليهم،لأنه لم يكن للترك ثقافة صالحة لأن تنشر على الناس (٢٢).

والحديث يسوقنا إلى موقف دعـــاة العثمانية أو الجامعة الاسلامية ، موقف الأحرار العرب .. هؤلاء الاحرار ما كانت الاسلامية - كما قلنا - تتناقض عندهم مع العروبة بل كانتا مترادفتين لمعنى واحـــد.. شهد الملك فيصل للامير شكيب ارسلان ، النموذج الكامل للداعية الاسلامي .. شهد له الملك فيصل قائلاً : « اشهد انك أول عربي تكلم معي في الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحــدة عملية (٢٣) .

و « شكيب يقول : « اذا كنا نريد ان نتفرنج ، تحتم علينا ان نبقى عربا » .

وينصح « شكيب » الاستاذ أحمد بلافريج . « أنصح المغاربـــة أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع المحافظة على معتقداتهم وشخصياتهم ، وأنا لا أعتقد ان هناك علماً أوروبياً ،وعلماً شرقياً ، فالعلم مشاع بين البشر أجمعين ، واليابانيون أخذوا عــن الغرب ما نفعهم وحافظوا على شخصيتهم ودينهم والتفرنج في نظري شر الأشياء ، والأمم مهما كانت فمن شأنها ان تحافظ على كيانها فكيف بأمة عظيمة لهـــا تاريخ مجيد . » وعندما « حبكت القافية مع « شوقي » فمـــدح الترك ووصف حروبهم بقوله : »

فأبصرت مـا لم تبصرا من مشاهـد
ولا شهدت يوما معد ويعرب ..

انبرى شكيب أرسلان » الذي عاش اسلامياً ومات اسلامياً يقول : هنـــا جاشت الفكرة برأس شوقي فذهبت إلى أبعد حدود المبالغة ، فلا نزاع في الترك ؛ واذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب كانوا في الذروة العليا التي ينحط عنهــا السيل ، ولكن القول بان مشاهدهم لم تشهدها يعرب فيها نظر .. ولعمري ان معد ويعرب عندما فاضت جموعها على بلاد الله كانت تقاتل في ساحات لا يحصيها العدد وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة ويستقل بها قائد مثل

قتيبة بن مسلم الجاهلي ، تجتمع عليه الترك من كل حدب فيوالي عليهـــا الهزائم ، ويقودها بالخزائم ، وهو في قلة بالقياس إلى امم الترك التي اجتمعت عليه من كل صوب ، وما زال يثخن فيها حتى ضرب عليها الذلة والمسكنة إلى حدود الصين ، ولاذت أخيراً من بأسه بالاسلام ودانت به ، فكان من ذلك الوقت مبدأ دخول الترك في الدين العربي ، فصاروا فيما بعد أحمى حماته وأمضى سيوفه .. ولكن لا يقال ان امة من الامم تقدر ان تبذ العرب في ميادين القتـــال اذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد (٢٤) .

وهو يتحيز في موضع آخر لسورية في مواجهة العرب .. فهو مسلم ازاء الغرب المسيحي .. عربي في مواجهة الترك .. سوري في إطار القومية العربية .. وهو الوضع الصحيح لكل وطني حر .. أما الذي يبدأ بالعكس فهو ضد الكل .

و « شكيب أرسلان » يعتز بالتراث العربي ويتساءل : فهل يأتي يوم تبلغ فيه نهضة العرب ان ينتدب فئة من ادبائهم للتنقيب عن مآثر أجدادهم في الأصقـــاع الاوروبية » وهو ينبه الحونة في شمال افريقيا الذين يتسمون بالمسلمين الفرنسيين : بأن البراءة من العربية لا تلتئم مع الاسلام الذي يظهرون الانتساب اليه (٢٥) .

« ولن ينهض الشرق ــ لا سيما الشرق الادنى -- بدون نهضة العرب ، والمدنية العربية (بواسطة الدين الاسلامي العربي) واشجة العروق في النصف من آسيا وفي اكثر افريقية وفي جزء من اوروبا .. وإذا نهض العرب نهض الارخبيل الاندونيسي بطبيعة الحال ، فهما من قبيل اللازم والملزوم » ..

فالعروبة والاسلام والشرق مترادفات لمفهوم واحد عند شكيب ارسلان وجماعة الاسلاميين « إن رأينا الذي نعول عليه أولا واخراً ، ونرجع اليه باطناً وظاهرا ، ان الشرق اجمع سينتبه من رقدته وينهض من كبوته ، وانه كما شهد القرن التـاسع عشر استقلال امريكة باسرها .. فسوف تشهد بقية القرن استقلال آسيا بعروتهـا وزرها ، وانه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلي الاسلام بلاده ،

ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده (٢٦) .

وعبد الله النديم يكتب في الاستاذ في ١٧ يناير ١٨٩٣ «الشرقيون اجزاء يزرعون ويصنعون ليروجوا تجارة اوروبا ، ويعظموا ثروتها ، ويؤيدوا قوتها الملكية بالايرادات المالية .. فلا حظ لهم في الوجود ولا رغبة لهم في الملك ، كأنهم أمام اوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها .. »

ويقول : « فما من مصري إلا وهو يعلم الآن ان اوروبا لا تصدق في قول ولا تفي بوعد ، ولا تحب شرقياً ولا تسعى في خير مصري .. وإنما هي ملاعب (٢٧) »

ونقل « شكيب ارسلان » المقيم في جنيف ، الفكرة القومية العربية إلى بلدان المغرب العربي ، وبفضل صلاته مع حزب الدستور التونسي ونجمة شمال افريقيا ورابطة العلماء الجزائريين .. وكانت افكاره مطبوعة بطابع اسلامي واضح —ومع ذلك يمكن القول ان عنصر الاسلام تابع لعنصر العروبة في أفكاره — الأمر الذي ساعد على «عقد الصلة مع المغرب » .. هذا هو الداعية للجامعة الاسلامية بل وأكثر العثمانيين تطرفاً في عثمانيته ، هو الذي نقل « القومية العربية » للمغرب العربي .. فلا — تفتشوا عن جذور القومية العربية عند نوري السعيد وسلامه موسى ونجيب عازوري ..

والدكتور عبد العزيز رغم معارضته للاسلامية يعترف :

« ولا بد ان نذكر ناحية اخرى للاتجاه الاسلامي ، وهي الاهتمام بالعربية . فابن تيمية (١٢٦٢ — ١٣٢٨) مثلاً يؤكد على ان تكون العربية لغة المسلمين ويرى في تعدد اللغات بينهم نكوصاً ، ويرى ان تسود العربية فلا تحل محلها تركية أو فارسية .. ومحمد عبده كان من المؤمنين بالعربية حين دافع عن العربية الفصحى ضد اللهجات المحلية وضد توسع اللغات الاجنبية من انكليزية وفرنسية ، ودعا في نفس الوقت إلى تجديد العربية .. ولا تخفى اهمية العربية في تكوين الوعي القومي وأكدت هذه الحركة على دور العرب في التاريخ .. ودعت الى تجديده . محمد

عبده ورشيد رضا لاحظا ان العرب هم الشعب البارز بين الشعوب الاسلامية.. ولذا فهم افضل هذه الشعوب للقيادة ولاعادة الاسلام لمكانته .. ولذا فالنهضة العربية ضرورة أولى لنهضة الاسلام . ومن هنا يبدأ دور الكواكبي ، فهو يؤكد على دور العرب ، وخاصة عرب الجزيرة في الاسلام ، ويدعو الى عودتهم إلى دورهم التاريخي وهو يراهم أقدم الأمم مدنية، وأحرصها على الحرية والاستقلال .. وهم اعرق الأمم في أصول الشورى في الشئون العمومية » ويرى لغتهم اغنى لغات المسلمين ، ويتوصل من ذلك إلى انهم « الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية على الكلمة الشرقية (٢٨) .

وصالح مجدي المتوفى في نوفمبر ١٨٨١ ومن دعاة الجامعة الاسلامية يقول :

فلو كان فينا نخوة عربية
لملنا على أعدائنا بالصوارم
أما فيكم يا أهل مصر كغيركم
نصيراً يرجى للقنا والعزائم
فلو ان لي جيشاً به التقيهم
لافنيت أقصاهم برمحي وصارم
وطهرت أرض الله منهم بقتلهم
وأيدت دين المصطفى خير هاشم
فيا آل مصر لا تناموا ، ودافعوا
عن الدين والأوطان أهل المحارم (٢٩)

فحكاية ان الاسلام يتعارض مع العروبة ، أو ان الاسلامية تتعارض مع العروبة ، هي من اختراع « العازوريين » فالشاعر يرى عروبة المصريين قبل ان يولد الذين حرموا علينا ان نتسمى بالمصرية وطالبونا بان نردد كالطقوس : « الشعب العربي في مصر » مع انهم لم يقروا بعروبتنا الا بعد ان طوحت بهم الموجة العربية المنطلقة من مصر .. وعند أول خلاف انطلقوا يعيروننا برمسيس والاهرام ! مع

ان جمال الدين الافغاني يدعو المصريين للدفاع عن الاسلام غيرة على تراث الأهرام، ويثير حماسهم بالاهرام .. لم تكن الاسلامية على حساب العروبة .. بل لها .. ولا نبالغ إذا قلنا ان دعاة الجامعة الاسلامية أو جامعة الشرق من الأحرار العرب، كانوا يدركون الامكانيات القيادية الميسرة للعرب في ظل هذه الجامعة، وقد كانوا أكثر عناصرها تفوقاً، وبلادهم تقع في مركز خطير كبوابة الشرق من أندونيسيا الى المغرب الأقصى .. وقد لاحت امكانية هذه القيادة مبكراً في مجلس المبعوثان مدة عبد الحميد وقبل الانقلاب، فقد تزعم المعارضة في المجلس « النواب العرب » وقد أدى خطاب أحد النواب العرب وهو يوسف ضيا بك الخالدي نائب القدس إلى تعطيل المجلس الى أجل غير مسمى (٣٠)

ويرى الدكتور توفيق برو أنه . من طريف (؟!) ما كان يدعو الافغاني اليه، وقد تبعه في ذلك الشيخ رشيد رضا وغيره من الذين اشتغلوا بالقضية العربية، طلبه استعراب الأتراك، وجعل اللغه العربية لغة الدولة .. وكان يقول : « لو أنصف الأتراك أنفسهم لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون .. وكانوا أعز جانباً وأغنى مملكة من دول الأرض .. ولا طرافة الا اذا كان المقصود بها تصور أن يصل الاتراك الحاكمون بغبائهم التاريخي إلى فهم هذه الدعوة العاقلة .. ولكن الامر من وجهة النظر العربية والاسلامية سليم مائة في المائة .. فان التطور الطبيعي لهذه الدولة المنشودة، هو استعرابها ثقافياً وهو ما فكر فيه السلطان سليم يقول الدكتور برو : «ومن الاصلاحيين الذين عملوا في الدعوة العربية الشيخ رشيد رضا في مجلة « المنار » في مصر، والتي طفحت بالمقالات عن العرب وأمجادهم القديمة، وتاريخهم الحافل بالبطولات عن الوحدة العربية التي كان ينشدها ضمن 'الرابطة العثمانية . وعلى وجه لا يخل بسيادة الدولة العلية، ويتمنى لو ان سلاطين آل عثمان نحوا نحو السلطان سليم الاول، في تفكيره بجعل اللغة العربية لغة الدولة .. وقد تضمنت مجلة المنار منذ عام ١٨٩٧ مقالات تحمل عناوين جريئة مثل « الدين والدولة »، الخلافة والسلطنة، اعادة مجد العرب،

والوحدة العربية ، الترك والعرب ، وأفكار جريئة منها ان نجاح الامة والدولة العثمانية وارتقاءها الكامل يتوقف على وحدة لغتها وان اللغة العربية تترجح على التركية بأمور منها كونها لغة الدين،وامكان نشرها بسهولة ، لأن التركي مضطر إلى تعلمها طالما هي لغة دينه ، وأما العربي الذي لا طمع له في مناصب الدولة فلا يهتم بتعلم اللغة التركية ، ومنها ان الناطقين باللغة العربية في الدولة أكثر عدداً ، وان علماء المسلمين بما فيهم الاتراك في جميع أقطار العالم يعرفونها ، لذلك يجب أن تكون هي لغة الدولة ، وان مكة باعتبارها محج المسلمين في كل عام ، هي أفضل من الآستانة كمركز للخلافة . ومنها ما جاء في مقال « الترك والعرب » إلى اثبات أفضلية العرب على الترك بمعارفهم وباعهم الطويل في العلوم والزراعة والصناعة والطب والفلك والفلسفة » (٣٣) .

بينما نجد ان « شبلي شميل » و « سليمان البستاني» يطالبان بفرض اللغة التركية وجعل التعليم بها اجباريا (٣٤) .

.. أقتلوني واقتلوا مالكاً معي !

انضم العرب للحركة الدستورية الاصلاحية وساهموا مساهمة فعالة في انجاحها ولم يتردد دعاة الجامعة الاسلامية ، والخلافة ، لحظة واحدة في الترحيب بالدستور والحكم الديموقراطي كما كان يبدو .. بل بلغت بهم الحماسة حداً منهلًا .. إذ كانوا يرونه بداية الاصلاح الثوري الذي سيعطيهم دولة قوية عصرية تواجه اوروبا . وعلى اثر اعلان الدستور « عمت الفرحة سائر ارجاء السلطنة ، وحصل ائتلاف معنوي بين عناصر الامة العثمانية واندفعت جموع الشعب في الشوارع تحركها موجة من الاستبشار والغبطة يهتفون للحرية والعدالة والمساواة والاخاء وسائر الشعارات التي نادى بها العهد الجديد .. ولم يكن العرب أقل من غيرهم ترحيباً واستبشاراً بهذا الحدث السعيد .. وقد وصف زعيم كبير من زعمائهم هو رفيق بك العظم شعوره بهذه المناسبة قائلًا انه لم يكن يلقى صديقاً له من العثمانيين الذين عرفوا بالميل إلى الحرية الا وغلبت على كليهما عواطف السرور وانفجرت اعينهما بالدمع « استبشاراً بمستقبل الدولة السعيد ، وفرحاً بالحرية التي هي رغبة النفوس الحرة (٣٥) » .

ويعلق توفيق برو : « وكانت هذه الكلمات تعبيراً واضحاً عن شعور العرب الذين كانوا على استعداد للتضحية حتى « بقوميتهم » على مذابح الائتلاف والوحدة العثمانية ، وانضموا إلى الترك بكل اخلاص ، اعتقاداً منهم بانه لم يبق في الدولة لا عربي ولا تركي ولا غير ذلك من الطوائف والعناصر انهم كلهم اصبحوا عثمانيين متساوين في الحقوق والواجبات ووضعوا ثقتهم وآمالهم في جمعية الاتحاد والترقي التي القيت مقاليد الأمور بين يديها بالأمة العثمانية في طريق الاصلاح والتقدم (٣٦) .

كانت الاشهر الثلاثة الأولى من عودة الدستور متمثلة بروح الحماس والمحبة

والاخوة بين الطوائف ، وعبرت الجماعات والأفراد عن شعورها بمختلف الوسائل ، فقد أعرب السوريون في الارجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتتاب للتبرع بسفينة حربية هدية منهم للبحرية العثمانية ، وشكل أهالي بيروت حرساً وطنياً لمساعدة الجيش عند اللزوم (٣٧) . . وفي العراق ابتاع طالب بك النقيب ، نائب البصرة ، من ماله الخاص مركباً بحرياً ، وأهداه إلى الحكومة كي تستخدمه في المحافظة على شط العرب وتطوع لاصلاح العلاقات بين الأمير مبارك الصباح ... وبين الحكومة .. » (٣٨)

ويذهل لطفي السيد العدو الألد للجامعة الاسلامية والعروبة ، الذي اتهم من يمت للعروبة بسبب بالخيانة ! وصوت في عام ١٩٥٦ ضد الدستور المصري لأنه وصف الشعب المصري بأنه جزء من الأمة العربية !.. يذهل لفرحة المصريين بالدستور العثماني ويجبر على أن يشهد :

« فرحت الامة المصرية بالدستور العثماني وشمل الفرح امراءها في قصورهم وعلماءها في مكتباتهم ، وسراتها فى ضياعهم وفلاحيها في غيطانهم .. فرح به الرجال والنساء والأطفال وما أعلم ان حركة قوبلت بالفرح الشامل بمثل ما قوبل به الدستور العثماني في البلاد المصرية » سافر كثير من أعيان البلاد الى الاستانة وإلى سوريا يظهرون سرورهم بالدستور العثماني » ..

« اقرأ أخبار الجرائد في هذا الاسبوع تجدها مستفيضة بأنباء الاحتفالات التي ستقام لمناسبة عيد جلالة السلطان على خلاف العادة .. تجد ان الأمر غير قاصر على الذوات الذين تتشكل منهم لجنة الاحتفال بل يتناول تجار تحت الربع أيضاً » . . وليس قاصراً على مصر بل يتناول الأرياف ايضاً . . « أوفدت كل جريدة من الجرائد الكبرى رسولا من أكبر عمالها الى الاستانة وبيروت ، ذلك لتنقل للناس آناً فآنا أخبار الدستور .. وان الجرائد لا تفعل ذلك إلا ارضاء لقرائها المختلفين الذين هم بمجموعهم يكونون الرأي العام المصري .. فلولا اهتمام الرأي العام المصري

بأمر الدستور اهتماما لا مثيل له لما تكلفت الجرائد ان ترسل بعثات لا مثيل لها في تاريخ الجرائد المصرية » (٣٩) .

لنلق جانباً بتفسيرات لطفي السيد ، الى حيث ألقى بها التاريخ..ان ما يهمنا.. هو شهادته .. فالفضل ما شهدت به الأعداء .. ولنتساءل .. ماذا كان المصريون يرجون من الدستور العثماني وهم يرزحون تحت ألاحتلال البريطاني ، ولن يطبق عليهم الحكم الديموقراطي ، المنتظر في الدولة العثمانية ؟!.. كانوا يرجون بعثاً عثمانياً .. نهضة في دولة الخلافة .. تحطي المسلمين سنداً وظهيراً وتشد أزر الحركة الوطنية في مصر ضد الاحتلال البريطاني ..

ويهنيء الشاعر عبد المطلب عبد الحميد الدستور :

« يا عيد حي وأنت خير نهار
عبد الحميد بدولة الاحرار
ملك أقام على الخلافة منهم
حرما وقاها صولة الاشرار
من بعد ما كان الزمان يحلها
بالجور دار مذلة وبوار
عهد مضى ، لاعاد ، كبل دولة الا
اسلام في الاغلال والآصار
فرمت مقاتلها يد الاطماع من
دول كلفت بحب الاستعمار
هذي تطالب بالدخول ، وهذه
تختال في وطر من الاوطار
لولا أمير المؤمنين يحوطها
لرأيتها خبراً من الاخبار

ويقول شوقي :

بشرى البرية قاصيها ودانيهـــا
حاط الخلافة بالدستور حاميها

ويقول الكاشف :

« دار الخلافة حـاطك البسفور
وأجل قدرك في الورى الدستور..

وانضم من زعماء العرب إلى جمعية الاتحاد والترقي : «رفيق بك العظم وحقي بك العظم ومحسن السعدون ، وياسين الهاشمي ، وطالب النقيب ، وعزيز علي المصري ، وعبد الرحمن شهبندر وسليم الجزائري . وروى رئيس فرع البصرة كركوكلي عمر فوزي : ان طلبات الانتساب كانت تترى على فرعه لدرجة ان مؤسسيه لم يجـدوا وقتاً لتدقيقها (٤٠) » حتى السلطان عبـــد الحميد روى اسماعيل كمال بك الزعيم الالباني في مذكراته أنه اقسم له بالرسول والقرآن ان الشعب لو جـاء اليه وارتمى على قدميه يطلب منه الاضطلاع بالسلطة المطلقة ، فسوف لا يقبل ، لأنه يعتقـد ان النظام الدستوري هو الجهد الاخير لانقاذ الدولة ، فاذا سقط هذا النظام آلت الدولة إلى الزوال .

وعندما اطاح عبد الحميد بالاتحاديين ، كان الزحف على الاستانة بقيادة « عراقي وكثير من الضباط العرب امثال البكباشي عزيز المصري وغـيره من الضباط »
ونزل الثوار منجبال مقدونيا والبانيا يلقون اسلحتهم ويهتفون بحياة الدستور ..
وما من « عصابة » في التاريخ قد القت اليها امة بمقاليدها راضيـة مطمئنة ، فخانت الثقة وبددت الامانة ، كما فعلت عصابة الاتحاديين !

سلمت لهم أمة كاملة على اختلاف لغاتها ، وأديانها واجناسها .. لم تكن ترغب في غير الحياة الحرة المشتركة لمواجهة الغزو الاوروبي .

وكل ما كان يحتاجه الاتحاديون للمضي في عملية البناء هو اتباع سياسة تقدم على محورين :

● تأكيد الوحدة الداخلية .. ومقاومة كل محاولة لاثارة الشقاق الداخلي ..

● والشق الثاني هو مواجهة صلبة ثورية للاستعمارية الغربيـــة ، برفض أي مساومة أو تنازل حتى لو فرضت الهزيمة على الدولة ، بفعـــل التفوق العسكري لخصومها ، فلتكن المواجهة من خلال تمسكها بالمقاومة ورفض أي مساومة أو اقرار أي تنازل .. لأن مقاومة الاستعمارية الغربية كان هو المبرر الوحيد لوجود الدولة العثمانية واستمرارها ، وهو الطلاء أو المادة اللاصقة التي تجمع قطـــع الفسيفساء التي تكونها .. خاصة بعد ان أفقد الاتحاديون « الجامعة الدينية » اهميتها بمحاصرة وخلع خليفة الاسلام .. لم يبق اذن إلا الوحدة ضد الاستعمار .. ومن ثم فأي مساومة أو مهادنة مع الاستعمار الغربي تفقد الاتحاد تماسكه، وتفقد الدولة مبرر وجودها [1]»

أما بالنسبة للشق الأول فلم يكن من مصلحة الاتراك اثارة الشقاق القومي ..حتى لو تجردنا من احاسيسنا وتقمصنا شعور المؤرخ المحايد، فلم يكن من مصلحة القومية التركية ان تتحدث عن هـذه القومية وتشيد بها . فذلك هو موقف القوميـــة المضطهدة . ولكن عندما تصبح السلطة في يد القومية المعينة فإن الحاحهـــا على تأكيد ذاتها لا يثمر إلا استفزاز الآخرين ودفعهم للانفصال . لقـــد تمت عملية « ترويس » شعوب الاتحاد السوفيتي ولكن من خلال الحديث عن الاممية،واستنكار القومية ، بل والتنكيل ببعض الشوفينيين الذين يدعون لسيطرة القومية الروسية ، ومع نشر النظريات التي تلعن العصبيـة الروسية ، بينما كل الاجراءات والخطوات تتجه نحو فرض الطابع الروسي وربما يمكن القول بأن عبد الحميد كان أكثر خدمة

---

(١) القومية العربية المعاصرة تعي هذه الحقيقة ، ولعل ذلك هو سر معاركها التي لا تنتهي مع القوى الاستعمارية ، واصرارها على خوض هذه المعارك في مراحل يبدو فيها للبعض انهـــا تسعى للمتاعب . ولكن صراعها هذا هو مبرر وجودها ..

للقومية التركية من الاتحاديين .. فكل الذي حققه هؤلاء انهم دفعوا العرب للانشقاق ..

ماذا فعل الاتحاديون في هذه الثقة التي منحت لهم .. وهذه الدولة التي تولوا قيادتها ، والأمة التي اسلمتهم مصيرها .. ماذا فعل الدستوريون الأتراك؟ .

فعلوا الاعاجيب !

اتبعوا سياسة مضادة حرفياً للمحورين اللذين اشرنا اليهما كأساس للسياسة السليمة التي تحفظ – وحدة الدولة وتشق الطريق أمام قوتها وتحررها ..

استفزوا كل العناصر التي تتكون منها الدولة العثمانية ، وخصوا العرب بالذات بالجانب الأكبر من اضطهادهم واستفزازهم .. ورفعوا لواء القومية التركية فحطموا الدولة نهائياً .. وفي مقابل سياسة العصا الغليظة التي اصطنعوها مع ابناء الدولة ، ومع العرب بالذات .. في مقابل سياسة التعالي التي تتسم بالوقاحة بل والبذاءة . اتبعوا سياسة الاستخذاء والترامي على أقدام الدول الاستعمارية .. وبالذات بريطانيا وفرنسا . ولا يهدف هذا الكتاب لتحليل الحركة التركية ذاتها، الا بقدر ما يخدم ذلك الفكرة الاساسية في بحثنا للقومية العربية .. وأول ما يلفت نظر الدارس للدورالتخريبيالذي لعبه الاتحاديون.. هو وضوح الاصابع الاجنبية، منذ اللحظة الأولى في تكوين الاتحاديين وتوجيه سيرهم ..

وكما قلنا كانت هناك ثورة اصلاحية ليبرالية تتجمع ، وكانت هناك اصابع اجنبية تعمل ، ولكن نخطىء لو قصرنا تصورنا لهذه الأصابع على صورة جواسيس يتلقون المرتبات .. صحيح ان هذا اللون من العمالة كان موجوداً ولعب دوراً حاسماً في رسم المصير المفجع..العملاء الذين تم شراؤهم عن طريق المال والزوجات والشذوذ . والآخرون الذين لا تنطبق عليهم كلمة عمالة لانهم في الحقيقة كانوا يخدمون دينهم أو دولتهم المعادية لتركيا .. ورغم جاذبية هذا التفسير ، وقوة حجته عندما نضبط العميل بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، فاني لا أقبل هذا التفسير في فهم حركة التاريخ، وفي اعتقادي ان وجود - جاسوس على رأس الجيش أو الحركة

السياسية ، قد يسبب خسائر جسيمة ، ولكنه لا يستطيع بجهوده وحدها ان يحقق الهزيمة الكاملة ..

إن دور هؤلاء العملاء لكي يتحقق بالكامل – وبالذات في الحركات السياسية - لا بد له من مناخ فكري مناسب ، يكون قد تمت تهيئته على مهل بحيث يجعل توجيهاتهم التدميرية ، تلقى قبولا في عقول جيل قد تم تخريبها بالفعل .. بل تجعل حتى خصومهم السياسيين يتحركون في نفس الاتجاه بفعل التعاليم الخاطئة التي تم غرسها .. ذلك هو الأسلوب الذي لجأت اليه الصليبية الغربية في غزوها للشرق .. طوال القرن التاسع عشر كانت تجري عملية « غسيل مخ » للاجيال الجديدة التركية كانوا قد كفروا بدينهم وبتاريخهم،وفقدوا الثقة في قدرتهم على الوجود والمقاومة.. انتابتهم عبودية فكرية وخلقية للغرب،بعضهم للالمان والبعض للانجليز وآخرون للفرنسيين .. صدقوا انهم متخلفون لانهم مسلمون ! .. وأن كل ما يغضب اوروبا، ويقلق بالها هو تخلفهم !.. ومن ثم فبمجرد نبذهم للاسلام والتشبه بأوروبا ، سترضى عنهم أوروبا وتربت على ظهورهم مغتبطة ، وتمد لهم يد العون والمساعدة وتحمي دولتهم وتقويها !

هذا هو المناخ الذي عمل فيه العملاء والقناصل . كان قد تم غزو تركيا فكريا قبل ان تتحرك الجيوش وقبل ان يطلب من الجواسيس والعملاء المحترفين العمل لخدمة تحركات الجيوش ..

وقد بدأت الصلة بين الدول الاستعمارية والحركة الدستورية ، منذ بدايتها ، ففي ظل حمايتها نشأوا ..

يقول الحصوي :

« ان الجمعيات التي تأسست في الداخل لم تستطع ان توسع نطاق اعمالها كثيراً بسبب صرامة النظام الاستبدادي وانقان شبكة جاسوسيته .. ولكن بعد سنة

١٩٠٥ وجدت جمعية الاتحاد والترقي مجالا واسعاً لعملها في الولايات الثلاث، بسبب المراقبة الدولية التي كانت تأسست فيها .. « والولايات الثلاث» كان التعبير الرسمي لما يسميه الاوروبيون « ماكدونيا » وكانت تتألف من ولايات « مناستر وقوصوه وسلانيك » كانت تأسست في اوائل هذا القرن ، في الولايات المذكورة ، ادارة خاصة تحت مراقبة خمس من الدول الأوروبية المعظمة هي انكلترة وفرنسا وروسيا والنمسا وايطاليا [١] . »

ولم تكتف دول الاحتلال باحتضان فروع جمعيات « الاحرار » الاتراك ..بل كانت هذه الجمعيات ترسل منشوراتها إلى الموانيء التركية على البحر الاسود بواسطة المسافرين وبحارة المراكب الروسية (٤٢) (اسطول اكبر قوة رجعية في العالم في ذلك الوقت !) ومن هناك يستلمها رسل سريون وتوزع في انحاء البلاد .. كما كانت مكاتب البريد الاجنبية ــ التي حصلت مختلف الدول الاوروبية على امتياز اقامتها في أراضي الدولة من أجل مخابراتها الخاصة ، بسبب عدم كفاية مصلحة البريد العثماني ، للقيام بهذه المهمة ــ اسلم وسطة واضمنها لايصال صحف الاحرار ورسائلهم ومناشيرهم من الخارج إلى داخــــل المملكة حيث يستلمها الرسل السريون ويوزعوها على أفراد الشعب ، وقد ضاق عبد الحميد ذرعاً بهذه المكاتب وصمم على اخضاعهـا لمراقبته ، فلما اجترأ عام ١٩٠١ على الايعاز بفض اكياسها تظاهرت الدول باساطيلها أمـــام الموانيء العثمانية فاعتذر الباب العالي لها عن هذا العمل وتعهد بعدم العودة إلى مثل ذلك (٤٣) » .

ومن هذه الحضانة خرجوا .. وكعادة شعوبنا التي طال حرمانها ، وسحقت تحت نير الواقع الكئيب ، سرعان ما تخلع أمانيها وأحلامها على أول شبح للبطولة يلوح في أفق سياستها .. وحمل الاتحاديون صورة الآمال والامـــاني ، واعلنوا الدستور .. وتقدموا كالأولاد الظرفاء ، يطلبون رضاء اوروبا ، وقـــد قصوا

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٧ .

اظافرهم ومشطوا شعورهم واجادوا تنظيف أحذيتهم ..

« وبدا لهم أن المسألة الشرقية قد لاقت حلها الطبيعي » وان الدول الاجنبية عندما تطمئن الى النظام الدستوري الجديد ستلغي من نفسها نظام الامتيازات لأنها سوف لا ترى حاجة للتدخل .. ذلك ان ايجاد تركية غربية تماماً في حكوماتها، وحياتها الاجتماعية وبنائها الفني .. سيكون عاملاً في إزالة هذا السبب القديم للتنازع الدولي حول المسألة الشرقية » .

« ظنوا ان الحكم الدستوري الذي كان هدفهم الاسمى، بما فيه من مساواة للعناصر العثمانية وما فيه من تجدد ديموقراطي، سيكسبهم عطف اوروبا الملحاحة في طلب الاصلاح فتكف من بعد عن السلطنة، وعن دس الدسائس ضدها والتآمر عليها .. ولكن الاتحاديين ما ان مارسوا السلطة ورأسوا جهاز الحكم حتى تبدت لهم خطيئات نظريتهم، فذكروا وذكر الناس معهم، عبد الحميد بالخير الكثير ذلك العاهل الداهية المحنك الذي أشبعوه بالأمس دفعاً وتحاملاً (٤٣) » أما ان الناس قد ذكروا فصحيح .. أما عصابة الاتحاديين فأشك في ذلك، ولعله حسن نية الاستاذ « بيهم » هو الذي دفعه إلى الظن .. لأنهم لو ذكروا عبد الحميد، وتنبهوا للتغرير الذي ساقتهم اليه اوروبا، لكان بوسعهم ان يغيروا سياستهم وينفذوا اهداف عبد الحميد باسلوب ليبرالي عصري متنور .. ولكنهم كما سنرى كانوا عملاء ولو على المستوى الفكري، ومن ثم فما كانت العبرة تفيدهم ولا الايام تعلمهم ..

« وعمد جماعة تركيا الفتاة اثر نجاح حركتهم إلى العمل بالاعتدال في المجال الداخلي، فاسندوا إلى كامل باشا بحكمته وحنكته السياسية، وثقة الدول فيه، وخاصة انكلترة، الصدارة العظمى وبينوا رغبتهم في احترام مصالح الدول الاجنبية ومشاريعها الاقتصادية . . ليقينهم بأن رؤوس — الأموال الفرنسية والانجليزية الموظفة في اراضي السلطنة هي التي خلقت نهضة تركيا الاقتصادية وامتزجت الأموال الاوروبية، ونتاج الادمغة الاوروبية، بحياة الترك ونشاطهم العمراني،

فاختاروا جبريل نوراد ونجبان لوزارة النافعة ، دليلا على هــذا الاحترام وعلى اعتدالهم .. واعلنوا انهم سيكلفون مستشاراً فرنسياً لاصــلاح المالية وآخر انجليزيا باصلاح البحرية وثالثاً المانيا باصلاح الجيش البري (٤٤) » .

وهكذا كل ما كانت اوروبا تحاوله عن طريق المحظيات والحصيان أصبــح سياسة الدولة الرسمية في ظل الثوار ! .. « علاوة على ذلك أصبحت سفارة فرنسا ، كما يروي اسماعيل كمال بك في مذكراته ، ملتقى رؤساء جمعيــة الاتحاد والترقي وكان المسيو « اندري ماندلستام » الترجمان الأول للسفارة الروسية في الاستانة، الناصح والمشير الرئيسي لهم (٤٥) » .

ونحن نرفض تفسير الدكتور « توفيــق برو » لموقف الدول من « الدستوريين الأتراك » فليس صحيحاً ان السفير الروسي رأى ان مهمته أن يزيل من الأذهــان الوهم السائد بأن روسيا عدوة للأفكار الحرة الجديدة « ذلك الشيء الخاطيء إذ ان روسيا رأت بعين الدهشة دخول دولتي تركيا وفارس في الطريق الدستوري وسيرهما في السبيل التحرري وانها تتمنى لهما التقدم والازدهار وانه سيعمل ما بوسعه لجعل تركيا تثق من عطف روسيا على نظامها الدستوري » .

« وليس صحيحاً انه من « جهة انجلترا فقد كان فيهــا وخاصة بين صفوف الأحرار ، كما في فرنسا أيضاً ، تقليد بالعطف الشديد على الأحزاب الاصلاحية في الدولة العثمانية ، كان هذا العطف نابعاً من أصول الميول الحرة القديمــة ، ولكنه كان ناشئاً ايضاً من موجبات المصلحة الانجليزية التي تقضي بايجاد تركيا قوية ، تستطيــع ان تقف سداً منيعاً أمام انحدار الروس إلى بحر ايجه (٤٦) » .

ليس صحيحا ان بريطانيا وفرنسا باعتبارهما دولتين ديموقراطيتين كانتا تشجعان أو تغتبطان لانتقال النموذج الديموقراطي ، وبالذات للدول المعتبرة مجال نفوذهم الحالي أو المستقبلي .. والمدفعية البريطانية وبالذات لحكومة الاحرار هي التي دكت أول برلمان وأول حكومة حرة وأول حزب اصلاحي في الدولة العثمانية .. بل في

الشرق كله .. برلمان مصر وحكومة ثورتها العرابية .. وفرنسا كان بوسعها أن تقدم الكثير دليلا على ميولها الحرية والاصلاحية ، في شمال افريقيا فلم تقـــدم إلا أسوأ صور الحكم الديكتاتوري .. ذلك اذا قبلنا تصور وجود رأي عام ليبرالي في بريطانيا وفرنسا ، أي داخل أرض الوطن ولو ان لنا تحفظات كثيرة على موقف الاوروبي من الحرية داخل بلاده وموقفه منها خارج بلاده .. وبالذات في بـــلاد الملونين .. وعلى نحو خاص للمسلمين منهم .. ومع ذلك فهل يعقل أن سفراء فرنسا كانوا أحراراً يشجعون الحرية ؟. أليس المفروض والمتفق عليه انهم كانوا يمثلون الشق الامبريالي في الدولة الفرنسية .. واذا تمشينا مع الاوهام ، وافترضنا ان سفير فرنسا كان له ميول ديموقراطية ، ويسعده أن تقوى تركيا التي التهموا منها تونس.. وكانوا يستعدون لالتهام المغرب ، ويدبرون ابتلاع سوريا ولبنان ! . . اذا كانت نهضة تركية حقيقية تسعد هذا العدو لميوله الحرية!.. فما بال سفارة روسيا القيصرية .. كيف لا ينقل هذا السفير غبطته لقيصر روسيا حتى يسمح في بلاده بظـــل من الحرية التي كان يسمح بها حتى السلطان المستبد؟ الم تكن روسيا ، باعتراف الروس أنفسهم ، في هذه الفترة ، هي بؤرة الاضطهادات – المركبة : الطبقيـــة والجنسية واللغوية والقومية والدينية ؟! فكيف يحمل بحارة اسطولها منـــاشير الاحرار ، ويغتبط سفيرها بالدستور ، بل ويعمل مستشار سفارتها مرشداً للثوار ؟! . . أليس لنا عقول..وهل هذه هي أول مرة يلجأ فيها المستعمر إلى تدبير ثورة تدمر خصمه؟! وصحيح ان السياسة البريطانية في فترة من الفترات كانت تؤيد استمرار الوجوذ العثماني كحاجز قانوني ضد التوسع الروسي ولكنها لم تكن أبداً مـــع سياسة تقوية تركيا – وبالذات في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، فقد كان الخطر الحقيقي هـــو ألمانيا وليس الروسيا .. وكانت الثمرة قد نضجت تماماً وقوة تركيا تعني اثارة المتاعب لوضع بريطانيا في مصر .. والمتاعب لها في الخليج، ويهدد مشاريعها التوسعية في البصرة والى الشمال ..

ويرى الدكتور « برو نفسه انه في » السنين الاخيرة من حكم عبد الحميد ، لمّا بدأت السياسة الانجليزية تشعر بالقلق من تزايد النفوذ الالماني في الدول العثمانيـة

واندفاعه في وادي الفرات أصبحت هذه السياسة تتجنب تقوية تركيا أو الدفاع عنها لانها أصبحت تميل إلى ألمانيا ، بل أكثر من ذلك كانت تشجع الحركة التركية الحرة بواسطة عملائها او مواطنيها ودسائسها كي تقضي على سلطة السلطان العثماني (٤٨) .

في هذه الحدود معقول .. تشجيع الحركة التركية الحرة بواسطة عملائها .. لتدمير السلطان الذي يعارض المصالح البريطانية .. ممكن .. أما تشجيع الحرية ذاتها ، أو تأييد « تقوية » الرجل المريض .. فلا .. ان سياسة الرجل المريض « كانت تعني ابقاءه مريضاً الى حين الاتفاق والاستعداد لوراثته .. لا تقويته ولا قتله .. ومنذ أواخر عهد عبد الحميد عندما بدأت المحاولات الجدية للشفاء ، قررت بريطانيا قتل الرجل المريض وكان الأحرار ضمن أسلحتها أو سمومها التي تم بها الاغتيال ..

ولان المرء لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد .. فكذلك الحكومات .. ومن ثم ما كان يمكن أن يمضي شهر العسل طويلا لحكومة الاتحاد والترقي . . فأمام التنازل والترامي على أقدام الاستعمار البريطاني والفرنسي والروسي والايطالي .. كان من المحتوم ان يقع الاصطدام في جهة اخرى . . وقد جاء هذا الاصطدام مع العرب أساسا .. لان بلادهم هي التي كانت تواجه الصدمة المباشرة للأطماع الغربية .. وفي البرلمان التركي أو مجلس المبعوثان كما كان يسمى ، حمل العرب لواء الدفاع عن التراب العربي ضد الاطماع الاستعمارية والصهيونية . . واصطدموا بعملاء الغرب والصهيونية ، المتربعين في الحكم وفي قيادة الحركة الدستورية . .

فبعد عزل السلطان الذي جرؤ على طرد ممثل الصهيونية العالمية ، ومن ثم نكل به الدستوريون ، بأن أرسلوا له الممثل الطريد يبلغه قرار الخلع من امامة الاسلام وخلافة المسلمين ! جاءت حكومة وزير ماليتها يهودي الاصل : « يجمع حوله في

الوزارة طائفة من المستغلين اليهود ومماسرة بيع الاراضي بما فيهم رئيس ديوانه ، والحكومة تترك المجال لهجرة اليهود إلى فلسطين وشراء الاراضي (٤٨) وأثار النواب قضية فلسطين ربما لاول مرة ، أثارهـا شكري بك العسلي وروحي بك الخالدي ، وكان قد مهد لها بتوزيعه على النواب طوابع بريد باسم الصهاينة عليها اسم « هرزل ونوردو [١] يرسل الصهاينة في فلسطين رسائلهم بها .. عن طريق مكاتب البريد الاجنبية ، وقام يخطب مبيناً أن للصهاينة في فلسطين اندية ومحاكم تحكم بغير القضايا الجنائية ، ولهم أعلام يرفعونها في أعيادهم وأناشيد ينشدونها وهم يودون شراء الأراضي المشرفة على سكة حديد الحجـاز ، ويرجون التوسع في سوريا حتى العراق .. واعتلى « روحي بك الخالدي المنبر وألقى خطابا طويلا أورد فيه أقوال التوراة عن أماني اليهود في استعادة ملك فلسطين .. ثم أخرج من جيبه ورقة تلا منها نص رسالة كتبت بقلم « اوزبيتشكي » الملقب بالامير اليهودي ، وهو أحـد أركان الجمعية الصهيونية ، يبين فيها الوسائل الواجب أن يأخذ بها الصهاينـة كي يبلغوا أمانيهم وهي : نيل الميزة والأفضلية في فلسطين بواسطة الأموال ، وتوحيد آمال الاسرائيليين وجمع شتاتهم ، وانماء روح الوطنية في قلوبهم واستخدام السياسة لبلوغ الامنية السامية ، واستنتج النائب العربي من ذلك ان الصهاينة لا يريدون أقل من تأليف أمة لهم في فلسطين واستيطان ارض الموعد ، ثم نبه إلى ازدياد عددهم باطراد حتى أصبح في متصرفية القدس – وحدها مائة الف يهودي ، وان أغنياءهم ابتاعوا لهم نحو مائة الف دونم » ..

أما النائب اليهودي الذي تصدى للرد على العرب في مجلس المبعوثان هو النائب نسيم مزلياح أفندي « فقد أصبح بعد ذلك وزيراً في حكومة الاتحاديين سنة ١٩١٣ الحكومة التي خلت من وزير عربي واحد ».. (٤٩)

وعاد عبد العزيز جاويش وعبد الكريم خليل فأثارا قضية بيع الاراضي ، لا

---

(١) استاذ الحصري في القومية .

سيما في فلسطين ، للاجانب ولكن هيهات أن تستجيب حكومة كان فيها ثلاثة وزراء يهود وليس فيها عربي واحد !! ومع ذلك فانا أرفض تفسير هذا الموقف بوجود اليهود .. كما رفضت تفسير خيانة الشيوعيين العرب لقضية فلسطين بوجود قيادات يهودية في الحركات الشيوعية .. اذ انه كما قلنا هناك ان تزعم اليهود للحركات الشيوعية نفسه كان بحاجة إلى تفسير ، قبل تفسير توجيهاتهم ، فالذين قبلوا أن يقودهم اليهود وبلادهم تخوض حرباً مصيرية ضد دولة اليهود ، ما كان يمكن أن يشكوا في توجيهات الذين قبلوا زعامتهم .. كذلك كان وجود ثلاثة وزراء يهود في حكومة الخلافة دو دليل على فساد التفكير على نحو لا يحوجنا لنقاش فيما بعد هذا من قضايا فكما يقال، ليس بعد الكفر ذنب ..

غير ان الاصطدام الحاسم بين العرب والاتحاديين كان في قضية طرابلس أو احتلال إيطاليا لليبيا حيث تكشفت للعرب الخيانة السافرة للحكم الجديد ، وانه قد فتح الباب على مصراعيه لابتلاع الوطن عربي .. وسنتعرض لهذه القضية بالتفصيل .

نعود لحديث الدستوريين والاستعمار .. فقد اغتبط ممثلو الاستعمار باعلان الدستور .. ووصول تلاميذهم إلى السلطة واستعدوا لقبض الثمن [1] .. » وكان التلاميذ النجباء على استعداد للدفع . ولكن شيلوك الاستعمار الغربي كان يريد الرطل كاملا ومن اللحم الحي – ولم يكن التلميذ رافضاً ولكنه ما كان يستطيع ان يدفع فوراً وبالشروط التي يعرضها شيلوك .. فما زالت الحركة الوطنية التي هيأت المناخ لنجاحهم حية وواسعة الآمال .. ترجو ان يكون النصر الدستوري تدعيما لأهدافها في مقاومة النفوذ الغربي الاستعماري واستئصال ما تسرب منه في ظل فساد

---

(١) اعلن مؤتمر المبشرين في بيروت ١٩١١ ان اعلان الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر اكثر امكانا وسهولا .
التبشير والاستعمار الطبعة الثانية ص ٥٣

الحكم الاستبدادي وتخلفه .. بـــل وكانت هذه القوى الوطنية قادرة على التطوح بعصابة الانحاديين .. يضاف إلى ذلك القوى الرجعية التي كانت تتحين الفرصـــة للدفاع عن حكمها ، وستكون حجتها الأولى في التشهير العهد الجديد هو تفريطه في التراب العثماني وتسليمه لاعداء الملة ..

من هنا تعجل الاستعماريون في الضرب .. كتب وزير خارجيـــة فرنسا إلى سفرائه يقول : « منذ قيام العهد الجديد في تركيا ظهر ميل إلى مهاجمة المؤسسات المالية والصناعية المقامة والمدارة من قبل الاجانب ، وقد تبين ذلك خاصة من الحملة التي وجهت ضد ادارة التبغ،والتي قد تكون الوزارة التركية قد شكلت على اثرها لجنة تحقيق يخشى ان تقرر الغاء الشركة ، وبما ان هذه الحملة تهدد مصالح الاجانب عامة في تركيا ، رأى ان توحد الدول الغربية جهودها لتوقفها عند حدهـــا منذ البداية ، وافهام تركيا « انها اذا ارادت ان تعيد تنظيم أمورها المالية فان مـــن مصلحتها الا تظهر عداءها لرؤوس الأموال الاجنبية في تركيا (٥١) » ..

ولما أفضت التناقضات الداخلية إلى اقالة الصدر الأعظم كامل باشا صديق انجلترا عاقب السفير البريطاني ممثلي جمعية الاتحاد والترقي الذين توجهوا اليه للاعتذار عـن إقالة الصدر الأعظم وتأكيد ان هذه الإقالة ليس لها أي تأثير على العلاقات الطيبة بين البلدين ، عاقبهم بان رفض مقابلتهم . .

مهانة لم تحدث ولا أيام السلاطين ولا حتى لخديو مصر تحت الاحتلال البريطاني عندما أقال صديق الانجليز ، فكل الذي حدث ان استصدر كرومر فرمـــانا من وزير خارجيته واخبر الخديوي على اقالة وزيره وتكليف وزير ثالث بتشكيل الوزارة .. ولكن سفير بريطانيا في تركيا رفض مقابلة الثوار ، فماذا كان رد الاحرار .. تركيا الفتاة :

« حاولوا بكل الوسائل ارضاء انجلترا ، فمنحوهـــا امتياز شركة « لنشي » وتجهموا لاماني مصر التحررية ، وازاء الالحاح المسعور على تمزيق الدولة والتهامها

ولأن للحكم فلسفته الخاصة وضروراته ، فقد وجد الدستوريون انفسهم برغم كل استعداداتهم للتساهل والتسليم ، مضطرين ولو الى التظاهر بالمقاومة .. ولأن التطورات العالمية لم تكن تسمح بالانتظار ولو لصيانة ماء وجه الحكم الجديد فقد كانت اوروبا تدخل مرحلة الامبريالية ، وتحت ضغط النمو الصناعي والمالي في اوروبا ، وظهور المانيا كقوة استعمارية منافسة .. تحت تأثير هذه العوامل كان الاندفاع المحموم للاستعمار ، ولم يكن قد بقي – في مطلع القرن العشرين – من مجال لاستعمار جديد الا الامبراطورية العثمانية .. وبالذات الدول العربية .. وكان الدور قد جاء على مراكش[1] وليبيا .. كذلك لم يكن بوسع فرنسا ان تنتظر طويلا ، خاصة وانها كانت ترى ان عوامل التخريب قد نضجت في الشام .. ومن هنا عادت فرنسا لاثارة الرعب من جديد من خطر الجامعة الاسلامية .. ففي تقرير القائم بالاعمال الفرنسي في الاستانة إلى وزارة الخارجية لم يكتم مخاوفه من جامعة تركيا الفتاة الاسلامية التي هي أخطر على بعض الدول العظمى ، وخاصة منها فرنسا ، من جامعة عبد الحميد الاسلامية . وقال « ان السلطان كان يريد أن يكتل المسلمين حول منصب الخلافة لغاية انانية شخصية ، أما الاتحاديون فلا يستخدمون نفوذ الخلافة الا لخدمة أهدافهم القومية » ..

ولا شك ان موجهي السياسة الالمانية ، كانوا اعلم بحقيقة نوايا أوروبا وحقيقة التيارات السياسية العالمية ومن ثم فقد نصحوا الأتراك الجدد ان يكفكفوا من غلواء « تحررهم » والا يفرطوا في القوة الجبارة التي يمثلها الاسلام .. غليوم نفسه زار قبر صلاح الدين ووضع فوق قبره الازهار ولقب نفسه صديق الاسلام وذلك بحكم الصراع بين الاستعمار الالماني الجديد والاستعماريات القديمة .. روسيا .. فرنسا . بريطانيا . من هنا كانت السرعة التي كشفت بها اوروبا عن حقيقة مشاعرها .. فسرعان ما تداعت فرنسا وايطاليا لابتلاع مراكش وليبيا .. وجاءت الاشارة من

---

(١) اللتين لم تكونا خاضعتين لتركيا ولكن الاحرار هناك كانوا يسعون لتوثيق صلاتهما مع الاستانة كمحاولة لتجنيب الكارثة ..

ر وسيا العدوة التقليدية فأعلنت ان حكم تركيا الفتاة قد برهن للعالم المتمدين بأجمعه على عدم كفايته التامة ، وفي نفس الوقت على الضرورة الحتمية لوضع حد لسيطرة الترك على المسيحيين ولو في اوروبا على الأقل » ..

وسلمت الدول الاستعمارية مذكرة إلى الباب العالي في ١٩١٢/٩/٢٧ « كانت بمثابة وضع نهاية رسمية للفترة التي أحجمت فيها هذه الدول عن المداخلة في شؤون تركيا .. كما كانت بمثابـــة تأكيد علني للعالم على افلاس حكم تركيا الفتاة ، ولم تكن دول الوفاق الثـــلاثي ، انجلترا ، فرنسا ، روسيا هي التي وقعتها فقط ، بل شاركتها في ذلك دولتا ألمانيا والنمسا » .. وكان الاتحاديون في المعـــارضة ، فساقوا الرأي العام للحرب،وتهربوا من مسئولية الحكم وانهزم الجيش العثماني طبعاً ، وأعلن رئيس وزراء بريطانيا « ومهما يكن من أمر فان دول اوروبا متفقة على نقطة واحدة هي عدم حرمان المنتصرين من ثمرة انتصـــارهم .. » وأعلن رئيس وزراء فرنسا : « نهضت الشعوب البلقانية باسم العدالة والحرية ، وفرنسا تنظر إلى عملها بعطف وولاء .. ان البلقان للصرب والبلغار والجبليين واليونان ، وهذا حل عادل للمسألة البلقانية » (٥٣) وطلبت تركيا الهدنة ووصلت الأساطيل إلى الاستانة ؛ وقدمت الدول العظمى : انجلترا ، فرنسا وروسيا ، ألمانيا، ايطاليـــا ، النمسا . مذكرة تنذر فيها بأن الدولة العثمانية لن تلوم الا نفسهـا إذا أسفر دوام الحرب عن وضع مصير العاصمة التركية على بساط البحث ، وربما أيضاً امتداد نطاق الحرب إلى الولايات الآسيوية من الامبراطورية » (٥٤)

ركع العملاق العثماني عند أقدام الاستعمار الغربي وافاق من لم يفق على وحشية ودناءة وخسة هذا الاستعمار الذي يتشدق باسم الديموقراطية والحريـــة وكراهية التعصب !! وهو عادة يتسم بالوقاحة والفجور ، لا حد لمطالبه عند ما يتمكن .

يقف رئيس وزراء فرنسا يخطب في مجلس الشيوخ الفرنسي « لا أرى لزوماً لان اذكر مجلس الشيوخ ان لنا في لبنان وسوريا حقوقاً تاريخية تقليدية ونحن نريد دائما ان ترا

منافعنا وحقوقنا .. » وأعلن وزير خارجية بريطانيا اعتراف حكومته بمصالح فرنسا في سوريا [1] وترد عليه جمعية الدراسات لشئون البحرية والمستعمرات في باريس بمذكرة تنوه فيها بأنها أخذت بعين الاعتبار وجوب تأكيد مبدأ تنزه الدول الكبرى عن التوسع الارضي ، فيما يتعلق بتركيا الاسيوية .. وفي حالة احتمال زوال ارتباط سوريا بالدولة العثمانية تؤكد الحكومة الفرنسية رغبتها بعدم السماح لاي سيادة أو حماية ، عدا سيادة وحماية فرنسا ان تحل في هذه المنطقة محل السيادة العثمانية (٥٥)

اندفعت الدول الغربية في عملية تقسيم جثة الرجل المريض .. قال سفير المانيا : « كان المقصد الحقيقي هو تقسيم آسيا الصغرى إلى مناطق نفوذ، دون ان تؤخذ حقوق السلطان بنظر الاعتبار ، أما حصة روسيا فهي الولايات الشرقية ، وحصة فرنسا : الولايات السورية ، وحصة بريطانيا العظمى : العراق والمنطقة التي تجتازها سكة حديد ازمير — ابدين .. وحصة المانيا « آسيا الصغرى » .. وبدأت حكومة الثوار في سلسلة تسويات .. فسلمت لفرنسا : « بالمساواة بين المدارس الفرنسية والمدارس العثمانية العامة فيما يتعلق باعتبار الشهادات المعطاة للطلبة ، والاعفاء من الضرائب ، وعدم توقيف الفرنسيين إلا في دور قنصليتهم فقط .. والاعتراف بجنسية التونسيين والمراكشيين الفرنسية .. واعطاء امتياز بانشاء خطوط حديدية في الولايات الشرقية وفي سوريا .. واعطاء فرنسا امتياز انشاء مرافيء على البحر الابيض في سوريا « طرابلس — الشام — حيفا — يافا » .. والحقت بلائحة هذه المطالب قائمة باسماء عشرات من المدارس التي تطلب رخصة لها في مدن فلسطين وبلاد الشام وبيروت ، وطلب الاعتراف — بمدارس اليسوعيين والفرنسيسكان واللعازرية وغيرها في حلب وبيروت وطرابلس الشام (٥٦) .

واعطيت بريطانيا :

---

(١) نقلا عن الاهرام ٩ — ١ — ١٩١٣

« اعتراف تركيا بشرعية المعاهدة الانجليزية الكويتية المؤرخة في ١٨٩٩/١/١٣ ومعاهدتي ١٩٠٠/٥/٢٤، ١٩٠٤/٢/٢٨ [١] » كما تخلت الحكومة العثمانية في المعاهدة الجديدة عن كل مدعياتها بشأن قطر وتعهدت بسحب كل ما كان لها من موظفين وجنود هناك .. ونفس الشيء بالنسبة للبحرين بما في ذلك جزيرتا لبنان العالية ولبنان السافلة .. واعترف الاتراك للانجليز بشرعية اتخاذ التدابير البوليسية البحرية في جميع الأوقات في الخليج العربي » وأعطت الحكومة « الثورية » الانجليز : « امتيازات بترول العراق ، وامتياز سكة حديد ايدين ازمير — وتحسين مينـاءي صمصون وطرابزون .. وجاءوا بمدير عام انجليزي وعدة مفتشين من الانجليز لاصلاح النظام الجمركي ، كما تقرر تعيين عدد من المفتشين الانجليز في الجمارك ، وزاد نفوذ البعثة البحرية البريطانية التي دعتها الحكومة لتنظيم الاسطول ، وعهدت بتنظيم دور الصناعة إلى شركتين انجليزيتين (٥٧) » .

وبعد ان سلم الدستوريون لدول الاستعمار الغربي الثلاثي بكل شيء .. عادوا فسلموا مقاليد تركيا لالمانيا ! غير ان ما يعنينا في هـذه الدراسة ، هو اصطدام العرب بالاتراك الحـاكمين ، في النقطـة التي ربطت العرب بالترك .. اعني مواجهة الاستعمار الغربي .. فقد كان الاحرار العرب كما بينا يتمسكون بالدولة العثمانية باعتبارها حاجزاً واملاً في صد الخطر الغربي الاستعماري ..

من هذه الزاوية وحدها كان تمسكهم بالعثمانية ، وبالخلافة التركية ، وسعيهم في تجميع الرأي العام الاسلامي حول اسلامبول .. فلما جاء الحكم الدستوري وبدأت التنازلات بل وفتحت الابواب للغزو الاوروبي ، واكتشف العرب هذه الحقيقة .. وهي ان التخلف سلاح ذو حدين ، فهو كما يجمـد القوى الداخلية ، يسد ايضا الطريق — احياناً — على النفوذ الاجنبي وإن التقدمية الزائفة قد تكون

---

(١) الغيت في ١٩٦٠ بمعاهدة استقلال الكويت ..

الكسارة التي يلجأ اليها الاستعمار لتحطيم البندقية ليأكلها هو لا الكسارة ..

غير ان القضية التي فصلت تماماً بين العرب والعهد الجديد في تركيا ، واقنعت العرب بان استمرار الرابطة العثمانية يعني ضياع البقية الباقية من التراث العربي .. هذه القضية هي احتلال ايطاليا لليبيا .. مع استفزاز العرب بكل الوسائل الممكنة ودفعهم دفعاً للانفصال .

الحرب الليبية

كانت الحرب الطرابلسية كالحرب الفلسطينية بعد سبعة وثلاثين عاما هي البؤرة التي تجمعت فيها كل المتناقضات وحشية وخسة وفجور وصليبية الاستعمار الغربي .. ووعي وتنبه الامة العربية والشعوب الاسلامية .. ودور مصر القيادي في حقل العروبة والاسلام ومكافحة الاستعمار الغربي .. ثم عجز وخيانة الحاكمين ..

كما كانت البوتقة التي كشفت نوعية معادن الرجال والشعارات .. فقد كان التحدي صارخاً .. ايطاليا أحدث المستعمرين بأسلوبها الدموي وصليبيتها الصارخة .. وكانت الحركة العربية تتجمع وتنبهها الأعاصير .. والوعي الاسلامي قد نبهته الأحداث والتيارات .. ورأى التيار الاسلامي والعربي في هذه الحرب صورة للمآسي التي بدت بغزو الجزائر فتونس ومصر ومراكش .. فاستنفرت عناصر المقاومة في الامة العربية ، واستجاشت عواطف المسلمين ..

« وتتألف في مصر اللجان ، وتقام الاسواق الخيرية لجمع التبرعات وارسال البعوث الطبية ، وينشىء الشيخ علي يوسف جمعية الهلال الاحمر في ٧ نوفمبر ويتطوع في الحرب كثير من المصريين (١) بدافع من الحمية الاسلامية رغم معارضة الانجليز » (٥٨)

---

(١) الحديث عن موقف مصر من الحرب التحريرية الليبية طويل وهو ماستتناوله بالتفصيل في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

وترتفع أصوات الكتاب والشعراء تثير الحمية في النفوس ، فيلقي شوقي قص
في حفل جماعة الهلال الاحمر يحث فيها الشعوب الاسلامية التي تجمعها الرا
العثمانية على التعاون والاتحاد :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة
تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به
فالله قد جعل الاسلام بنيانا
في ذمة الله أو في ذمة نفر
على طرابلس يقضون شجعانا

ويقول حافظ :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما
بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى
ذبحوا الاشياخ والزمنى ، ولم
يرحموا طفلا ، ولم يبقوا غلاما
أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما
حرمت لاهاي في العهد احتراما
بارك المطران في أعمالهم
فسلوه بارك القوم علاما ؟ !
أبهذا جاءهم ، انجيلهم
آمراً يلقي على الارض سلاما ؟

ويقول أحمد محرم :

رويداً بني روما فللحرب فتية
تهيج الظبا أطرابهم واللهاذم

اولئك ابطال الخلافة ، تحتمي
بأسيافها ان داهمتهـــا العظائم
هم المانعوها ان يقسم فيئهـــا
وان تستبى بيضتهـــا والمحـــارم
انذعن للباغي ونعطيـه حكمـه
وفي الترك مقدام وفي العرب حازم
هما اخوة العز الذي دون شأوه
تخر الصيـاصي خشعاً والخارم
أقمنا على عهدي وفاء وإلفـــة
فما بيننا قال ولا ثم صـــارم
على طول ما قال الوشاة وخببت
حقود الأعادي بيننـــا والسخائم

ويقول عبد المطلب :

خليلي ! مالي اذا ذكرت برقة
يجنبي نيران الاسى تتلهب
نعم .. راعني من نحو برقة صارخ
يهيب بانصار الهلال : الا اركبوا
دعا صارخ الاسلام يالبني الهدى
اغار العدا أين الحسام المشطب ..
كأني به يدعو الخلافة مسمعاً
كأني به في المسلمين يثوب ..

كانت حرباً عربية بكل معاني الكلمة ، بل لعلها أول معركة عبرت فيهـــا القومية العربية عن نفسها ، بل لعله خلالها ترددت كلمة الأمة العربية لأول مرة في التاريخ الحديث ، وفي هذه الحرب وضحت بذور الأقليمية المصرية العميلة للاستعمار ..

تلك الأقليمية التي دعت المصريين إلى الاهتمام بمصالحهم وترك الشعب الليبي يذبح على يد الايطاليين .. فبذلك يتأكد استقلال مصر .. وهو حديث طويل كما قلنا .. أما ما يعنينا هنا فهو تأثير هذه الحرب على علاقة العرب بالاتراك [1] » .

في اواخر ايلول ،سبتمبر ١٩١١ أرسلت ايطاليا اساطيلها وجيوشها إلى طرابلس الغرب لاحتلالها بعد انذار مؤرخ في ١٩١١/٩/٢٧ ، وجهته إلى حكومة الباب العالي كي يصدر الأمر بعدم معارضة الاحتلال . ولأن الاحتلال الايطالي كان يتسم بكل الفجور والوقاحة الموروثة من تاريخ الاستعمار الغربي ! .. لذلك فإن الانذار قد فسر أسباب الاحتلال في : « ان السبب في الهجوم هو اهمال الدولة العثمانية لهذا القطر ، لذا فان الدولة الايطالية تريد ان تفتح ابواب هذه البلاد للمدنية الغربية .. هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فانها تريد المحافظة على مصالح الايطاليين فيها وانقاذهم من الخطر المحيق بأرواحهم بسبب التحريض العام عليهم بدافع من التعصب الديني الذي يظهره الموظفون الترك وضباطهم نحوهم (٥٩) .

نحن المتعصبون .. وهم يغزون بلادنا ينشدون :

« انا ذاهب إلى طرابلس ..
فرحاً مسروراً ..
لابذل دمي ..
في سبيل سحق الأمة الملعونة ..
ولاحارب الديانة الاسلامية ..
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن .. »

نحن المتعصبون ؟!

---

(١) أوضح واكمل تحليل لهذا الموضوع هو الدراسة الممتازة للدكتور توفيق برو (العرب والترك) ..

« وكان قـد تم الاتفاق مع فرنسا في أعوام ١٩٠٠ / ١٩٠٢ بأن تطلق كل منهما يد الاخرى في المناطق التي تهمها ، أي ايطاليا في طرابلس الغرب وبرقـة ، وفرنسا في مراكش واعترفت انجلترا لها بحقها في طرابلس الغرب وبأنها حصتها من الغنائم الافريقية (٦٠) ..

وقد نصح اللورد سالسبوري ايطاليا بالتريث في احتـلال طرابلس حتى تصبح الفريسة سهلة الاقتناص (٦١) ..

ولكي يتم اعداد الفريسة للاقتناص « شرعت باتخاذ الخطوات التمهيدية والعملية فيها ، من فتح مـدارس ، وانشاء بنوك ، وشركات ، وتوظيف رؤوس أموال وإرسال جماعات تبشيرية ، والحصول على امتيازات مختلفة (٦٢) . . غير أن عملية « الطهو » النهائية في إعداد الفريسة كانت في تعيين جاسوس إيطالي صدرا اعظم في تركيا ، قبيل التهام طرابلس ! وهو الصدر الأعظم حقي باشا . . الذي « أتهمـه الكتاب العرب بأنه إيطالي النزعة ، ومشهود بحبه المدنية الايطاليـة ومعاشرة الايطاليين ، ويفضل التردد على أنديتهم ، وأنه طلب تعيينه سفيراً في ايطاليـا لشدة حبه لهم وان لايطاليا دخلا في تعيينه صـدرا أعظم . . الا ان – المؤكد ان الاتحاديين كانوا بصورة عامة يهملون شؤون هذه الولاية .. وأما حقي باشا فقد كان في غفلة تامة عما يجري حوله (!) وأصيب بالذهول عندما تسلم الانذار من سفير ايطاليا في الاستانة ، فأسرع إلى القصر السلطاني وجمع مجلس الوزراء ، حيث سمع كلاما مهينا من السلطان جزاء لاهماله وعدم احتياطه للأمر (٦٣) « على أن غفلته قد تكون مقصودة ، حباً بزيادة التسامح مع الايطاليين الذين كانت تربطه بهم روابط عديدة ، منها زواجه من ايطالية ، وشغفه بارتياد النوادي الايطالية بالاستانة وبلعب الورق ومعاطاة القمار مع اصدقائه من الايطاليين وخضوعه لسلطان الذهب (٦٤) « حتى ان سفير الدولة العثمانية في روما قد تقـدم بتقرير إلى مجلس المبعوثان ضـده جاء فيه انه كتب له مراراً من روما ينذره بالخطر الذي يتوسمه من جهة إيطاليـا وتدابيرها الخفية وأعمالها المريبة لأجل الاغارة على طوابلس الغرب ، لكنه لما عاد

الى الاستانة علم ان حقي باشا قد أهمل كثيراً من التقارير التي أرسلها إليـــه ، ولم يعرضها على مجلس الوزراء (٦٥) .

وقد قامت حكومة الدستوريين والصدر الاعظم الطليـاني الميـول والنسب .. باعداد البلاد للغزو : « فجردتها حكومة الاتحاديين من كل جند وسلاح ، اذ سحبت منها الجنود لقمع الثورات في ألبانيا واليمن [1] ولم تبق فيها سوى عـدد قليل لا يتجاوز أربعة أو خمسة آلاف جندي من اربعين او خمسين ألفا كانوا فيها » وضنت عليها بالولاة الصالحين ، ولم تكتف بذلك بل اذا تصادف ان لجأ احـــد الولاة إلى

---

(١) كان شوكت باشا قد استمزج رأي « حقي باشا » عندما كان أي حقي سفيرا للدولة في ايطاليا ، عما اذا كان ثمة ما يدعو الى الخوف من جهة ايطاليا ، فاجابه زوج الطليانية ، بانه ليس هناك ما يوجب الريبة في نواياها ، عندئذ امر بسحب الجند من طرابلس لارسالهم الى اليمن . وفي الوقت الذي كان فيه حقي باشا زوج الطليانية والسفير التركي في رومـا ، ينصح بسحب الجيوش من طرابلس لضرب الامام يحيي والادريسي .. نرى الادريسي في كتاب لصديق له بالقاهرة يحذر الدولة من خطر استنفادها جميع قواها في الجزيرة العربية مـــع وجود قوة ثالثة غير الترك والعرب تراقب الموقف للوثوب على ممالكها (نقلا عن الاهرام) ..
خسر العثمانيون في معركة عسير وحدها ٢٨ الف جندي بيـن قتيـــل وجريح واسير (محمد المهدي البصير ..)

ولما تم الصلح بفضل مساعي عزيز باشا المصري الذي كان يعـــي خطورة هـــذا النزيف وتعريضه مصالح العرب للخطر وهو الذي تولى بعد ذلك الدفاع عن طرابلس .. أبرق الامـــام الى الاستانة باستعداده لارسال مائة الف مقاتل كامل العدة والعدد الـــى طرابلس الغـــرب للدفاع عنها ضد الايطاليين .

لقد كانت حروب تركيا في الجزيرة ، مجزرة سالت فيها الدماء المسلمة ، تركية وعربية وانهكت قوى الدولة وادت الى تسليم طرابلس للايطاليين ، ثم سقوط الدولة كلها .. حـــرب خاسرة كان الدافع اليها هو رغبة العملاء في انهاك الدولة . ورغبة المغامرين فـــي احراز أي نصر بعد ان توالت عليهم الهزائم في اوروبا . وقد اعترفت الحكومة نفسها بذلك عندما قالت في تبرير سحبها لمشروع الصلح الذي يقضي بتقسيم اليمن والاعتراف بسيادة يحيي علـــى المنطقة الشمالية الزيدية اذ قالت : « ان الحكومة كانت وافقت على المشروع ، بسبب حراجـة الموقف العام .. غير اننا الان ، وقد تخلصنا من تلك المواقف الحرجة ، اصبح في مقدورنا ان نرسل الى اليمن القوة العسكرية اللازمة لاخماد الثورة واستعادة مهابة الدولة ، ونحـــن عازمين على ذلك بكل قوة واطمئنان » . (البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٣٠) .

العمل لرفع شأن البلاد وتقويتها بادرت الى سحبه بناء على طلب الايطاليين [1] كما فعل الصدر الأعظم حقي باشا [2] — بواليها ابراهيم باشا الذي عزله في سبتمبر ١٩١١، ولم يعين احداً بدلا منه .. بحيث ان البلاد كانت بدون وال حينما اعتدى الطليان على حرمتها .. وهو ما حدث لرجب باشا الذي وقف لنفوذ الايطـــالي بالمرصاد ، ومنع انتقال الأملاك إلى بنك دي روما بالرغم من أوامر دولته التي كانت تنهمر عليه ، وكلها لمصلحة ايطاليا « ولما وصل الاتحاديون للسلطة استصدر الطليان فرمانا بعزل المشير رجب باشا من الولاية ، واصبح الولاة الذين أتوا بعده آلة في يـــد السياسة الايطالية وخاصة حسن حسني باشا ، والد زوجة رحمي بك من كبار زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، كما اصبح الموظفون الترك الكبار آلة بيـــد الايطاليين وصارت بيوتهم مفتوحة لارتياد رجالهم الذين يجتمعون فيها لبث الدعاية الايطالية »

« وكان حسني باشا ، عدا ذلك، من أكبر المشجعين على انشاء شركة الفوسفات الايطالية فاشمأز الناس من أعماله ، وافساحه المجال للتدخل الايطالي وقد تجرأت الصحف الايطاليـة في عهـده على التحريض لاحتـــلال طرابلس ، وأغرت حكومتها بذلك ، كما حرضت الشعب الايطالي على المطالبة بتنفيذ هـذه الفكرة حتى ألفت ايطاليا فرقـــة خاصة لاحتلالها : الفرقـة الطرابلسية وقـد بلغ تهاون حسني باشا مع الايطاليين جواً أسخط الأهالي فعزموا على القيام بمظاهرة احتجاجاً على لهجة الصحف الايطالية فمنعهم من القيام بها . ومـــع ذلك ارسلوا برقية إلى الصدارة العظمى محذرين الدولة من نوايا الطليان [3] مطالبين بتحصين البلاد ، وتزويدها بالذخائر والمؤن لعام كامل ، عارضين تطوعهم معاهدين الله والشرف والذمة على الدفاع حتى آخر نقطة من دمائهم . فلم يكن الجواب على هذه البرقية إلا وعوداً خلابة بعزم الدولـة على الدفاع عن البلاد (٦٦) ومن خطوات

---

(١) لكي يفتحوا البلاد بعد ذلك لتخليصها من الاهمال وتمدينها ..

(٢) زوج الطليانية .

(٣) ما اسرع الانهيار في دولة ينبه فيها الشعب الحكومة الى العدوان الاجنبي ..

الدفاع هـذه « قامت الدولة بسحب اربعين الف بندقيـة . كانت بالولاية ، بدعوى رغبتها في الاستعاضة عنها بأسلحة جديدة « ولم ترسل غيرها ! » يضاف إلى ذلك انها سحبت الضباط الاكفاء. « وينقل « توفيق برو » عن محمد فؤادشكري « و كان زعماء الاتحاديين قد صرحوا غير مرة بأنهم لا يريقون دم عسكري واحد لصيانـة طرابلس الغرب من اعتداء ايطاليا أو فرنسا أو غيرها . كما عقدت لجنتهم في سلانيك (معقل يهود الدونمة ج) اجتماعاً لبحث مسألة طرابلس الغرب ، فقر رأيهم على عدم تحصينها أو اتخاذ التدابير التي تصونها من أي عدوان مفاجيء وعـدم اثارة القضية في مجلس المبعوثان ثم نشرت جريدة طنين مقالا جـاء فيه ان طرابلس الغرب من الولايات التي لا تفيد الدولة فائدة مالية يعتد بها فعلى الحكومة العثمانية الاقتصاد في الانفاق عليها » ..

وفي البرلمان العثماني ، قال رضـا توفيق : « انني اذكر ان مبعوثي طرابلس الغرب قد وقفوا على هذا المنبر في السنة الماضية ، وقصوا علينا اطماع ايطاليا بوطنهم وما أعدته وما تعده لذلك، حتى بكى هؤلاء المبعوثون،واستبكوا غيرهم . نعم انهم انذرونا يوم كانت تنفع النذر .. وها قـد صح بالفعل ما كانوا انذرونا منه بالقول (٦٧) ..

ورغم كل الجهود والتدابير التي قام بها الخونة الاتحاديون بقيادة لاعب الورق زوج الطليانية ، المؤمن بحضارة ايطاليا .. رغم كل ذلك فان الغزو الايطالي لم يكن نزهة ابداً .. « والأمة الملعونة » قد دافعت عن قرآنها » الذي جاء الصليبيون لمحوه » .

واندفعت الأمة العربية يؤازرها العالم الاسلامي في مقاومة الغزو الايطالي . بعد ان تآمرت بريطانيا وسدت الطريق الوحيد الذي يمكن ان تمر منه المساعدات العسكرية الفعالة وتبين ان السنوسية التي هاجمتها صحف الاتحـاديين المأجورة التقدمية قبيل الغزو الايطالي .. تبين انها حركة ثورية تحريـة واستطاع الضبا

العرب الذين هرعوا لتنظيم المقاومة وقيادة كفاح الشعب الليبي الباسل ان يصدوا الطليان وأن يحجزوهم عند الساحل ويمنوهم بخسائر فادحة .. وكان على ايطاليا ان تنتصر في الاستانة .. وجاء دور الاتحاديين في فرض الصلح ، كما مهدوا للاحتلال ..

وربما كانت « الأمة العربية » تعلن عن نفسها لأول مرة ، وتعلن ذلك ثورياً وتحررياً خلال رفض العرب لمشروع الصلح الذي كان يطبخ بين الاتحاديين والطليان .

وقف النائب العربي خالد البرازي نائب حماة في مجلس المبعوثان يقول :

« ايها الاخوان .. شاع في المحافل بأن الصلح سيعقد ومع انني واثق بالحكومة وامين من وجدان رجالها .. فلنفرض انها استحصلت على فرمان بالاعتراف بالحاق طرابلس الغرب بايطاليا .. فانني أقول باسم: «الأمة العربية » اننا نمسح هذا الفرمان بدمنا ولا نرضى بذلك ، ولو لم يبق عربي على وجه الارض [1] ..

---

(١) هذه هي الحرب التي تتبذل مجلة « الطليعة القاهرية » وتصفها بانها الحرب «الايطالية ـ التركية » وتغمز حركة التبرعات التي قامت في مصر بانها كانت بتاييد كتشنر والامراء ! وتمجد خزي لطفي السيد « الذي دعا الى الحياد باسم سياسة المنافع لا سياسة العواطف » (الطليعة يناير ١٩٦٧) ..

الحقيقة انه يصعب على المرء ان يحتفظ بهدوئه وهو يفكر لمصلحة من يروج مثل هذا الكلام .. واذا كانت بعض التيارات في القاهرة زعيمة العروبة ، تريد ان تروج على استحياء لفكرة بيع العروبة باسم مصالح مصر الخاصة فلمصلحة من يتهجم على تاريخ العروبة ، ولمصلحة من يهان كفاح الليبيين البواسل ، بل ويهدر دور المصريين العربي ..

ان موقف « مجلة الطليعة » من الحرب الليبية سنتناوله بالتفصيل في مناقشاتنا للطفي السيد في الجزء الثاني من هذه الدراسة .. ولكن نود هنا ان نشير الى قضايا جديرة بالتامل « فالطليعة » التي تنسب نفسها للماركسية ، وكاتب المقال ينتسب للماركسية ، ومع ذلك فالمرجع الاصلي للدراسة الداعية للقومية المصرية ، المعادية للقومية العربية ، المرجع الاصلي هو دراسة وضعها سكرتير اتحاد الصناعات في ظل الاحتلال البريطاني وقبل ثورة يوليو بعشر سنوات وكتب تقريظها صدقي باشا .. بل يقال انه هو الواضع لخطوطها الرئيسية ..

ولنعرف مدى نسبتهم الحقيقية للماركسية .. نقرأ تعليق لينين شخصيا على هذه الحرب قال : « من اي نوع كانت هذه الحرب ؟.. لقد كانت حماما داميا متمدنا ، ومجزرة قتل فيها العرب بواسطة « احدث » الاسلحة .. لقد أبدى العرب مقاومة ضارية في بداية الحرب ، كان قادة البحرية الايطالية قليلي الاحتراس بحيث انزلوا الى البر (١٢٠٠) من المشاة البحرية ، فهاجمهم العرب وصرعوا (٦٠٠) منهم . وعلى سبيل العقاب ، ضرب حوالي ٣٠٠٠

عربي حتى الموت ، وقتلت عائلات بأسرها ، وذبح الاطفال والنساء بدون سبب فالايطاليون أمة دستورية متمدينة !.. وشنق حوالي (١٠٠٠) عربي وبلغت خسائر الايطاليين زهاء (٢٠٠٠٠) رجل ، بينهم (١٧٤٢٩) مريضا و (٦٠٠) مفقود و (١٤٠٥) قتلى.. بلغت خسائر العرب (١٤٨٠٠) رجل وبالرغم من الصلح فالحرب لم تتوقف ، لان القبائل العربية ، في قلب افريقيا ، في مناطق بعيدة جدا عن الشاطىء ، تأبى الاستسلام ولمدة طويلة من الزمن سوف يجري تمدينها بالبنادق والحراب والمشانق والحرائق والسياط » .

هذا ما قاله لينين في جريدة البرافدا، (العدد ١٢٩ ـ ٢٨ ايلول ١٩١٢) . وحقا كان لينين ثائرا عظيما .. لانه اولا كان روسيا مخلصا .. فلنقرأ الكلام الرخيص الذي تكتبه الطليعة في سنة ١٩٦٧ .. بعد لينين بخمسة وخمسين عاما : قالت الطليعة « القومية المصرية ضد الجامعة الاسلامية » .. هذه الفترة كانت تتميز بصراع حاد بين تيارين فكريين تيار القومية المصرية ويمثله اصدق تمثيل احمد لطفي السيد ، وتيار الامة الاسلامية ويمثله الشيخ رشيد رضا ، وقد وقع حادثان سياسيان بينا بوضوح موقف كلا التيارين من العلاقة بين مصر والدولة العثمانية ودلالة السياسة .. اما الحادث الثاني فقد وقع عام ١٩١١ عندما غزت ايطاليا برقة وطرابلس الغرب ، وكانتا يومئذ ولايتين عثمانيتين ، ونشبت الحرب بين ايطاليا وتركيا (لو ان ايطاليا يكتب لما واتته الوقاحة ان يتجاهل العرب على هذا النحو) وقامت في مصر حركة لجمع التبرعات لتركيا (لتركيا تأمل !) اعانة لها على نفقات الحرب ، فشجع لورد كتشنر هذه الحركة وشارك بالتبرع (يعني عميلة لانجلترا هل نلام اذا استخدمنا بعض الالفاظ الجارحة في التعليق على هؤلاء ؟ ج) كما قال الامراء بالتنقل على راس الوفود بالاقاليم لهذا الغرض (يعني رجعية كمان واللي يمجد كفاح الليبيين ضد الغزو الايطالي يعتبر من عملاء العهد البائد ، حتى ولو كان لينين شخصيا ج) ولقيت الدعوة لمعاونة دولة الخلافة يومئذ آذانا صاغية من الجميع (جهل) !ج والناس ينظرون الى موقف انجلترا دهشين كيف تشجع دولة اسلامية على دولة مسيحية (تزييف للتاريخ .. فانجلترا طعنت الحركة الوطنية هناك باغلاق الحدود المصرية . وما كان بوسعها ولا من مصلحتها ان تدخل حربا اخرى في مصر بمنع حركة التبرعات ، تماما كما لم تستطع ان تمنع الجيش المصري من دخول حرب فلسطين ، ولكن الذين كتبوا ان دخولنا حرب فلسطين كان استجابة للاستعمار وان الاولى بنا ان نهتم بتحرير مصر من الاستعمار بدلا من الاهتمام بامر فلسطين التي كانت حربها تناقضا انجليزيا امريكيا .. وتصارع مصالح بين الرجعية المصرية والرجعية الاردنية يعودون اليوم فيزيفون تاريخ العرب كله ج) وبينما كان الناس في الفترة الاولى من هذا الاندفاع القوي لمعاونة دولة الخلافة ، اذ بلطفي السيد يطالعهم في الجريدة بثلاث مقالات في ثلاثة ايام متعاقبة عنوانها جميعا « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » يدعو فيها المصريين الى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الايطالية التركية (تاني ؟!) والى الضن باموالهم ان تبعثر في سبيل قل ما تفيد بلادهم منه ، ويذكرهم بأن من الخير ان يبذلوا هذه الاموال لخير مصر لانشاء المرافق المصرية النافعة لابناء الوطن . وقد

وقال النائب العربي خالد البرازي : « أيها الاخوان ان طرابلس الغرب قد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٣ هـ وقد مر عليها الآن نيف و ١٣٠٠ سنة ، وهي في يد الأمة الاسلامية فهي اذاً لنا بمثابة لروح من الجسد وعلى ذلك اختم قولي بأن طرابلس الغرب باقية وستبقى بيد الامة العثمانية إلى الأبد (٦٨) .

ورد سيدي احمد شريف السنوسي بطل المقاومة على عروض الصلح بقوله : ونحن والصلح على طرفي نقيض ، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه اذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد للعدو (٦٩)

وكما ظهرت الجامعة الاسلامية في الصراع ضد الاستعمار الغربي ، فقد ظهرت حركة القومية العربية في مواجهة هذا الاستعمار وخلال فضح ومقاومة الدور الخياني الانهزامي الذي لعبه الاتراك ..

والكفاح ضد الاستعمار الغربي هو الميدان الوحيد الذي يجب ان نتتبع فيه

اثارت هذه المقالات (تقول دراسة الطليعة) الثلاث على لطفي السيد عاصفة هوجاء اتهمه بعضهم بمناوأة دولة الخلافة الاسلامية ، واتهمه اخرون بالالحاد (ابداً .. بالخيانة الوطنية لا اكثر ولا اقل) وحملت عليه الصحف على اختلاف الوانها حملة شعواء مما اضطر لطفي السيد الى الانسحاب وترك الجريدة يتولى امرها غيره من محرريها ولطفي السيد هو المفكر الذي وضع نظرية متكاملة عن الامة المصرية ، وقام بالدعوة الى القومية المصرية مبينا مضمونها وعوامل تكوينها والقاعدة المبنية عليها فعلى يديه نضجت فكرة القومية المصرية ، الطليعة يناير ١٩٦٧ ..

وبعد .. فاذا كان البعض قد قرر التخلص من « الامة العربية » ورأى ان الوقت قد حان للعودة لحكاية الامة المصرية من جديد ، فهل من الضروري ان تكون هذه الامة المصرية معادية لكفاح الشعب العربي في ليبيا ، متنكرة لماضيها التحرري ، متعاونة حتى مع الاحتلال الايطالي .. وا أسفاه .. ان كاتب « الجريدة » قد وجد في عام ١٩١١ اقلاما عربية حرة تجبره على الانسحاب من المسرح السياسي بعد مقالاته المخزية .. ولم يجرؤ بعدها على العودة الى السياسة الا بعد الحرب ليتآمر مع حسين رشدي والانجليز على اعلان الحماية على مصر وليدعو على صفحات « الجريدة » للقتال الى جانب الانجليز .. وهو الذي دعا الى الحياد بين ايطاليا وليبيا الامر الذي ادهش هيكل باشا شخصيا ! وا أسفاه .. ان محرر « الطليعة » لم يجد بعد من يجبره على الانزواء رغم اننا دولة مستقلة ودستورنا ينص على اننا جزء من الامة العربية بل نحن نتصدى لقيادة الامة العربية.. بل المدهش انه انتدب مستشارا فنيا لوزير الثقافة !

آثار الحركة القومية وتطوراتها .. فالذين آمنوا بالجامعة الاسلامية في مواجهة الغرب هم الذين دافعوا عن الوطن العربي وآمنوا بالامة العربية والوحدة العربيـــة ، وجادوا بالدم دفاعا عن الوطن ، ووقفوا مع ليبيا ..

نعود لحديث الخيانة في اسطمبول .. فقد تم الاتفاق على ان تعلن تركيـــا استقلال طرابلس وبرقة ، لكي تضمها ايطاليا (فهذا هو مضمون « الاستقلال » ومعناه في هذه الفترة عندما يتحدث عنه الغرب وعملاؤه .. كانت بريطانيا تحمي استقلال مصر من الاستعمار التركي) .. وفرنسا تطارد السفينة التونسية المتوجهة للاستانة للحصول على فرمان بتبعية تونس لتركيا .. حرصاً على « استقلال » تونس التي كانت في جيب وزير خارجية فرنسا كما أعلن في مؤتمر برلين قبل احتلال تونس .. وايطاليا تضرب السواحل التركية بمدافعها لاجبار السلطان على اعلان استقلال برقة لم يكن هذا الاستقلال يعني في هذه المرحـــلة سوى التبعية للاستعمار الغربي ، بينما كانت الرابطة مع تركيا تشكل سداً ولو واهيـــاً ، سداً قانونياً ضد الاستعمار الحقيقي » ..

وفي رقاعة نادرة أصدر السلطان منشوراً لأهالي طرابلس وبرقة « يمنحهم فيـــه استقلالا داخليا مطلقاً وتاماً اهتماماً منه بضمان راحتهم وهنائهم حاضراً ومستقبلاً وفي ادخال الهناء والسلام إلى وطنهم » وتبعه ملك ايطاليا بمنشور « يعلن فيه العفو التام في المقاطعتين ــ الخاضعتين خضوعاً مطلقاً للسيادة الملكية الايطالية وحرية أقامة شعائر الدين الاسلامي كمـــا كانوا في الماضي ، والمواظبة على ذكر اسم السلطان بصيغة خليفة المسلمين في الصلوات العامة (٧٠) .

وتمت الخيانة !

يقول توفيق برو : « كان لهذا الصلح اثره السيء على موقف العرب في طرابلس الغرب ، ذلك انه جرى دون علمهم ورأيهم ــ فـــلو استشيروا أو اطلعوا على نية

الدولة في الصلح لفكروا في مصيرهم واستعدوا لمواجهته بما لديهم من الامكانيات غير ان مباغتتهم به قد حل من عزائمهم وثبط من هممهم ، صحيح انه لم يكن هناك كثير من جنود الترك في طرابلس ، إذ لم يكن عددهم يزيد عن (١٥٠٠) شخص غير ان الطرابلسيين حرموا بعد ابرام الصلح من معاونة الضباط الترك ، فضلا عن الجنود كما حرموا من المساعدات المالية التي كانت ترسلها الدولة اليهم في حدود مائة الف جنيه في كل شهر [١] ومن شحنات الاسلحة التي كانت ترسل اليهم من قبل الدولة العثمانية بطريق البحر » .. « في الحقيقة كان عمل الحكومة العثمانية بمثابة تسليم العرب لاعدائهم ، إذ تضعضعت نفوسهم ، وقطعوا أملهم من مساعدة الدولة ودعمها لهم ، حتى اضطر « عزيز المصري » الذي بقي في المنطقة يدير القتال بعد انسحاب « انوربك » وخليل بك وفتحي بك « واسواهم من الضباط الذين كان عددهم يربو على ١٥ ضابطاً اضطر « عزيز المصري » إلى ترك طرابلس الغرب وبرقة عائداً إلى الاستانة عن طريق القاهرة بعد تسعة اشهر من ابرام الصلح ، وقد أدلى بحديث إلى جريدة « لانوفيل » الفرنسية قال فيه ان توقف سليمان الباروني عن قتال الطليان واستسلام عشرة الاف عربي إلى هؤلاء بسبب قطع مياه الشرب عنهم والجوع الذي فتك بهم وببقية السكان جعل الايطاليين يحولون هجومهم على « عزيز المصري » فأدرك عدم أمكان مواصلة القتال في المنطقة فتركها وانسحب منها ، خاصة وأن الايطاليين كانوا قد شرطوا على الدولة ان ينسحب جنودها وضباطها من البلاد مع أسلحتهم من غير ان يتركوا منها شيئاً لأهل ليبيا » ..

« ذلك بعد ان كان القتال في طرابلس الغرب آخذاً في الاشتداد وكان العرب يبذلون من ضروب الاستبسال حداً منع الايطاليين من التوغل وأوقفهم عند خط الساحل . وقد ظهرت بعض المقالات في الجرائد تنكر على الدولة هذا الصلح ، بشدة وتعلن إن العرب سيدافعون عن طرابلس إلى آخر نقطة من دمائهم (٧١) ..

---

(١) من تبرعات العالم الاسلامي ..

كما دلت احاديث بعض أعيان العرب إلى مراسلي تلغراف بأنه إذا كان الصلح على هذه الشروط لا يفضي الآن إلى حركة خطيرة بسبب ان حرب البلقان تشكل عذراً للدولة في قبولها فلا بد من وقوع حوادث اليمة في المستقبل ، وإن المراسل قد سمع باذنيه عبارة : « إن الترك قد سلموا العرب لاعدائهم » وعبر بها بعض هؤلاء الاعيان عن سخطهم ونقمتهم على الدولة (٧٢) .. وانكروا ، وخاصة منهم الطرابلسيون ، عمل الدولة واكبروه (٧٣) .

وقد كان ..

وجاء دور الحوادث الاليمة .. وبدأ التفكير الجدي في الانفصال ..

الفصل الرابع

استنزاف العرب

ولنعد الآن لنلقي نظرة لنعرف كيف دفـع الاتراك « العرب » للانفصال بسياستهم الحمقاء ، والعنصرية التي كان يوجهها مخربون واعون ، يدركون كيف تمزق الدول ، وتفتت وحدة الأمم ..

وقد بدأنا الحديث عن الخيانة الوطنية ، لأننا نعتقد أنـه لو اقتصر جرم الاتراك على التنكيل والاستبداد بالعرب .. ووقفوا في نفس الوقت موقفاً صلباً من الغزو الغربي .. لما كان الانفصال محتوماً .. ولفكر العرب طويلاً قبل أن يقرروا الانفصال ، لأن الضمير الوطني، والوعي الصادق للشعوب يغلب الأصلي على الفرعي . والقضية الأولى كانت مواجهة خطر الاستعمار الغربي ، ومن ثم كان بوسع الأحرار العرب ان يعالجوا استبداد وعنصريـة الأتراك لو أن هؤلاء كفلوا حكماً وطنياً ..

أما وقد تبين أن الاستمرار مع الترك هو أقصر الطرق للوقوع في يد الاحتلال الغربي ، فقد وضح الطريق الآخر .. الذي مهدته اعمال الاتحاديين .

جاء صبية الاتحاد والترقي إلى السلطة وفي أوهامهم انهم سيقيمون دولة استعمارية على الطراز الاوربي . هم فيها بريطانيا أو فرنسا ونحن الهند والترنسفال والجزائر وتونس ! .. بل كانوا يحملون مشروعات أبعد مدى وأكثر طموحاً ، قرروا تتريك الامبراطورية بعد أربعة قرون . . وبعد ما أصبح الترك اكثر اجزائهـا عبئاً عليها !

وأثاروا هم نعرة القومية بالحديث عن القومية الطورانية .. ضد من ؟! ضـد

وعاياهم !.. والنتيجة الوحيدة هي التفتيت[1] والمفروض ان الحركة القومية تنشأ ضد قومية كبيرة وتضطهد القومية التي تمثلها الحركة الناشئة .. أما لو رفعت القومية الكبرى أو المسيطرة لواء القومية ، فهي تحمل لواء تدميرها بنفسها ، ولم يحدث في التاريخ ان اثار الحاكمون حرب القوميات الا ما حدث في حالة الترك ..(٢)

ويمكننا القول جادين كل الجد ، ان « النهضة » التركية تدين حقاً بوجودها لروسيا القيصرية .. فلم تقتصر خدمات القيصر « للأحرار » الاتراك ، على مشورة رجال السفارة الروسية ، ولا قيام بحارة الأسطول الروسي بتوزيع المنشورات « الثورية » التي لو ضبط أحدهم يقرأها أو يحملها الى ميناء روسي لقضى بقية عمره ان كان محظوظاً في سيبيريا .. بل امتدت خدمات الروس الى حد اختراع القومية التركية .. أو دق المسمار الأخير في نعش الدولة العثمانية .. وبذلك تحققت رسالة روسيا المقدسة التي حمل لواءها بطرس الأكبر .. الرسالة التي كانت تتلخص في استعمار الولايات الاسلامية الاسيوية وطرد المسلمين من اوروبا وسحق الدولة العثمانية ..

كان الأتراك كما قلنا ـ هم أول من بدأ حرب القوميات وأشعلوا نارها في بيتهم .. ويؤرخ « توفيق برو » بداية الحركة الطورانية بجمعية « ترك درنكي » وكان تأسيسها في ٥ ديسمبر ١٩٠٨ (مع فجر الحركة الدستورية) ..

فمن هم مؤسسها ؟!!

« كان من مؤسسيها بعض من عرفوا بشديد تعصبهم للقومية التركية أو الرابطة

---

(١) تكرر الحركات القومية اليوم نفس الخطيئة باثارتها القومية العربية العنصرية اللادينية ضد القوميات الصغرى التي تعيش معها في سلام طوال القرون الماضية والنتيجة هي دفع هذه القوميات للانفصال .

(٢) تأمل مثلاً موقف روسيا السوفيتية لانها هي القومية الكبرى المسيطرة جعلت من القومية جريمة .

الطورانية مثل زعيمه يوسف آقجوره ، وأحمد فريد بك ، وحسين جاهد وأحمد غاييف » ..

من هو يوسف اقجوره ؟! [1]

« من نواحي قازان على الفولجا في روسيا ، ومن اتراك روسيا ، درس اولا في جامعة لورنبورغ في روسيا.. ثم واصل الدراسة بمدرسة العلوم السياسية في باريس ثم جاء بعد الانقلاب الدستوري الى الاستانة وانغمس في العمل السياسي مع اتراك تركيا الفتاة . كان من آرائه ان تتخلى الدولة عن البلاد العربية لتشكيل دولة قومية في الاناضول .. »

ومن هو أحمد اغاييف ؟! .

هو أيضاً من أتراك روسيا « تركستان » جاء الى الاستانة بعد الدستور وتخلى عن جنسيته الاصلية وتجنس بالجنسية العثمانية وبدل اسمه من أغاييف وجعله أحمد آغا اوغلي .. وأصبح مدرساً للتاريخ التركي في المدرسة الحربية . . كان من غلاة الدعاة للجامعة الطورانية ، ومن أكبر مسببي الخلاف بين الترك والعرب .. »

« وأسس القوميون الروسيو الاصل في ديسمبر سنة ١٩١١ .. مجلة المواطن التركي « تورك يوردي » الاسبوعية وقد انطلقت الحركة القومية من اتراك روسيا النازحين الى الاستانة الذين كانوا قد نفوا في عهد عبد الحميد وأقامت لهم الثورة فرصة العودة والعمل لأفكارهم القومية (١).

اذن فليست بريطانيا وحدها هي التي لديها مخابرات وليست بريطانيا وحدها هي التي اخترعت حكاية لورانس والحاج عبدالله جون فيلبي !..

---

(١) من الغريب ان الاستاذ الحصري لم يجد الا آقجوره هذا يستعين به في آراء الافغاني في القومية والاسلام .

وإلى جانب الخبراء الروس في القومية التركية كان من مؤسسي «ترك درنكي» (المحفل التركي) اشترك في بحوثه العلمية مشاهير من العلماء المستشرقين مثل البروفسور «غوولاوسكي» والدكتور «قوه جون» والبروفسور «ماونان هارتان» .. عكف هؤلاء على اكتشاف كل ما يتعلق بالشعب التركي من تاريخ ولغة وخصائص عرقية وحضارة وأدب وحياة اجتماعية.. والعمل على اعادة الطابع الأصلي القديم للغة التركية ..»

نفس المسعى «الحميد» الذي كانت تقوم به عصابة ويلكوكس في القاهرة بتنقية اللغة المصرية (العامية) من الشوائب التركية والعربية أيضا.. ونفس الجهد الذي كانت تبذله الارساليات ومدارس المبشرين في اكتشاف خصائص القومية السورية والكيان البربري .. الخ ..

عملية تدمير واسعة النطاق تجذب أركان البناء لكي ينهار الصرح .. ويكتسحها جميعاً الطوفان الاستعماري ..

وقد تنبه العرب الى خطورة اللعبة الجديدة .. العرب الحرصاء على استمرار الوحدة العثمانية، وكتب الشيخ رشيد رضا سلسلة مقالات في نقد هذا الاتجاه، ولكن الجريدة التركية رفضت ان تنشر له ما يتعلق بمشروعات اصلاحات اللغة التركية، وقال الشيخ ان هذا الاصلاح المزعوم هو بيت القصيد في مقالاته (٢).

وكان هدف هؤلاء الداعين للقومية التركية هو تدمير الوحدة العثمانية .. «كان ظهور الخط الأول من خطوط اليقظة القومية التركية بين العقائديين من فتيان الترك عبارة عن روح ثوري ضد فكرة الرابطة العثمانية، فالى أوائل القرن العشرين أو قبلها بقليل، لم يكن يجول في خواطر رجال الدولة والمثقفين أو غيرهم من عامة الناس، فكرة القومية التركية . وأما بعد اعلان الدستور، فقد أخذت الفكرة شكل تيارات قوية واضحة فتألفت الجمعيات والنوادي وأصدرت المجلات لتنظيم نشرها (٣) .. وبعد ثلاثة أشهر من اعلان الدستور وسط الفرحة الطاغية التي

اجتاحت العرب .. سارع « حسين مجاهد » يكتب في صحيفة « طنين » يعلن ان الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية ، وأن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين ، فلا مجال إذن للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الاخرى ، وان الدستور العثماني لا يمكن ان يكون في شكله النهائي إلا دستوراً تركياً (٤) ..

ولأن الهدف الحقيقي للذين يحركون الخيوط لم يكن التتريك بل التمزيق .. ودفع العرب إلى احضان الاستعمارية الغربية .. فقد صاحب الفعل القول .. بل غالباً ما كان القول أعلى نبرة واكثر استفزازاً من خطوات التتريك التي اتخذها الدستوريون الجدد ..

وبدلا من سياسة « عبد الحميد » التي كانت تقوم على تقريب العنصر العربي والاعتماد عليه وكسب وده ، نرى « الدستوريين » يخصون العرب (والالبان) باستبدادهم واضطهادهم فقد عزلوا في وقت قصير زهاء بضعة عشر متصرفاً عربياً (٥) ولم يبقوا من العرب في وزارة الخارجية التي كانت تضم ما يقرب من ستمائة موظف، بينهم ١٢ عربياً .. لم يبقوا سوى عربي واحد (٦) ..

وشكل مجلس المبعوثان على نحو يجعل لممثلي العرب أقل من نصف المقاعد الواجب حصولهم عليها وفقاً لنسبتهم العددية ، ورشح لهم الاتراك نوابا اترا كا في الدوائر العربية ، وأبدوا – دهشتهم من أن الأهالي لا يعرفون التركية ..

ورغم ذلك دافع بعض انصار الوحدة عن ذلك ، وحاولوا ان يجدوا له مبرراً ، اصراراً منهم على تقديم الكلي على الجزئي .

وجند العرب الواعون انفسهم لانجاح مرشحي الاتحاد والترقي الترك حتى في الدوائر العربية وانتقد الشيخ رضا السيد طالب النقيب لأنه نافس الاتحاديين في انتخابات البصرة (٧) وهو الذي تبرع بمركب بحري لمواجهة الضغط البريطاني

عقب اعلان الدستور ، وهو الذي ظل يحارب الاستعمار البريطاني إلى ان خطفوه ونفوه ليخلو الجو لفيصل ..

ورشيد رضا ظل مخلصاً لفكرته حتى تجاوز الأمر كل حد ، فقد كان يدافع عن الاتحاديين إلى حد التعرض للضرب في المسجد الأموي ، على جلالة قدره ومكانته.. بل وضرب فعلاً في طرابلس ..

وعين وزير الأوقاف العربي ، أربعة مفتشين من العرب في الوزارة التي كانت تضم أكثر من ٥٠٠ موظف ، فهاجمته الجرائد التركية (٨) وخرج من الوزارة ثم استقال خليفته الشريف علي حيدر .. وخلت الوزارة العثمانية من وزير عربي .. من ديسمبر ١٩١٠ إلى الهجوم الايطالي على طرابلس .. بينما كان في الوزارة مقعداً للارمن وآخر للاغريق .. وغفل العملاء الدستوريون عن مقعد العرب ! وبعد الحرب تشكل الحكومة مرة اخرى مع استبعاد الوزير العربي » واعطاء ثلاثة مقاعد لليهود هم مازلياح افندي وبنساريا الفلاقي ، وجاويد بك يهودي الأصل من الدونمة .. وذلك بالرغم من ان الوزارة قد شكلت بعد حرب البلقان التي ادت هزائم الأتراك فيها إلى انسلاخ الولايات الاوربية وأصبح العرب الاغلبية المطلقة على جميع عناصر الدولة بما فيها الترك .. وكان للارمن ١٥ نائباً ولهم في الوزارة مقعدان ، والعرب سبعون نائباً واحياناً تخلو الوزارة منهم أو يفوزون بمقعد واحد لا غير (٩) ..

وينطع « القوميون » الترك .. فيردون على سؤال النواب العرب حول اسباب خلو الوزارة من العنصر العربي .. يردون بأنه لا يوجد بين العرب من هو كفء لهذا المنصب !

ويكتب احمد اغاييف (الروسي الأصل والتخابر) يهاجم الغربيين الذين تحمسوا طبعاً للدفاع عن العرب .. « انكم تأخذون علينا اسلوب معاملتنا للعرب (كذا) فلتسمحوا لي ان أقول لكم .. انكم لا ترون الخشبة في اعينكم وتنظرون إلى القشة في اعيننا ، وطالما ان أمامكم قضايا مثل قضايا ايرلندا وفنلندا والجزائر فالأفضل

الا تقيموا من أنفسكم اساتذة للفضائل » .

وعن اللغة العربية يفتي « احمد اغاييف » الروسي « انها لغة ميتة (١٠) ..

ولأن الهدف كما قلنا هو التمزيق على نطاق واسع .. فقد كان مدبرو العملية لا يكتفون بما ينشر في الصحف التركية من التهجم على العرب ، بل كانوا يرسلون مقالاتهم المسمومة لتنشر في الاهرام والمفيد وغيرهما من الجرائد المصرية والسورية، وتفتح الأهرام صفحاتها لحوار مفتوح مثمر خلاق طبعاً بمشورة السفارة البريطانية والدوائر الفرنسية على أغلب الظن حوار بين « تركي حر » وعربي حر » ..

يقول التركي الحر مخاطباً العرب !.. « اليست حكومة انجلترا ديمقراطية وليس في مجلس نوابها هندي (!) ولا ترانسفالي ولا كندي ؟ وهل حكومة فرنسا استبدادية لأنه ليس في مجلس نوابها وبين ولاتها وقواد جيشها ، تونسي أو جزائري .. ألا يجوز للاتراك أن – يفعلوا فعل الفرنساويين والانجليز .

ويبدو أن كل ما حققه الدستور هو حرية التهاجم على هذا النحو لتخريب كل شيء .. فما كان ثمة من يجرؤ على ترديد مثل هذا القول في عهد الاستبداد الحميدي بل كان ينفى كل من ينبس بحرف عن القومية التركية ..

وما من حكومة تعمل لحسابها تبذل كل هذا الجهد في تأليب رعاياها ضدها ! لأن للحكم – كما قلنا – فلسفته ولو أن العناصر التركية هذه ، كانت مجرد عناصر فاسدة فكرياً ، ومؤمنة بفكرة القومية التركية ، لكان موقفها قد تغير بمجرد وصولها للسلطة فالنظريات شيء وخاصة في المعارضة ، والسياسة الواقعية شيء آخر .. ووصولهم إلى السلطة كان سيضعهم امام مسؤولية حماية الدولة وبالتالي تنحية الشعارات ، وفهم ما وصل اليه عبد الحميد رغم استبداده – ورجعيته . . ولكن « الثوار » الجدد كانت تحركهم أصابع أجنبية وبالتالي كانوا يعملون ضد مصلحتهم الواضحة كفئة حاكمة وهذا يفسر قول « الماريشال فون درغولتز » « ان جمعية الاتحاد والترقي كانت منذ نشأتها إلى اليوم ألد أعداء نفسها وأعظم خطر على

كيانها (١١) .

ويقول أحمد أمين : « وطالما بقي الاتراك غير مبالين بفكرة القوميــــة بقيت الخلافات العرقية محصورة في حدود الثورات المحليـة المحدودة المنبعثـة عـن بعض الظروف الخاصة ، ولكن لما أخذت الفكرة القومية بمشاعرهم واستحوذت على قلوبهم ، بقوة وثبات لم يكن من الممكن تجنب اصطدامات قوية وعنيفة ومستمرة فأخذت العواصف تكتسح بشدة ما أمامها بدون شفقة أو رحمة (١٢) .

ويقول وليام بولك : « عندما وصل أنصار تركيا الفتاة إلى السلطة مـارسوا سياسياً التريك على نحو لم يحاوله أي حاكم عثماني من قبل. بدأت المدارس تعلم اللغة التركية ، وتؤكد عظمة الأتراك وفضائلهم .. وهذا الموقف الجديد من جانب الاتراك يدفع العرب إلى البحث لانفسهم عن كيان متميز عن العثمانية، وأيضا عن الاسلام » ويؤكد ان أكثر المراقبين الأجانب تحمسا ما كان ليجد أثراً للقومية العربية الا فيما ندر ، قبل اثارة الاتراك لها ، وان الفكرة الاساسية جـــاءت من أوروبا وأمريكا .. وان الدين قد استبعد كأس الاساس ما دام الأتراك كانوا هم أيضاً مسلمين . بينما كثير من المفكرين العرب كانوا مسلمين . . ومن ثم كان الرجوع الى التاريـخ العربي قبل الاسلام (١٣) ..

شن العملاء حرباً مسعورة ضد العرب .. إلى حـد دعوة العرب المسيحيين إلى التخلي عن العروبة «لأن لهم من شرف المحتد ما يغنيهم عن الانتماء للعنصر العربي (١٤) وكانت كل الاجهزة الاستعمارية العلنية والسرية ، السياسية والدينية تحاول كسب المسيحيين العرب .. فيأتي هؤلاء الاتراك ويساعدونهم بدفعة في الظهر ولا نـدري ماذا سيصبح المسيحيون العرب إذا ما اعتزوا بشرف محتدهم هذا ، ورفضوا الانتماء للعرب ؟.. هل سيصبحون تركاً ؟! أم فرنسيس وروساً وبريطانيين .. وهو مـا كان يسعى اليه مدبرو الأحداث ! ..

ويكتب احدهم : « اني أرى من الفضول مداخلة نصارى العرب ، فيما يدور

بين العرب والترك لأن الترك لا يتصورون إذا ذكروا العرب ، غير المسلمين ، إذ هم لا يتعقلون وجود عربي يقول بالوهية رجل اسرائيلي .. »

وكان جل زعماء الاتحاديين اما ماسونيين ، أو يهوداً دونمة . أو يهوداً صرحاء ومن يهود الدونمة هؤلاء « جاويد بك» الذي وصف العرب بأنهم « العرق الأسود » .

وما كانوا يألون جهداً في استفزاز المسلمين لا بسلوكهم المنحل والذي وضع في اصابة قيادتهم بالزهري [1] بل بما يكتبونه من مقارنات بين جنكيز خان جدهم ورسول الله ﷺ .. ويحفظ الأمير الشهابي هذا البيت لشاعر تركي وضيع :

جد مز جنكيز خان عاقلد ربزم ..

جد مز جد الحسينه هم معاد لدربزم ..

ومعناه :

جدنا نحن جنكيز خان العاقل .. وجدنا نحن معادل الجد الحسيني !

ومع الحملة العسكرية الخاسرة، بل والتي دبرتها الخيانة تمهيداً لتسليم ليبيا والبلقان مع هذه الحملة العسكرية وما حملته لنفوس العرب من مرارة تقتيل اخوانهم في الدين والجنس .. تندفع الصحف التركية في استفزاز العرب ..

فتكتب صحيفة « طنين » : « لا وسيلة لاصلاح اليمن غير اتباع الاسلوب الاستعماري - الانجليزي . وأنه لعار على العثمانيين ان يكونوا اقصر باعاً وأقل نجاحاً . ان ثلث فيلق تام الأهبة ، مدربا تدريباً حسناً ، إذا اقترن اليه انتداب المأمورين الاداريين الأكفاء - كان كافياً لتنفيذ الاصلاحات الموافقة لحالة البلاد..

---

(١) يقال ان اتاتورك تاب وهو على فراش الموت ودعا شيخ يتلو عليه القرآن (على الطراز الكاثوليكي !) وطلب ان يدفن وفقا للشريعة الاسلامية .. والله اعلم بعباده ..

على انه يجب انتقاء هؤلاء المأمورين الملكيين من قوم نزهـــاء مثقفين أقوياء عارفين بالعربية وواقفين على أساليب الاستعمار الاداري الانجليزي وبغـير ذلك لا يرجى اصلاح »[1] .

ويرى مؤلف « العرب والترك » .. ان المقال الذي نشر في جريدة « اقدام » بتاريخ فبراير ١٩١٠ ، كان له دور فعال في الانقسام العربي والتركي .. والمقال يتحدث عن اليمن كتبه ضابط تركي يقول فيه : « ان أهل اليمن يعبدون المال ، وأنهم في سبيل المال يضحون بكل شيء حتى بأعراض نسائهم » .

وعلى اثر نشر المقال ، هاجم الطلبة العرب في الاستانة مقر الجريدة وحطموها وعمت المظاهرات بيروت ودمشق وحلب ونشبت حرب صحفية حول المقال بين الصحف التركية والعربية .

ولم يقتصر اضطهاد العرب على الشتائم والاضطهاد الوظائفي .. بل امتـــد كما رأينا الى الحملات العسكرية ، والاستبداد السياسي والقتل والارهاب .. ثم محاولات التتريك الساذجة بفرض اللغة التركية كلغة رسمية لجميع المعاملات فيهـــا القضاء ..

ولم ينس الاتحاديون ، الألبان ، باعتبارهم الولاية المسلمة الوحيدة الباقيـة في اوروبا .. فصفعوا الزعيم الألباني « اسماعيل كمال » على وجهه ، وتوعدهم الرجـــل الذي افنى حياته في محاولة الابقاء على الدولة العثمانية ونفـــذ وعيده .. وانفصلت البانيا ..

والقصة كما يرويها توفيق برو نقلا عن الأهرام والمؤيد .. وزمنهـا عشية الهجوم الايطالي على طرابلس .. ولذلك لا يجوز ان نتمسك بدقة وموضوعية الاستاذ توفيق برو .

---

(١) المقال نشر بجريدة طنين التركية .. واعادت الاهرام نشره بالعربية ربما لخدمة الحوار المفتوح ! ١٩٠٩/٧/٣١ توفيق برو .

برو الذي يفسر الحادثة برعونة حقي باشا (زوج الطليانية - ولا يخفى اطماع ايطاليا في البانيا) ..

يقول : « كان زعيم الألبان الشيخ الوقور اسماعيل كمال بك نائب برات ، هو - الأب الروحي - للمعارضه ورئيسها في مجلس المبعوثان ونافخ روح الحماس فيها .. وهذا ما كان يعرضه لانتقام الاتحاديين ومحاولتهم اذلاله غير مبالين بالنتائج ، وهكذا حتى تسببت رعونة الصدر الأعظم «حقي باشا» لحدوث هذه الحادثة التي هزت أركان المجلس هزاً وزعزعت - قواعد الاتحاديين من أساسها ، الا وهي حادثة صفع هذا الزعيم الكبير ، اسماعيل بك ، رئيس حزب الاحرار المعتدلين وذلك حينما جرت مناقشة بينه وبين الصدر الاعظم المذكور اذ وجه الاتحاديون اليه تهمة الرشوة ، فنفاها ، وغمز بالمقابل من قناة الحكومة مشيراً من طرف خفي الى تهمة مماثلة فهبت العاصفة ، وأضاع الصدر الأعظم (جوز الطليانية) سكونه وهجم على اسماعيل كمال بك ، طالباً منه بالحاح أن يكرر العبارة التي تفوه بها بحق الحكومة . ولما وصل اليه ، أمسك بذراعه ووضع يده عليه، عندئذ أسرع النائب الاتحادي درويش بك . وجاء من وراء حقي باشا، وسبقه في إرسال صفعة قوية على وجه اسماعيل كمال بك . فعد الحزب المعارض من النواب العرب والألبان وغيرهم من العناصر ، ذلك اهانة لهم جميعاً، وأخذوا يصيحون ويهددون ويرغون ويزبدون وتعطلت الجلسة وقام أحد النواب الأرناؤوط وصاح بالاتحاديين : « اعلموا انكم صفعتم ألبانيا بأمرها وسوف تبكون » وأرسل الألبان على الفور برقية إلى رئيس المجلس بأنهم يعتبرون الاهانة موجهة اليهم جميعاً .. ومن حينها تغيب اسماعيل بك عن المجلس وطال غيابه ، وشاعت اخبار بأن الأرناؤوط الألبان سيأخذون بالثأر ، بالفعل حصلت ثورة الماليسور الكاثوليك في البانيا مع بقية الالبان (١٥) .

حقاً ما أروع الحبل الذي أعطاه بحارة الاسطول الروسي ومخابرات بريطانيا وفرنسا للاتراك لشنق أنفسهم ..

دستور .. وبرلمان ! .

ورحم الله عبد الحميد ...

الحركات العربية المشبوهة

حاول الاحرار العرب أن ينقذوا الدولة العثمانية بتدبير انقلاب على جماعة الاتحاديين .. وفشلوا .. ثم بمحاولة تشكيل حزب معارض يدعو إلى اللامركزية في الحكم .. لكي تنتقل المسؤولية للعرب بعيداً عن تخريب وتفريط العملاء الاتراك .. ولكن الاتحاديين الذين بددوا التراب العثماني . . لم يبق في يدهم إلا الولايات العربية فشددوا قبضتهم على هذه الولايات ومن ثم لم يبق امام العرب إلا الانفصال .

كان العرب يسعون الى انقاذ العروبة والاسلام .. أولا بالوحدة مع الاتراك في الجامعة الاسلامية العثمانية .. وأخيراً بالثورة على الاتراك ورفع شعار القومية العربية ..

والتطور السليم الذي نتتبع خطاه ، هو التطور الذي لا يفصل بين العروبة والاسلام ، والذي يرى القومية كحركة معادية للغرب .. فهي القومية التي ارتفعت شعاراتها في مقاومة الغزو الاوروبي الصليبي الاستعماري ، وليس ضد الاسلام ، أو الاستعمار التركي المزعوم بحماية اوروبا وبتدبيرها ..

القومية العربية التي ننتمي إليها ، هي التي اصطدمت بتركيا بسبب عمالة حكام تركيا لاوروبا وليس لمنافسة هؤلاء الحكام لاوروبا على استعمارنا .. فهذه الفرضية ،

التي تزعم وجود استعماريين : التركي .. والاوروبي .. وأن خصوم هـذا كانوا عملاء لذاك .. وان الوطنية الحقة هي تلك التي انفصلت عنها .. نظرية وهمية من ترويج عملاء الاستعمار الاوروبي .. وواقع الحال يؤكد ان الذين ادعوا الحياد ، كانوا في الحقيقة يعملون ضد الحركات الوطنية في بلادهم ، وأن حديثهم عن الاستعماريين كان من قبيل بلبلة الحركة الوطنية في هذا الوقت واخفاء عار عمـلاء الاستعمار الحقيقي .. الاستعمار الاوروبي ..

وقد قام الحكم الدستوري – كما أوضحنا – بكل ما يستطيعه لاستفزاز العرب ودفعهم إلى الانفصال أو اليأس والارتماء في أحضان الحماية الاوروبية ..
وكانت هذه الحماية في الانتظار .. بل وتعمل على تهيئة الجو منـذ سنوات طويلة ..

وكما تلقفوا الحركة الاصلاحية على نطاق الدولة العثمانية فشوهوها وأجهضوها وسمموها بأفكارهم .. ودسوا فيها بعملائهم .. فقد قضوا على التطور الممكن الذي آمن به زعماء الاصلاح منذ الافغاني .. وهو قيام دولة عظمى ، عصرية اسلامية ، تضم العرب والترك وتصد عن الشرق الزحف الاستعماري وتحررما وقع منه في شباكه ..

وكلما وعينا ما حققه الاتحاد السوفيتي من تقدم بعـد ثورته التي اقامت دولة عصرية من خليط متنافر من قوميات يربط بينها تاريخ عدائي وذكريات مريرة من القهر والكبت وتفرقها كل العوامل .. كلما زاد حقدنا على الذين اعملوا معاول الهدم في هذا الأمل الذي لاح لنا نحن الشعوب المسلمة .. بقيام دولة اتحـادية أو متحدة تضم العرب الترك .. كم من مآس كانت ستمنع .. وكم من تاريخ كان سيتغير . فلما تحطم هذا الأمل على يد الاتحاديين وبدأ ان التطور الطبيعي هو خروج العرب خلال ثورة عربية اسلامية تنقل الخلافة إلى العرب وتوحد عرب آسيا في دولة مستقلة ، مرتبطة تمام الارتباط بعرب افريقيا الذين يرزحون تحت الاحتلال ، ومن اجل تحريرهم ، يسندهم ويشد أزرهم المسلمون في العالم اجمع ..

عندئذ نشطت المخابرات الاستعمارية لاجهاض هذا الاحتمال وافساد هذا التطور ويمكن ان نلخص المخطط الاستعماري الذي وضع لاجهاض الثورة العربية بأنه يقوم على شقين :

أولا – الفصل بين العروبة والاسلام ، باختراع القومية العلمانية المواجهة لقومية الترك واستغلال تخريب الاتراك وسلوكهم الاستفزازي ، وتحويل الثورة ضد الاتحاديين إلى ثورة ضدالدولة العثمانية .. ثم ضد الخلافة وبالتالي معاداة الاسلام أو الانفصال عنه .. والزعم بأن هذه الثورة هي التطور الطبيعي نحو القومية العربية وثورتها الوطنية ضد الاستعمار التركي .. مع ان المنهج الذي نطبقه يثبت انها ثورة وطنية ضد الاستعمار الغربي .. وأنه كان من الممكن بل كان من الضروري ، ان تمضي مع الثورة الوطنية التركية في حركة واحدة ضد الاستعمار الغربي ..

ومع العمل على فصل الثورة العربية عن الاسلام باسم العلمانية عند العرب المسلمين كان النشاط الاستعماري التبشيري، يعمل من خلال العصبية الدينية على ربط الاقليات الدينية غير المسلمة بالاستعمار الاوربي ..

ثانياً – حصر الحركة العربية في آسيا العربية لسببين :

- ان افريقيا العربية لم يكن من السهل ابداً فصل العروبة فيها عن الاسلام لا في مصر قلعة الاسلام ولا في المغرب العربي حيث الاستعمار الصليبي المفضوح ، ولا يستطيع ان يخفي طبيعته أو أن يبشر بقومية علمانية مزعومة وهو يمارس الأهداف الصليبية بتعصب يفوق هواجس لويس القديس .. ولأنه كان من المستحيل إقامة حركة انقلابية غرب خليج العقبة إلا في مواجهة الاستعمارية الغربية .. لأن الأتراك كانوا قد اختفوا منذ زمن بعيد ..

فالحركة العربيـــة في افريقيا كانت ستصطدم حتما بالاستعمار الاوربي المسيطر ..

وقد اثبتت التجربة ان الحركة العربية بالمغرب العربي محتوم أن يتأكد طابعها الاسلامي . مهما تكن ظروف هذا الالتحام ، وهو ما أكدته تطورات الحركة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين . .

● كان الهدف من النشاط الاستعماري تحت ستار العروبة هو تقويض الدولة العثمانية في آسيا الغربية لاتمـــام تنفيذ التقسيمات المتفق عليها بين الدول الاستعمارية . أما افريقيا العربية فكان قد تم احتلالها بالفعل ، فلم تكن ثمة حاجة لتنظيم ثورة عربية بها .. أو حتى بعث عربي يقود إلى التفكير في وحدة المصير والتحرر .. توارثت الحركات القومية منـــذ نجيب عازوري فانطون سعادة .. الخ هذا المخطط فنراها تقصر نشاطها في ما يعرف بدائرة الهلال الخصيب أو قد تتجاوزه ، ولكنها لا تتخطى قناة السويس أو سيناء بمعنى ادق.. إلى ان قامت ثورتا مصر والجزائر فالى ما قبلهما لا نجد نشاطاً لهذه الحركات في افريقيا العربية مع شديد حاجتها إلى حركة عربية وحدوية. وبعد قيام الثورتين كان وجود هذه المنظمات في افريقيا هو غالباً لمعارضتها وتخريب اتجاهاتها الاسلامية والوحدوية الصادقة ..

ولتحقيق هذا المخطط ، نشط الاستعمار الزاحف لتجنيد العملاء وافساد العقول، في الداخل عن طريق القناصل والارساليات والمبشرين والمدارس والجرائد التي مولها أو اصدرها ، بواسطة حمـــلة جوازات السفارات أو الحماية .. وبالمستشرقين الذين اندسوا يعدون التقارير باسم الدراسات عن كل شيء لتعبيد الطرق أمام الاساطيل ، وينبشون كل حجر باحثين عن بذور التفرقة ليرعوها بالسقاية والتسميد فيثبتون ان البربر ليسوا من العرب وأن اللهجة البربرية لا تنتمي للعربية . ومن ثم فان تنصير البربر ممكن وواجب ..

وان الاسلام دين السهول فهو لا يصعد الجبال .. ومن ثم فان فرنسا يجب أن تحتل لبنان !..

وان الاذان عند الشيعة يختلف عنه عند السنة .. ومن ثم فان البصرة يجب أن تلحق بحكومة الهند ، وتختص بريطانيا ببترول العرب !..

وان اللغة العامية بمصر جذورها فرعونية وجنازة الأربعين عادة فرعونية ، لأن التحنيط كان يستغرق اربعين يوماً « ومدمس » كلمة فرعونية !..ومن ثم فان مصر ليست عربية ويجب ألا تشغل بالها بالعرب ..

ونشطوا في الخارج بتكوين الجمعيات المشبوهة وبصفة خاصـــة في باريس التي كانت تعمل منذ سنوات لاحتـــلال سوريا .. وفي مصر حيث رأس الأفعى .. الاستعمار البريطاني الذي تمرس بالتخريب وعرف من اين يصاب القلب .

وما سنتعرض له في هذه الدراسة شكلان من التخريب ..

- الحركات العربية المشبوهة التي قامت على أساس فصل العروبة عن الاسلام بتمويل الاستعمار ولحسابه ، وباتفاق معه وبقبول منها لنفوذه ، وتسليم بسيادته .. والتي أدى نشاطها إلى وقوع آسيا العربية في قبضة الاحتلال الغربي ..

- ثورة الهاشميين التي تنتسب لها الحركات القومية المعاصرة ، ولا تخجل من سميتها بالثورة العربية ، وتدعي انها أوضح صور التعبير أو حتى التعبير الوحيد عن وميتهم العربية .

غير أننا قبل ان نستعرض هذا النشاط المشبوه .. يجب أن نقول ان حركة رية سليمة كانت تتجمع فعلا .. وأن الثورة العربيةلو قدر لها أن تتجنب تخريب تشويه الاستعمار او لو ان الحرب العالمية الاولى قد تأخرت إلى زمن يتيح اكتمال

حركة ثورية واعية لكان من المؤكد ان يتغير تاريخ المنطقة حتى ولو تم الاحتلال الغربي كما كان مخططاً ، وكما سيقول البعض انه كان قدراً محتوما لا سبيل إلى دفعه .. حتى لو تم هذا لكان من الممكن أن تواجهه حركة ثورية واعية .. مـــا زلنا حتى الآن ، وبفضل التخريب الذي تم قبـل الحرب العالميـة الاولى .. نسعى لايجادها ..

وما الذي يمنعنا من تصور امكانية انتصار هذه الحركة كما تم في تركيـــا ، وفي روسيا ضد التدخل الاجنبي . لو انها نبتت نبتا شرعياً ، في أرض المعركة ضـــد الاستعمار الغربي وعلى أساس كراهيته والشك فيه ، والاعداد للصدام معه لا كما نبتت في حضانته وبمعونته وبالثقة أو حتى الرضوخ له ! .. من المؤكد اننا ما كنا سنعامل تلك المعاملة المزرية التي عوملنا بها بفضل تلك الحركات التي دمرت ولم تشيد وفتتت ولم توحـــد وخربت كل المفاهيم ولم تقدم مفهوماً واحداً ثورياً .. مفهوماً واحداً يقود الأمة في نضالها ..

ورغم ذلك فقد كانت هناك ثورة حقيقية تتجمع ولأن الظرف الذي تجمعت فيه الثورة كان ظرفاً تعساً فقد تحالف على الثوار جهل وارهاب واستفزاز الحاكمين الترك .. ثم فاجأتهم الحرب العالمية الاولى ، وأصبح من الضروري ان يتحرك الجميع ولو إلى الخسارة .. فقد قلبت الحرب كل الخطط .. وقضت على اناة العقـــلاء .. ودفعت كل الفرق إلى مواقف ما كانت سعيدة بها كان عليهم ان يقامروا قبل ان تنتهي الحرب .. وقد خيم عليهم اليأس ازاء التفوق الساحق للحلفاء بالاضافة إلى أن الترك رفضوا حتى المخادعة فقد شنقوا العرب وجيوش الحلفـــاء تستعد للوثوب إلى سوريا ورفضوا حتى اطلاق وعود لا تقيدهم بشيء ..

لذلك قبل فريق من العرب المقامرة على جواد الحلفـــاء رغم معرفتهم بنواياه الشريرة .. ولكن ما حيلتهم !.. إن الذي يفلت من حبل المشنقة لا يسأل لمـــاذا هرب في هذا الاتجاه أو ذاك وقامر فريق آخر على جواد المانيا .. أيضـا من فرط

اليأس .. والمقامر اليائس يخسر دائماً .. وقد خسر الجميع ..

كل هذا لا يمنعنا من ان ندين العملاء الذين خربوا بوعي وعن قصد لتسليم آسية العربية للاستعمار وتثبيت وجوده في افريقيا العربية ..

لأن العملاء الجدد يريدون ان يزيفوا صورة هذا التطور وأن ينسبوا القومية العربية لايتام المبشرين وعملاء القناصل ..

وفي بؤس حقيقي يعترف مؤرخو هذهالقومية بأنها ولدت في الجامعة الامريكية التي كان اسمها « الكلية السورية الانجيلية » .. ومدارس الاحد وجمعيات التبشير وبين اللاجئين في عواصم اوروبا ..

« المدارس التي استها البعثات التبشيرية الامريكية والاوربية في ديار العرب ، وخاصة في مصر ولبنان ، في اواسط القرن التاسع عشر ، ثم في اماكن اخرى من كل بلد عربي تقريباً بعد ذلك (١٦) .

« المؤسسات الثقافية الاجنبية التبشيرية منها والعلمانية التي انشئت في البلاد العربية وجعلت من مهامها الأولى نقل الثقافة العربية الحديثة إلى الاجيال العربية الصاعدة » (١٧) ويحاولون ان يجدوا تبريراً لهذه النشأة المشبوهة باعطاء وليدهاطابعاً نضالياً ضد « الاستعمار التركي » ..

غير ان هذا التفسير مرفوض .. لأن الحركة القومية ليست تحركا في فراغ .. ولا هي مذهباً فلسفياً،ونظرية علمية بل حركة سياسية واجتماعية ووطنية،حركةبعث، ضد سيطرة قومية اخرى . والعدو القومي خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان الاستعمار الغربي .. والسيطرة القومية تبتذل عندما تعرف بالاضطهادات لأنه لا بد لقيام علاقة استعمارية ، ومن ثم حركة وطنية ، ان تدار كل طاقات الأمة المستعمرة لحساب الأمة في الدولة الاستعمارية .. ومن ثم لما من حركة تستحق ان تسمى بالحركة القومية خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من

القرن العشرين ، إلا إنها كانت قد نشأت ونمت من خلال صراعها ضد الاستعمار الغربي [١] (وعلى الأقل في افريقيا وآسيا) . .

أما ما نبت في ظله وبتحريكه فهي مؤامرات تخدم أهدافه ونبت شيطاني .. تتطهر القومية باقتلاعه .. ويشينها ان ينسب اليها فضلاً عن أن تنسب هي اليه ..

« ان قسما من تلك الثورات ضد العثمانيين ، كانت من عمل الدول الاجنبية ، أو بايعازها (١٨) .

« ولم يكن الاتراك والفرنسيون يغالون كثيراً حينما كانوا يتهمون الحركة العربية بأنها على تعاون وثيق مع السلطات البريطانية (١٩) ..

« اخذت فرنسا تحرض الناقمين على السلطنة في البلاد العربية ، وبوجه خاص في لبنان حيث الاكثرية مسيحية وآزرت المؤتمر العربي القومي الأول الذي انعقد في باريز صيف ١٩١٣ . ولم يخف عدد من شهداء لبنان ١٩١٤ – ١٩١٦ ميولهم نحو فرنسة « الوطن الأم » و « الام الحنون » كما كانت تسمى (٢٠) » .

« غير ان الدول الغربية ومطامعها الاستعمارية وجدت في القضية العربية فرصة سانحة لتفكيك عرى الدولة العثمانية .. وفصل الاقطار العربية» (٢١) .ويروي جورج أنطونيوس انه اطلع على دستور جمعية ألفها في عام ١٨٧٥ خمسة طلاب من الكلية الانجيلية في بيروت . وهي الجامعة الامريكية اليوم . كان هدفها استقلال سوريا ومن ضمنها لبنان ..

ويقول محمد جميل بيهم ..

« وبقي صوت العروبة يتصاعد حيناً بعد حين ، ومداره على الأكثر الخلافة ، وانها للعرب دون آل عثمان. ومن المؤسف ان هذا الصوت لم يكن يصدر في أوروبا

---

(١) يتحول اليابان الى دولة استعمارية اصبحت جزءاً من هـذا الاستعمار الغربي تخضع للقوانين التي تفسر حركته ..

عن قوميين مخلصين استندوا إلى منظمات كما فعل الأرمن ، بل كان مصدره اما موتورين ، أو وصوليين استغلوا هذه الحركة في سبيل بلوغ منافعهم الخاصة أو مأجورين من الأجانب كانوا يرفعون عقيرتهم وفقاً للوحي الذي يوحى اليهم .. فقد نشر الدكتور لويس صابونجي في لندن جريدة تحمل اسم الخلافة (تأمل) سنة ١٨٨١ ومجلة الاتحاد العربي وكان يعتمد فيها على أموال بريطانيا ، وأصدر الاستاذ « خليل غانم » في نفس العام ، بباريس، جريدة البصير ، وكانت تغذيها الأموال الفرنسية (٢٢) .

وعلماء الحفريات القومية ، يبدأون تاريخ قوميتهم هذه بـ « نجيب عازوري » الذي ألف جمعية عصبة الوطن العربي سنة ١٩٠٤ وأصدر كتابا بالفرنسية هو : « يقظة الأمة العربية » وفي سنة ١٩٠٧ أصدر جريدة شهرية اطلق عليها : « الاستقلال العربي » وكانت جمعيته ترسل نداءات « ثورية » ضد الترك داعية تحرير سوريا والعراق ، طافحة بنقد السلطان عبد الحميد (٢٣) .

«وقام من المسيحيين « نجيب عازوري » وألف في باريس حزباً دعي باسم « جمعية لوطن العربي » في عام ١٩٠٥ الف كتاباً أسماه « يقظة الأمة العربية » في آسيا تركية (لاحظ التخصيص .. في آسيا التركية فهي غير مسموح لها باليقظة خارج ـذا النطاق . . والا اقلقت يقظتها السادة المستعمرين . . ج) وجريدة الاستقلال العربي » وكانت دعوته تتلخص بفصل السلطة الدينية عن السلطة لدنية ، وانشاء دولة عربية مستقلة .. (لاحظ كلمة مستقلة .. فستتكرر كثيراً هي لا تعني في هذا الضرب من الكتابات الا الاستقلال عن تركيا تحت الحماية لأوروبية ج) .. منفصلة عن دولة بني عثمان تشمل سوريا والعراق ولبنان ونجد اليمن والحجاز على الطراز الاتحادي » ..

يقول بيهم .. ويسوءنا القول بأن الظنون كانت تحوم أيضاً حول نشاط المشار ه (٢٤) (عازوري) ..

ويقول توفيق برو : « ولكن دعوته هذه لم تكن لتلقى صداها في البلاد العربية في يسر .. لأن نشاطها ومقرها كان في باريس وباللغة الفرنسية ولأن صاحبها كان داعية للدول الغربية : فرنسا وانكلترا ، ولم يخل كتابه من تمجيد لهما .. فكان لذلك مجلبة للشك والشبهة » حتى أن أحداً من الشباب العربي كما يؤكد الأمير مصطفى الشهابي لم يهتم بكتابه » .

ويعيب « انيس صايغ » على « عازوري » الذي نظر للقومية نظرة علمانية .. ورغم ذلك فانه لم يربط الوحدة بالاستقلال .. بل طالب بمملكتين عربيتين في آسيا (واحدة في سورية الطبيعية واخرى في شبه الجزيرة العربية) مع استقلال ذاتي للبنان [1] » ويرى « عازوري » ان يحترم استقلال لبنان الذاتي (٢٥) »

يقول انيس صايغ : « مع انه نظر للقومية نظرة علمانية » ..

ونحن نقول « بل لأنه نظر للقومية نظرة علمانية » ..

فما من نظرية أو حركة سياسية تنطلق من مجرد العلمانية .. أي استبعاد الدين .. والنظرة العلمانية .. أي اللااسلامية كانت تسك في دار سك العملة بباريس ولندن. ومن ثم فهي تحمل رموزها .. وهذا الذي اخرج العرب جميعاً من الاسلام بحجة لبنان طبعاً .. لأن القومية العلمانية هي التي تمنع عزلة العرب المسيحين .. عاد فأخرج لبنان من العروبة بسبب الدين !

وأي قومية ؟ وأي نظرة علمانية بغير الاستقلال .. هل كل الهدف هو التنصل

---

(١) تطور المفهوم القومي عند العرب ص ٦٥ ولو ان انيس صايغ يعود في كتابه «الهاشميون والثورة العربية الكبرى » فينسب لعازوري انه «يمكن تلخيص دعوة العازوري بقيام دولة عربية مستقلة موحدة في القسم الآسيوي من الوطن العربي .. من العراق الى السويس ·· ورغم المسافة الزمنية بين صدور الكتابين فهذا وحده لا يفسر تطور عازوري . لان عازوري مات !

من الاسلام حتى ولو في ظل الاحتلال الغربي !

ويتحدث الدكتور « نور الدين حاطوم » عن مشروع « عازوري » في الأمة العربية فيقول : « أما حدود هذه الأمة العربية فيضم البلاد العربية الآسيوية وتبقى مصر وشمال افريقيا خارجين عنها .. » ويتضمن كتاب عازوري تحليلات ضافية عن سياسة الدول ومصالحها في بلاد الشرق الأدنى .. ويستخلص بأن أكبر الخطر عليها يأتي من روسيا والتوسع الجيرماني في آسيا الصغرى وأن الأمل في انكلتره وفرنسا وفي هذه الاخيرة خاصة لما لها من تقاليد حرة » (٢٦) .

والأستاذ الياس مرقص .. يذكر فيلسوف القومية اللادينية « ساطع الحصري » الذي يؤرخ بداية العروبة « بنجيب عازوري » يذكره بأن هذا العازوري .. أعلن ان مصر ليست عربية تماماً وعارض في استقلال مصر عن بريطانيا وأسس في مصر حزباً صغيراً تعاون مع الدولة المحتلة .. ووضع آماله العربيـــة السورية في فرنسا اولا وفي انكلترا ثانياً (٢٧) ..

أي بداية تعسة على يد هذا المسيلمة !

يحسن ان نتخطاه سريعاً . ولو ان السير وراء هذا الخيط للبحث عن قوميتنا يقودنا لمواضع حرجة للغاية .

يقول جميل بيهم : « على ان وجهات نظر البيروتيين كانت مختلفة خصوصاً لوجود فئة ذات وزن كانت حريصة على التخلص من الحكم العثماني وتعمل بالاتفاق مع فرنسا في جمعية سرية .. كان قنصل فرنسا أحـــد اعضائها (الله اكبر ! ج) لضم مدن الساحل إلى لبنان وللسعي لاستقلاله تحت حماية فرنسا » .

هل كتب علينا ان نضع قنصل فرنسا ضمن رواد القومية العربية ؟ الا يكفي قناصلها غير الرسميين الذين اندسوا في تاريخنا .. اتبلغ بنا المذلة حداً ان نضع قنصلاً معتمداً ضمن مؤسسي القومية العربية ؟ .. وكيف يتفق ان يكون هـذا القنصل

ضمن العاملين لقوميته الفرنسية . وأيضاً لقوميتنا العربية..وإذا كان المرء لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد .. فمن المستحيل ومن المريب ان يدعي أحدهم انه يخدم الذئب والحمل معاً !!

« أما مؤتمر باريس ١٩١٣ الذي اتفق مؤرخون كثيرون على اعتباره أساس الحركة القومية الحديثة فقد كان خطوة اخرى في ذلك الاتجاه .. خطوة مهمة إلى أقصى معاني الأهميه .. ويتبع أنيس صايغ هذا البيان التاريخي بقوله « ولكنه خاف من المطالبة بالاستقلال حتى لا تحرج بعض الدول الأوروبية التي كانت تشجع الحركة العربية وتمدها بالأموال » (٢٨)

وبالطبع نحن نعرف من هي الدول الاوروبية التي كانت « تشجع » « الحركة العربية » ونعرف ان اموالها لم تذهب هباء.. بل عادت عليها الحسنة بسبعين مثلا.. أو اكثر .. اعطتها آسيا العربية كاملة ومكنت لاحتلالها في افريقيا العربية نصف قرن آخر ..

لقد انعقد هذا المؤتمر في ظل الاحساس العام بضرورة العمل لانقاذ الوطن العربي وذلك بالسعي إلى النظام اللامركزي لمواجهة خطر الغزو الاوروبي بعد ما ثبت ان استمرار الحكم العثماني المركزي يسلم البلاد للغزو الأجنبي . . ولكن كما قلنا – كانت هذه الحركة السليمة تتعرض لتيارات مأجورة ويندس في داخلها العملاء من كل لون ومذهب ..

وقد انعكست هذه الوضعية في اتجاهات المؤتمر .. واستطاع العملاء والعاملون لحساب الاستعمار الغربي ان يحصروا المؤتمر في نطاق المخطط المرسوم وهو تقويض الدولة العثمانية وتسليم آسيا الغربية للاحتلال الغربي . . ومنع شعار العروبة من تخطي خليج العقبة غرباً ..

ولذلك لا يمكننا ان نضع هذا المؤتمر ضمن تاريخنا القومي . . لأننا قد التزمنا

بأن نرى هذا التاريخ في اطار الكفاح ضد الاستعمار .

وقبيل انعقاد المؤتمر بأسبوع (٢٩) ارسلت صحيفة « الطان » الفرنسية مراسلها إلى رئيس المؤتمر السيد الزهراوي (كما هي عادة الاستعمار في تحديد اتجاهات المؤتمرات من خلال حديث صحفي) .

تأمل الأسئلة : لماذا عقد المؤتمر .. وما هي خطته نحو العرب غير العثمانيين ولماذا عقد في باريس .. هل يودون تأييد الوحدة العثمانية من أجل الرابطة الدينية .

وقد أجاب الزهراوي .. أجاب المؤتمر :

قال الزهراوي : « ان ليس للمؤتمر علاقة بولايات العرب غير العثمانيين » .

طبعاً نحن نعرف هذه الولايات. وأيضاً مراسل الطان يعرف هي : الجزائر .. تونس .. مراكش .. فلا خوف على فرنسا .. هي ليبيا .. فلا خوف على إيطاليا .. هي مصر والسودان وجنوب الجزيرة والخليج .. فلا خوف يا بريطانيا .

هي فقط في اطار ما بقي بعيداً عن النفوذ الغربي .. لقد حققت الاستعمارية الغربية نصراً عبقرياً .. عندما قلبت مجريات التاريخ . فبدلا من أن تكون الولايات العربية العثمانية -- في ظل حكم وطني – قاعدة لثورة تنظم في الولايات العربية غير العثمانية لتحررها من الاحتلال الاوروبي .. نراه قد استطاع ان يحدث الثورة داخل الولايات غير المحتلة لكي يلتهمها بدورها .. فضلاً عن تدعيم مركزه فيما سبق احتلاله .

« وهم يودون اسماع رأيهم لاوروبا التي تزداد اهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم » يقول الزهراوي : « واما عن الرابطة الدينية فانها عجزت دائماً عن ايجاد الوحدة السياسية » .

« ثم ختم حديثه بالاشادة بالمدنية الاوروبية العصرية .. وانها هي التي انتشلت العثمانيين من سباتهم العميق .. وان الذين ينكرون فضل اوروبا انما هم مدفوعون إلى ذلك بسائق الانانية العمياء » .

وبعد ذلك الحديث بسبع سنوات كانت مصر وسوريا والعراق تساق بدافع « الانانية » العمياء للقتال ضد افضال اوروبا المحتلة .. أفيمكن ان يكون هؤلاء المؤتمرون هم الأصل في ثورات الانانية هذه ؟ .

انعقد المؤتمر من ١٧ / ٦ إلى ٢٣ / ٦ / ١٩١٣ . وختم الزهراوي خطابه في المؤتمر بقوله : « ان الذين لا سياسة لهم سيعلمون ان اوروبا ليست هي الغول .. وانما الغول هو سوء الادارة وفساد السياسة » .

وبعد سبع سنوات كان الاوروبي – الذي ليس غولا – قد التهم كل شيء ..

وقام ندره بك مطران .. فطمأن النفوس حول ما أشيع عن رغبة بعض الدول في احتلال سورية قائلا : « ان كل ما يتمناه ساسة اوروبا على ما يظن هو ان يتمكن العثمانيون من تدبير شئون دولتهم ليتلافوا بذلك خطراً عظيما على السلم العام » .

حقاً ان بعض الظن اثم .

وقال اسكندر عمون : « ان الدول العظمى لا تريد بنا سوءاً .. بل تريد صلاح امورنا » .

ورفض المؤتمر السماح بتمثيل مصر فيه .. وختم اعماله بتوجه وفد منه إلى وزارة الخارجية الفرنسية للشكر .. وبين يدي وزير خارجية فرنسا القى رئيس المؤتمر (١) كلمة قال فيها :

---

(١) تغير موقف الزهراوي بعد ذلك واغلب الظن انه كان يحاول جهده ان يعبر عن تيارات المؤتمر .

« اننا إذا كنا نستحق هذا الاكرام بصفتنا ابناء دولة صديقة لفرنسا من قديم الزمان فاننا نستحقه ايضاً بصفتنا سكان بلاد ما زالت فرنسا تظهر نحوهـــا كل انعطاف وتودد » .

« وقد تلقى وزير الخارجية تصريحات وفد المؤتمر العربي بكل عطف .. واجاب بان فرنسا : « تحب الخير للسوريين وإن فرنسا تقبل بكل رضى وسرور ان تكون « محامية » سورية لدى اوروبا[1] » .

ويعلق توفيق برو « على المؤتمر » : صحيح ان هذا السلوك شائك وانه كان ثمة جماعة من المتفرنسين يحاولون ان يلعبوا في المؤتمر دوراً لمصلحة فرنسا .. وان فرنسا كانت تعلق آمالا جساماً عليه .. يثبت ذلك ما اثير من مناقشة حول الاستعانـــة بالمستشارين الاجانب » (٣٠) .

إلا « انيس صايغ » .. فهو يلمح في المؤتمر بوادر تحرر عربي كامل لمحات عابرة وخلف استار حذقة » (٣١) ..

ويقول بيهم : « ولما كان لا بد من تقارب وجهات النظر بين طلاب الاصلاح من أنصار اللامركزية فقد جاءت اللائحة الاصلاحية التي وضعها تسعون مندوبا في دار بلدية بيروت يوم ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ تجمع بين شروط اللامركزية وبين وجود مستشارين أجانب في جهاز حكومة الولاية بالاضافة الى مفتش أجنبي لكل لواء » .

---

(١) ولعل رأي « الزهراوي » نفسه في هذا المؤتمر يكفي لكشف طبيعته .. يقول في رسالة الى رشيد رضا : كيف وجد امر مؤسس فكرة المؤتمر فوضى .. وكيف تعب في ايجاده مرونقاً وكيف نفد صبر البيروتيين بعد ارفضاضه فتفرق الجمع الذي لفق تلفيقاً ، ثم بقي وحده يمثل الفكرة ومعه خليل زينيه وأيوب ثابت اللذان لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة حتى ولا من الجامعة السورية وانما همهما بيروت ولا شريك لها .. انما سايراه وسايرهما وتوادوا حتى سفره ولم يكن مثل هذا التواد ولا ربعه بينهم وبين رفقتهم ، البيروتيين المسلمين»
(توفيق برو ٥٥٤ / ٥٥٥)

ويقول : « على انه كان بين هذه الجالية فريق من اللبنانيين يتكتلون حول حزب الاتحاد اللبناني أو غيره ويحصرون سعيهم في سبيل « استقلال » لبنـــان وتوسيـع تخومه تحت حماية فرنسا » .

ويقول الجنرال كيللر ان « الجمعيـــة المركزية السورية التي تألفت في باريس أعلنت في ١٩١٧ » ان جميـع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا بعد أن تعلموا لغتها واختبروها لمدى طويل وتأكدوا من اخلاصها وتجردها » .

ويقول :«بعض الجاليات السورية المتطرفة في مصر وأمريكا واستراليـــا طلبت بصراحة فصل القضية السورية عن القضية العربية .. لان سوريا رغم انهـــا تتكلم العربيـة .. فهي لا تمت إلى العنصر العربي .. وعلى هذا فان الجاليات السـورية تناشد الضمير البشري والعلم لتنفيذ رغبتها » .

وهكذا نرى ان الحركة قد بدأت دائرة مرسومة بعناية . . تبعدها تماماً عـن مناطق الاحتلال الغربية وتترك لها حرية الحركة المرسومة في المناطق التي تحكمها تركيا .. مع قطع باتر لكل صلة بالممتلكات الاوروبيـــة حتى ولو كانت قلب العروبة ومن صميمها .. بل ويسكنها غالبية العرب .. فلمـــا اصطدمت المصالح الفرنسية والانجليزية حول تقسيم التركة بدأ شعار العروبة يتلوى ورايتها تنبسط وتنحسر وفقا لاتجاهات الريح الانجليزية أو الفرنسية وأخيراً الأمريكية والروسية .

وعندما اعلن رئيس وزراء فرنسا عن نيته صراحة في ابتلاع سوريا ولبنـان في في التصريحات التي قال فيها : « ولا أرى لزوماً لأن اذكر مجلس الشيوخ ان لنا في لبنان وسوريا حقوقا تاريخية تقليدية .. ونحن نريد دائما أن نراعي منافعنـــا وحقوقنا » .. وردت عليه جمعية الدراسات لشئون البحرية والمستعمرات في باريس بتوصية تقول : « في حالة احتمال زوال ارتباط سوريـة بالدولة العثمانية .. تؤكد الحكومة الفرنسية رغبتها بعدم السماح لأي سيادة أو حماية عدا سيادة وحماية فرنسا ان تحل في هذه المنطقة محل السيادة العثمانية » .

« وعلى اثر ذلك راجت اشاعات مختلفة في الولايات العربية عن نية فرنسا في احتلال سورية ساحلها وداخلها » (٣٢) . ويكمل توفيق برو « وتحرك المسيحيون المقيمون في باريس ، بمن كانت تجمعهم « اللجنة اللبنانية » وكأنما اثارت فيهم تصريحات هذا السياسي الفرنسي النشاط والحمية ، فاجتمعت لجنتهم في ٢٣ ديسمبر ١٩١٢ وصوتت باسمها واسم لجنة نيويورك وسان باولو ومصر وباسم جميع اللبنانيين الذين تمثلهم .. على وجوب توجيه كتاب إلى مسيو « بوانكاره » تشكره فيه على التصريحات التي ادلى بها لدى مجلس الشيوخ الفرنسي .. كما أرسل اللبنانيون الكاثوليك في القاهرة الذين كانوا يجمعهم ما يسمى بالاتحاد اللبناني إلى الكونت ده مون الكتاب التالي المؤرخ في ١٠ ديسمبر ١٩١٢ : « سيادة الكونت : إن لجنة الوكالة اللبنانية قررت في جلستها المنعقدة في ٨ كانون أول – ديسمبر ١٩١٢ ان تبعث اليكم باسم الشعب اللبناني شكرها الحار على المقالات المليئة عطفاً ومودة .. التي تنشرونها للدفاع عن القضية اللبنانية .. اننا سعداء ان نبلغكم يا سيادة الكونت .. الشكر الجماعي من شعب ارتبط بكم بأمتن الروابط .. وكلنا أمل بأن يتحقق مثلنا الأعلى القومي بالمساعدة التي تود فرنسا ، الامينة على تقاليدها النبيلة ان تزجيها لنا على الدوام .. فرجاؤنا اليكم « يا سيادة الكونت » ان تتقبلوا إلى جانب شكرنا الذي نبعث به في شخصكم إلى فرنسا .. اعمق واخلص عواطف العرفان .. التوقيع عن الوكالة اللبنانية : اسكندر عمون »[1] .

وينقل « توفيق برو » عن « أدوار عطية » قوله « كان ميل الروم الكاثوليك والموارنة منهم متجهاً إلى فرنسا .. وميل الروم الأرثوذكس متجهاً إلى روسيا .. والبروتستانت الانجليكان نحو انجلترا ..

يقول « أدوار عطية »

« كان السوريون المسيحيون يكرهون السيادة التركية ويتطلعون نحو التحرر

---

(١) عضو مؤتمر باريس وأحد خطبائه .

منها لا بقصد تأليف دولة سورية مستقلة .. لأنهم يكونون في مثل هـــذه الحالة مضطرين لان يخضعوا لحكم يشكل فيه المسلمون أكثرية ساحقة وعندئذ يتعرضون .. حسب اعتقادهم إلى الاضطهاد والظلم وعليه كانوا يتطلعون نحو التحرر مـــن السيادة الاسلامية بمساعدة دولة اوروبية تطردالترك من البلاد وتحكم سوريا بدلا منها (وهو ما حدث .. فلا داعي لأن تبلغ بنا المذلة حد تسمية ذلك تحرراً .. ودراسته على انه ضمن تطورنا القومي .. بل هو نكسة فادحة ج) يقول ادوار عطية : « ان ذلك لم يكن يعد خضوعاً لسيادة اجنبية ولم يكن الأمر كذلك طالمـــا ان الدولة الاوروبية المسيحية هي من نفس الديانة التي يعتنقونها .. أليس أهلها اخوة لهم في المسيحية ؟ .. وبذلك يتخلصون من النظرة التي كان ينظر اليهم بها المسلمون مـن كونهم أقل منزلة منهم .. ويتحررون من الاضطهاد الذي ظلوا يرزحون تحته منذ مئات السنين » .

مما تكن صحة هذا الكلام فهو – على الأقل – يعكس تفكير ادوار عطية .. ووفقاً له عملت السيادة الفرنسية في احتضانهـــا حركة الانشقاق على الدولة العثمانية وتبني الدعوات العربية التي حصرت نفسها في استبعاد الاسلام والانفصال عن تركيا ولكن هـذا لا ينفي إن عدداً كبيراً من القادة المسيحيين كانوا واعين بأهـــداف الاستعمارية الغربية وانهم عملوا على حماية الدولة العثمانية ثم على حمـــاية الاستقلال العربي .

ويقول ادوار عطية .. « انه لما زارت المدمرة الفرنسية « جون فيري » مرفأي بيروت وجونيه في اواخر عام ١٩١٢ خفت جموع الشعب اللبناني إلى الثغر .. ولما عزف البحارة الفرنسيون « نشيد المارسليز » الوطني الفرنسي اخذ الحماس بمجامـــع القلوب وانطلقت الهتافات مدوية بحياة فرنسا حامية المسيحيين » (٣٣) .

ويلاحظ توفيق برو على مشروع اللائحة الاصلاحية التي تقدم بها المجتمعون في النادي الائتلافي ببيروت :

« غير ان الشيء الذي يوجب الامعان هو قضية المستشارين والمفتشين الأجانب الذين اعطوا من الصلاحيات في اللائحة ما يصل الى حد وضع مقاليد أمور الولاية في أيديهم .. يتصرفون بها تصرف الحاكم بأمره . . « ثم يورد الانتقادات على السلطات « المهولة » التي منحتها اللائحة الاصلاحية .. المفروض انها تصدر عن حركة ثورية معارضة ! لا عن حكومة عثمانية تضعها والمدفع في ظهرها ، والأساطيل تسد المضايق والبوغاز !!

ويلخص هذه الانتقادات بقوله : « ومما يجعل للمستشارين سلطة خطرة هو جعل حكمهم مبرماً في كل خلاف يقع بين المستشارين والمجلس العمومي أو احدى لجانه أو اية دائرة اخرى..ولا مثيل لذلك الا ما أصبح يتمتع به المستشارون الاجانب في أزمنة الانتدابات الاجنبية على البلاد العربية » .

ايمكن اذن ان نقول ان الانتداب البريطاني أو الفرنسي كان من اهداف « القومية العربية » ؟!!

ويقول برو : « خلاصة القول ان في نصوص اللائحة المتعلقة بالمستشارين والمفتشين الاجانب شططاً لم يكن من المعقول ان تقبل به الحكومة المركزية سواء كانت ائتلافية أو اتحادية ولا يمكن ان تقبله الحركة الوطنية . . ولا يمكن نسبته لأهداف الامة العربية التي لا يمكن ان تسعى بنفسها الى طلب الادارة الاجنبية الاستعمارية !.

ويفسر برو هذا « الشطط » بقوله : « يذهب بعض الكتاب العرب (احمد عزة الاعظمي – امين سعيد – ناصيف ابو زيد) إلى ان هذه النصوص لم توضع في اللائحة عبثاً .. بل ان بعض العناصر المسيحية الموالية لفرنسا في بيروت ارادوا استغلال « الحركة الاصلاحية » لخدمة هذه الحكومات واعربوا عن رغبتهم في العمل بالاتفاق مع المسلمين لابراز مشروع تلك الاصلاحات لكي يضمنوا للدول الاوروبية

مبدأ مراقبتها لكل فرع من فروع الادارة .. وكي يبرهنوا ان السكان باجمعهم لا يرون امكان الاصلاح إلا بمساعدة اوروبا » .

ويتهم احمد عزة الاعظمي جمعية النهضة اللبنانية واعضاءها وشعبهـــا في باريس « وكان يرأسها شكري غانم » وفي بيروت وكان يرأسها « خليل زينيه» وفي القاهرة « وكان يرأسها اسكندر عمون » بانهـا كانت تمهد الطريق لاستيلاء فرنسا على سوريا ووضعها تحت حمايتها » (٣٤) .

ويقول جميل بيهم : « انه بينما كان الأمير فيصل يمثل جلالة والده ملك الحجاز في مؤتمر السلام .. ويتكلم باسم الأمصار العربية وفي جملتها لبنان..إذا ببعض الجمعيات اللبنانية وفي طليعتها الجمعية السورية بباريس التي يرأسهـا السيد « شكري غانم » تعارض في ادماج سورية ومنها لبنان بالدولة العربية الكبرى .. وتطالب بالوحدة السورية تحت اشراف فرنسا .. وأما مجلس ادارة جبل لبنان الذي كان لا يزال مستقلا عن اتجاه باريس في سياستها السورية العربية .. فانه طلب على لسان الوفد الذي مثله بباريس و كان يرأسه داود بك عمون استقـــلال لبنان عن سورية تحت الانتداب الفرنسي .

ان ما نريد التركيز عليه هو التخطيط المنظم الذي عمل على تهيئة الجو للانفصال ولتلقف نقمة العرب وإفساد التطور الطبيعي للحركة العربية .

ومن الطبيعي ان تلجأ فرنسا في تخريبهـــا إلى العمل بين صفوف الاقليات المسيحية . والملاحظ ان الحركة القومية ومدارسها العديدة .. المندثرة منها .. والتي ما زالت تعبث .. كلها نشأت في الشام [1] مطمح الآمال الفرنسية .. وميدان نشاطها منذ الحروب الصليبية كما تصر الكتابات الفرنسية . لجـأت فرنسا إلى اثارة

---

(١) وبالصدفة المحضة فان جميع قادتها من غير المسلمين : عازوري .. سعادة .. مشيل .. جورج ؟

العصبية ضد الاسلام .. وفي ظل مناخ مناسب تهيئه كراهية الحكم التركي ورواج الفكر الغربي .. أمكن خلق حركة لا اسلامية بل معادية للاسلام .. وبحصرها في نطاق الهلال الخصيب عزلت عن الحركة الوطنية في افريقيا العربية فجردت من مضمونها الوطني وانحصرت في عدائها للاسلام..هذه الحركة هي التي وضعت بذورها المخابرات الفرنسية والبريطانية .. وهي التي افسدت تطور الثورة العربية ومازالت تسد الطريق ..

« ان مصالح فرنسا في الشرق الأوسط .. هي قبل كل شيء مصالح علاقات روحية وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين حيث وقعت معاهدات لحفظ الاماكن المقدسة وجددت هذه المعاهدات على ممر القرون وتحملت فيها فرنسا .. مهمة حماية مسيحيي الشرق . وقد كتب البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٩٨ يقول : « ان لفرنسا في الشرق رسالة اختصتها بها العناية الالهية .. انها رسالة شريفة مقدسة . نالتها ليس على ممر العصور فحسب .. بل بواسطة معاهدات دولية » .

« ان ابناء الشرق الذين تثقفوا على يد رهباننا واعتنت بهم مؤسساتنا ومستشفياتنا تعلموا كيف يحفظون الجميل ويحبون فرنسا » .. « ولن نتخلى عن مهمتنا في حماية الاقليات المسيحية وعن تأثيرنا على الاوساط الاسلامية .. فإن كل غنم أو خسارة في الشرق له تأثيره في افريقيا الشمالية » (٣٥) .

غير ان التطور السليم يمكن ان نجده في دراسة مواقف امثال شكيب ارسلان ورشيد رضا وبالذات عزيز المصري .. صحيح ان الأول كان لديه من البصيرة ما جعله يستشف المصير المفزع لسقوط الدولة العثمانية .. فاستمر يقامر عليها حتى نفقت .

أما رشيد رضا والتيار الذي يمثله من الاحرار العرب..وبالذات عزيز المصري.. فانهم لم ييأسوا بل تطوروا بحركتهم مع تطور الأحداث وفي مواجهة الخيانة التركية واستفزازات عصابات العملاء الاتراك .. محتفظين بجوهر الحركة الوطنية

العربية .. وهو عداؤها للاستعمار الغربي .

وفي الدراسة النادرة « لتوفيق برو » معلومات عن الجمعية السرية التي كان عزيز المصري يحاول تأسيسها . وهي « جمعية العهد » .

كان عزيز المصري .. الذي انهى مذبحة اليمن .. بعقده الصلح . وقاد الحرب في ليبيا .. حتى اخرجته حكومة الاتحاديين من ميدان القتال باستسلامها المخزي لايطاليا والرجل الذي حدد اتجاه حياته .. العداء للاستعمار الغربي . . والبريطاني بالذات .. كان يدرك خطورة الموقف وحاول – كما يقول الدكتور «حسن صعب» من خلال برنامج جمعية العهد – المحافظة على العروبة والاسلام .. الاسلام من خلال الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة ، والعروبة من خلال اعلان الاستقلال الذاتي .. لا الاداري فحسب بل السياسي ايضاً للولايات العربية اذا ارادوا ان يكون للعرب دولة تجسم ذاتيتهم وقوميتهم .. على ان تكون هذه الدولة في نطاق دولة كبرى هي الدولة العثمانية اي ان يكونوا دولة فيدرالية تكون واحدة بالنسبة للعالم الخارجي ولكنها عدة دول بالنسبة لشعوبها » .

وخلال مقابلة بين عزيز المصري ، قبيل وفاته . مع مؤلف « العرب والترك » والدكتور حسن صعب .. قال له « عزيز المصري » : ان الجمعية التي أسسها كانت عامة .. تشترك فيها جميع القوميات العثمانية ووصفت فدراليتها بشكل تضم كل مناطق شرق البحر الابيض المتوسط .. ولكنه قال : « انه يبدو ان أصحابه الذين بقوا ضمن اراضي الدولة .. بعد قدومه لمصر قد طبقوها على العرب والترك فقط » .

وقال : « ان نظريته لم تكن تقتصر على الاتراك والعرب بل تمتد على الأتراك والعرب والألبان والبلغار وجميع العناصر التي بقيت تحت حكم السلطنة أو استقلت عنها بعد حرب البلقان أو قبلها وحتى مصر والسودان وطرابلس الغرب وتونس تكون ضمنها بحيث تكون دولة حديثة كبيرة .. دولة شرق البحر الأبيض المتوسط يكون السلطان العثماني أو من تنتخبه رئيساً رمزياً حاكماً فعليا لها (كذا) كما

هو الأمر في انجلترا » .

« وكانت الاجتماعات التي جرت لتشكيل جمعية العهد .. سرية باعتبار انها اقتصرت على الضباط الذين كانت تجمع منهم حوالي خمسين ضابطاً بينهم سليم الجزائري وياسين الهاشمي وأخوه طه وعلي جودت الايوبي ونوري السعيد وضباط من الاتراك وبقية العناصر وكان المدني الوحيد بينهم هو الزعيم الألباني درويش هيما » .

وقال عزيز المصري : « انه في احد الأيام الاخيرة من عام ١٩١٣ أراد ان يعقد اجتماعا في بيته يحضره كبار الضباط والمدنيون من جميع العناصر وكان من بينهم الزهراوي وضابط تركي كبير برتبة اميرالاي (لا يتذكر اسمه) وكان صديقاً له وصهرا للصدر الاعظم .. يقصد بهذا الاجتماع ان يزيل ما بين العناصر العثمانية من نفور ويحسن لهم مزايا النظام الفيدرالي الذي ينطبق على أوضاع الدولة (وهل يترك المخرب المدرب مثل هذه الفرصة ؟ ج) . فقام الداعية الطوراني أحمد أغاييف .. الروسي الأصل المتجنس بالجنسية العثمانية وصاح قائلا : « تأكدوا ان هؤلاء السفلة الذين تسمونهم عرباً أو ارناؤوطاً هم لا شيء ولا يوجد سوى العنصر التركي الذي سيحكم آسيا .. لان عدد نفوسه يزيد عن خمسمائة مليون .. يريد بذلك ان الصين طورانية !! فقام الزعيم الألباني درويش هيما محتجاً ووصف التركي التتري بأنه سافل قذر .. وقال له عزيز المصري بدوره انه لو لم يكن في بيته لكان قتله [1] .

وإلى جانب التخريب الشعبي والسري جاء التخريب الرسمي والعلني .. فاعتقل عزيز المصري .. وحكم باعدامه واستبدل الحكم بالنفي بعد ما عمت المظاهرات

---

(١) حكاية ان تركيا ستضم للصين وبالتالي فلا اهمية للعرب او الالبان شبيهة بتخريب القوميين المعاصرين عندما يرفضون أي وحدة طبيعية اصراراً على الوحدة الشاملة من المحيط الى الخليج .

جميع البلدان العربية وفي الاستانة ذاتها تطالب بالافراج عن بطل بنغازي [1] »

- وبخروج عزيز المصري انتهى كل أمل في استمرار الكيان الحرب .. المسم بالدولة العثمانية ..

وواجه العرب في آسيا واقعاً تعساً ومستقبلاً مفزعاً .. لا أظن انه قد واجههاد منذ بدأت سفن البرتغال تطوق الشرق الاسلامي ..

واندفعت الآمال تتعلق بالمحال . . بعض الشباب كان يعلق آماله في البعـ العربي بنهضة تأتي من الجزيرة العربية واتصلوا بالامـــام يحيي .. والادريس . والبعض فكر في المانيا والبعض انتحر لاجئاً للحلفاء !

---

(١) التي كانت حربا بين ايطاليا والترك .. كما تسميها مجلة « الطليعة » القاهرية -- وبالتا فان اعجاب العرب ببطل بني غازي -- كان جهلا وتبعية للاستعمار التركي -- وعزيز المصري كـ خائناً للقومية المصرية التي كان يمثلها لطفي السيد وسلامه موسى وتوفيق صليب -- هل سمع أحـ بأمة تمحو مجدها بيمينها (أو بيسارها بمعنى أصح ؟) على هذا النحو ؟ --

الفصل الخامس

ثورة لورنس

« على أنه لم يعش بعد وصوله إلى الاردن
سوى بضعة ايام كان خلالها فاقد الوعي والشعور
وكان ينادي ويقول : هذا جزاء الذين يثقون
بالانجليز ويصادقونهم ويعملون معهم [1] » .

ويسدل الستار

ولكن هل يسمع أحد للشيخ .. أو هل يتعظ أحد بكلماته ؟

للاسف ما أقل الذين سمعوا فوعوا ..

رغم صيحات الشيخ وهو على حافة القبر .. وهي دائماً أصدق الاعترافات .. والاعتراف سيد الادلة .. رغم ذلك فقد توجوه بطلاً رغم انفه وجعلوه قائد الثورة العربية الكبرى والاولى وانتفاضة العرب الكبرى وبداية قوميتهم .. الثورة التي خلصت العروبة من الانحرافات الدينية .

البسوا الشيخ ثوباً ما ظن يوماً انه سيرتديه .. بل تجرد في آخر ايامه من كل زيف . وأطلق ضميره يصيح فزعاً من عقاب ربه .. وحكم التاريخ .. على ما جنت يداه بحق الشعب العربي حتى ولو كان عذره هو ما قاله الأمير علي بن الحسين :
« لم نكن سوى بداة بسطاء .. لم يسبق لنا قبل الثورة ان دخلنا في الحياة الدولية أو عاملنا الاجانب أو اتصلنا بهم من قريب أو بعيد .. ولقد جاءنا الانكليز إلى الحجاز .. ولم نذهب اليهم .. جاءونا بورقة بيضاء في ذيلها ختم الامبراطورية .. وقالوا لنا : هذه ورقة رسمية فاكتبوا فيها ما تشاءون ونحن مستعدون للتنفيذ

والتلبية (١) فصدقناهم ووثقنا بهم وقاتلنا في جانبهم ولكنهم ما لبثوا ان خانونا وغدروا بنا (٢) » .

إن كان هذا هو عذر الهاشميين .. وهو عذر مرفوض بالطبع .. فما عذر صناع السياسة وعباقرة القومية وفلاسفتها .. وهم يلطخون تاريخنا بالعار فيؤرخون بهذه « الفعلة » التي ارتكبها لورنس .. بداية تاريخنا القومي ! ويخلعون عليها من الصفات مالم يخطر ببال صانعيها ومخططيها ومموليها .. ولا حتى المخلصين الذين انضموا اليها تغريراً أو يأساً ومقامرة ..

لنعش مع المأساة من بدايتها .. من لحظة رفع الستار :

ففي عشية الحرب العالمية الأولى رأت المخابرات البريطانية انه لا يجوز ان تستأثر فرنسا بشرف خلق حركة القومية العربية من خلال عملائها وارسالياتها ومدارسها .. وما عقد فيها من مؤتمرات .. ومن ثم كانت بريطانيا تدبر ما هو اعظم وأجل .. « ثورة » .. ثورة كاملة ! « هي بداية القومية العربية » . هي « أول ثورة اعلنها العرب على الترك » [٢] .. وهي « نقطة الانطلاق للعرب وكانت الباب الذي ولجوا منه إلى العالم الدولي والجسر الذي عبروا منه إلى الحياة الحرة وحسبها هذا شرفا وفخراً . »

« ولا بد لنا من القول حتى اعلان ثورة الحسين وحتى اعتراف الحلفاء بالحجاز

---

(١) حتى ولو صدقت هذه الرواية فهي من باب العذر الذي هو أقبح من الذنب لأن الشيك على بياض الذي سلم لهم .. لم يكتبوا فيه شيئاً من الاماني الحقيقية للعرب .. وحتى لو دفعت بريطانيا كل ما كتبوه في هذه الورقة الممهورة بخاتم الامبراطورية .. لما اختلف المصير كثيراً .. كما سنرى .

(٢) الاحرى ان تكون آخر ثورة .. فقد سبقتها ثورات عديدة .. ويكفي أن نحصي من ايام علي بك الكبير .. ولا يشفع قوله بعد ذلك .. في هذا القرن .. لان الثورة التي يحكى عنها قامت سنة ١٩١٦ . ولم يكن قد انصرم من عمر القرن الا ١٦ عاماً .. حتى تحصى ثوراته ؟

دولة مستقلة .. تتمتع بكامل السيادة .. لم يكن للعرب دولة مستقلة ولم يكن لهم وجود ولا كيان في العالم الدولي. .وكانت بلادهم مقسمة بين انجلترا وفرنسا وايطاليا وتركيا. فثورة الحسين واقتداء قومه به ومساعدة الوقت اياهم جعلتهم يحررون بلادهم .. ويطردون المستعمرين منها خلال هذه الفترة القصيرة..لقد بعثت القومية العربية والعنصرية من اللحد . وما كان هنالك من يؤمن بها بل يذكرها قبل اعلانها (افتراء .. ج) وفائدة الثورة الكبرى للعرب هي انها بفضل انضمامها للحلفاء وتعاونها معهم وأخذها عليهم العهود والمواثيق بالاستقلال .. انقذت بلاد العرب وادخلتها في دائرة الشعوب المنتصرة الغالبة .. وجعلت حكومتهم الجديدة في عداد الدول المؤسسة لعصبة الامم .. وتلك كانت مزية كبرى أيضاً » .

« اما مؤامرة الانكليز والفرنسيين على العرب واتفـــاقهم على اقتسام بعض بلدانهم (ليس بعض بل كل .. ج) فهو عمل خاص من صنع هؤلاء . . وهـــؤلاء وحدهم وقد تخلص منه العرب في النهاية » (٣) .

انتهى ذلك .. وهو اوضع وأسذج دفاع عن هذه الثورة ..

فلنناقش هذا الكلام ..

أي باب ولجناه .. وأي جسر عبرناه الى الحرية .. كانت بـــلادنا مقسمة بين الانجليز والفرنسيين وايطاليا وتركيا.. وأعيدت القسمة بعد الثورة فاقتسمت البقية الباقية .. بريطانيا وفرنسا وخرجت تركيا ودخلت الصهيونيـة .

هل قسمة ما قبل الحرب العالمية الأولى أسوأ منها بعد هذه الحرب ؟ (بعضهم ذهب فعلا الى ترجيح الاحتلال الانجليزي والفرنسي على تركيا) ان الذي حررنا هو الكفاح الدموي ضد ما أوقعتنا فيه ثورة الحسين وبقدر ما تخلصنا من آثار هذه الثورة بقدر ما تحررنا .

وليس صحيحاً أننا فزنا بأي استقلال .. بالنسبة للحجاز .. فقد سيطر عليه إبن

السعود .. وابن السعود كان موجوداً قبل الثورة .. فان كان يعتبر سيطرته على الحجاز تحريراً له .. فليس من العدل أن ننسب هذا الاستقلال للثورة الهاشمية .. على اية حال فان استقلال الحجاز امر يحتمل الكثيرمن القول فجميع امراء الجزيرة العربية كانوا يتقاضون رواتب من الخزينة البريطانية ويتصارعون من خلال المعتمدين الانجليز وفي جيش كل منهم مستشار أو حتى ضابط مدفعية انجليزي .. ويستأذنون الانجليز في الحرب ويعقد لهم المعتمدون البريطانيون مؤتمرات الصلح ويرسموت الحدود بينهم، بل كان المعتمد البريطاني يضع نظام الحج ويتدخل في تحديد الرسوم.. ويتوسط عند ملك الحجاز . لاباحة حج رعايا سلطان نجد !!

ماذا بقي لنصفه بالاستقلال : مصر .. العراق .. سوريا .. لقد منحت مصر والعراق حكماً صورياً واستقلالا اسمياً..ولكن بفضل ثورتي ١٩ في مصر و١٩٢٠ في العراق .. وليس بفضل ثورة لورنس بأية حال ..

أما حكاية اننا بهذه الثورة .. أصبحنا دولة مؤسسة في عصبة الأمم .. ولا شك انه يقصد حكومة الحسين .. فهي التي اعتبرت كذلك .. ولكن يكفي أن ننقل من نفس كتابه (٤) كيف حاول الملك « الحسين بن علي » شخصياً ان يستفيد من هذه المرتبة الرفيعة .. في تقديم شكوى لعصبة الامم من منفاه في جزيرة قبرص يطالب العصبة بالتدخل وانقاذه من « الملحد الهمجي المتوحش ابن السعود » بقوة الجامعة (عصبة الامم ج) التي اتشرف بأن اكون عضواً مؤسساً فيها » .

« ولا حاجة للقول بأن كتابه لم يلق أي اهتمام لدى جامعة الامم .. ولم يسجل في سجلاتها بل القي في سلة المهملات » (٥) .

وكذلك الزعم بأن الانجليز والفرنسيين تآمروا من خلف ظهر الثورة على تقسيم بلادنا واعطائها للانجليز والفرنسيين والصهيونية .. فهو قول فيه كثير من التجني .. شهد الله وشهد للتاريخ..ان الانجليز والفرنسيين والصهيونية ما تكتموا ولا أخفوا

تآمرهم ولا تركوا وسيلة لاعلان ‌نواياهم إلا وفعلوا . . اما وقد شاء العرب أن يخدعوا أو يتخادعوا فذلك شأنهم .

اما حكاية بعث القومية من اللحد فسنؤجل الرد عليه إلى موضع آخر في هذا الفصل ..

« أنيس صايغ » يسميها « الثورة العربية الكبرى » ولا ندري لماذا لا تكون ثورة عرابي مثلا هي ثورة العرب الكبرى ؟.. الم تكن الثورة ضد الارستوقراطية التركية ، وأيضاً بل وأساسا ضد النفوذ الاجنبي الغربي ؟.. لماذا لا تسمى ثورة ١٩ بالثورة العربية الكبرى ؟؟.. ألم تكن تجابه أكبر قوة استعمارية تتحكم في الوطن العربي .. ألم تكن تهدف الى تحرير كبرى أوطانه ؟..

لماذا ليست ثورة سوريا ١٩٢٠ أو ثورة العراق ؟.. لماذا ليست ثورة مصر في ١٩٥٢ .. ألم تحرر ثلث العرب وتضع شعار القومية العربية لاول مرة في ميدان الاختبار الحقيقي ؟.

أم يا ترى لا يستحق وصف العروبة الا ما كان ضد العرب والاسلام ؟؟.

وحتى بهذه المقاييس سنجد ان الذين قاموا بالثورة الهاشمية ودبروها ومولوها كانوا أقل الناس حرصاً على عروبتها ..

يزعم الاستاذ « الحصري » .. ان الثورة العربية قامت بغية ضمان استقلال الولايات العربية بأجمعها .. ويأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة » .

ويصر على انها « لم تكن حجازية بل عربية .. اشترك فيها رجال من مختلف أقطار العرب ومن مختلف الطوائف الدينية العربية .. »

ويعلن « نور الدين حاطوم » : « وثورة العرب على الترك عام ١٩١٦ بالرغم من

كل ما قيل فيها .. تعتبر ثورة عربية صميمة لانها كانت تهدف إلى استقلال البلاد العربية وترنو إلى تأسيس دولة عربية موحدة .. وكانت ثورة عربية بشعارها العربي والوانه العربية التي ترمز إلى عهود العرب [١] ايام عز العرب السالف وبعناصرها العربية .. فهي ثورة قومية ولو لم يشترك فيها إلا نفر قليل من ابناء العرب .. وستظل هذه الثورة قومية لأنها تعتبر اكبر تشخيص للمطالب القومية العربية الثائرة على الحكم العثماني آنذاك وأول ظاهرة للوعي العربي المناضل في سبيل التحرر القومي » .

وتنص المادة التاسعة من دستور حزب البعث العفلقي « راية الدولة العربية هي راية الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الأمة العربية وتوحيدها » .

لنر .. هل حقاً ارادت « الثورة العربية ضمان استقلال الولايات العربية باجمعها وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة » .. ومن ثم يستحق المصريون ان يقرعوا على اعراضهم عن الثورة « وتوهمهم إن الثورة العربية التي قامت بغتة ان هي إلا وليدة مطامع شخصية ودسائس انكليزية » ..

العفو !

ينقل مؤرخ الهاشميين صورة المذكرة الأولى التي ارسلها « الحسين بن علي » إلى مكماهون يحدد فيها الدائرة العربية . . وهي بالطبع تتضمن الحد الأقصى كما هي العادة في المفاوضات . وكما سنرى من المساومة التي جرت والاقتطاع الذي تم فيها والتعديل في حدودها ..

---

(١) بالمعنى الذي يستخدمونه لكلمة عرب .. وعلى اساس الفصل بين ما هو عربي وما هو اسلامي (وهو منطق نرفضه) ولكن بنطقهم هذا لا يمكن القول بان الراية بالوانها الاربعة كانت تمثل عهود العرب وايام عز العرب ، على الاقل اللون الاسود شعار العباسيين الذين بدأت دولتهم بوصية شهيرة هي « ان استطعت ان لا تبقي بها عربياً زاد طوله عن شبر فافعل » . وفي رواية اخرى « اقتل كل من نطق بالعربية » فهي راية اسلامية !

تقول المذكرة الأولى في تاريخ الثورة « العربية الكبرى » : « ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن اية حكومة اخرى وبالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا .. وبالنظر لهذه الأسباب كلها .. يرى الشعب العربي انه من المناسب ان يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من الموافق ان تصادق بواسطة مندوبها أو ممثليها على الاقتراحات الاساسية التالية :

١ – تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية من أدنة حتى الخليج الفارسي شمالا .. ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا .. ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبا .. يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي .. ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غربا .

توافق انكلترا ايضاً على اعلان صفته خليفة للمسلمين .

٢ – تعترف حكومة الشريف العربية بافضلية انكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

٣ – تتعاون الحكومتان الانجليزية والعربية على مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لافضلية انكلترا الاقتصادية فيها . على ان يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية ..

وقد رد مكماهون على هذه الرسالة بقوله :

« الحبيب النسيب سلالة الاشراف وتاج الفخار .. فرع الشجرة النبوية .. والدوحة القرشية الأحمدية .. صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية .. السيد ابن السيد .. والشريف ابن الشريف .. السيد المبجل دولة الشريف حسين باشا .. سيد

الجميع .. أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين . . عمت بركته الناس اجمعين » .

وبعد هذه المقدمة التي تطمع في اسلام مكماهون يرد عليه قائلا :

« وبعد رفع مرسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة الحرص او عرض .. ان لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لاظهاركم عاطفة الاخلاص والاحساسات نحو انكلترا .. وقد سرنا علاوة على ذلك . . ان نعلم ان سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة .. وهي ان مصالح العرب هي مصالح انكلترا .. ومصالح انكلترا هي مصالح العرب » ..

« وأما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل – والوقت قصير والحرب قائمة – سابقاً لأوانه (٦) »..

فالمشروع الذي يتقدم به الحسين قائد « الثورة العربية الكبرى » يخرج افريقيا العربية كلها كما يخرج الخليج والجنوب العربي من دائرة العروبة .

ولكن هذه ليست الا البداية .

فبعد ان يعتب الشريف على مكماهون بروده بازاء قضية الحدود .. يرد عليه مكماهون « مرسين واسكندرون وبعض الأقسام السورية الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب (لبنان) لا يمكن ان يقال انها عربية محضة » .

« أما فيما يتعلق بولايتي البصرة وبغـــداد .. فان العرب يعرفون ان مركز انكلترا ومصالحها فيهما يتطلبان شكلًا اداريا خاصا .. ومراقبة خاصة » .

ويبدأ الكرم العربي في اقتطاع اطراف هذه الدولة العربية المقترحة..
من الشريف إلى مكماهون :

« رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الاسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فاننا نتنازل عن اصرارنا في ضم مرسين وادنه إلى المملكة العربية .. أمـا قضية حلب وبيروت وسواحلهما فهي عربية صرفاً وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي .. فكلاهما من نسل واحد » .

٢ – لما كان العراق قسما من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها في عهد علي بن ابي طالب والخلفاء الذين تبعوه . . ولما كان هذا القطر مهداً الحضارة العرب ومدنيتهم وفيه انشئت مدنيتهم الأولى وفيه عظمت قوتهم فان العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة .. ولا يستطيعون ان ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم ولذلك اعتقـد انه ليس في المستطاع اقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر

(للاسف .. ج) انما رغبة في تسهيل الاتفاق (لأن الزبون دائما على حق .. ج) واعتماداً على عهودكم .. وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر .. فقد نوافق ان نترك لمدة قصيرة الاراضي التي تحتلها الجيوش البريطانية تحت ادارة انكلترا . لقاء مبلغ من المال كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها . »

وهكذا في أول مساومة جرى حسم ادنة ومرسين والعراق لقـاء مبلغ من المال .. »

ولكن مكماهون لا يشبع ولا يرضى . . خاصة وانه « مرسل مع رسولكم الامين مبلغ عشرين ألف جنيه » وصحيح انه « سرني مـا رأيت .. من قبولكم اخراج ولايتي مرسين وادنة من حدود البلاد العربية وقولكم ان العرب مستعدون ان يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين . . ويعلم منه انه يشمل البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية » . أمـا بشأن ولايتي حلب

وبيروت .. فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل مـــا ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة (!!!) ولكن لما كانت لفرنسا حليفتها مداخلة فيها فالمسألة تحتاج الى نظر وثيق .. وسنخابركم في هذا الشأن مرة اخرى في الوقت المناسب » .

من الشريف الى مكماهون :

« أما ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذي اقترحناه لقاء « احتلاله » فانني رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغايتنا في القول والعمل .. ادع أمر تقدير المبلغ الى حكمتها وعدالتها [1] » .

« أما ما يتعلق بالاقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدنا لـكم في كتابنا الـسابق .. أقصى ما يمكن ان نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل الا لتحقيق الرغائب التي يريدها الله العلي القدير أن تتحقق » .

« وهذا الشعور الذي حدانا لان نتجنب كل ما من شأنه ان يسيء الى تحالف انكلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحروب ومصائبها » .

وهكذا تم الاتفاق على « احتلال » العراق نظير اكرامية تحددهـــا حكمة بريطانيا وعدالتها .

وقبل المساومة على حلب ولبنان .وحتى لا يـسيء العرب إلى المحالفة البريطانية الفرنسية في هذه الحروب ومصائبها !

وعندما اعلن الملك حسين نفسه « ملكاً للعرب » اساء الانجليز والفرنسيون تفسير معنى « العرب » في اللقب .. فنفى لهم الملك أي لبس .. يحاول ان يلصقه به اليوم القوميون الجدد ..

---

(١) هات اللي تجيبه يا خواجا .

فقد سأل المعتمد الفرنسي في مصر مندوب الملك حسين « عن معنى كلمة عرب » وهل تشمل مثلاً تونس ؟ .. فشرح المندوب « إن هذا الاصطلاح قديم .. ولم يؤد يوماً ما معنى سلطان الترك .. سلطان جميع الاتراك .. والمقصود به البلاد العربية » .

ولا تظن إن في الأمر مغالطة أو تحايلاً ديبلوماسياً .. لا .. الشريف ونائبه في مصر صادقان كل الصدق .. انهما يقصدان « البلاد العربية » .. بقي ان نعرف ما هي البلاد العربية عند قائد « الثورة العربية الكبرى » .

ممثله زاد الأمر وضوحاً مع « ولاة الأمور الانكليز .. فبينا ان لفظة « ملك العرب » ليست عامة كما يظنون . انها لا تشمل مصر والجزائر وغيرهما .. بل المقصود بها ملك البلاد العربية » ..

واضح جداً .. مصر والجزائر وغيرهما ليست من البلاد العربية. اذن فبأي حق يطالبنا الاستاذ الحصري بان نتطفل على هذه الثورة التي تخلعنا من عروبتنا .. وإن الوهم في رفض عروبتها الزائفة .. ما كان أمامنا إلا ان ننكر عروبتنا وعروبة الجزائر وغيرها .. أو ننكر عروبة عصابة لورنس وعودة ابو تايه [١] .

وأي الموقفين اشرف للتاريخ العربي .. ان نحرم من الاشتراك في « الثورة العربية الكبرى » لاننا لسنا عرباً .. أم ان نمتنع عن الاشتراك فيها لأنها ليست ثورة ولا عربية ؟ ..

موقف الشعب المصري كان أسلم وأشرف .

ويعود الشريف حسين – سامحه الله - فيؤكد نزع عروبتنا واسقاط الجنسية العربية عنا فيقول في برقية إلى معتمده في القاهرة : يقول قائد « الثورة العربية

---

(١) محرر العقبة كما تسميه مجلة « الكاتب » القاهرية وتدهش لتطاولنا على مقامه السامي .

الكبرى » بالحرف الواحد « إن مصر ليست من البلاد العربيـــة وتونس والجزائر بطريق الأولى (أي من باب أولى .. ج) ويصف القول بعروبـة مصر والجزائر وتونس بانه « خيالات وذهابات » ..

إن من يسمي هذه الثورة العربية الكبرى انما ينفث الحقد الدفين على عروبـة مصر والرغبة في نزعهـــا من العروبة بأي ثمن ولو بتنصيب لورانس قائداً للثورة العربية الكبرى ..

على أية حال ورغم كل التعريفات والتوضيحات التي قدمها الشريف والتي حصرت مفهوم العرب في الحجـــاز وجزء من سوريا .. فان الانجليز يحبون الوضوح .. ويهوون اذلال العملاء ايضاً .. ومن ثم فقد اعترفوا به « ملكاً على الحجاز » وبعد نصف قرن يكتب علينا ان نناقش مـــن يزعم ان الثورة الهاشمية ارادت توحيد الولايات العربية !

وتنازل الملك عن اللقب معتذراً « فانا لم افعل ما فعلت .. إلا نزولا عنـــد رغبة كبار قومي وعلمائهم وشيوخ القبائل وانا مستعد للتنازل عن اللقب إذا كانت انكلترا لا تقره » .

بل وكانت بريطانيا حريصة على نفي ملكيته على الجزيرة العربية كلها ! « لأن ذلك يؤدي إلى وقوع الشقاق والانقسام بين امراء العرب .. ومد يحول في المستقبل دون تسوية شئون الجزيرة تسوية تبعث على الارتياح .. وعندما ذهب فيصل إلى مؤتمر الصلح أعلن انه « لا يتكلم باسم عرب افريقيا » (٧) .

اذا شاء الاستاذ الحصري ان يقرعنا على نقص عروبتنا فليختر حجة غير الثورة الهاشمية ..

ويقول انيس صايغ : « ويفهم مطالع تصريحات الحسين ان المقصود بالامـــة عرب الحجاز فقط .. وان المقصود بالوطن شبه الجزيرة العربية فقط (٨) »

ومع ذلك يعود أنيس صايغ في كتابه « الهاشميون والثورة العربية الكبرى» فيكت التيار الآخر الذي منه « معظم المفكرين القوميين في مصر الذين لم تبدل قلوبهم الاضطهادات والاعدامات والاجراءات القاسية التي ذاق العرب مرارتها . . امام سمع هؤلاء وبصرهم . . ممن بلغ من تمسكهم بالدولة لسبب أو لآخر ان خاصموا الحركة الوطنية وقاوموها حتى اللحظة الاخيرة من الوجود التركي في سورية (٩)

القضية ليست بهذه البساطة . . واعتراضنا الاول هو على وصف هذا الذي فعله لورنس « بالحركة الوطنية » لان الحركة الوطنية علمياً وتاريخياً هي المعادية للاستعمار الغربي . لا المتحالفة معه ولا التي فتحت الأبواب له باموال وجنوده . . والذين غرر بهم « الذين لم تبدل قلوبهم الاجراءات التي ارتكبها الانجليز في مصر خلال الحرب » .

ان الهاشميين هم . . كما وصفهم رشيد رضا . . الذين « فتحوا الباب لبريطانيا حتى تمد سيطرتها على البلاد العربية والمسلمة . بل على الديار المقدسة . . وخدعوا السوريين بوعودهم وتطميناتهم في حين انهم كانوا متفقين مع بريطانيا ومستعدين لقبول انتداب فرنسا . . وقد خانوا ايضاً قضية فلسطين » (١٠) .

أما قضية قتل الأحرار . فانها حقاً قد أفقدت البعض رشدهم ودفعتهم ولهم العذر كل العذر (اي المخلصون منهم) في المقامرة ضد الأتراك ولو بدافع الانتقام كما سنشرح ذلك . ولكن ذلك الموقف لا يبيح لنا أن نهاجم الآخرين الذين ارتفعوا فوق مستوى الانفعال الوقتي وكان لهم من البصيرة ما جعلهم يستشفون التنكيل الافظع والخسارة الافدح التي يمثلها الاستعمار الغربي والصهيوني لاوطانهم .

يقول شكيب ارسلان : « لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا إن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقسماً بين انجلترا وفرنسا وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود . . وهذا التكهن كان عندنا مجزوماً به . . حتى اني كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء ما ازددت يقيناً ثم انتهت الحرب وانتصر الحلفاء وارتفع

الغطاء .. فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول .. »

بل إن الموقف تصوره أصدق تصوير المحادثة المأساوية بين ياسين الهاشمي أحد مؤسسي الحركة العربية .. وفي نفس الوقت قائد الفرقة التركية العشرين المرابطة في طولكرم تجاه الانكليز .. وبين سليم عبد الرحمن رسول الثوار العرب اليه يدعوه للانضمام إلى الملك فيصل ولورنس .

يروي سليم عبد الرحمن : « ان ياسين الهاشمي قال له بالحرف الواحد » .. ان الانكليز غير مخلصين لا لفيصل ولا لوالده .. فهم بعد ان عاهدوهما على انشاء دولة عربية اتفقوا مع اليهود واصدروا وعد بلفور .. كما اتفقوا مع الفرنسيين على اعطائهم سورية وربطوا العراق بالهند ثم اخرج لي منشوراً القته عليهم الطائرات الانكليزية كما اخرج نسخاً من جريدة المقطم المصرية كانت الطائرات الانكليزية تلقيها عليهم من وقت لآخر .. مع مناشير انكليزية وكلها تلقب الحسين بلقب ملك الحجاز .. مع انه يلقب نفسه بلقب ملك العرب .. وختم كلامه معتذراً بانه يتولى عملاً عسكرياً لا يجوز له التخلي عنه .. وقال له : اذهب انت واخوانك واعملوا مع الأمير لانقاذ العرب وسنلتقي في دمشق ان شاء الله قريباً (١١) .

لم تكن هناك « حركة وطنية » حتى يعير الآخرون بخيانتها أو تجافيها .. بل كان الأمر كما قلنا في البداية حركة ثورية عربية تتجمع وسط ظروف غاية في التعاسة .

الاستفزاز التركي بلغ منتهاه .. واجراءات البطش تبيد الزعماء المترعمين والنمور والذئاب [١] . متفوقون بنسبة تقهر أي استبسال .. والدعوة للانفصال

---

(١) في التحليل العلمي السليم لالياس مرقص يقول :
« بوجه الاجمال لا تتمتع الثورة العربية باي حظوة في البلاد العربية الافريقية التي كانت تكافح .. ذئاب ونمور الاستعمار البريطاني والفرنسي ابان اندلاع الثورة » .

عن تركيا تمولها وتديرها المخابرات .. وأعلى الأصوات فيها أصوات مأجورة عميلة تعبر عن عمالتها وموقفها بصراحة نادرة .

في وسط هذا الجو كان الأحرار العرب يتحركون بهدف انقاذ الوطن العربى مما يمارسه الاتراك وما يدبره الاستعمار الغربي في نفس الوقت .

وتحركت المخابرات البريطانية بهدف تحريك شريف مكة ضد السلطان .. وسمي ذلك « بالثورة العربية » ووجد الاحرار انفسهم وسط هذا الضياع فقامروا .

تلك هي القضية فلنتابع تفاصيلها :

من الذي اختار الشريف حسين لزعامة الثورة . وما هي حكاية الهاشمية .. وهل كانت الثورة عربية .. وما الهدف الحقيقي لها ..أو بمعنى أصح : لماذا دفعت بريطانيا الاموال والارز والسلاح ؟.. بهدف تأليب العرب على الترك واحتضان الثورة العربية ؟ ام بهدف تأليب المسلمين على المسلمين وامتصاص الثورة العربية باحداث انشقاق ديني يفقد به خليفة المسلمين القدرة على تحريك عصا الخلافة أو دعوة الجهاد ؟ ..

القضية بمنتهى البساطة .. ان مخططي السياسة البريطانية كانوا قد وضعوا في اعتبارهم ان الحرب المقبلة ستدور ضد تركيا .. بل يجب ان تدور ضد تركيا . . ليس لمجرد انحياز العصابة الحاكمة في تركيا إلى جانب ألمانيا . . هذا الانحياز الذي تأكد عشية الحرب العالمية الاولى .. بل لان المصالح الاستعمارية لبريطانيا كانت تحتم مقاتلة الاتراك حتى ولو انضموا للحلفاء ولم تبذل بريطانيا أي جهد حقيقي لكسب تركيا ولا كان ذلك ممكناً .

ومنذ عهد السلطان عبد الحميد وخليفة المسلمين العاجز عسكريا . . يلوح بسلاح الجهاد وقد اتضحت خطورة هذا السلاح وامكانية ان يثير المسلمين في العديد من

المواقف .. وخاصة خلال الحرب ضد ايطاليا .

وكانت القوات الهندية هي العمود الفقري للقوات البريطانية المحاربة والمتأمل لوقائع التاريخ قبل قيام باكستان يدهش لمدى تجاوب المسلمين الهنود مع الأحداث الاسلامية في العالم العربي ومع خليفة المسلمين ومدى تأثير دعوة الجهاد وأيضا مدى تأثير هؤلاء المسلمين الهنود على الاوضاع في الهند[1] وبالتالي على مصالح الامبراطورية[2] .

وكان جيش فرنسا هم السنغاليين والمغاربة .. ومن هنا كان لا بد من مواجهة دعوة الجهاد بانشقاق اسلامي . وإذا كان خليفة المسلمين يملك ان يضم للترسانة الالمانية البيرق النبوي .. فقد جند الانجليز إلى جانبهم ابن النبي شخصياً .. «الحبيب النسيب سلالة الاشراف تاج الفخار ..فرع الشجرة النبوية والدولة القرشية الاحمدية» وإذا كانت اسلامبول قد انحازت لدول الوسط فإن الانجليز معهم « سيد الجميع أمير مكة المكرمة .. قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين .. عمت بركته الناس اجمعين » .

ولا شيء أكثر من ذلك ..

ليغرق القوميون في أوهامهم .. أما هي .. فليست أكثر من انشقاق اسلامي أريد به تهدئة الهنود ورعايا الخلفاء من المسلمين وبلبلة تفكيرهم وتشتيت موقفهم .. ومن هنا لا يجدي اعتذار القوميين بأن الثورة لم تكن ذات قيمة عسكرية

---

(١) عندما اراد الشريف حسين ان يؤلب المسلمين باتهام الترك بضرب الكعبة في منشور اعلان الثورة حذف نائب الملك (البريطاني طبعا) في مصر هذه الفقرة وابرق وكيل الشريف يقول له « لقد اعترض نائب الملك على ما جاء فيه خاصا بضرب الترك الكعبة المقدسة واحراق الستار لاعتقاده ان هذه الجملة تغيظ القسم الاعظم من المسلمين في الهند ولان للاتحاديين هناك تأثيراً عظيماً . ويقول بان هؤلاء الهنود يقولون : انه لا سبب لضرب الكعبة سوى قيام العرب (امين سعيد ص ١٦١) .

(٢) ولعل ذلك هو تفسير اقامة معزل للمسلمين الهنود في شكل دولة باكستان .

كبيرة لبريطانيا لأن النصر في الحرب تقرر في اوروبا[١] .

هذا صحيح .. ولكن هذا النصر كان سيغدو غالي الثمن وربما مستحيلا لو استطاع سلطان الاتراك أن يؤلب العالم الاسلامي تحت شعار الجهاد .. فالثورة اذن قد حققت الأهداف المرسومة لها .

لورانس — وهو الادرى طبعا — يعلق على بداية الثورة بقوله : « وبذلك انهارت الدولة الاسلامية التي طالما عمل على تدعيمها السلطان .. وذابت احلام قيصر ألمانيا في تعاون المسلمين معه على تنفيذ مشروعاته العالمية (١٢) » .

« لقد كنت اؤمن بالحركة العربية ايمانا عميقا وكنت واثقا قبل أن احضر الى الحجاز انها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر » .

ووزارة الحربية الفرنسية تحدد فوائد الثورة العربية بصراحة تامة لسوء حظ الواهمين والمزيفين فهي تقول : « ان اعلان الثورة العربية في الحجاز هو في مصلحة الحلفاء من عدة وجوه .. فأما من الوجهة السياسية فان اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وارمينية الصغرى . وتحرير هذه الشعوب من النير التركي يهيىء لفرنسا اسباب التدخل في شؤون هذه المقاطعات كما تشغل من الواجهة العسكرية الجيش التركي .

« أما من الوجهة الأدبية فانها تقود الجانب الاكبر من رعايانا المسلمين الى اعتبار الترك كمعتدين على الأماكن المقدسة الاسلامية فيزداد تعلقهم بفرنسا لأنها تكافح الترك وحلفاءهم وتزيدهم اخلاصا لها .. وبناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة وصبغها بصبغة اسلامية (١٣) » .

وهكذا نجد أنه رغم جميع التحليلات واصرار المعلقين على تأكيد جانبها العربي

---

(١) يقول انيس صايغ : « ان الثورة ذاتها لم تكن اساسية في تقرير مصير الحرب .. كما كتب ساطع الحصري في كتابه القيم عن ميسلون » .

واعتبارهم ان العرب قد بلغوا سن الرشد بالتخلي عن الاسلام نجد ان مموّلي الثورة ومشعليها لا يعنيهم منها الا جانبها الاسلامي.. وما اختاروا الشريف حسين وبالغوا في أهمية الهاشمية ومنصبه الا للتغرير بالمسلمين في الهند وافريقيا » .

« الى جميع العرب وغيرهم من الضباط والرجال في الجيش العثماني » لقد سمعنا بكل أسف بأنكم تحاربوننا . نحن الذين نعمل من أجل صيانة الشريعة الاسلامية المقدسة من ان تبدل » .

توقيع

الجيش البريطاني (١٤)

ويرى الاستاذ محمد حسنين هيكل :

« تفضل بريطانيا في تعاملها مع الثورة العربية ان تعمل على تغليب العنصر الديني فيها لعدة اسباب :

- إن الخلافة العثمانية تحيط بها هالة دينية وبالتالي يجب مقاومة الدين بالدين .
- إن الضغط على الجانب الديني الاسلامي قد يغطي على الجانب القومي الوطني .
- إن ظهور قيادة دينية اسلامية إلى جانب بريطانيا في الحرب يساعدها على تجنيد الموارد البشرية في شبه القارة الهندية لخدمة مجهودها الحربي .. وكان المسلمون في شبه القارة الهندية قد تأثروا بنداء الدعوة إلى الجهاد الذي اصدره الخليفة العثماني ضد بريطانيا وحلفائها واعتبر حربها حرباً مقدسة من أجل الاسلام (١٥) .

بل هذا هو منشور إعلان الثورة، من نص حروفه سنجدإن حكايةالقومية العربية

غير واردة فيه على الاطلاق .. وإنه منشور يؤكد الطابع الاسلامي للحركة .. وربما باكثر من كل ما تعرضت له كتابات انصار الجامعة الاسلامية ..

ومأساة حياتنا السياسية اننا نخلع على الاحزاب والحركات السياسية من احلامنا واماننا .

منشور الثورة موجه إلى جميع اخوانه المسلمين ولا يقول العرب .. ومن الشطر الأول تنهار فكرة القومية العربية .. فهو يبدأ بالحديث عن الدور الذي لعبه اشراف مكة في خدمة الدولة العلية لجمع كلمة المسلمين واحكاماً لعرى جامعتهم .

ثم يبرر بذلك محاربته للعرب وضربه « الحركات الانفصالية » محافظة على شرف الدولة ثم يرجع اسباب ثورته إلى وصول جمعية الاتحاد والترقي للحكم « فحادوا بها عن صراط الدين ومنهج الشرع القديم » واضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها . (غريبة من ممثل حركة انفصالية) « ومزقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية » ويذكر هنا في نصف سطر « انهم خصوا العرب ولغتهم بالاضطهاد » ثم يشرح أدلة انحرافهم عن صراط الدين . من طبع الكتب ونشر الاراء الالحادية والتهجم على رسول الله والتفريط في الصلاة وإباحة أفطار رمضان وتعديل القوانين الشرعية . . ثم يعدد سلبهم لحقوق السلطان المعظم « في سلطنته الشريفة » وتدخلهم في خاصته « المبجلة المنيفة » .

وتأثير ذلك على شروط الخلافة . . « إذ يجب على المسلمين أن يكون لهم إمام (خليفة) شرعي مستقل قادر على التصرف وإقامة الشرع ورفع لواء العدل . »

ثم يؤكد جرمهم في حق العرب : « أن الاعتداء على العرب اعتداء على الاسلام . لأنه « لا يخفى إن قتل اللغة العربية قتل للاسلام نفسه » .

وانهم قتلوا الزعماء العرب .. « لكي لا يطمع عربي بان يقول بعدهم ان لغتنا

لغة الاسلام فيجب على الدولة الاسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها .. »

« أي مسلم .. بل أي بشر ، يرضى لقومه بمثل هـــذا الظلم ؟ . . » ويستخدم تعبير « الأمة العربية » في الحديث عن الحجاز » ليتم لهم القضاء على الأمة العربية في دارها .. وموطن منعتها وعزها وفخارها .. ويذيقوا هذا الحرم الذي جعل الله آمناً تجبى اليه ثمرات كل شيء ما اذاقوا جنة الدنيا (الشام) .

« فيا ايها الاخوان المسلمون » .

انا قد وصلنا إلى حال من الخطر .. لم يسبق لها في الاسلام نظير ..

قد صار أمر هذه الدولة الى جمعية اغتصبت حق آل عثمان الكرام بقوة الثورة (تأمل !!) وجعلته في أيدي زعانف ليس لاكثرهم في الشعب التركي الاسلامي أصل راسخ .. ولا في الاسلام علم صحيح وقد كانت مقاومة اخواننا الترك لهم أشد من مقاومة العرب ..

ويؤلب العالم الاسلامي على الترك باعلان انهم قذفوا الكعبة بثـــلاث قذائف (وهي التي حذفها المراجع البريطاني لبيان الثورة العربية الكبرى) .

ويغيظ المنشور دعاة القومية المتمسحين في ثورة الهاشميين المؤرخين بهـــا لتطور العرب بخلعهم الدين .. يقول المنشور « اذ لم يعد في السكوت مصلحة راجحة لا للدين ولا للدولة بل صارت المصلحة الإسلامية والعربية (وهما متلازمتان (١) ..) في مقاومة هذه الفئة الباغية » .

ها هو يرى التلازم بين العروبة والاسلام .. فليس من حق دعاة فصل العروبة عن الاسلام ان ينتسبوا إلى هذا الذي رأى تلازمها وأضر بهما معاً .

ويرى ان الثورة « جاءلة » مبدأها وغايتها .. نصرة دين الاسلام والسعي لاعلاء

(١) هذا التوضيح من نص مذكرة الشريف حسين .. وليس من اضافاتي .

شأن المسلمين والمساواة الشرعية في الحقوق قائمة في كل اعمالها .. على أساس احكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه » .

« وليعلموا بأننا قد قمنا بما قمنـــا به ونحن نعتقد اعتقاداً راسخاً انه افضل خدمة للمسلمين (١٦) .

المنشور واضح وصريح .. وايضاً طبيعي جداً .. ومنطقي ويعكس تفكير وأهداف الذين دبروا الحركة .. ومن ثم فلا حق للمتأنين في استيائهم .. ولا وجه لمعاتبة الشريف الملك والزعم بان منشور الثورة قد انتقل بالقضية العربية .. من قضية قومية إلى قضية دينية .. ولا التساؤل ما شأنه حتى يلجأ إلى التشديد على الناحية الاسلامية وصبغ الثورة بها ليكسب الرأي العام الاسلامي .. وخاصة في الهند حيث كان المسلمون يؤيدون الأتراك وينقمون على الانجليز .

ولا معنى لأن يسأل المرء .. خاصة إذا كان مؤرخاً . . « ما هي مسئولية زعيم الحركة العربية تجاه مسلمي الهند ؟.. الذين كان غضبهم على الثورة يستهدف الانجليز ولا ينهب ضحية له غير الانجليز .. فلماذا يهتم هو في تلك الساعات الحرجة بالدفاع عن الانجليز وحماية مصالحهم وبقائهم في الهند على حساب مسلمي الهند وهندوسها .. وعلى حساب الثورة العربية وحقائقها .. (١٧) »

سبحان الله !

وهل كانت بريطانيا تدفع الارز والسلاح والجنيهات الذهبيـــة .. إلا لكسب مسلمي الهند لصالح بريطانيا . . وحماية مصالح بريطانيا في الهند وما مسئولية الملك حسين الموظف في جهاز الدولة البريطاني والذي يتقاضى مرتباً شهرياً هو واولاده .. ويخضع للكادر البريطاني بما فيه من علاوات ودرجات .. وما مسئوليته إزاء أوهام واختراعات القوميين .. من قال انه زعيم ثورة قومية على الطراز الاوروبي ..وانه انحرف بها إلى « متاهات اسلامية » ؟.. من قال ذلك ومن اين جاءت هذه المظنة .. ألم تكن كتاباته تؤكد انه يفهم « من القومية انها اداة لخدمـــة الدين والشرع ».

ويفهم (من الوطنية) انها الذود عن الاسلام وحمايته من الالحاد .. والنظام المرجو للدولة العربية هو نظام الخلافة الذي يشمل الدين والدنيا معاً .. ويدعو إلى القومية والوطنية لأن تقاليد الشرع وأحاديث الرسول قد أوصت بها،والقوميةهي المذهب.. أما الاستقلال فهو تحرير المسلمين المؤمنين من المسلمين الذين الحدوا وكفروا .. ويعني بالعرب أهل الحجاز فقط .. ولا يستعمل تعبير الأمة العربية ليشمل به منهم خارج الحجاز قط .. والوطن هو الحجز هوالأقليم المحلي فقط ، وهو منفصل في ذهنه عن سورية والعراق انفصالا تاماً .. أما مصر فهي ليست من البلاد العربية (١٨) ! ما دام كل هذا واضحاً أمامكم .. فمن أين اذن يزعم كاتب هذا كله بأن الثورة قامت على أسس قومية عربية ، مهما كانت مساندة الانكليز لها ، ومهما كانت نفسية المشرفين المباشرين عنها ، وهي لذلك ذروة النضال الوطني ضد الاتراك الذي بدأ بصورة جزئية وبسيطة،منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر في بيروت ودمشق ولكن التعبير عن أهداف تلك الثورة سريعاً ما انحرف عن منحاه القومي ، وتخبط في التباسات اسلامية حتى ضعف المظهر العربي عنه ، وبدت الثورة كأنها حركة شخصية اسلامية ، يقوم بها شريف عربي ضد الاتراك بمساعدة وبتحريض من الاجانب (١٩) » .

ومن هنا فهي لم تنحرف ، بل كانت حركة طابعها الاسلامي هو المقصود أولا وأخيراً ، وفي هذه الحدود دبرت ووجهت ..

أما ان يكذب المرء ويصدق نفسه فهي حالة مرضية .. وأخطر منها ان يحاسب الذين يرفضون تصديقه .. خاصة إذا كان الأمر يتعلق بهم .. يقول وليم بولك :

« كانت الحكومتان الفرنسية والبريطانية يسودهما قلق عميق بشأن تأثير إعلان الخليفة السلطان ، للحرب المقدسة على السكان المسلمين العديدين في الهند وشمالي افريقيا .. »

فإن الاسلامية كانت تعتبر في هذا الوقت من جانب الاوروبيين نداء له شعبياً

واسعة .. وكان خطر قيام ثورة اسلامية شاملة في وسط الحرب العالمية ماثلا أمام أعين صناع السياسة البريطانية وفي ١٤ نوفمبر فعلها السلطان – الخليفة ، إذ أعلن الحرب المقدسة ولكن شريف مكة المفروض فيه تلبية النداء ظل ساكتاً.. وكانت بريطانيا تأمل ان تدفع الشريف إلى مساندة قضية الحلفاء ، الأمر الذي يقضي بغير شك على التهديد بثورة اسلامية .. كان هذا هو الهدف الاساسي خلف المراسلات بين الحكومة البريطانية من جانب وشريف مكة من جانب آخر ، والمسماة مراسلات حسين مكماهون ، والتي وضعت الشروط التي بموجبها دخل بعض العرب الحرب إلى جانب الحلفاء (٢٠) »

ويلخص فائدة الثورة العربية هذه : « إن المساهمة الكبرى التي قدمها العرب ، هي انهم كمسلمين قد قضوا بثورتهم، على خطر العصيان الديني ضد الحلفاء من جانب الشعوب الاسلامية العديدة في مستعمراتهم (٢١) » .

ومن هنا كان اختيار الهاشمي وشريف مكة .. مكة بالذات .. ولا معنى لأن نجهد انفسنا في بحث لماذا اختار الثوار العرب .. الهاشمي .. شريف مكة .. لقيادة ثورتهم .. فذلك كله لم يحدث .. والبحث عن تفسير له ، يعني اهدار الجهد في تفسير قضية لا وجود لها .. فالانجليز هم الذين اختاروه[1] .

اما الذين يفترضون ثورة عربية وحركة قومية معادية للاسلام ومنفصلة عنه أو متطورة على متاهاته ويحاولون ان يفتشوا عن حل يغطي تناقض هذا المفهوم مع تربع « الهاشمي الحسيب النسيب » على رأس هذه الثورة المفترضة !.. ومن ثم يضطر المرء الى اختراع نظرية عن « مرحلة الهاشمية » في تطور الزعامة العربية .. وينقب في بطون التاريخ باحثا عن لقب السيد الذي يسبق اسماء زعماء الامة العربية، ونحن نطمئنه الى انه يصعب جداً وجود اسم حاكم عربي لا يمت للاشراف

---

(١) يقول وليم بولك : « لقد كان البريطانيون وليس العرب هم الذين اغروا – الشريف حسين بان يتقمص دورا اكبر » ص ١٠٤

بصلة ! ... حتى فاروق التركي أو الألباني استطاع ان يصبح شريفاً ، وعن طريق أمه بالذات ، حفيدة سليمان باشا الفرنساوي !

ولكن هل كانت هذه القضية تساوي شيئاً في ميدان الزعامة العربية ؟ هل تبع العرب عمر مكرم وعرابي [1] والمهدي والسنوسي لانهم « اشراف هاشميون » أم لأنهم ابطال المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الأجنبي الصليبي ..

وهل تردد المسلمون العرب في خلع وقتل وسحل الاشراف .. الذين خانوا الثورة العربية .. ومن الذي سمع بالشريف حسين قبل ان يختاره الانجليز .. أو الشريف فيصل قبل أن يتوسم فيه لورنس انه هو « البطل الذي أبحث عنه لتحطيم دولة الاسلام » .. انها المخابرات البريطانية التي اكتشفت حكاية الهاشمية وبالغت فيها وضخمتها لتواجه سحر ونفوذ لقب : « أمير المؤمنين وخليفة المسلمين » كما اخترعوا حكاية آغاخان ..

فالاحرار العرب قد اتصلوا بابن السعود ، الوهابي والعدو اللدود لفكرة الهاشمية وما يترتب لها من حقوق واتصلوا حتى بالخديو « عباس حلمي » التركي..

فحكاية الزعامة الهاشمية لم تكن تخطر ببالهم .. اختارالانجليز الشريف حسين، لزعامة الانشقاق الاسلامي .. أو الثورة العربية .. اختاروه لأنه شريف مكة ، ولانه هاشمي .. ولأنه صنيعتهم فهم الذين فرضوه شريفا لمكة [2] » ..

---

(١) في احدى الروايات التي لا اذكر مصدرها وربما لا يمكن اثبات صحتها ، واهميتها انها تعكس احساس الرأي العام بمدى جدية حكاية الهاشمية هذه .. قيل . انه لماذا دار النقاش في اثناء الثورة العرابية حول خلع الخديو توفيق وظهرت مشكلة المرشح لعرش مصر ، زعم احد قادة الثورة العرابية انه احق بها لنسبه الهاشمي .. فطلب المجتمعون التأجيل لمدة ٢٤ ساعة .. وعادوا في اليوم التالي وكل منهم يحمل شهادة موقعاً عليها من جهة الاختصاص بصحة نسبه الهاشمي .

(٢) يقول انيس صايغ « وبين المؤرخين من يؤكد ان السفير البريطاني كان وراء هذا التعيين اذ ضغط على الحكومة العثمانية » ص ٣٧

ونفس الحيرة التي يقع فيهـــا المنظر الذي يفترض ان الأحرار اختاروا حسيناً « لزعامة الثورة مع خلوه تماماً من مؤهلات هذه الزعامة ، نفس الحيرة يقـــع فيها المنظر الذي يحاول ان يفسر لماذا اختار الاحرار الحجاز مهداً لثورتهم القومية ..
فعلى عكس كل النظريات التي ترد القومية لجهود مدارس التبشير والارساليات

التي نشرت حضارة الغرب والمفهوم الغربي العصري للقومية .. وعلى العكس من تلك النظريات التي ترد ظهور القومية الى السوق ونمو البورجوازية .. على العكس من ذلك كله ، قامت « الثورة القومية » في أبعد بلاد العرب عن تأثير المبشرين والفكر الغربي في أكثرها تخلفاً في النمو البورجوازي » .

وحل هذا اللغز بسيط جداً .. هو أنه ، لا الاحرار اختاروا الهاشمي زعيما ولا الثورة قامت في الحجاز « كذلك لا يتوفر لدينا أي دليل على ان العائلة لعبت دوراً ايجابياً في الحركة العربية قبل بدء المفاوضات بينها وبين السلطات الانجليزيـــة في ١٩١٥ .. ولا يتوافر لدينا أي دليل على أن واحداً من الهاشميين قاوم أي اجراء ضد العرب ، ورد على اية دعاوة ضد العرب في الاستانة أو غيرها « أما الاحزاب الوطنية في تلك الفترة ، فلا تذكر في مصادرها إن هاشمياً واحداً انضم اليها .. لا السري والمتطرف منها ولا العلني والمعتدل لا في سورية ولا في مصر ولا في الاستانة لم يقل أحد ان اياً من ابناء الحسين دخل في أي حزب وطني، إلا ابناء الحسين انفسهم في مقابلات مع بعض مؤرخي حياتهم المتزلفين مع ان فيصـــلا نفسه أكد لجورج انطونيوس « انه لم يدخل أي حزب قبل ١٩١٥ » « وبينما كان « عزيز المصري » يغامر بحياته لفصل الوطن العربي عن الخلافة العثمانية ، فيدخل السجن ويقترب عنقه من المشنقة ، بينما كان النواب العرب في مجلس المبعوثان يندون بحملات الأتراك ضد الثائرين في شبه الجزيرة .. كان الحسين وابناؤه يقودون قواتهم اتسير جنباً إلى جنب مع القوات العثمانية لاحباط الثورة والفتك برجالها . بينما كان الهاشميون يفاخرون بالقسوة التي يعاملون بها الثائرين .. وبخروجهم للحرب في خدمة الدولة وهم الأمراء شبه المستقلين . كان « المصري » الذي ارسله الأتراك نائباً لقائد الحمـــلة

العسكرية ضد الثورة اليمنية في ١٩١٣ يتصل بالامام يحيى ويتفاوض معه ويصل واياه إلى تفاهم حفظ مصالح اليمن العربية ووفر دماء ابنائها (٢٢) » .

كل هذا صحيح . . ولكن بدلا من أن ينطلق الفكر السليم من هذه المقدمات الصحيحة إلى نتيجة صحيحة ، فيفتش عن تطور القومية العربية عند المصريين الذين لم يتعاونوا مع الانجليز ولا كفروا بالاسلام بدلا من ذلك نلعن « المصري » الذي لم يصفق حماسة لثورة يقودها الذين هذه هي صفتهم ومواقفهم .. ولحل هذا التناقض بين تاريخهم وبين الدور الذي تقمصوه تظهر عقدة درامية تقول : « وأصبح الحسين » بعد ذلك قائداً للثورة العربية التي كانت أمنية في صدور احرار العرب ، منذسنوات وكان هو إلى ايام خلت ، يشك بها ويتعهد للدولة باخمادها إن حققت مطاليبه الشخصية (٢٣) » ..

صحيح انه موقف درامي رائع .. ولكنه غير تاريخي ولا علمي .. ولا تفسير له بهذا المنطق .. ربما تغير الملك حسين « خلال أيام » والتاريخ حافل بالذين يغيرون موقفهم ويركبون حركة الشعب ، او حتى يؤمنون بها . . أبداً . . فهو لا ينطق بكلمة « الأمة العربية » الا في حديث عن عرب الحجاز وهو لا يعترف بعرب شمال افريقيا .. وهو كما اراده الانجليز ، منافساً اسلامياً ينازع الخليفة التركي منصب الخلافة .. ولو في الأماني .. ويصدر منشوراً بالجهاد ولكن ضد الاتراك والألمان ..

« وبالاختصار فاننا (يا صاحب الفخامة) ثابتون في اخلاصنا ، ونصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع اكنتم راضين عنا – كما قيل – أو غاضبين [1] » .

« ولست أرى حاجة لألفت نظركم الى ان خطتنا هي أضمن لمصالح بريطانيا من خطة بريطانيا على مصالحنا [2] .

(١) من الشريف الى مكماهون ٩ – ٩ : ١٩١

(٢) » » » » ٣ – ١ – ١٩١٦

« ويستطيع معالي الوزير وحكومته ، أن يثقا كل الثقة باننا لا نزال عند قولنا ، وعزيمتنا وتعهداتنا التي – عرفها المستر ستورس عنا منذ سنتين (١) .

وقد رأينا كيف حرص الشريف ، على إن يستبعد من خريطة الوطن العربي كل ما اقتطعه الاحتلال الاوروبي ثم كيف مضى في تساهله ، فسلم باحتلال العراق واستبعد لبنان من العروبة ، وسنرى كيف انه علم ووافق على صهينة فلسطين . . وعندما تتردد حكاية خداع الانجليز للملك حسين بن علي ، فيجب الا نخدع نحن بمعنى كلمة خداع هنا . . اذ يحاول مؤرخو الهاشميين أن يزعموا ان الملك حسين وأعوانه ، اتفقوا مع الانجليز على استقلال ووحدة الوطن العربي .. ولو حتى في آسيا العربية ! ولكن الانجليز غدروا بهم .. ان هذا تصور خاطيء للأمور ، وبعيد كل البعد عن الحقيقة .. صحيح ان خداعاً قد تم ، وغدراً قد وقع ، وصحيح ان صيحة الملك قبيل وفاته : « هذا جزاء من يثق في الانجليز ويعمل معهم » هي كلمة صادقة ، ولو أن صدقها كان يكتمل لو غير حرف الجر « مع » الى عند .. أو لحساب . . !

فالملك حسين قد استبعد افريقيا العربية تهائياً من حديثه عن البلاد العربية بل رأى أن – الحديث عن عروبة مصر والجزائر وتونس من باب « الاوهام والتهيؤات ! » ووافق على الوضع القائم في عدن والمحميات وامارات الخليج وهو قد وافق على احتلال العراق وكتب بخط يده لفظة « احتلال » هذه .. وترك لكرم واريحية الحكومة البريطانية تقدير المبلغ الذي تدفعه مقابل هذا الاحتلال . . واشهد واقر ان الانجليز دفعوا بسخاء : اعطوا عرش العراق المحتل لابنه فيصل . . فهل كان طمع في مبلغ أكبر من هذا .. ؟ لقد كان العرش العراقي وإلى ما قبل تفجر البترول في الساحل العربي من الخليج هو أغنى العروش بذخاً . من هذه

---

(١) من الشريف الى مكماهون ١ – ١٩١٦ اذن فلمينقلب في ايا... ا، تصالات سابقة على ١٩١٥

الناحية ، ليس من حق الحسين أن يشكو .. وبالاضافـة إلى عرش العراق منح الانجليز .. ابنه الثاني عرش الأردن، فاين الخداع : سوريا .. لبنان .. فلسطين .. وأخيراً عرش الحجاز .. فهل صحيح ان الحسين بن علي « كان يتوقع لسوريا ولبنان وفلسطين مستقبلا غير الذي حل بهذه الأقاليم ؟ وإلى اي مدى كان المستقبل في ذهنه يختلف عما جرى ؟

لقد رأينا التحفظات التي وضعهاالانجليز على لبنان وفلسطين وقبول الحسين لها . فهل كان يجهل ما وراء هذه التحفظات ؟

لقد نشر البلاشفة نص اتفاقية سايكس بيكو - وبذل الالمان والأتراك كل جهد ممكن لابلاغها للملك الشريف .. والاتفاقية تنص صراحة .. على انه :

« تنفرد فرنسا في المنطقة أ (داخلية سوريا) وانكلترا في المنطقة ب (داخلية العراق) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب .. ويباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) ولانكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من حدود بغداد حتى خليج فارس) انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة .. الخ .

« تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) ويعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء ، وممثلي شريف مكة » ..

« تنال انكلترا ما يأتي : ميناءي حيفا وعكا .. »

« ثم تقسيم المياه والملاحة في الموانئ العربية والاتفاقيات الجمركية » .

« تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسوية ، بصفتهما حاميتين للدول العربية ، على الا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب أو تنشيء قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقي ، على ان هذا لا يمنع تصحيحاً

في حدود عدن ، قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الاخير » .

وسأل وزير خارجية بريطانيا سفير فرنسا : « ما اذا كان في امكانكم اعطائي ضمانات معينة تضمن بقاء حقوق الملاحة والامتيازات البريطانية في المعاهد والمؤسسات الدينية ومعاهد التعليم والمعاهد الصحية في المناطق التي ستصير فيما بعد ، مناطق فرنسوية ، أو في المناطق التي تسود فيها المصالح الفرنسوية .. وفقاً للقواعد الواردة في كتابكم » ..

فرد عليه سفير فرنسا :

« كما ان حكومة جلالة ملك بريطانيا ستعترف بهذا الحق عينه لفرنسا ، في المناطق التي تصير فيما بعد مناطق بريطانية » (٢٤)

اذن فقد كان الشريف حسين يعرف ان هناك مناطق ستصبح فرنسية واخرى بريطانية ، ومناطق ستسود فيها المصالح الفرنسية « واخرى ستسود فيها المصالح البريطانية » فأين الخداع ؟! ألم يتم ذلك فعلًا .؟!

واحقاقاً للحق لم تبذل الحكومتان أي جهد لاخفاء نواياهما ، بل وقف «جورج بيكو » في اجتماع ضم أنصار فرنسا في القاهرة وأبلغهم بشرى فرض وصاية فرنسا على سوريا ، وأيد زميله الانجليزي هذه الانباء .. وقام محمد شريف الفاروقي مندوب الحسين في القاهرة بابلاغه هذه المعلومات .. وقال ان سايكس وافق على كلام زميله وأعلن بصراحة ان جزءاً فقط في سوريا سينال استقلاله . ولا تزال نسخة من هذه الرسالة الخطيرة التي وقعها صاحبها في السابع والعشرين من ابريل ١٩١٧ محفوظة في جامعة يل الأمريكية » (٢٥)

فماذا فعل زعيم « الثورة العربية الكبرى » ، نهى معتمده في مصر عن التحدث في الموضوع والاحتجاج عليه ، وحذره من تناول موضوع مصير سوريا بشكل عام ومن استنكار المصالح الفرنسية ، لان فرنسا حليفة بريطانيا الحليفة

الكبرى » (٢٦)

وقال « لويدجورج » في مذكراته أن فضح اتفاقية سايكس – بيكو أزعج الايطاليين والعرب .. وبينما احتج الايطاليون بشدة حتى اضطر الانجليز ان يرضوهم اكتفى زعيم العرب،الحسين ، باحتجاج بسيط خال من أي تشديد ، وكان احتجاجاً فاشلًا » (٢٧) .

« وحكم الأحرار على الحسين بانه اتفق مع الانجليز والفرنسيين لتقسيم البلاد العربية واستعبادها عكس ما كانوا قد اتفقوا ، وحملت الانبـــاء مادعم مخاوفهم ، علموا أن الحسين قد امتنع عن قصد ، عن نشر خبر الاتفاقية في جريـدة « القبلة » واخبرهم أحد زملائهم ، وكان موافقاً لفيصل أنه قرأ رسالة بعث بها الملك إلى ابنه يعترف فيها بتلك المشاريع المشبوهة مقابل عهود واغراءات مالية دفعت له ، روى هذا الخبر شاهد عيان ، الشيخ رشيد رضا ، في مجلة المنار (٢٨) » .

وعندما جاءت الضربة القاصمة الثانية باعلان وعد بلفور وطلب الحسين ايضاحاً ذهب اليه الكومندان « هوجارث » وأملى على جلالة الملك تصريحاً باسم الحكومة البريطانية « املاء املاء » ، وطلب اليه (أي للملك) ان يكتبه بخطه ، جاء فيه :

« كما انه بالنظر لأن الرأي اليهودي في العـــالم يحبذ عودة اليهود إلى فلسطين ، وبالنظر لأن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف نحو تحقيق هـذا المطمع ، فإن الحكومة مصممة على انه – في حدود عدم تعارض هـــذا مع حرية السكان الموجودين فعلًا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية – لن يقوم عائق في طريق تحقيق هذا الهدف الاسمى (٢٩) » .

وبعد ان كتب صاحب الجلالة التفسير بفتح فلسطين للهجرة اليهودية « بالقلم الرصاص » قاطع المملي عليه قائلا : « إذا كانت الغاية من وعد بلفور هو ايجاد ملجأ يلجأ اليه اليهود ويقيهم الاضطهاد فانه مستعد ان يبذل جهوداً في سبيل تحقيقه (٣٠)

وأعلن مكماهون : « وبكل تأكيد .. انه لم يكن في النية عند تأدية ذلك التعهد للملك حسين ادخال فلسطين في منطقة الاستقلال الذي وعـــد به العرب ، وكنت مقتنعا كل الاقتناع وقتئذ بأن الملك حسين كان فاهماً ان فلسطين غير داخلة في ذلك التعهد » وقد رأينا أي استقلال حصلت عليه بقية التركة فما بالك بالتي هي خارج هذا الاستقلال .. فسلطين ! ..

يقول انيس صايغ : « إن الدعاوة الصهيونية نشطت من قبـــل انقلاب تركيا الفتاة ومن بعده ، وقد قام بالقسط الأكبر منهـــا شبان صهيونيون التحقوا بكلية الحقوق في الاستانة ، حيث كان ابناء الحسين يدرسون وأسسوا منظمات تعمـــل لصالح الفكرة الصهيونية ، وخاصة للتأثير على الحكومة كي تمنح الصهيونيين حقوقاً باستملاك اراض في فلسطين .. وتبرهن تلك المصادر على صدق دعاواها باتفاقات فيصل مع الصهيونيين في العقبة ولندن وباريز ، بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ ، وبترحيب الاوساط الصهيونية بجلوس فيصل على سورية ، ثم على العراق ، ١٩٢٠ — ١٩٢١ — وجدير بالذكر أن موشى شارتوك ، المعروف بشاريت بعد ١٩٤٨ ، كان يفاخر ويتبجح بصداقته المتينة مع عبد الله منذ ايام « التلمذة » في استانبول (٣١) .

ويتحدث وليم بولك عن علاقة الأمير فيصل بالصهيونية : « الأمير فيصل الذي قاد ثورة العرب ، كان عندئذ في الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنه غـــير خبير بالسياسة الدولية .. كان يعلم حدوده ولكنه ظن إن لديه بعض الأمل على حد تعبيره باموال الصهيونيين وبنفوذهم وحنكتهم » ويقول انه خلال زيارة فيصل لبريطانيا كتب الضابط البريطاني المرافق له « كولونيل كورنوبلز » لقد فهمت ان دكتور وبزمان اقترح في مقابل مساعدات الأمير في فلسطين نحو تحقيق الأهداف الصهيونية أن يقدم مالا ونصائح متى طلبت للحكومة العربية ، وأدعى ان الصهيونيين يستطيعون حث الحكومة الفرنسية على ترك مطالبها في مد نفوذها إلى الداخل .. وفي حفل عشاء اقامه لورد روتشيلد قال فيصل : « إن اهداف دكتور ويزمان هي أهدافنا ، ونحن سنتقبلك دون ان نسألك مساعدة في المقابل ، فلو انه لا يمكن قيام حكومة

في الشرق الادنى بغير الارادة الحسنة للدول العظمى ، إلا ان قيام هـذه الحكومة يحتاج ما هو اكثر من هذا الرضى .. انها تتطلب استعارة أفكار اوروبـا ومواد ومعرفة وخبرة اوروبا .. ولكي تغدو هذه صالحة لنا يجب أن نترجمها من الشكل الأوروبي إلى الشكل العربي .. واين يمكن ان نجد في العالم من يصلح لاداء هـذه المهمة الا انتم .. لانـكم تمتلكون كل معرفة اوروبا .. وانتم ايضا ابناء عمومتنـا بالدم .. »

ويعلق وليام بولك « : كان واضحاً ان فيصل في ذلك الوقت اكثر قلقاً بشأن التدخل الفرنسي في الشام منه من احتمالات الصدام في المستقبل مع الصهيونية » .

« كان واضحاً انوزارةالخارجية البريطانيةراغبة في استبعاداتفاقية سايكس — بيكو ، ولكنها مصرة على تنفيذ وعد بلفور ، وقد أدرك فيصل ما لم يدركه إلا القليل من العرب ، وهو انه في مثل هذه الظروف تصبح السياسة هي علم الممكن.. ولذلك وصل إلى اتفاق مؤقت مع دكتور وايزمان . وكتبت الاتفاقية في ١١بنداً وباختصار يتفق فيها الطرفان على العمل معاً لتنفيذ وعـــد بلفور وتسهيل هجرة اليهود . . . »

ويقول بولك « ان فيصل وضع باللغة العربية فوق إمضائه شرطاً يقول فيه ان هذه الاتفاقية ملزمة في حالة واحدة ، إذا ما حاز العرب استقلالهم وفقاً لمذكرته للخارجية البريطانية في ٤ يناير ١٩١٩ (٣٢) » .

« وحسين نفسه كتب مقالا بجريدة « القبـــلة » يمدح فيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين ويشيد بأثرها في تطوير البلدان ، ويعلن تشجيعه لها .. ولم يجد الحسين في مقاله فرقاً بين اليهود والصهيونين ولم يجد الصهيونية الا « حركة سامية » لا اعتراض عليها .. » (٣٣)

وقد ذكر فيصل فيما بعد في حديث اجراه مع صديقته السيدة ارسكن ، ان

والده أرسل يأمره بالا يهتم بالضجة التي أقامها بعض العرب حول قصة وعد بلفور حينما عرفت تفاصيله وان يتابع عمله في خدمة البريطانيين ، والا فهو « خائن » بنظر أبيه (٣٤) .

أما أهداف فيصل وفهمه لمعنى القومية بعد رحلاته في اوروبا ، وآماله لشرق الادنى وللعروبة والصهيونية فتلخصها هذه الرسالة :

« عزيزي السيد فرانكفورت .. اود ان اغتنم فرصة أول اتصال لي مع الصهيونيين الامريكيين لاعيد عليكم ما سبق ان قلته للدكتور وايزمان في الجزيرة العربية واوروبة ...اننا نعتبر العرب واليهود ابناء عمومة في الجنس . وقد تعرضوا لاضطهادات مماثلة على ايدي قوى أقوى منهم .. واستطاعوا لحسن الحظ ان يحققوا الخطوة الاولى نحو أهدافهم « القومية » معاً واننا نحن العرب ، والمثقفين منا بوجه خاص نشعر نحو الحركة الصهيونية بأعمق المشاعر .. وان وفدنا هنا في باريز ليدرك المطالب التي قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر الصلح في الامس تمام الادراك .. اننا نعتبرها مطالب معتدلة وصحيحة .. وسوف نعمل جهدنا ، حسب طاقتنا على الاشتراك في تحقيقها .. اننا نرحب باليهود أعظم ترحيب ولنا مع زعماء حركتكم خاصة الدكتور وايزمان اوثق العلاقات .وقد كان مساعداً كبيراً لقضيتنا . واملي ان يحتل العرب في القريب مركزاً يمكنهم من رد المعروف لليهود .. اننا نعمل من أجل شرق ادنى متطور ومترق . وحركتنا تكمل احداهما الاخرى . . فالحركة اليهودية قومية وليست استعمارية .. وحركتنا قومية وليست استعمارية ولكلينا مكان في سوريا .. بل اني لا اظن ان لأي منا امكانا في النجاح بدون الآخر . . ان اناسا اقل معرفة ومسؤولية من زعمائنا وزعمائكم ممن يجهلون الحاجة لتعاون العرب والصهيونيين « قد حاولوا استثمار المشاكل المحلية التي لا بد ان يقوم مثلها في المراحل الاولى لحركتنا في فلسطين .. وأخشى ان يكون بعضهم قد أساء التعبير عن أهدافكم امام الفلاحين العرب ، وعن أهدافنا أمام الفلاحين اليهود ، مما أعطى الاحزاب المصلحية مجالا لاستغلال ما يدعونه بالمشاكل . واحب ان اؤكد لكم

عن يقيني بأن هذه الاختلافات ليست على مسائل اساسية ، بل على امور تفصيلية مثل تلك التي لا بد من حصولها بين الشعوب المتجاورة التي يسهل حلها بالنوايا الحسنة المتبادلة .. والحقيقة ان التفهم الواعي سيبددها كلها . واني وشعبي نترقب مستقبلا نساعدكم فيه وتساعدوننا فيه، حتى يتمكن بلدانا من اخذ مكانيهما في مجتمع الشعوب المتمدنة في العالم واسلم للمخلص « فيصل » [1]

« اني آمل ان تحقق كل من الامتين (العربية واليهودية) تقدماً ملموساًنحو امانيها وآمالها أن العرب لا يحملون ضغينة ضد الصهيونية اليهود .. بل هم ينوون ان يسمحوا لهم بالعمل . أما التحاسد بين سكان المستعمرات اليهودية والمزارعين المحليين « (تأمل التعبير البذيء عن العرب) [2] فقد اثارته الفتن التركية .. ولكن التفهم المتبادل لأهداف العرب واليهود سيقضى على آخر أثار هذا العداء الذي ، بالفعل زال قبل الحرب بفضل عمل اللجنة العربية السرية .. ان الصهيونيين هم حملة حضارة اوروبة إلى الشرق . »

« اتفاقية فيصل – وايزمان بتاريخ ٣/١/١٩١٩.. اتفق الطرفان على ما يلي :

تأسيس كيان فلسطيني منفصل عن الدولة العربية السورية (مادة ١) .

تقوم الدولة الفلسطينية ، بكل التدابير لتحقيق وعد الحكومة البريطانية في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ في دستورها وادارتها (مادة ٣) ..

« أخذ كل الاجراءات الضرورية لتعهد هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق

(١) النص الحرفي في خطاب رسمي من الملك فيصل الى المستر فرانكفورت القاضي والاستاذ بجامعة هارفارد وعضو الوفد الامريكي في مؤتمر الصلح والمتحدث الرسمي باسم الصهيونية الامريكية وتاريخها ٣ مارس ١٩١٩ هيكل ٢٠ / ١ / ١٩٦٧ .

(٢) نص تصريح لفيصل ادلى بهالى وكالة رويتر التي اذاعته يوم ١٢ ديسمبر ١٩١٨ هيكل ٢٠ /١/ ١٩٦٧ .

واسع وتشجيعها باسرع وقت ممكن ليستقر المهاجرون الجدد في البلاد » (مادة ٤).

« ان يرسل الصهيونيون لجنة لدرس أوضاع فلسطين وامكانياتها ومدى استثمارها لصالح العرب واليهود (مادة ٧) وان تكون الحكومة البريطانية هي الحكم في حال نشوب خلاف بين الطرفين » (مادة ٩) [١] .. هذابعض من كرامات فيصل.. أما لورنس فهل كان إلا صهيونياً وضيعاً .. إن كان يمكن ان تزداد وضاعة عميل المخابرات [٢] البريطانية ! يذكر الكابتن ولم بيل ، عضو الوفد الامريكي إلى مؤتمر السلم ان لورنس أطلع على مشروعه بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود تحت الانتداب البريطاني ووافق عليه « من كل قلبه » قائلا : « ان المشروع يعطي العرب بأكثر مما كان هو يتمنى أن يحصل لهم عليه (٣٥) » ..

وصرح لورانس لرجال الصحافة في ذلك الوقت عينه، اواخر نوفمبر ١٩١٩ وكانت قضية فلسطين بدأت تشغل المحافل الدولية : اني « اؤيد الصهيونية..اني اعتبر اليهود النقلة الطبيعيين للخميرة الغربية الضرورية جداً لدول الشرق الادنى » (٣٦).

وقال لورنس لمطران القدس الانجليكاني الذي أشيع عنه انه يعارض الصهيونية . قال له عن ويزمان :«انه رجل عظيم لا تستحق أنت ولا أستحق أنا ان نمسح حذاءه » (٣٧)

« اني اؤيد الصهيونية واعتبر دخول اليهود إلى الشرق الاوسط خميرة ضرورية جداً للدولة » (٣٨) ولا بد انهم سوف يحولون فلسطين الى دولة منظمة جداً كأنها دولة اوروبية باستخدام مهارتهم ورأس مالهم .

---

(١) من نصوص المعاهدة التي وقعها فيصل ووايزمان وقد قدمت الى لجنة التحقيق البريطانية سنة ١٩٣٨ — هيكل : ٢٠ / ١ / ١٩٦٧ .

(٢) كان لورانس موظفا في المخابرات وليس مصلحة الاستعلامات«البريطانية كما يقول الامير مصطفى الشهابي في محاضراته بمعهد الدراسات العربية حيث يلقى الكثير من الاكاذيب ..

وعندما أثار الشباب الفلسطيني المتطوعون في جيش فلسطين حديث وعد بلفور، وتساءلوا كيف ننضم إلى الانكليز ونقاتل معهم وقد وعدوا اليهود ببلادنا ، فأثارت أقوالهم ضجة قوية في المعسكر اشترك فيها الحجازيون والعراقيون وتألف منهم وفد قابل الأمير ، واحتج لديه على الوعد ، وعلى زيارة اللجنة اليهودية للقدس ، (ابريل ١٩١٨) فوعدهم بأن يهتم بالامر ويعالجه على ارفع مستوى .. وخاف لورنس نتائج هذه الحركة ، فقال للامير ان جمال باشا الصغير ارسل هؤلاء لايقاع البلبلة في الجيش (٣٩) .

وعندما انتهت الحرب وبدأ تقسيم الاسلاب علناً وأدرك كل ذي عينين وحتى الاعمى اطماع بريطانيا في بلادنا .. بماذا أوصى الحسين ، الحسيب النسيب ابنه فيصلا .. وان كان فيصل بغير حاجة إلى وصية .

« حليفتنا الوفية بريطانيا ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب ، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود ، والادارة بما معلوم لديك ، في مجتمع سيعقد في باريس ، في ٢٤ نوفمبر ١٩١٨ .. فانفاذا لرأي عظمتها تتوجه بكل سرعة ممكنة بعد مذاكرتك لفخامة القائد العام في كيفية سفرك وطريقته ..

« وحيث ان رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لنوابها وعظمائها الأماجدان كانوا زملاءك في المجتمع او معتمديها السياسيين . . وما يكلفونك به من قول أو عمل،ان كان في المجتمع او سواه ، تعمل به وتتجنب كل ما سوى ذلك .. هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع ، وخير الاهالي بالمصلحة والقصد . والله يتولاك (٤٠)

ثورة ؟.. هه ؟

وعربية ..؟ . ؟

وكبرى ... أيضاً !!

من الذي خدع اذن؟وابن الخديعة؟! بل الغريب ان الملك الحسين لم يشك لحظة في انه موظف عند الحكومة البريطانية عندما حاولت هذه الحكومة اخفاء هـــذه العلاقة بعد اعلانه ملكاً ومستقلا .. ويحتج على انقاص مرتبه ويهدد بالاستقالة .. ويقدم استقالته الى المعتمد البريطاني في جدة .. طالبا قبولها !!

يقول مؤرخ الهاشميين : « وحدث في شهر نوفمبر سنة ٩١٩ اي بعد الحرب ، خلاف بينه وبين الانكليز على تخفيض المساعدات التي تدفع لميزانية الحجاز ، فأرسل يوم ١٦ يونيه ٩١٩ كتاباً إلى المعتمد البريطاني في جدة ، يطلب فيه قبول الاستقالة ويعلن عزمه على الانسحاب فأرسل هذا اليه يوم ١٧ منه كتابا مطولا قال فيه :

« دهشت جداً عندما تلقيت كتابكم رقم ١٥٣٤ ، بتاريخ يونيو سنة ٩١٩ . ولم افهم السبب الذي جعلكم تكتبون بأنكم تريدون الاستقالة والانسحاب ، رداً على خطاباتي اليكم بشأن الاعانة ، وقد أبرقت اليكم عنـــدما اطلعت على برقيتكم للامير زيد ، وفيها تقولون انه لا اعانة بعد الشهر القادم ، مما اكد لي ان خطابي ذلك لم يكن كامل الموضوع ، أو غير واضح العبارة مما أسفت له ..

« انكم تذكرون ان الحكومة البريطانية رغبت في تنقيص الاعانة لميزانية الحجاز وجعلها ثمانين الف جنيه في شهر ابريل الماضي ، وانني سألتكم تفصيلا لميزانية الحجاز فأرسلتموها ، فبعثت بها إلى لندن، وبعد ذلك صدقت الحكومة على استمرارها مائة الف جنيه إلى نهاية شهر يوليو القادم ، وهذا لا يدل على أنه لا إعانة بعد شهر يوليو كما جاء في برقيتكم للامير زيد ، ولذلك أرجو رفع هذه الجملة من البرقية ..
أما بشأن الاستقالة والانسحاب فأرجو العدول عنها لان بلادكم والاسلام في حاجة إليكم » (٤١) .

وأخيراً تضطر الحكومة البريطانية إلى لفت نظره إلى استقلاله حتى لا يحرجها بطلبات العلاوة والاستقالات ..

جدة في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢١

حضرة صاحب الجلالة الهاشمية ، والسيادة العظمى ، جلالة الملك المعظم ..

« تسلمت خطاب جلالتكم رقم ٢٠/١/٤٠ وهو خاص بالنقود الموجودة في العراق . ان هذه النقود هي من أوقاف الحرمين .. ولذلك فان الأمر لا يتعلق بحكومة جلالة الملك .. لو ان أي مساعدة يمكنني القيام بها لارسال هذه النقود لتكون طوع ارادة جلالتكم ..

« لا يمكنني ان افهم معنى اشارة جلالتكم عن تعيين خلف ، في برقيتكم للعراق ، وبما ان الحجاز مملكة مستقلة (يا هوه !ج) فان هذا أيضاً لا يتعلق بحكومة جلالة ملك بريطانيا .. على اني شخصياً سأكون آسفاً بعد صداقتنا الطويلة ، اذا قررتم جلالتكم التنازل عن العرش .. ولكن هذا الامر يتعلق بجلالتكم والامة ».

ميجر مارشال

المعتمد البريطاني في جدة

أما عن الخديعة التي جعلت الشيخ يصرخ في ظلمات الليل هذا جزاء من يعمل مع الانجليز فهي طرده من عرش الحجاز .. لا اكثر ولا أقل ، وخروجه من المولد بلا حمص ، طريداً شريداً ، ثم منفياً في جزيره قبرص . فهو لم يشك من الغدر البريطاني الا في هذه النقطة « أجل ما كنت اتصور ان الحليفة الكبرى تأتي من وراء اكبر حليف لها في الشرق ، وأعظم مساعد لها في الحرب الكبرى ، وعلى الاخص عند فتحها القدس باعتراف قائد جيوشها الاكبر ، فتطعنه في ظهره دون ان يكون لها ضمير يوبخها ، أو مودة أو وفاء يمنعها عن هذا العمل الفظيع الظالم .. اجل ان رجال الحكومة الانجليزية الذين اتموا هذا الغلط الفاضح .. وهذا الخطأ الفادح ، يقفون مطأطئي الرؤوس خافضي العيون ، امام الرأي العام الانجليزي النبيل الذي سيحاسبهم اشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الانكيزي والذي سيطلب منهم اعادة الامور إلى ما كانت عليه قبل هذا الانقلاب الظالم، بكل

واسطة أو شكل أو نوع والا سخط عليهم وكان سخطه عظيما [1] .

« انني اطلب من جامعة الامم الموقرة اخلاء البلاد المقدسة والأقطار الحجازية من الوهابيين انني اطلب اطلاق يدي في العمل لاعادة ملكي وملك آبائي وأجدادي المغتصب ، ورفع حكم رجال الحكومة الانكليزية الجائر وضغطهم عليّ ..

نعم .. فليعلم الشعب الانكليزي النبيل هذه الحقائق وليتحرك من جموده ، وليقف موقف المنقذ العادل الشريف، وليضع حداً بين الظالم والمظلوم فيرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم وعندئذفقط يجوز ان نقول،بأن الشعب الانكليزي هو شعب نبيل عادل ، يحب العدالة ، وان الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين ، وتحترم شعائرهم الدينية .. واني في الاخير أطلب من جمعيتكم المحترمة كعضو مؤسس فيها ان تتدخل الجمعية بكل قواها المستمدة من الدول المتحالفة العظمى في مسألة الحجاز ووضعها في جدول أعمالها وبحثها بحثاً دقيقاً وعادلا ومساعدتي مساعدة فعلية لاستعادة ملكي وملك آبائي واجدادي ، وارجاع الوهابيين الى بلادهم ، فتكسب بذلك حب عامة المسلمين الاصحاء العقيدة في العالم واعزازهم لها واحترامها لاحكامها ، وتكون مطمئنة الضمير،بأنها فعلت الواجب الذي — من أجله تأسست وخلقت عصبتها وانها فاعلة ان شاء الله » ..

ويقول راوي الهاشميين ان عصبة الامم القت بهذه الرسالة في «سلة المهملات» (٤٣) في موضوع الحجاز .. الحسين على حق .. لقد غرروا به .. لم يشرحوا له نظرية الليمونة .. فبدا له انه جوزي جزاء سنمار! عندما تركوه وحيداً في مواجهة الوهابيين فخسر عرشه وراتبه من الخزينة البريطانية ثم لم يعطوه ولا دويلة في مأدبة اللئام التي اقيمت في القاهرة لتقسيم وطن العرب .. بل حملوه منفياً إلى قبرص ..

---

(١) جلالة الملك يعتقد ان البرلمان الانجليزي سيأمر الحكومة البريطانية بقتال ابن السعود واخراجه من الحجاز واعادة الحسين الى عرشه .

ولكن ليس له الحق .. في أن يدعي أنه كان يطمع في مصير أفضـل للشام والعراق ، غير ما جره « كفاحه » عليهما .. الا نقطة فرعية ، وهي اعتقاده ان الحكم في سوريا الداخلية سيكون لأحد انجاله تحت حماية واحتلال فرنسا .. فهو لم يحتج ولا غضب لما جرى للعراق والاردن حيث توج لورنس ابنه فيصلا ملكا على العراق على صندوق شاي كتب عليه « صنع في بريطانيا » وحيث صنعت امارة ، فصلت تفصيلا على مقاس ابنه الثاني عبدالله لمنعه من الزحف على سوريا وتحريرها ومن حق الحسين أن يحتج لأنهم لم يشرحوا له نظرية الليمونة .. فبعـد ما تعصر الليمونة إلى آخر قطرة ، نلقي بها في صندوق القمامة ..

وبعد ما تم تقسيم آسيا العربية بين السادة الجدد .. أصبح الملك بلا نفع ، بل تحول إلى مصدر ازعاج ربما بحكم السن ، ولتوهمه انه يدين الامبراطورية البريطانية بأفضاله .. ثم لاقدامه على مبايعة نفسه خليفة ! ونسي ان بريطانيا انفقت عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية لكي تقضي على الخلافة (١) !

أما حكاية ضمير لورنس ، فقد انحصر في أسفه وألمه من حصة فرنسا ... فهو كبريطاني قح كان يريد أن تعطى المنطقة كلها لبريطانيا .. واستخدمت أوجاعه الضميرية ، وتعصبه للعرب استخداما حسناً جداً في مفاوضات الموصـل ، حيث انتهت السياسة البريطانية إلى ضرورة انتزاع المناطق الغنية بالبترول من نصيب فرنسا وضمها الى العراق حصة بريطانيا .. فلما وافقت السياسة البريطانية العليا على اعطاء فرنسا سوريا ولبنان ، قابل لورنس ملك الانجليز ورد اليه الأوسمة والنياشين وشرح لتشرشل سبب ألمه وموقفه هذا فقال : « انه كان يسعه ان يسلك سوى هذا المسلك ليلفت أنظار المقامات العليا في الدولة الى ان شرف بريطانيا رهن اخلاصها في معاملة العرب ، وان الغدر والتسليم بمطالب فرنسا وسوريا هما وصمة عار في تاريخنا »(٤٤)

---

(١) موضوع الخلافة يحتاج لحديث طويل ليس هنا موضوعه يكفي ان نقول ان بريطانيا لعبت الدور الاول في ازالتها .

فوصمة العار في تاريخ بريطانيا ، هي اشراك فرنسا في القسمة .. اما استئثارها هي بالعراق والاردن وفلسطين لتسلمها لليهود .. فلا عار .. ولا وصمة !

ويلمح تشرشل الى استغلاله حكاية ضمير لورنس هذه في مفاوضاته مع كليمنصو، وان بريطانيا كانت تثير القلاقل لفرنسا باتباع فيصل وضمير لورنس . . لاجبارها على الدخول في مساومات لتعديل ما اتفق عليه من قبل فيما يتعلق بالموصل وفلسطين ويكمل تشرشل الرواية فيقول :

« ثم قدمت المقترحات الاساسية الآتية إلى مجلس الوزراء :

١ - ان نعوض العرب عما أصابهم ، وان نرضي بيت شريف مكة بأن نجلس الأمير فيصل على عرش العراق وان نعهد إلى الأمير عبدالله بحكم شرق الاردن .

ونفذت بريطانيا المقترحين الأول والثاني ، فساعدت في انشاء عرش لفيصل في العراق وآخر لأخيه عبدالله في الاردن ، وكان للورانس يـــد لا تنكر في تحقيق هذين المشروعين وكان يعتقد انه بعمله هذا وفى للعرب ببعض حقوقهم (٤٥) .

وكثيراً ما نسمع عن حب « لورنس » للعرب وإيمانه بوحدتهم . . والمفروض أن تقدم صورته على هذا النحو ما دامت « عمالته » قد لقبت بثورة العرب الكبرى ولكن لنترك الرجل يحدثنا بنفسه عن تقديره للعرب وللوحدة

« لا أمل بقيام وحدة عربية لا في الحاضر ولا في المستقبل (٤٦)

هذا رأي لورنس في الوحدة العربية عموماً . . وله أيضاً رأي حتى في الوحـــدة السورية : « بعض السوريين يصرخون في طلب إقامة مملكة عربية ، وهؤلاء عادة هم من المسلمين . . وأما المسيحيون الكاثوليك فعلى العكس ، يطالبون بحماية اوروبية من النوع الذي يمنح امتيازات دون ان يربط بقيود . . وهذان الاقتراحـــان لا يثيران بالطبع حماسة الفئات الوطنية التي تطالب بالاستقلال لسورية ، وهي مطلعة

نوعاً ما على مفهوم الاستقلال ولكنها جاهلة كليا لكلمة سورية » لا وجود لها في اللغة العربية وهي ليست سوى كلمة عابرة تطلق على مجموعة من المناطق وفقا لتصور رجال السياسة .. وتجد السياسة العربية كذلك دعامة ثانية لها في الأمجاد الغابرة التي بناها الخلفاء الأوائل ، فذكرى اولئك الخلفاء بقيت حية عند الشعب ، رغم فساد الادارة التركية .. ولدى البسطاء اعتقاد راسخ بأن الماضي العربي يتخطى بأمجاده الحاضر العثماني .. ونحن نعلم ان هذا من عـــالم الاحلام . . وحكومة عربية في سورية ، ايا كانت الدوافع العربية الكامنة وراءها ستكون « مفروضة » فرضاً . تماما كأية حكومة تركية ، أو حماية اجنبية ، أو خلافة تاريخية ، فسورية تبقى قطعة فسيفساء عنصرية او دينية زاهية الالوان واضحة المعالم ، وكل محاولة للتوحيد الشامل الواسع سيؤدي حتما الى تكوين جسم متلاصق القطع والأجزاء وإلى انشاء ادارة غير مقبولة عند شعب تشده غريزته دوماً إلى تنظيم آخر أبسط وأضيق »(٤٧)

هذه هي قيادة الثورة ، فماذا عن الاحرار الذين انضموا اليها ؟ ..

يعترف « أنيس صايغ» بأن أحرار العرب آزروا الثورة ولا أقول أشعلوها.. وهذا يعني رغم مرارته ان الثورة لم تكن من فعل الأحرار..ولم نسمع في التاريخ عن ثورة أشعلها غير الاحرار .. الا هذه الثورة التي اشعلها الاستعمار ! ولعلها هي الثورة الوحيدة في التاريخ التي يمكن وصفها بأنها « ثورة الاستعمار » والتأريخ لقوميتنا بهذه الثورة سيفرض علينا ان نضع ضمن رواد القومية العربية « المخابراتي » لورنس ! ما دمنا نضع الحسين بن علي ، وفيصل الذي وصف بأنه يتيم تحت وصاية لورنس إذ كيف يستأثر اليتيم بالبطولة ويحرم منها الوصي عليه !..

ولا أدري لماذا نغمط « سي قدور بن غبريط » حقه ، فقد ساهم هو أيضاً في اعلان الثورة وأيدها ونصح بها حكومته فرنسا ، بل واستنكر محـــاولة الاتراك ابادة « اس الاساس » في تكوين القومية العربية - اي اللغة العربية وتناسى « سي غبريط » ما تفعله فرنسا وقتئذ في الجزائر .. ولكن « سي قدور بن غبريط » كان يعتبر نفسه فرنسياً مسلماً !.. بل هكذا يعرفه « أمين سعيد » مؤرخ الهاشميين في

كتابه الصادر في الثلاثينيات : « مسلم من ابناء تلمسان تعلم في مدرسة الترجمة التي انشأها الافرنسيون لتخريج تراجمة يستخدمونهم في مهامهم ، فاتقن اللغة الافرنسية وبرع بها ، فوثق به الافرنسيون واستخدموه في المهم من امورهم ، ورفعوه أعلى الدرجات » ..

هذا « المسلم الفرنسي » .. يستحق ان يوضع اسمه في سجل رواد هذه القومية ! وما دمنا بسبيل نحت لوحة للشرف لكل الذين اشعلوا هذه الثورة التي لم يشعلها الاحرار .. فلا بد من ان نسجل ايضاً اسم الرسول أو السمسار الذي عقد الصفقة واجرى المفاوضات بين الانجليز وشريف مكة وهو تاجر متمصر من حي الجمالية اسمه « علي أصغر » بهائي من أصل إيراني » (٤٨)

يا لسوء حظ « القوميين العرب » وثورتهم يقوم بها انجليزي وفرنسي وإيراني. ولسوء حظ الذين يحرصون على استبعاد المصريين من تاريخ العروبة هذه فان أكثر من اسم مصري يطل عليهم في مختلف فصول هذه المسرحية المسماة الثورة العربية الكبرى » . . منهم حسين رشدي باشا رئيس وزراء مصر الذي لعب دوراً في مفاوضات الانجليز والشريف ... في نفس الوقت الذي سعى فيه لفرض الحماية على مصر ..

قلنا ان الأحرار العرب كانوا يتحركون في اتجاه الثورة العربية ،الموجهة أساساً ضد الاستعمار الغربي، والتي اصطدمت بالترك من خلال كفاحها ضد هذا الاستعمار ، بعد ما تبين عمالة الحاكمين الترك وان سياستهم تفضي إلى تجريد الوطن العربي من كل عناصر المقاومة وتسليمه للاستعمار الغربي ..

ولكن الحرب العالمية ، تفاجيء العرب وتقلب كل الموازين وتعجل بحركة الأحداث بحيث يصبح الخطر عاجلا وماحقاً لا يمكن مواجهته بالعمل المتقن والتفكير الرزين .. ويندفع الأتراك في « افناي سريع سياستي» أي سياسة الافناء السريع » !.. وعندما تنصب المشانق وتفتح السجون ، وتبدأ عمليات التهجير الجماعي – فان فرص الاختيار تنعدم . فاذا اضيف إلى ذلك ان الانجليز كانوا قد دبروا الانفجار الأبيض فعلا .. وأشعلوا هذه « الثورة » . . فقد كان لزاماً على العرب الأحرار أن يقامر بعضهم على هذا الشيء رغم أنهم يعرفون خبيئه حق المعرفة ..

يقول « أسعد داغر » : « الظروف القاهرة التي فرضتها علينا سنة ١٩١٦ كانت تتطلب اموراً كثيرة لم تكن متوافرة لنا ، أهمها الاصدقاء الذين يؤيدون أهدافنا ويشدون أزرنا ، فلما اضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا ضد الاتراك لم نجد أمامنا غير السير مع الحلفاء ونحن عالمون بما لهم من أطماع في بلادنا .. ولكن الخطر العظيم الذي كان يهددنا به الترك هو خطر الابادة والافناء ، لم يترك لنا مجالا للتفكير أو الاختيار ، فلم يكن هناك شران ، بل كان موت محقق من جهة ان لم نثر على الترك ،

وجهاد شاق طويل في سبيل حياة حرة كريمة من جهة أخرى (٤٩) .

بينما يأخذ الأمير مصطفى الشهابي بنظرية أهون الشرين :

فكان لا بد من ثورة عربية تنقذ العرب من الفناء .. والحقيقة إن رجالات القضية العربية، ما كانوا قط مخدوعين وانهم اختاروا في ترجيح الثورة أهون الشرين .. وكلا الوضعين كان شراً .. ولكن بعض الشر اهون من بعض .. (٥٠) ومرة اخرى هذه هي أول ثورة يصفها أنصارها بأنها شر .. وتصبح كل ميزتها انها أهون من بعض الشر !

ويقول جميل بيهم : « كان قادة الجمعيات العربية الثورية في دمشق : « الفتاة » و « العهد » وغيرهما يشفقون من خلال الحرب العالمية الأولى على السلطنة ان تنهار، ويحسنون الظن بالأتراك ، حاسبين انهم سيقدرون المساعدة العربية في ساعة المحنة كما كانوا لا يطمئنون للدول الاوروبية ولا إلى وعودها وقد تجلى هذا الشعور في قرار أصدرته جمعية الفتاة اثناء اجتماعها في دار شكري باشا الايوبي في شهر مارس ١٩١٥ حيث اجمعت الكلمة ، على وجوب مساعدة الدولة .

وقد تأثر الأمير فيصل بن الحسين بهذا الشعور بفعل وجوده في دمشق بين رجالات العرب العاملين وأما الشريف حسين وأولاده الآخرون وخصوصاً الأمير عبد الله ، فقد كان في الحجاز في وسط آخر، ويتأثرون دوماً برسل الانكليز ووعودهم ويتجهون شطر الأعتقاد بأن الفرصة سانحة للاستقلال ولا سيما بعد ان ضاعف الانجليز نشاطهم في صعيد استهواء العرب .. وذلك عقب فشل الحملة البريطانية على الدردنيل . وقد عهدوا يومئذ بهذه المهمة إلى المستر لورنس الذي جاء إلى جدة (٥١) » ..

ثم يرجع السبب في الانحياز للحلفاء إلى إعدام جمال باشا للقافلة الثانية من رجالات العرب في ٦ مايو ١٩١٦ .. ولعل أوضح صورة لروح المغامرة اليائسة التي كانت

تسيطر على الأحرار العرب ، هي تلك المقابلة الدرامية النادرة بـــين الثائر العربي ياسين الهاشمي والثائر العربي سليم عبد الرحمن !.. حيث يتعانق العربيان ، ويذهبان كل إلى الناحية المضادة ليطلقا النار على بعضهما ، وروح اليأس والانتحار هي التي تحركهما[1] ..

تحت تأثير هذه العوامل مجتمعة .. الاستفزاز التركي الاجرامي .. الاحساس بأن الحرب ستقرر مصير الوطن العربي بصفة حاسمة ، المفاجأة بحركة الحسين والفزع مما قد تجره على العرب .. اذا ما استمرت محصورة في يد الحسين ورجاله ، ولورنس والبدو الذين يعشقهم ... تحت تأثير هذه العوامل انضم عدد من الاحرار الى جيش فيصل في محاولة لتوجيه الامور لمصلحة القضية العربية ، ويأمل أن يكون هذا الجيش المسلح هو القوة العربية التي تستطيع أن تقول كلمتها في اللحظة المناسبة ..

فلسنا نرى ان اشتراك بعض الاحرار العرب في تحركات الملك حسين وانضمامهم للجيش الذي تكون ، مبرر لمنح هذه التحركات اسم « الثورة العربية » أو ربطها باهداف وآمال الاحرار العرب .. غير ان الحسين ولورنس لم يدخرا جهـــدا في ابعاد هؤلاء الأحرار عن « الثورة » وفي استئصال التيار القومي فيها بل واغتيال الاحرار العرب .. حتى أكمل فيصل المأساة ، وسرح الجيش العربي الذي تحول إلى قوة عربية حقيقية بسقوط الدولة العثمانية وانتهاء الحرب ، وزوال كل الخلافات

---

(١) حتى الاتراك كانت تحركهم روح المقامرة .. فالاحساس بالضياع كان يشمل الدولة العثمانية كلها بصرف النظر عن تناقضاتها الداخلية .. فعندما سأل الحسين بـــن علي وهيب باشا والي الحجاز : كيف يدخلون الحرب الى جانب المانيا رغم رجحان موقف الحلفاء في هذه المنطقة من العالم ... رد وهيب باشا وهو يمس لحيته : انها ورقة نريد أن نقذف بها على مائدة الميسر : قال الشريف حسين ان هذا لعجيب ! أتقامرون بالامة كلها » .

ولو ان منشور الحسين باعلان الثورة قد اختتم بلغة الميسر هذه ، فهو يقول لاخوانه المسلمين وليعلموا باننا قد قمنا بما قمنا به ، ونحن نعتقد اعتقادا راسخا انـــه افضل خدمة للاسلام ، اذا لم تتحقق به اماني المسلمين الصادقين حتى الترك منهم ، فانه لا ضرر فيه يوازي عشر معشار الضرر في تركه ، وسيظهر الايام حقيقة ذلك » ..

بين الأحرار العرب .. والتقاء كلمتهم على مواجهة الخطر العاجل والوحيد ، وهو الغزو الغربي ، وبالذات الفرنسي في الشام .. واذا بفيصل يصدر أمره بتسريح الجيش ليتسلم الفرنسيون سوريا ولبنان عبر مذبحة ميسلون ولا نقول معركة ..

نعم .. انضم عزيز المصري إلى جيش فيصل .. « وعزيز المصري » هو التجسيد الكامل للوطنية العربية [1] بغير التواء أو انحراف .. ولقد شاءت إرادة الله أن يطول عمره لكي يعكس لنا التطور الكامل الذي مرت به هذه الوطنية . . التي تنطلق من البداية الشرعية ، وهي العداء للغرب ومقاومة الوجود الاستعماري للغرب في وطننا .. بادئة بالجامعة الاسلامية ، والوحدة العثمانية .. ثم ثائراً عثمانياً من أجل حكم دستوري يحرر الدولة ويطورها ويقويها .. في مواجهة الاطماع الغربية . . ثم مقاتلا ضد هذا الغزو في ليبيا . . وخلال الكفاح ضد الغرب الاستعماري يصطدم بالاتراك ، ويبدأ العمل للانفصال بالمصير العربي وحمايته مع الحذر من المغامرات التي تبدد كل شيء.. « فقد خشي وهو المناضل الذي لم تنطل عليه الحيل الاجنبية ، خشي ان يؤدي التسرع في .والاة الحلفاء والثورة على الاتراك إلى ايجاد فراغ يسده الانجليز قبل أن تسده الحركة العربية ذاتها ، وخشي أن ينزلق العرب ، بواسطة القيمين على شؤونهم السياسية إلى أحضان الامبراطورية دون ان يدركوا ماذا يفعلون ، بسبب عدائهم الشديد للاتراك ، وخشي أن تكون الثورة ابدال مستعمر بآخر [2] .

أوعز عزيز المصري إلى أعوانه في حزب العهد ، في سورية والعراق ومصر أن يتصلبوا امام المفاوضين الانجليز ولا يتعهدوا بشيء ما لم يحصلوا على وعد أكيد

---

(١) شهد « انيس صايغ » لعزيز المصري بعروبته ولو في سبيل سب المصريين : « على رأس المصريين القلائل الذين شذوا عن التيار القطري في مصر وقولبوا مشاعرهم الوطنية في اتجاه عربي -- الضابط عزيز المصري » .

(٢) انيس صايغ : العبارة الاصح ان المصري كان يخشى ان تفضي الثورة الى الوقوع في يد المستعمر الحقيقي .

بأن يستقل العرب في آسيا ويتحدوا .. استقلالا ووحدة كاملين (٥٢) .

« وخلال المفاوضات يعرض المصري مخططاً يحقق ثورة تحقيقية فهو يشترط عدم اشتراك « جنود انجليز في الجبهة العراقية ولا جنود فرنسيين في الجبهة السورية حتى يفسد المخطط المرتب من قبل ، وهو احتلال كل من الدولتين المنطقة المتفق عليها بينهما » .

ثم يفاجأ عزيز المصري بهذا الذي فعله الانكليز في الحجاز، ويدفع اليأس عدداً كبيراً من أعوانه الى الانضمام لحركة الحسين ويتعرض هو لالحاح هؤلاء الاصدقاء ، تحت النغمة التي ابتلينا بها في الوطن العربي : « تقدم واصلح .. لا تكن سلبياً .. شيء خير من لا شيء .. خذ وطالب .. عصفور في اليد .. الخ » ولا يستطيع الرجل ان يتخلى طويلاً وينضم إلى الحسين على كره منه ومن الانجليز ومن الحسين !. وعين المصري قائداً للجيش « وسعى لتحويله إلى جيش حديث منظم هو الأول من نوعه في تاريخنا المعاصر (١) .. وكان كل هدفه ان يتمكن هذا الجيش ، بعد أن يطرد الاتراك من سوريا ، من حماية الدولة العتيدة التي حلم هو واخوانه بها منذ سنوات (٥٣) .

واستحال على القائد الوطني أن يفعل شيئاً أمام تآمر الانجليز وعمالة الآخرين وسرعان ما أبعد عن العمل ، وبعد وصوله للقاهرة مبعداً ، فصل ثم نفي ، ليتشكل من يومها الحزب المعارض للهاشميين وثورتهم في سنتها الأولى .. فلماذا يقرع المصريون لانهم لم ينضموا لهذه الثورة بل وفضحوها واكتشفوا خباياها من يومها الأول ..

ثم اعتمد المخطط الانجليزي على العناصر البدوية التي آمنت بقومية واحدة هي

---

(١) ليس صحيحا .. فالجيش الاول هو جيش عرابي الذي حله الانجليز قبل جيش فيصل بـ ٣٠ سنة ، ١٨٨٢) .

الذهب الانجليزي ! ..

فنوري الشعلان أحد أبطال التحرير « لا ينازعه المجد إلا عودة أبوتايه »(١) . . نوري هذا يسجل له الأمير مصطفى الشهابي «فعلة شنيعة » هي :

أول من فكر في الالتحاق بفيصل بن الحسين في بدء الحرب الكبرى الأولى ، عارف الشهابي وعبد الغني العريسي ، وعمر حمد وتوفيق البساط، فذهبوا إلى الجوف حيث نزلوا على نواف الشعلان بن نوري الشعلان رئيس قبيلة الرولة .. وقبل ان يتمكنوا من اعداد معدات السفر إلى الحجاز في البر ضغط نوري الشعلان على ابنه طالباً ابعادهم من الجوف ممالأة للأتراك .. وهذه منه فعلة شنيعة .. فاضطر نواف إلى مسايرة ابيه على حين انه كان شهما وطنياً ، فارفقهم بدليل ، وسيرهم إلى الحجاز ، فاساء العربان اليهم في الطريق مرتين ، ولما انهكتهم الأمراض ، وركبوا قطار الحجاز إلى المدينة وقعد كل منهم متخفياً في مركبة ، ولما بلغ القطار محطة تبوك عرف أحد الأتراك فيهم عبد الغني العريسي ، فدل ممثل الحكومة عليه ، فقبض على الأربعة وسيقوا للمحكمة العسكرية التي أقامها جماله باشا في عاليه، فحكمت عليهم بالقتل ، كما اشرنا اليه .. وذهبوا شهداء القضية العربية في السادس من ايار سنة ١٩١٦ (٥٤) .

فلما طرد الجنيه الانجليزي صورة الملك والملكة ، الجنيه العثماني .. انقلب نوري الشعلان قومياً عربياً وساهم في « تحرير العقبة » !

وانضم إلى لورنس ، وتسابق اولاده للعمل كخدم عند لورنس إلى حد ان صاح هذا ضجراً بالحاحهم ومنافقاً للبدوي الأبله : « هل انا ملك حتى استخدم ابناء الشعلان ؟ » ويعلق المخابراتي،«ونظرت الى نوري الشعلان ، فقرأت في عينيه سطور استحسانه ! ..»

---

(١) الذي اعلنته مجلة « الكاتب » بطلا محررا للعقبة .

أما البطل الكرار « عودة أبو تايه » فقد استبدل انيابه التركية باخرى انجليزية حقيقة لا مجازاً .. إذ روى لورنس في « سفره » ان عودة ابو تايه بعد أول لقاءمعه خرج إلى خارج الخيمة « حيث سمعناه يهشم شيئاً مـــا ، فخرجت وراءه لاستطلع حقيقة الأمر ، فرأيته ينحني فوق صخرة ويحطم « طقم » اسنانه الصناعية وبعد ان طحن « الطقم » طحناً .. تلفت إلي ، وقال : « لقد نسيت إن جمال باشا قد أهداني طقم الاسنان هذه كنت آكل طعامي يا سيدي باسنان تركية .. »

ولما استولينا على العقبة أرسل له آنذاك السير ريجنالد وينجت طبيب أسنان صنع له وجبة أسنان « حليفة » (٥٥) .

ورغم تغيير (عودة) لاسنانه فقد كان على استعداد لالتهام الخبز التركي على اسنانه الانجليزية .. فبعد فتح أو تحرير العقبة ضبطت له المخابرات البريطانيـــة اتصالات مع الاتراك إذا ما دفعوا ..

يقول لورنس « كان « عودة «ومحمد» غاضبين لانهما لم يتلقيا مساعدات عسكرية ولم يستلما مكافآت نقدية بعد الاستيلاء على العقبة .. وكانا كذلك يودان أن يعرفا كيف حصلت على مراسلاتهما السرية .. ومـــاذا كنت أعرف حقيقة .. كنا نسير فوق منحدر خطر ، وتعمدت اثارة خوفهم لمزاجي المتطرف . . كنت من وقت لآخر أورد بعض العبارات التي جاءت في رسائلهم .. ففعل هذا فعله وبدت الملامح تتغير .. ومما قلته ان جيش فيصل سيصل قريباً .. -- وان « اللنبي » سيرسل الى العقبة بنادق ومدافع ومتفجرات ومؤنا وأموالا .. واخيراً المحت بأن مصـــاريف « عودة » للضيافة يجب أن تكون باهظة ثم تساءلت : « الا يمكنني مساعدته بأن أقدم شيئاً من الهدية المهمة التي سيقدمها فيصل اليه شخصياً عند وصوله إلى العقبة ، رأى « عودة بأن الفرصة الحاضرة ليست بدون فوائد وبأن مجيء فيصل سيكون مربحاً .. وبأن الأتراك في متناول يده دائماً إذا افلتت الموارد الاخرى من يديه . لذلك قبل ما قدمته له شاكراً وقال انه سيصرف ذلك المـــال على تحسين أحوال رجاله (٥٦) » ..

بهؤلاء فتح لورنس العقبة .. وبنوري السعيد الذي لم يزح الستار بعد عن حقيقة

الروابط التي كانت تربطه بالمخابرات البريطانية والثابت انها قد تمكنت من ربطه في وقت مبكر جداً.. والأرجح ان شيئاً فوق العمالة العادية كان يربطه بقضية بريطانيا في الشرق الاوسط وربما كانت في الرجل دماء يهودية غير معروفة .. وبهؤلاء سحق لورنس الحكومة العربية في دمشق واغتال الأمير الجزائري ..

القصة يرويها لورنس :

« وفي سراي الحكومة كانت المعالم قد تبدلت ، فغصت السلالم والمدارج والدهاليز والباحات « بالناس يرقصون ويغنون ويهزجون ويتعانقون. واصطفت الجماهير لمرورنا تفسح لنا ، حتى بلغنا الردهة الداخلية حيث لقيت ناصراً البهي الطلعة جالساً وإلى جانبه نوري الشعلان يحيط بهما الاخوان الجزائريان محمد سعيد وعبد القادر عدوي القديم ، فوقفت مشدوهاً لا أصدق ما يقع عليه نظري فيما تقدم مني محمد سعيد صارخاً : « لقد ألفنا بالأمس أنا وأخي احفاد عبد القادر الجزائري مع شكري باشا الايوبي سليل صلاح الدين حكومة وطنية ، وناديناً بالحسين ملكاً على العرب على مسمع ومرأى من الأتراك والالمان المدحورين » .

« وكان الجزائريان مشهورين بتعصبهما الديني ، وقصر نظرهما وتصلب رأيهما ، لذلك انطلقت إلى ناصر أريد أن ادفعه لوضع اللجام فوراً لمثل هذه الوقاحة» وسألني نوري الشعلان » عن حقيقة ما انوي عمله .. قلت عندئذ : « اني اسقط عبد القادر ومحمد سعيد وأقيم شكري مؤقتاً ريثما يصل فيصل » قلت ذلك بلطف لاني كنت آنف ان اجرح شعور ناصر ، ولأني كنت لا أملك قوة السلاح في حالة حصول مقاومة ، سألني نوري الشعلان متعجباً « ولكن الا يأتي البريطانيون لنصرتك ؟ « فاجبته بعد اطراقة قصيرة » حتما سيدخلون ولكنهم للاسف لن يخرجوا من المدينة بعد ذلك .. وبعد تفكير أردف نوري الشعلان قائلاً : « إن رجال الرولا في خدمتك فيما لو قررت ان تفعل شيئاً.. وبسرعة فائقة إذا شئت ان احشدهم ليكونوا تحت أمرتك وخرج الشيخ فوراً ليجمع قبيلته لنصرتي وبعد قليل قدم الجزائريان

بجرسيهما الخاص ، والشرر يتطاير من عيونهما الا انهما التقيا عند مرورهما برجال نوري الشعلان على أتم الاستعداد لتلقينهما الدرس الذي يستحقان كما صادفا قوات « نوري السعيد » النظامية تحتل الحديقة وحرسي الخاص داخل السراي وكنت انا اتمشى في الردهة المعترضة غير مبال فتأكد لهما باننا قد ربحنا المعركة سلفاً ، ولكن الاجتماع مع ذلك كان عاصفاً ..

«بصفتي مندوباً لفيصل فاجأت الحاضرين باعلان عزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الجزائريان في الأمس وبتعيين شكري باشا الايوبي حاكماً عسكرياً ونوري السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة وعزمي نائباً له وجميل مديراً للامن العام .. نزل هذا الاعلان نزول الصاعقة على رأس الاخوين الجزائريين ، فهب محمد سعيد يشتمني ويتهمني بانني مسيحي انكليزي ، ويدعو ناصرا لنصرته علي وهو ابن عنصره ودينه واوقعه في مأزق حرج ، بينما هب عبد القادر شاهراً خنجراً ومنقضاً علي والشتائم والسباب تنهمر كالسيل من فمه المرتجف من حدة الغضب ، إلا ان « عوده » الصديق القديم [1] سارع الى الانقضاض عليه وحال دون وصوله ثم تدخل نوري الشعلان في الأمر وأعلن ان قبيلةالرولا القوية تقف الى جانبي .. ولذلك لم يبق أمامالشقيقين سوى الانسحاب مغلوبين على أمرهما ..

ونجحت المهمة « ونمنا في تلك الليلة قريري العين ، وقد تحقق للعرب بعد ثورة عارمة قيام حكومة وطنية في دمشق عاصمتهم التاريخية ..

« وفي صباح اليوم التالي جاء لايقاظي مواطن يرتجف من الخوف ، وابلغني بأن عبدالقادر قد أعلن الثورة على الحكم الذي ائتمناه بالامس ، فاستدعيت « نوري

---

(١) محرر « العقبة » كما لقبته مجلة « الكاتب » القاهرية وتساءلت دهشة كيف نهاجمه واستدلت بذلك على رجعية مجلة الرسالة التي نشرت هجومنا على « البطل عوده ابو تايه » واحسرتاه على الامم .

السعيد » على جناح السرعة ، موقنا بأن هذا الجزائري الأحمق انما يحفر قبره بيده.. وكان هذا قد حشد رجاله وخطب فيهم معلناً بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانيا ودعا الى القضاء على حكمهم في المهد ، خدمة للدين والخلافة .. وبما ان أنصاره كانوا معتادين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلا وهبوا لمحاربتنا ..

والدروز الذين كنت بالأمس قد رفضت اغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة ادوها لنا تبع عدد منهم عبد القادر ليس حباً به، أو غيرة على الدين والخلافة أو ولاء للاتراك المقهورين ، بل حبا بالسلب والنهب ، طالما أن الفرصة مواتية .. ويثبت صحة ذلك أنهم قد انقضوا على الحوانيت المفتوحة لسلب ما فيها عوضا عن التوجه الينا ومحاربتنا ..

في هذه الاثناء كان نوري السعيد قد وزع قواتنا على النقاط الحساسة في المدينة وبدأت عملية تمشيط الشوارع وحصر العصاة ، ولم تصل الشمس إلى كبد السماء ، الا وكل شيء قد انتهى . وقد ابرقت للجنرال اللنبي مطمئنا بعد الاخبار المضخمة التي نسجتها مخيلات الصحفيين عن الأحداث في ذلك الصباح (٥٧) ..

« هذا وقد بدأت فرقة التنظيمات في عملية غسل الشوارع وتنظيفها بعد الذي تراكم فيها خلال سنوات الحرب الأربع . كما أعيد وصل خطوط الهاتف مع فلسطين وبيروت التي استولت عليها القوات العربية اثناء الليل . . وقد كنت منذ ايام قد حذرت العرب من ارتكاب مثل هذا الخطأ ، ناصحا اياهم بأن يتركوا لبنان للفرنسيين تملقا لهم . والاستعاضة عنه بطرابلس لأن طرابلس كرفأ هي أفضل من بيروت بكثير . ويمكن لانكلترة أن تقر لهم ذلك في ميثاق السلام ولذلك غضبت لتصرفهم الخاطيء هذا ، ولكنني في الوقت نفسه كنت مغتبطا لكونهم قد أصبحوا كباراً لا يستمعون إلى نصائحي والعمل بآرائي » .

ولا يكتفي لورنس بالتربيت على ظهرنا واظهار الغبطة ان أطفاله (أي نحن

الامة العربية) قد كبروا [١] إلى حد مخالفته .. لا .. لا يكتفي بذلك بل يزيد من مرارة المأساة أن يؤنب لورنس ضميره على التغرير بنا .. فيقــول : « و كنت خلال هذه المرة قد جرحت مراراً وقاسيت الكثير من الألم والجوع والبرد والقذارة .. وهذه المتاعب ما كانت لتعني شيئاً نظراً لعدم اكتراثي بما هــو جسدي [٢] .. وانما هناك الخداع المرهق الذي اضطررت ان احمل نفسي وزره وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر بعد أن لبست لها لباساً لا عهد لي بمثله من قبل ، وتسلحت بلغة اجنبية يصعب على التبشير بها [٣] ..

« ولانني كنت استغل اثمن ما عند العرب وهو حبهم للحرية كأداة من أجل نصرة انكلترا » (٥٨) .

« وبين العرب كنت الصاحي المتشكك و كنت أحسدهم على ايمانهم الرخيص الثمن ، وبالرغم من انهم كانوا مخدوعين ، فقد كانوا يحاربون العدو بكل جوارحهم .. وكانوا بالتالي اكثر شجاعة وبساطة وحبوراً من سائر البشر » (٥٩)

« لقد صدق هؤلاء العرب رسالتنا وآمنوا بحقيقتها، فارتضوا الموت في سبيلها(٤)

لا أظن ان امة قد امتهنت على هذا النحو .. ثم يريد البعض ان يفرض عليها هذا الامتهان كجزء من تاريخها القومي الذي تفخر به ..

غير اننا يجب ان نلاحظ تطوراً في الجيش العربي بعد دخوله دمشق وانتهاء الحرب مع تركيا ، فقد أصبح هو أمل كل القوى العربية في مواجهة مؤامرات الاستعمار .. وانضم اليه الجميع ..

---

(١) مع انه قد علم جيدا الى اي حد كان بعض العرب كبيرا ..

(٢) من الثابت انه كان يكترث كثيرا بما هو جسدي ..

(٣ و ٤) اعمدة الحكمة السبعة ص ٣٤٨ ويأسف الامير مصطفى الشهابي في محاضرات بمعهد الدراسات العربية .. « لان الشباب لا يقرأون السفر الذي كتبه رجل احب العرب ظاهراً وباطناً » ..

وفي نفس الوقت اعتمدت القوى الاستعمارية على العناصر العميلة التي فرضتها ، لشل هذا الجيش ..

وقد لعب فيصل وجماعته دورهم كاملاً في تسليم سوريا ولبنان بمقاومتهم للمؤتمر الوطني ، ثم بقرار تسريح الجيش العربي ، ممـــا سهل مهمة الاستعمار الفرنسي في احتلال البلاد ..

وأكبر تزوير للتاريخ ، هو تصوير كفاح الشعب العربي في سوريا بأنه امتداد للثورة الهاشمية ، فقد قام هذا الكفاح على انقاضها ، وضد ارادتها ، ورافضاً لكل تسويات وتنازلات فيصل .. فقد رفض الشعب السوري الحماية التي اتفق عليها فيصل مع الفرنسيين في يناير ١٩٢٠ وهو مشروع وافق فيه « قائد الثورة العربية ضمن ما وافق عليه » على ان ممثل فرنسا في دمشق هو مفوض سام ، وليس وزيراً مفوضا ولا سفيراً ! .. أمـــا ممثل سوريا في فرنسا فهو بموجب المشروع موظف بوزارة الخارجية الفرنسية (٦٠) ولم يرد في المشروع ذكر للبنان ، وباختصار كان صك حماية قاسية (٦١) ..

وأعلن المؤتمر السوري استقلال سورية الطبيعية بما فيها فلسطين طبعا .. ورفض الاطماع الصهيونية ، وطالب باستقلال العراق واتحاده مع سوريا .. ولم يأت ذكر للحجاز ولعل ذلك أكبر دليل على ان الحركة الوطنية التي ظهرت في سورية بعد سقوط الدولة العثمانية ، لا تمت بصلة في تفكيرها واتجاهاتها لذلك الذي فعله الحسين ولورنس في العراق .. اللهم الا هذا العلم الذي اختـــاره السوريون رمزاً للدولة المستقلة ! .. وهذا الأمير الذي قذفت بـــه تيارات السياسة الى عاصمتهم خلعه في هذه الظروف .. لاعتقادهم أنه يفتح الباب لصراعات لا قبل لهم بمواجهتها ، ولو أنه من الممكن ان يقول المرء الآن .. ان خلع فيصل ربما كان قد اكسب الحركة الوطنية قوة .. أو على الأقل جنبها الطعنات التي سببها لها بعد ذلك بجنيه وترامیه على أقدام الاستعمار من اجل عرش أو ظل عرش ..

واندلعت المقاومة العربية ضد الاحتلال الفرنسي والانجليزي في كل مكان . . متخطية التقسيمات والاوهام .. نشبت ثورة العرب الكبرى حقاً وصدقاً . . من بحر الغزال إلى الاسكندرونة . . ومن شاطىء الشام إلى الخليج العربي في العراق اجتاحت المشرق العربي ثورة عامة كانت بدايتها ومركز النقل فيها ثورة ١٩ في مصر . .

ولولا سيطرة جماعة لطفي السيد من جانب رئيسي من القيادة الرسمية لثورة ١٩ .. ثم الشك العميق لدى الثائرين العرب في مصر بالقيادة الهاشمية المتربعة عند القمة في أحداث الشام . . ولولا الدور الخياني الذي لعبه الهاشميون في تحطيم الثورة بالشام والعراق لكان من الممكن جداً أن يلتقي المؤتمر السوري بالاجنحة الثورية في الوفد المصري . . ويخلقان وحدة عمل تضغط على الوضع المتجاوب في تركيا والذي لم ينحرف تماماً الا بعد ٩٢٤ مما يفضي الى خلق جبهة ثورية يساندها الاتحاد السوفيتي الوليد . . ولربما تغير تاريخ المنطقة تماماً ، وقامت دولة عربية حرة . . ولما كان على العرب أن يعانوا اليوم هذا التمزيق والتشويه .. ولا تحقق حلم الصهيونية . .

ولكن . . تلك التي غيرت مجرى التاريخ . .

سرعان ما أصدر فيصل قراره بقبول الانذار الفرنسي فزحف الجيش ، وابعد المؤتمر الوطني عن العمل السياسي بتأجيل اجتماعاته وكان هو القيادة السياسية للبلاد . . وبعدما حل الجيش [1] وتفرق الجند ، دخل الجيش الفرنسي دمشق ! وتخطىء اذ

---

(١) يقول الامير الشهابي . . وهو من اخلص المدافعين عن فيصل « ولا مرية في ان هذا التسريح كان خطيئة عظمى ، فقد كانت خطط فرنسة التي تنوي اتباعها في سوريا معروفة فقبول شروط الجنرال « غورو » وتسريح الجيش معناه الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، وتحمل قيود الانتداب الثقيلة ، دون اهدار نقطة من الدماء . ولو استعدت الحكومة السوريه للدفاع منذ ان تالفت كان تشتري في السر ذخائر حربية ، وكان تجمع للحرب من الاهالي آلاف البنادق التي غنموها من الجيش التركي وكان تؤلف عصابات محاربة قوية على الطريقة التركية ، لامكنها صد الجيش الفرنسي عن دمشق بضعة اشهر ، وربما كانت سياسة فرنسا مع سوريا قد تبدلت خلال هذه المدة بتاثير الدول الاجنبية والراي العام الفرنسي . .

وقد كان في الامكان بعد سقوط دمشق تاليف جبهة حربية في حوران وجبل الدروز وشرق الاردن واثارة حرب عصابات قوية وهذه الخطة ايضا لم تتبع (الاستعمار ص ١٢٠ ـ ١٢)

تقول الجيش الفرنسي ..

فالقوات التي دخلت دمشق هي : لواء ان من جنود السنغال ، واربعة أفواج من المشاة الجزائريين . ولواء من الفرسان المراكشيين ..

كلهم من ابناء الاسلام .. ترى كم هم الذين وعوا هذه الحقيقة من أبناء الشام .

وكم هم الذين فكروا يومها لو ان البعث الاسلامي قام حقا . . وأمكن ان تخاطب هؤلاء باسم الدين .. أ كانت تفتح دمشق .. بل أ كانت تضرب في ١٩٤٥ .. بالمراكشيين .. أم ترانا نغفل الاسلام .. ثم نستدل على عدم جـــدواه بسلبية المسلمين ؟!.

وبعد أن طرد فيصل من سوريا ، وتمت التسويات النهائية بين انجلترا وفرنسا فوافقت فرنسا على انفراد بريطانيا بفلسطين ، لتعدها وطناً قومياً لليهود ، ثم تنازلت عن الموصل وبترولها إلى انجلترا مقابل حصة في الشركة هي ٧٥ ر ٢٣ ٪ ومقابل أن تكف بريطانيا عن اثارة المتاعب في سوريا ولبنان ، وتتعهد بتهدئة ضمير السيد لورنس ..

وأعطي عرش العراق لفيصل .. بفضل كفاح الشعب العربي هناك ولضرب هذا الكفاح وتعطيله .. ومنح عبد الله شرق الأردن بعد أن تعهد بضبط اعصابه والكف عن تحرير سوريا .. أما « قائد الثورة » الشيخ العجوز فقد رفض التسليم بانتهاء دور الليمونة ، بل راح يسمي نفسه خليفة المسلمين فكان ان سمحت السلطات البريطانية لفيلبي أن يطوي راية لورنس وتنازل الشيخ عن العرش لتنقله بارجة بريطانية إلى منفاه في قبرص وتكون آخر رسائله خطابا إلى عصبة الأمم يطلب فيها التدخل لحمايته من عدوان الوهابيين الملاحدة !

وتلقى الرسالة في سلة المهملات ، وقبل وفاته بأيام يعود إلى عمان ليطوف ليلاً في القصر وهو يصيح ملخصاً عبرة الحركة التي سلمت آسيا العربية للاحتلال وأقامت وطناً لليهود في بقعة غالية من أرضنا ..

وحتى نقفل « حساب » الثورة العربية الكبرى « نثبت هنا كشفا بما تكلفته السلطات البريطانية في الانفاق عليها ..

في كتاب المعتمد البريطاني الى الحسين بتاريخ مارس ١٩١٧ وردت هذه المرتبات :

٤٠ الف جنيه للامير فيصل .
٣٠ الف جنيه للامير عبد الله .
٢٠ الف جنيه للأمير علي ومثلها للأمير زيد .
١٥ الف جنيه لحكومة مكة .

ثم منح كل من الأمير فيصل والأمير عبد الله علاوة عشرة الاف جنيه « أي أن مجموع المبلغ الشهري المرسل ارتفع الى (١٤٥) الفا ووصل بعد ذلك الى ٢٠٠ الف جنيه ، وهذا أقصى ما وصل اليه » .

« وفي كتاب آخر من المعتمد البريطاني بتاريخ مايو سنة ١٩٢٠ للملك حسين ، ان مجموع المبلغ الذي وصل اليه من الخزانة البريطانية ، ما بين ابريل سنة ١٩١٨ لغاية مارس سنة ١٩١٩ هو : ٠٠٠ ر ٢٫٤٧٥ جنيه باعتبار ٢٠٠ الف جنيه عن كل شهر ، مع اضافة ٢٥ الف جنيه علاوة على كل من ابريل ومايو ويونيه ..

« وهذا بيان عن المؤن والاغذية التي ارسلت في شهر سبتمبر ١٩١٨ نثبته كنموذج لما كان يرسلونه شهرياً : الف كيس دقيق ومثله من الارز ٦٠ كيس قهوة مع ٣٠ كيس سكر و ٥٠٠ كيس شعير و ١٢٠٠ كيس طحين للامير زيد بالعقبة ومثله من الارز و ٥٠ كيس قهوة و ٥٠ كيس سكر ..

وفي دفاتر « لورنس » انها كلفت الخزينة البريطانية عشرة ملايين من الجنيهات وهو ما يعادل الانفاق اليومي لبريطانيا خلال الحرب ..
أي أن بريطانيا قد حصلت على العراق والأردن وفلسطين بمصروف يوم واحد . !

وبعد ..

فقد طويت بنهاية الحرب العالمية الاولى ، صفحة من تاريخ الاسلام والعرب .. خرجت حكومة تركيا من الاسلام ، وسقطت الدولة العثمانية ، ومزق الوطن العربي بين المستعمرين والصهيونيين .

وتبدد الحلم الكبير الذي راود الرجال الأحرار من جمال الدين الافغاني إلى عزيز المصري .. حلم دولة المشرق الاسلامية العظمى .. الدولة التي تحدث عنها عزيز المصري، دولة شرق وجنوب البحر الأبيض تضم العرب والأتراك ومسلمي اوروبا.

لو تحقق هذا الحلم .. لكان لنا دولة أقوى من الاتحاد السوفيتي،وتنازع امريكا مكانتها .. فلقد كان لنا من تجانسنا ، وموقعنا وثرواتنا وذكاء شعبنا ، وتفوق اسلامنا ، ما يبرر أن نأمل الفوز على الاتحاد السوفيتي الذي بدأ مسيرته بعد الحرب العالمية الأولى ولقد كان من المأمول ان تقوم دولتنا نحن قبل ذلك بسنوات ..

والذين يؤيدون وحدة الشعب الروسي مع شعب اوزبكستان المسلم،ويصابون بالفالج لو همسنا بحق شعب القرم المسلم في تقرير مصيره والانفصال عن روسيا .. هم أيضاً يصابون بالفالج لو حدثناهم عن وحدة كانت محتملة وكنا نرجوها ، بين الشعبين العربي والتركي في ظل حكم ديمقراطي متقدم يصد العدوان الاستعماري وينمي امكانيات الوطن المشترك .

لماذا .. ؟

لماذا تحرم الوحدة على المسلمين وحدهم ؟ .. وهل ثمة تناقض لا يحل بين مصالح الشعبين العربي والتركي من دون شعوب العالم التي تتنادون بوحدتها ؟

على اية حال .. ذلك الحلم النبيل ، اطاحت به عواصف السياسة الاستعمارية بتفوقها الساحق في ذلك الوقت ..

غير اني ارجو أن اكون قد بينت في هذه الدراسة انه ليس بالمدافع وحدها ولا بالاساطيل دمرت الاستعمارية الغربية ، حلمنا وطوت رايتنا ، وعصفت بمستقبلنا بل وما كان بوسعها أن تبلغ منا ما بلغت بغير التسرب لعقولنا وغزوها لأفكارنا .. بترويجها فينا خرافة « القومية العلمانية » .. هذا الطراز من القومية الاوربية الذي تسرب بيننا كالسم ففتك بالأمة ،ودفع الاتراك الى التخلي عن الاسلام والتنكر للعرب فضاعت دولتهم وانحدروا الى دولة من الدرجة العاشرة ..

وغرر بالعرب ، فتخلوا عن اسلامهم ،فسقطوا فريسة لما دبرته مخابرات الاستعمار والصهيونية ..

واليوم وقد بدا أن شعار القومية العنصرية اللااسلامية قد بدأ ينحسر مخلفاً موجة من اليأس والضياع . فإن اعداء امتنا . . اعداء ديننا — يحاولون ان ينفذوا من هذا الفراغ بترويج أفكار معادية للقومية بالزعم بأن عصر القوميات قد انتهى .. وانه لا اسلام ولا عروبة ..

أو يحاول بعضهم — كما قلنا — أن يدعو لاسلامية معادية للعروبة ، اسلامية مجردة « يدعي انها فوق القوميات والحدود » .. تنزعنا من الواقع لتلقي بنا في الأوهام ..

أو دعوة شيوعية تدعى وحدة الجنس البشري وأن التمسك بالعروبة تخلف .. والدعوة للاسلام تعصب !

أوهام يغذيها اليأس الذي نشرته الحركات القومية اللااسلامية بفشلها وعقمها . وما تكبده العرب بفعل مغامراتها ..

غير ان المؤمنين باسلامهم وعروبتهم ، لا يرون مبرراً لليأس ، ولا يكفرون بقوميتهم ودينهم فكما أن الخطر جسيم على من يتغافـــل .. فإن الجزاء عظيم لمن يعمل ..

وهل أعظم وأكبر من أن يهب المرء عمره لكي تقوم وحدة العرب الكبرى وتعود العزة للاسلام ..؟

صفر - ١٣٨٧

القاهرة — مايو — ١٩٦٧

مراجع الكتاب

الفصل	رقم مسلسل	المرجـــع
المقدمة		
	١	توينبي : مختصر دراسة للتاريخ ج ٣
	٢	توينبي : مختصر دراسة للتاريخ ج ٣
	٣	وليم بولك : الولايات المتحدة والعالم العربي : ماسوشت ١٩٦٥
	٤	انطون ناتنج : العرب : لندن ١٩٦٤
	٥	whither Islam تأليف جماعة مـــن المستشرقين باشراف مستشار الخارجية البريطانية هـ. ا جيب والنص من ترجمة الدكتور محمد محمـد حسين في كتابه : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر .
	٦	وجها لوجه مع القومية العربية : جاك بولان
الاول		
	١	انيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى
	٢	وليم بولك
	٣	محمود امين العالم : مقال « هل الماركسية تناهض القومية » مجلة الاداب . بيروت . .
	٤	طريق الاستقلال : خالد بكداش
	٥	لينين : حركة التحرير الوطني في المشرق

الفصل	رقم مسلسل	المرجـــع
	٦	الياس مرقص : نقد الفكر القومي . دار الطليعة ـ بيروت
	٧	الحصري : ما هي القومية
	٩	الياس مرقص
	١٠	ما هي القومية
	١١	ما هي القومية
	١٢	انيس صايغ : تطور المفهوم القومي عند العرب
	١٣	ما هي القومية
	١٤	مجلة حوار عدد / ٦
	١٥	د. عبد العزيز الـدوري : الجـذور التاريخيـة للقومية العربية
	١٦	د. عبـد العزيز ألـدوري : الجـذور التاريخيـة القومية العربية
	١٧	العروة الوثقى
	١٨	الياس مرقص
	١٩	الياس مرقص
	٢٠	مدثر عبد الرحيم : مقال الاسلام والقومية فـي الشرق الاوسط
	٢١	الاهرام : ٢٤ ـ ٢ ـ ١٩٢٠ ، ٦ ـ ٣ ـ ١٩٢٠ ـ نقلا عن يوميات الامام محمد شاكر بقلـم الشيـخ علي شاكر
	٢٢	مدثر عبد الرحيم
	٢٣	احمد الشرباصي : شكيب ارسلان
	٢٤	توينبي ج ٣
	٢٥	الياس مرقص
	٢٦	ادوار عطيه : العرب
	٢٧	ادوار عطيه : العرب
	٢٨	نقد الفكر القومي
	٢٩	تطور المفهوم القومي عند العرب
	٣٠	العـــرب
	٣١	نقد الفكر القومي

الفصل	رقم مسلسل	المرجـــع
	٣٢	العــرب
	٣٣	العــرب
	٣٤	تطور المفهوم القومي عند العرب
	٣٥	تطور المفهوم القومي عند العرب
	٣٦	الجذور التاريخية للقومية العربية
	٣٧	طه حسين : الايام
	٣٨	ادوار عطيه
	٣٩	تطور المفهوم القومي عند العرب
	٤٠	تطور المفهوم القومي عند العرب
	٤١	نقد الفكر القومي
	٤٢	ادوار عطيه
	٤٣	نقد الفكر القومي
	٤٤	نقد الفكر القومي
الثانـي		
	٤٦	ادوار عطيه
	٤٧	د. عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
	٤٨	د. عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
	٤٩	د. عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
	٥٠	د. عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
	٥١	د. سيجريد هونكه : شمس الله على الغرب : ترجمة د. فؤاد حسنين علي
	٥٢	د. سيجريد هونكه : شمس الله على الغرب : ترجمة د. فؤاد حسنين علي
	٥٣	د. سيجريد هونكه : شمس الله على الغرب : ترجمة د. فؤاد حسنين علي

الفصل	رقم مسلسل	المرجـــع
	٥٤	د. سيجريد هونكه : شمس اللـه علـى الغرب : ترجمة د. فؤاد حسنين علي
	١٣/١٢/١١	د. سيجريد هونكه : شمس اللـه علـى الغرب : ترجمة د. فؤاد حسنين علي
	٥٥	د. عبد الرحمن بدوي
	٥٦	د. سيجريد هونكه
	٥٧	د. عبد الرحمن بدوي
	٥٨	د. سيجريد هونكة
	٦٠	ادوار عطيه
	٦١	ادوار عطيه
	٦٢	ابن اياس :بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤
	٦٣	ابن اياس
	٦٤	ابن اياس
	٦٥	د. سيجريد هونكه
	٦٦	الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية
	٦٧	ابن اياس
	٦٨	محمد جميل بيهم : فلسفة الحكم العثماني
	٦٩	محمد جميل بيهم : فلسفة الحكم العثماني
	٧٠	الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر د. م. م. حسين
الثالث		
	٧١	محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية
	٧٢	هانزكوهن : عصر القومية
	٧٣	جنرال كيللر : العرب والاستعمار
	٧٤	عصر القومية
	٧٥	توينبي ج ٣
	٧٦	العقاد : الرحالة كاف
	٧٧	الاتجاهات الوطنية عن عبد الحميد ظل الله علـى الارض
	٧٨	الرحالة كاف